كلام محمّد رؤى محمّد

عبدالكريم سروش

ترجمة أحمد الكنانى



كلامُ محمد .. رُؤى محمد

تأليف
عبد الكريم سروش

ترجمة
أحمد الكناني

الطبعة الأولى: 2021

ISBN 978-9922-9621-0-8

تصميم الغلاف: كارل بتشفارش

للنشر والتوزيع /ألمانيا - ميونخ

ألمانيا : 004915771203247
بغداد : 009647811898461
Email: Abkallu91@gmail.com

عبد الكريم سروش

كلامُ محمد .. رُؤى محمد

ترجمة
أحمد الكناني

أبكالو 2021

المحتوى

تقديم

يأتي كتاب "كلام محمد.. رؤيا محمد " ضمن تسلسل منطقي لما ابتدأه سروش في بسط التجربة النبوية ومن قبلها في القبض والبسط في الشريعة، فالمنهج الذي رسم معالمه في القبض والبسط وارسى دعائمه في مجال التفرقة بين الدين والمعرفة الدينية، أوصلهُ إلى البحث في الكلام الإلهي الذي هو نتاج التجربة الروحية الرائدة للنبي، والتي انعكست في الكتاب الإلهي بكل ما تحويه تلك التجربة البشرية المحددة بحدود جغرافيا وثقافة الجزيرة العربية، وللنبي الدور الأكبر في صياغة الوحي وإشراك الناس في خلاصة تجربته الاشراقية، ولم يكن مجرد ميكرفون يعكس صدى كلمات الملاك يقرّها في اذنه ويدعوه إلى القاءها على مستمعيه بذات الالفاظ والصيغ الكلامية العربية.

ابتدأت التجربة سهلة يسيرة ثم أصبحت تجربة ثرية بمرور الأيام، وأصبح النبي أكثر نبوة من ذي قبل، وهذه المقدمات تكفّل ببيانها كتابه " بسط التجربة النبوية ".

لكن بعض تلك المقدمات التي بسط سروش الكلام فيها ضمن التجربة النبوية لم تعد كافية لإيضاح طريقة وصول الوحي إلى الناس، تلك المقدمات التي أوصلته إلى القول بأن كلام الله هو ذات كلام محمد ؛ إذ لازالت هناك إشكالية كلامية عويصة تحوم حول المبدأ والمعاد بل الكلام الإلهي برمته، وهناك علامات استفهام كبيرة ذهب الكلاميون والمفسرون فيها مذاهب شتى دون جدوى، فهل ان الله يتكلم لتقع المعركة الكبرى حول كلامه وانه قديم أو حادث، وهل ان النبي في رحلته إلى ما وراء التأريخ كانت بجسم طار في الآفاق أو بروح عرجت إلى الملكوت، والخلط ما بين الطبيعة وما وراء الطبيعة هو السبب الذي جعل الشهب المادية تحرق الشياطين غير المادية، وتجعل من عرش الرب على الماء، ويحمل العرش يومئذ ثمانية من الملائكة، وما إلى ذلك...

إذن لابد من طريقة للفصل بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، ولابد من لغة دينية تجعل من الميتافيزيقيا العالية اقل وطأة على الاذهان في بيان الآيات من تلك الطريقة التي اعتادها المفسرون.

نزول الآيات الأولى بإقرأ باسم ربك في غار حراء على النبي وهو مستغرق ما بين اليقظة والنوم، وعروجه الطويل إلى الملكوت متنقلاً بين السماوات السبع وهو لم يبرح فراشه بشهادة زوجه عائشة، وشهادة الصحابة له وهو في حالة من اللاوعي ليقرأ عليهم بعض ما اوحي إليه بعد اليقظة، ورؤيته للأعداء في المنام وهم قلّة قليلة ليتحقق النصر عليهم على ارض الواقع وهم الكثرة المتكثرة ... تلك مؤيدات وشواهد على ان لغة القرآن لغة رؤيا وليست لغة يقظة.

وبها ستحلّ إشكالية الكلام الإلهي من أساسها، وحالة التشويش في النظم القرآني الذي يفتقر إلى وحدة الموضوع في السورة بل في الآية، وسورة المائدة خير دليل على ذلك، وإشكاليات أخر ترتبط بعموم النص القرآني الذي يواجه نوعين من القراءة، قراءة يشوبها الغيب وأخرى تعلوها الشهادة، فالكلام عن غير المرئيات كالملائكة والقيامة والعرش يصبح البيان القرآني تصوير فني، اما الكلام عن المرئيات والأوامر والنواهي فيلاحظ في البيان عالم من الواقعية واليقظة، وكأن العين التي غشيَها النوم قد صحت وحلّت اليقظة محلها، بل ان اللغة الحاكمة على النص في العموم هي لغة رؤى.

وهنا ينتقل سروش إلى مرحلة جديدة في رحلته مع الوحي والتي دامت أكثر من خمسة وعشرين عاماً...

ابتدأ في بيان نظرية الرؤيا من خلال مجموعة مقالات أسماها " محمد راوي الرؤى النبوية " حاول من خلالها اثبات ان النص القرآني هو اقرب إلى لغة الرؤى والأحلام منه إلى لغة اليقظة، والنبي راوٍ لمشاهد ومناظر كان قد رآها حقيقة في الرؤيا، ومشاهد القيامة مثلاً كان قد رآها بالفعل ونقلها الينا ليشاركنا تجربته القدسية الفريدة، وهي من سنخ التجارب التي يمرّ بها العرفاء والمتصوفة لكنها أكثر عمقاً، إذ النبي لشدة قربه من الله صار الهياً فيما يقوله ويفعله.

تلك المقالات لم يصدرها سروش في كتاب مستقل وإنما هي خمس مقالات مكثفة استوعبت الفكرة كاملة، ثم عززها بسادس للرد على النقاط العشر المثارة على النظرية من قبل منتقديه.

كنت متابعاً للمقالات كعادتي ملاحقاً لسروش في كل ما يقوله ويكتبه، منذ نشره للحلقة الأولى من تلك المقالات في الموقع الالكتروني "جرس"، والتي لم تثر السخط الذي كنت اتوقعه في البدء في الأوساط الإيرانية لغرابة النقاط المثارة في تلك المقالات سوى من الدكتور عبد العلي بازرگان وهو ابن المهندس مهدي بازرگان رئيس الحكومة المؤقتة التي شكّلها السيد الخميني عقب الإطاحة بنظام الشاه والتي حُلّت فيما بعد أثر استقالة بازرگان ثناء احداث احتلال السفارة الامريكية من قبل ما اسموهم بالطلبة السائرين على نهج الامام.

عبد العلي بزرگان المتخصص في علوم القرآن جمعته جلسة حوارية متلفزة مع عبد الكريم سروش بثتها قناة ال " بي بي سي " القسم الفارسي، تحدّث فيها عن اعتراضاته على نظرية الرؤيا، ثم نشرَها فيما بعد بطريقة مسيئة نوعاً ما لأجوبة سروش على اعتراضاته، ويظهرها كإجابات ضعيفة وغير مقنعة، الأمر الذي دعاه لكتابة رد متين على اعتراضات بازركان ونشرها في كتاب "كتاب مُحَمَّد ... رؤيا مُحَمَّد "، وهو الكتاب الذي بين ايديكم بترجمته العربية.

وبعد مناقشات طويلة مع بعض الأصدقاء من ذوي الخبرة في مجال المعرفة الدينية بما جاء في تلك المقالات، اقترحوا علي ترجمته إلى العربية ليكون في متناول ايدي القراء العرب بفكرة جديدة لم يسبق لاحد ان تفوّه بها، لكني تريثت لحين صدورها في كتاب مستقل من قبل سروش، والظاهر ان المؤلف أكثر تريثاً في انتظار ردود الأفعال لتنضج الفكرة أكثر فأكثر، ولم يصدرها بكتاب مستقل وبقيت كما هي ستة مقالات لا أكثر.

من خلال مراجعاتي لبقية المفكرين الإيرانيين كمصطفى ملكيان ومجتهد شبستري ممن كتب في مجال اللغة الدينية والوحي على الخصوص، وجدت الشبستري قد كتب في مجال الهرمونيطيقا والعلاقة بين المتلقي والنص، وتوصل إلى نتيجة مفادها استحالة أن

يكون الكلام المنسوب إلى الله هو نفسه الذي يسمى كلاماً في عالم الإنسان وبذات الصيغ والدلالات، والكلام بهذا المعنى يُعد ظاهرة بشرية لا يتحقق لها وجود الا في عالم الذهن، وطريقة حياة الناس، ولا يعقل حصوله خارج عالم الانسان..

وعليه فافتراض ان نبي الإسلام قد حصل على نص القرآن بجميع ألفاظه وعباراته ومعانيه، هذا الافتراض غير معقول عند مجتهد شبستري.

واستدل على كلامه بمجموعة من القرائن والشواهد اثبتها بشيء من التفصيل في كتابه " قراءة بشرية للدين".

بهذه النتيجة يكون سروش والشبستري يسيران في اتجاه واحد مع اختلاف في المنهج والمقدمات لكل منهما.

الشبستري اتخذ منهج الهرمونيطيقا وطبقه بذكاء مفرط على النص الديني، وادعى أن مقدماته أكثر سلاسة من مقدمات سروش في نظريته للرؤيا التي وصفها بأنها "ليست ابداعاً وفيها طنين اسبينوزي " نسبة إلى سبينوزا الذي كانت آراءه في مجال الوحي النبوي محطاً لنظر سروش على مستوى الاستئناس بأفكاره وليس تابعاً لها.

هذا الأمر شجعني على ترجمة المقالات الستة، بالإضافة إلى آراء الشبستري في الموضوع ذاته والتي ضمّنها في كتابه " قراءة بشرية للدين " الذي ترجمه السيد أحمد القبانجي، وقراءتين مختلفتين أخريين للنص القرآني لعابد الجابري ومحمد اركون، فخرج الكتاب يحمل ذات العنوان " الأحلام النبوية " سنة ٢٠١٨ بالتعاون مع الاخوة في دار أمل الجديدة بدمشق.

إلى أن أعلن عن صدور الكتاب من قبل " مدرسة مولانا " المهتمين بنشر آثار الدكتور سروش، وقد شاركوني مشكورين نسختي من كتاب "كلام محمد... رؤى محمد " فوجدت بين دفتي الكتاب المقالات الستة مع الرسائل المتبادلة بين سروش والشيخ جعفر سبحاني، بالإضافة إلى الاعتراضات الواردة على النظرية وردود سروش عليها، وكانت بالإضافة إلى اعتراضات عبد العلي بازرگان هناك اعتراضات لحسين واله ومحسن كديور وحسن الانصاري، والتي اضفت على النظرية شيئاً زادها وضوحاً، وجعلت

سروش يتعمق أكثر في بيان منهجيته التي اختطها في كتابه، ويرفع الغموض عن بعض المبهمات التي تكتنف النظرية، لكن لُب النظرية هي تلك المقالات الستة التي نشرها سروش في موقع جرس وقد ترجمتها والحقتها في كتابي " الأحلام النبوية " وما عدا ذلك هو توضيح للنظرية والرد على الاعتراضات الواردة وهي مهمة أيضاً بطبيعة الحال.

وكان إصرار الأستاذ الصديق محمد رسول المشرف على دار أبكالو على ترجمة الكتاب امر لا يمكن التمنّع عنه سيما ان قسطاً وافراً من الكتاب قد تمت ترجمته بالفعل، ولم يبق سوى إعادة النظر في ترجمة المقالات الستة وترجمة الاعتراضات وهي كثيرة وقد اخذت ثلاثة ارباع الكتاب.

لكن واجهتني مشكلة الاستشهادات الكثيرة لأبيات مولانا جلال الدين الرومي العميقة المغزى والتي ينبغي إظهار معانيها المتعالية بلغة بلاغية تقترب من لغتها الأصلية وهذا العمل بحق صعب عسير.

لكن عليّ إتمام المهمة وإخراج الكتاب بأسلوب هو الأقرب إلى لغة سروش وأفكاره.

أستطيع أن أدعي الاقتراب الفكري الكبير من الدكتور سروش والإدراك التام لأفكاره مذ بدأ يكتب حول الذاتي والعرضي في الأديان، وسلسلة مقالاته التي أججت معركة فكرية حامية الوطيس بينه وبين اقطاب الحوزة العلمية في قم المتمثلة بناصر مكارم الشيرازي وجعفر سبحاني في تصعيد خطير ورسائل متبادلة ولغة ابتعدت كثيراً عن الأجواء الثقافية حينما وصف مكارم الشيرازي سروش بالمادي المتكبّر ليرد عليه سروش أن المتكبّر من يسمى اسمه بأية الله في الارضين ويتخذه لقباً يضعه على كتبه.

ومن جهة أخرى أكثر هدوءاً وعلمية مع الشيخ حسين علي منتظري وامثاله من الزعامات الدينية المعتدلة.

وكنت يومها طالباً في الحوزة العلمية في قم أتابع الأحداث من مدرسة الإمام الخوئي محل سكني ودراستي وتدريسي.

سروش الذي كنت أشاهده من خلال شاشة التلفزيون مناظراً عنيداً لإحسان طبري ورموز الماركسية في ايران، اشاهده اليوم يدخل معركة غير متكافئة مع رجال الدين وهيمنتهم على مفاصل الدين والدنيا، و كأنهم ادركوا الخطر الذي سيجلبه سروش لهم بأنهم ليسوا أهلاً لقيمومة الدين فضلاً عن قيموميتهم لدنيا الناس، ولو قُدر لأفكار سروش أن تشق طريقها في المجتمع الإيراني لشهدنا حالة من العلمانية الناضجة تثبت اوتادها في النظام الإيراني، كما تنبه لذلك الدكتور فالح عبد الجبار في سياق حديثه عن كتاب القبض والبسط في الشريعة أثناء مراسم تكريم سروش في المانيا وفوز كتابه القبض بكتاب العام.

لابد من الوقوف هنا بين مرحلتين مفصليتين في حياة عبد الكريم سروش العلمية والعملية منذ قدومه من لندن إلى ايران بعد انتصار الثورة الإسلامية حيث كان من الطلاب الإيرانيين المبتعثين إلى أوربا والمناصرين لتوجهات السيد الخميني والقريب أيضاً من الحس الثوري للدكتور علي شريعتي، وصادف رجوعه إلى طهران قيام السيد الخميني بما اسماه بالثورة الثقافية واسلمة الجامعات والتي طالت العديد من الكوادر التدريسية بحجة موالاتهم للنظام الملكي السابق وشخص الشاه، ولا يخفى دور سروش في هذه الثورة الثقافية حيث كان عضواً بارزاً فيها، وظهر من على شاشات التلفزيون بمعية محمد تقي مصباح زادة في مناظرة مع قادة الأحزاب اليسارية المشاركة في السلطة وكان ابرزهم احسان طبري عن حزب تودة.

هذا الأمر جعل بعض الموالين للماركسية واتباع الخط الليبرالي والمتضررين من تلك الثورة الثقافية من كوادر تدريسية وحتى من الطلاب الذين أغلقت أبواب الجامعات في وجوههم أثر هذه الثورة الثقافية سيئة الصيت، ان يتخذوا موقفا معادياً أو معاتباً لسروش ومازال... وقد تبرز بين الفينة والآخر على شكل اعتراضات نشاهدها خلال جلسات سروش الثقافية التي يعقدها في هولندا وبرلين رغم مرور السنين، تظهر مرارة تلك الأيام وانعكاساتها على مستقبل تلك الفئات.

وللإنصاف لابد من التفرقة بين الثورة الثقافية وأسلمة الجامعات التي قام بها رجال السيد الخميني من الراديكاليين، وبين المقر العام لتلك الثورة والتي تضم مجموعة من الأكاديميين أحدهم سروش، الذين أخذوا على عاتقهم فتح الجامعات التي أغلقت بأوامر من متشددي الثورة الثقافية.

استمر سروش يمارس دوره كعضو في الهيئة التدريسية لجامعة طهران وقزوين لاحقاً، ويلقي محاضراته في شرح خطب نهج البلاغة ضمن المناخ الحاكم آنذاك دون الخروج عنه، فهو خريج ثانوية العلوي التي كان يدرّس فيها الشيخ مرتضى المطهري، وهو المقرّب اليوم من صانعي القرار.

ثم بدأ سروش يظهر على التلفزيون يشرح المثنوي لمولانا جلال الدين الرومي، لكن سرعان ما أوقفوا بث تلك الحلقات دون بيان المبررات، والمتسالم عليه أن الأسباب لم تكن سياسية وإنما هي طائفية تخص المولوي نفسه باعتباره سني اشعري، وهذا الشيء لا يعجب رجال الدين فتدخلوا عند السيد الخميني وضغطوا عليه لإيقاف البرنامج.

لكن يبدو أن سروش متأثراً جدا بالمولوي وتجربته الروحية وأفكاره العرفانية التي بدأت تظهر من خلال ما يطرحه من أفكار تخص الإمامة والخلافة والنبوة، وهنا بدأت الهوة تتسع بين سروش ورجال الدين الذين وقفوا بالضد من توجهات سروش الفكرية...

لكن الاتجاه الفكري لسروش أخذ شكلاً تصاعدياً تكلل في مجموعة مقالاته في القبض والبسط في الشريعة التي جعلت من سروش طرفاً في قبال الحوزة العلمية في قم برموزها البارزين منتظري ومكارم شيرازي وسبحاني.

كنت في جامعة طهران في تلك الأيام وشاهدت الطلاب في باحة الجامعة والأستاذ يلقي درسه في الهواء الطلق، تبيّن لاحقاً ان الدكتور سروش مُنع من الدخول إلى قاعة الدرس من قبل الطلاب " الحزب اللاهية " وهو لفظ يطلق على الطلبة الراديكاليين المتشددين، واصرّ على ألقاء محاضرته خارج القاعة.

وتكرر هذا المنظر في قم وكنت شاهدا عليه أيضاً حينما تجمع الحزب اللاهيين والبسيج وانصار حزب الله لمنع سروش من القاء محاضرة عامة دعيّ إليها، ولم يكتفوا

بالمنع وإنما توجهوا إلى البيت الذي يقيم فيه للاعتداء عليه، وحصلت مشادة داخل البيت تمكن سروس من النجاة بروحه.

وهؤلاء الناس انفسهم استباحوا فيما بعد حسينية الشهداء القريبة من بيت المنتظري التي كان الشيخ يلقي دروسه فيها.

رأيتهم ذات مرة... بعد الرسالة المتشنجة التي بعثها السيد الخميني للشيخ المنتظري والتي يطالبه بها تطهير بيته من أعداء الثورة والتي فُهم منها تنحيته من منصبه كنائب للولي الفقيه، وإثر بث التلفزيون للرسالة خرجت الجموع قرب بيت المنتظري في قم يرددون هتافات حماسية " الموت لأعداء ولاية الفقيه ".

شاهدتُ احدهم يقف امام الجموع الحاشدة قرب بيت المنتظري ليلقي بياناً ذكرني في البيان رقم واحد الذي يبث من خلال الإذاعة اعلاناً للثورة، وبلغة حماسية الهب الجماهير الذين بدأوا يرددون معه شعارات ثورية معادية للمنتظري، وكأنهم يقوموا بمهام القوات النظامية لكن بزي مدني وكونهم طلبة يدرسون في الحوزة العلمية. فدخلوا حسينية الشهداء وهشموا كل ما فيها في منظر رهيب ومروّع.

بالعودة إلى نشاط سروش الثقافي وبتعاقب الأصوليين على رئاسة الحكومة والبرلمان والتي كانت تلقي بظلالها على نشاط سروش الفكري، بدأ الخناق يضيق على سروش لدرجة انه بدأ بإرسال الرسائل للمسؤولين يدعوهم إلى توفير الأمن له وإنقاذ حياته التي باتت مهددة بالخطر، الا انهم نصحوه بترك ايران ان استمر على ذاك النهج.

وبدعوة من جامعة بريستون وهاوارد في الولايات المتحدة وجد سروش ضالته للخروج من ايران وممارسة ما قد حُرمَ منه في بلده الام، وكان له ما أراد ...

لم تغيب الاحداث المريرة للشعب الإيراني عن سروش، خلال ثورته الخضراء التي اندلعت أثر تزوير الانتخابات والابقاء على احمدي نجاة لدورة ثانية ضد منافسه مير حسين الموسوي، فأرسل الرسائل للقادة الإيرانيين محذراً إياهم من اضطهاد الشعب وسلب حرياته.

سروش والمولوي

رافق الرومي سروشاً مذ كان شابا يافعا في ثانوية العلوي متأثراً بأستاذه الذي كان يحفظ شعر المولوي كله ويستشهد به في كل مناسبة فزرع حب المثنوي وغزليات شمس في ضمير سروش واقرانه من التلاميذ.

عند عودة سروش إلى طهران بعد ان انهى دراسته العليا في الكيمياء وفلسفة العلوم، شرع في تدريس الكتاب الأول والثاني من مثنوي جلال الدين في كلية الإلهيات جامعة طهران.

ولم يكتف باللغة التخصصية لشرح المثنوي في كلية الإلهيات وإنما شرع التلفزيون الإيراني في بث دروس شرح المثنوي لسروش على الملأ العام مما اثار حفيظة رجال الدين وأوقفوا بثها في القصة التي اتيت على ذكرها.

عاد سروش لشرح المثنوي على طلابه عند خروجه إلى الولايات المتحدة، ولازالت دروسه قائمة إلى يومنا هذا.

لا يخفى التأثير البالغ لجلال الدين الرومي على سروش ليس على الصعيد الفكري فحسب وإنما على الصعيد العملي، فالتجربة العرفانية للمولوي قد تركت اثرها على سروش وجعلت منه عارفاً زاهداً متديناً ينظر إلى الدين كتجربة روحية اشراقية موصلة، بالإضافة إلى الالهام الفكري والمتبنيات العقائدية أيضاً.

سروش يتبنى فكرة ان النبي سهيم في انتاج الوحي، وليست أداة موصلة للرسالة، وعلاقته برب العالمين ليست من قبيل السلطان والرسول، والملهم لسروش في هذه الفكرة الناي الذي يتغنى به المولوي ولا يعتبره آلة تعكس لحن النافخ به، وإنما شجن العازف ينتجه الناي بصوت حزين، ولولا الناي لم يكن شجن العازف يصدر بهذا الجمال.

في أول بيت من ديوانه المثنوي يقول الرومي: استَمِعْ إلى الناي، ولم يقل استمع اليَّ، وإنما نسب الشجن والشكاية إلى الناي:

استمع للناي يأخذ في الشكاية ومن الم الفراق يمضي في الحكاية
ابتغي صدرا يمزقه الفراق كي ابث شرح آلام الاشتياق
نائحاً صرت على كل الشهود وقرينا للشقي والسعيد

وحينما يقول المولوي ان القرآن يتحدث عن أحوال الأنبياء يلهم سروش فكرة ان القرآن تجربة النبي الروحية ليخرج لنا بكتاب فريد في موضوعه اسمه " بسط التجربة النبوية "

وحينما يوصف المولوي ديوانه المثنوي " قرآن بلغة فارسية " يستلهم سروش أوجه التشابه بين المثنوي والقرآن، ومنها اختلال النظم في كليهما إذ لا توجد وحدة موضوع في المثنوي والقرآن أيضاً، فالسبب في الانتقالات الفوضوية من موضوع إلى آخر دون وجود أي مناسبة بينهما في المثنوي والقرآن هو لغة خيال ورؤى، هذا الشبه هو الذي ألهم سروش لقراءة القرآن بلغة هي اقرب إلى الرؤى والأحلام من لغة اليقظة ليخرج سفراً مثنوياً " اسمه كلام مُحَمَّد.. رؤى مُحَمَّد "، وهو الكتاب الذي بين يديك.

خطواتي في الترجمة

الغريب أن سروش اعتمد اللغة الخطابية في الكتاب فيوجز في جانب ويطنب في جانب آخر مستعملاً الجُمل الاعتراضية الطويلة والتي تخلّ أحيانا بالمعنى، وجاء المتن كأنه قطعة واحدة متداخلة المواضيع، وبين تلك المواضيع المتداخلة مباحث على درجة كبيرة من الأهمية، مما اضطرني إلى اعمال بعض أدوات مناهج التحقيق ليأتي النص متناسقاً مبوباً تبرز فيه المواضيع المهمة للقارئ على شكل عناوين منفصلة.

كما أنه ينقل ويستشهد بالأقوال وينقلها بالمعنى دون النص، ولم يعتمد على اقتباس النصوص من مصادرها، وهذا يتطلب المراجعة للمصادر الاصلية للتأكد من دقة الاستشهاد، هذا الأمر لاحظته عند المعترضين حينما يشككون في نقل الأقوال، كما حدث مع الشيخ جعفر سبحاني حين تشكيكه في صحة ما نقله سروش عن السيد الخميني حول جبرئيل وموقف العرفاء منه.

وبالإجمال سألخص الخطوات التي اتبعتها في هذه الترجمة على النحو التالي:

- الجمل الاعتراضية الطويلة والمخلّة بالمعنى وغير المألوفة للقارئ العربي اخرجتها إلى الهامش، مع الإشارة إلى انها من متن المؤلف.
- تقطيع المتن بعناوين مستقاة من الموضوع لإظهار المطالب للقارئ بشكل جلي، وحصرها بين معقوفتين للإيضاح انها ليست من المتن.
- تخريج الاقوال والاستشهادات في الهامش، ونقل النص بالكامل لإظهار دقة المؤلف في الاستشهاد أو بيان وجه الاختلاف بين ما نقله المؤلف بالمعنى وبين النص.
- استخراج المصادر التي اعتمد عليها المؤلف، أو دعمها بمصادر إضافية في حال أشار اليها المؤلف في الهامش مع التنبيه بأن الهامش الفلاني للمؤلف.
- ضبط النص فيما يخص الأعلام المذكورة في المتن، إذ التلفظ الفارسي يختلف عن التلفظ العربي للإعلام، مع الإشارة إلى الاسم الإنجليزي لمن أراد المزيد، مع تاريخ ولادتهم ووفياتهم.
- توضيح الاصطلاحات الفلسفية بتعريف موجز، وكذلك الالفاظ الغريبة.

وأشياء أخر سيقف عليها القارئ.

مقدمة المؤلف

شوطًا طويلاً قطعته منذ خمسة وعشرين عاماً وإلى اليوم...

كان التصور في البدء ان كلام الله هو ذاته كلام محمد ﷺ، وبعد كثرة تأمل في كلام محمد في القرآن والحديث تجلّى لي ان الخطاب القرآني تشكّل على مسارين:

- حوار
- ورؤيا

أوامر القرآن ليست على مرتبة واحدة بمعنى انها صادرة من الأعلى إلى الأدنى، وإنما هي حوارات بين النبي ومعاصريه، مؤمنين وملحدين، أهل كتاب أو اميين.. حوارات هي من صميم المجتمع وتصوراته القبلية القديمة، وبلغة عربية نابعة من عمق التاريخ والثقافة العربية ذات قدرة واستيعاب خاص ومحدود

و كذلك هي رؤى سمعية وبصرية استعراضية...

ولذا التعبير بوصفها رؤيا محمد أكثر انسجاماً من كونها كلام محمد أو كلام الله، وبما انها رؤى وتصورات خيالية فهي بحاجة إلى تعبير وتأويل.

ينبغي قراءة النص القرآني على انه كلام محمد وصادر عن لسانه حقاً ونتاج عقله ومخيلته، وقراءة القرآن بهذه الطريقة تعطي معنىً جديدا سيقلب الكثير من المجازات إلى حقائق ويغيّر الكثير من المبهمات والشبهات، من دون الحاجة إلى زيادة تكلّف وتأويل، اقلّها شبهة الجبر والاختيار.

معرفة الرؤى القرآنية ستوفر على قدماء المفسرين محاولاتهم في باب التأويل الذي فتحوه بجهد واجتهاد غير موفقيَن لحل المعضلات التفسيرية، وتوضّح انهم بقوا في منتصف طرق التفسير رغم ادراكهم الكافي لذلك.

بسط التجربة النبوية كانت تسلسل منطقي للقبض والبسط النظري للشريعة، وحالياً كلام محمّد رؤيا محمّد هو استمرار منطقي لكليهما، وللتوضيح اقول: ان أهم فرضية ممكن من خلالها فهم وادراك كلام محمّد هي فرضية الرؤى.

علاقة الرسول بالقرآن ونسبته إليه علاقة حضور الهي فعال ومن وراء حجاب، أما بالنسبة الينا فهي علاقة نشعر بوجود الرسول فيها أولاً، وثانيا هناك أنشطة أخرى نشاهدها من دون حجب وموانع، وهذا الشي لا يمكن ادراكه الا على القول بأن القرآن من تأليف مباشر من النبي وبصيغة الالتفات الطاغية على الخطاب.

هذه الملاحظات المركزة والمخفية نوعاً ما سنوضحها في هذا الكتاب وليجد القارئ بعون الله فهماً صحيحاً وواضحاً لمعاني القرآن الكريم، وكل ميّسر لما خلق له، والله ولي التوفيق

عبد الكريم سروش

تموز 2018

كلام محمد ﷺ

حوار حول القرآن مع عبد الكريم سروش

ميشيل هوبنك[1]

محمد مُنشِئ القرآن، هذه هي مقولة المصلح الإيراني المشهور عبد الكريم سروش أوردها في كتابه بسط التجربة النبوية، والذي من المقرر أن تصدر ترجمته في العام القادم[2].

تعتبر آراء سروش بحسب رؤية المتشددين المسلمين سابقة من بين الإصلاحيين، وقد بيّن سروش في مقابلته مع " صحيفة زمزم " خلاصة لآراءه.

يعتبر عبد الكريم سروش زعيم تيار المفكرين الإصلاحيين، في البدء كان مدافعًا عن اية الله الخميني، وفي الصف الأول ضمن تشكيلات الجمهورية الإسلامية، واعتلى عدة مناصب رسمية منها مستشار اية الله الخميني في الإصلاحات الثقافية والتربوية، لكن بعد اتضاح ان تلك الثورة الثقافية وراءها حاكم مستبد اعتزل تلك المناصب محبطاً.

في العقد الأول من التسعينيات كان في زمرة المفكرين الجمهوريين، وكان قد بدأ ابحاثاً عن مفاهيم الديمقراطية الإسلامية، لكنه وبالتدرج صار يبتعد عن نظرية الحكومة الإسلامية.

المطالب الأصلية للدكتور سروش واضحة تتلخص بأن المعرفة البشرية والفهم الإنساني للدين هي تأريخية ومعّرضة للخطأ، وهو بهذه النظرية يضعف ويقلل من شأن

(1) ميشيل هوبنك إعلامي يعمل في القسم العربي في راديو هولندا الدولي.

(2) بسط التجربة النبوية نُشر من قبل دار بريل للنشر - ليدن عام ٢٠٥٠

الحكومة الدينية في إيران، لأن الفهم البشري للدين ان كان يشوبه الخطأ هذا معناه أن لا أحد باسم الإله بإمكانه ادعاء تطبيق الشريعة حتى رجال الدين الإيرانيين أنفسهم.

سروش في كتابه "بسط التجربة النبوية" كان قد اظهر نظريته بشكل جلي حول خطأ المعرفة الدينية وفي حدود معينة صدقها فيما يخص القرآن.

سروش إلى جانب بعض المفكرين كنصر حامد ابو زيد ومحمد اركون يُعّدون من المدافعين الاشداء عن تأريخية القرآن.

لكنه في كتبه ذهب بعيدا عن زملائه حيث ادعى ان القرآن ليس فقط نتاج مقطع تاريخي خاص أثر في اخراجه بهذا الشكل وإنما هو نتاج ذهن محمد بكل خصوصيات المحدودية البشرية.

يقول سروش: وهذا ليس ابداعاً في الكلام وإنما هي تصورات الكثير من مفكري الاعوام الهجرية الوسطى[1].

كيف يمكن معرفة الوحي في عالمنا اليوم، هذا العالم المعاصر والمنفّتح على الأسرار؟

الوحي هو الالهام، وهو ذات التجربة التي يمتلكها الشعراء والعرفاء، نعم هي بمرتبة اسمى عند الأنبياء، في هذه الايام نحن نفهم الوحي عن طريق الاستعارات الشعرية، وكما قال أحد الفلاسفة المسلمين: أن الوحي هو مرتبة عالية من الشعر.

بالتأكيد للشعر إمكاناته المختلفة عن العلم والفلسفة، فالشاعر له إحساس خاص بأن هناك مصدر خارج عن إرادته يلهمه الشعر، هنا الشعر كالوحي بالضبط بحاجة إلى الاستعداد والقريحة، وممكن للشاعر ان تنفتح له آفاق يستطيع من خلالها ان يرى العالم بمنظر آخر.

(1) قام بترجمة هذه المقابلة من الانجليزية إلى الفارسية آصف نيكنام، ونشرت تحت عنوان "كلام محمد".
منذ وصول محمود أحمدي نجاد إلى دفة الحكم أصبحت فعاليات عبد الكريم سروش في ايران تتأزم يوماً بعد يوم، ولهذا السبب استجاب سروش لدعوة بعض الجامعات الامريكية كهاروارد وبرينستون، وويسنشافت كولج في برلين، وعنل أيضاً في الأعوام الماضية كمدرس ضيف في الجامعة الحرة في أمستردام، ومعهد دراسة الإسلام في العصر الحديث — هولندا (ISIM).

برأيكم: القرآن حصيلة زمانه؛ وهذه المقولة تتضمن الإقرار بأن للنبي دور فعّال في إنتاجه؟

بالنظر للأحاديث النبوية يلاحظ أن الوسيلة الوحيدة لنقل الرسالة هي شخص النبي عن طريق جبرئيل ومن خلاله إلى الناس.

ما أراه: ان للنبي دور محوري في نتاج القرآن.

يمكن الاستفادة من الشعر لتوضيح هذه النقطة:

حال النبي كحال الشاعر يحمل إحساساً أن هناك قوة خارجة عنه تمتلكه - إحساس أسمى وأرقى مما هو عليه حال الشاعر - وشخص النبي هو كل شيء في النص خالقه ومنتجه.

والبحث في الإلهام وأنه داخلي أو يأتيه من الخارج ليس مهماً، فعلى مستوى الوحي لا يختلف كثيراً كونه وحي ذاتي أو خارجي، الهام النبي نابع من ذاته، بالتأكيد النفس الهية عند كل الافراد الا ان النبي ليس كأحد الافراد، وفي الظاهر أصبح مدركاً بإلاهية نفسه وهذا الوضع تحول عنده من القوة إلى الفعل، وبالفعل صارت نفسه متحدة مع الله.

لا يفهم من هذا الكلام الاتحاد المعنوي مع الله وصيرورة النبي اله، هذا الاتحاد محدود بحدود النبي، اتحاد بمقدار بشري لا بمقدار الله.

جلال الدين الرومي الشاعر العارف قد حلّ هذا الظاهر المتناقض بهذه الابيات:

اتحاد النبي مع الله كأنك تسكب البحر في الكوز[1]

النبي هو المنشئ للوحي بطريقة ما، ومضمون الوحي هو ذلك الشيء الذي تلقاه من عند الله، لكن من غير الممكن عرضه للناس بهذا الشكل لتباين مستوى الوحي مع افهام الناس، الوحي شيء وراء الكلمات لا شكل له، ووظيفة النبي اعطاء الوحي

(1) الكوز: إناء بعروة من الفخار يشرب فيه أو يصبّ منه.

الشكل والرونق ليكون بمتناول ايدي الناس، النبي هنا كأيّ شاعر له الهامه الخاص الذي يفهمه هو وبأشرافه يخرج بهذا السبك والاسلوب، وبما يمتلكه من تصوير معرفة ينقله إلى الاخرين.

إذن شخصية النبي لها دور مهم في ايفاء المتن شكله التام، تاريخ حياته والداه وطفولته وحالاته الروحية كل ذلك يلعب دور ايضاً، عند قراءتك للقرآن تشعر ان للنبي اوقات سعيدة يكون فيها النص مطرباً غاية في الفصاحة، وهناك اوقات مللٍ يكون الخطاب عادي جداً ومتعارف، حالات النبي المختلفة تترك أثرها على النص القرآني، هذه وجهة بشرية للوحي.

إذن للقرآن وجهة إنسانية وبشرية؟

وهذا يعني أن القرآن قابل للخطأ؟

أن لا طريق للخطأ إلى الوحي هذه رؤية قديمة، المفسرون اليوم بدأوا يفكرون أكثر فأكثر في ان الوحي ديني صرف كما في صفات الله والحياة بعد الممات والطقوس العبادية وما إلى ذلك، فالقرآن كسائر الاديان يقول بالنشاط العملي للوقائع التاريخية وهذه ليست صحيحة بالضرورة، وهؤلاء المفسرون لا يرون ضيراً في صحة النبوة حال استدلالهم على هذا النوع من الأخطاء في القرآن، ذلك لان القرآن نزل بمستوى ثقافة زمانه.

أنا لدي وجهة نظر أخرى، لا أعتقد أن النبي تحدث بلغة زمانه وهو يمتلك العلم والمعرفة المختلفة، هو تكلم بما يعتقد، هذه لغته ومعرفته، ولا ارى ان معرفته عن الأرض والعالم وعلم الوراثة كانت أكثر من بقية الناس، تلك العلوم التي نعرفها اليوم لا يعلمها النبي، وهذا لا يضر بنبوته؛ لأنه كان نبياً ولم يكن عالماً أو مؤرخاً.

أنت تشير إلى فلاسفة وعرفاء القرون الوسطى كالمولوي، ماهي مديات جذور آراءكم في التراث الإسلامي؟

كثير من آرائي ترجع اصولها إلى ثقافة القرون الوسطى الإسلامية، والحديث عن النبوة مقالة شائعة جداً ومقبولة عند الناس بمختلف أصنافهم في الإسلام الشيعي وكذلك عند العرفاء.

الشيخ المفيد أحد أكبر متكلمي الشيعة لا يرى في ائمة الشيعة على انهم انبياء مع الاحتفاظ بكامل مزايا الأنبياء، وكذلك يعتقد العرفاء في الأغلب أن تجاربهم من سنه تجارب الأنبياء، والاعتقاد قائم على أن القرآن نتاج بشري وقابل للخطأ، ودلالة على خلق القرآن كما جاء في عقائد المعتزلة بشكل ضمني.

لكن علماء القرون الوسطى لم يظهروا تلك الآراء بشكل جلي وإنما جاءت من خلال خطابات متراكمة أو بين السطور، وأرجح السبب في ذلك إلى رغبتهم إلى الإبهام في البيان لصعوبة هضم الفكرة من قبل الناس، وخذ كلام مولانا الرومي مثال على ذلك عندما يقول أن القرآن مرآة ذهن النبي؛ وفي جوف كلام المولوي القول بأن شخصية النبي وتغير أحواله وأوقاته الجيدة والسيئة كل ذلك منعكس في القرآن.

حتى أن ابن المولوي ذهب إلى أبعد من ذلك حيث يقول في أحد كتبه: أن جواز تعدد الزوجات في القرآن جاء نتيجة عشق النبي للنساء، وبهذا الدليل أعطي حق اختيار أربعة منهن.

هل الاتجاه الكلاسيكي الشيعي يسمح لك في بيان أفكارك حول بشرية القرآن تأليفاً وتوسعة؟

المشهور هو أن للإسلام السني بمدرسته الاشعرية الغلبة على مدرسة العقل الاعتزالية في عقيدتهم حول خلود القرآن وانه غير مخلوق، أما في الإسلام الشيعي والمعتزلة استطاعوا بطريقة ما الاستمرار في إحياء الأرضية المناسبة لبلورة سنة فلسفية غنية قائمة على الاعتقاد بخلق القرآن، وتقريبا هو اعتقاد بلا منازع.

ونلاحظ اليوم الاصلاحيين من السنة اتخذوا موقفاً مقارباً من الشيعة في اعتقادهم بخلق القرآن، أما رجال الدين في إيران فهم مترددون في محاولة الاستفادة من المصادر الفلسفية لخلق آفاق جديدة في الفهم الديني، قدرة هؤلاء على ترسيخ الفهم المحافظ للدين هو خوفهم من فتح باب البحث في مسائل من قبيل حقيقة النبوة والذي قد يفقدهم كل شيء.

ماهي تداعيات آرائك على المسلمين المعاصرين وطريقة استفادتهم من القرآن كوجهة اخلاقية؟

يساعد الادراك البشري على إحداث الفرق بين الجانب الذاتي للقرآن والعرضي، بعض جوانب الدين تشكّلت وفق السير التاريخي والثقافي، اليوم لا توجد هذه المفارقة؛ هذ الأمر يصدق فيما يدور حول العقوبات الجسدية المقررة في القرآن، ولو كان النبي يعيش في بيئة ثقافية مختلفة لكان من الممكن لهذه العقوبات ان لا تتضمنها رسالته.

مهمة المسلمون اليوم هي ترجمة جوهر رسالة القرآن ضمن سياقها الزماني السابق، بالضبط كترجمة ضرب الامثال من لغة إلى أخرى؛ إذ لا تترجم الامثال بالحرفية اللفظية وإنما يبحث فيها عن الروح والمعنى وان لم تتضمنه الالفاظ.

يقال في العربية "كناقل التمر إلى البصرة " ولو تقرر ان يُنقل هذا المثل إلى الانجليزية لقيل "كناقل الفحم الحجري إلى نيوكاسل ".

الإدراك التاريخي والبشري من القرآن يعطينا الحق في هذا العمل ... وبناء على تصور ان القرآن هو كلام الله الخالد وانه غير مخلوق، إما لأبدية أخذ اللفظ باللفظ سنعاني من مشكلة يصعب التغلب عليها.

كلام مُحمَّد ﷺ

بشر وبشير

الجواب الأول على اعتراض الشيخ جعفر سبحاني

الاستاذ المكرم الشيخ جعفر سبحاني:

بعد التحية، قرأت رسالتك الأبوية المحترمة في الموقع الخبري " فارس " المتضمنة للموعظة الحسنة والجدال بالتي هي احسن، ولا اشك في ان الباعث لكتابة الرسالة هي وظيفة رجل الدين وغيرته الايمانية وعِرقه المسلم "، ولا اتعدى في القول –كما قلتم – بأن هناك مَن يدفع بهذا اتجاه بالاستفادة منك؛ إذ ليس هناك ما يدعو لذلك، ولا امتلك الدليل، ولا افهم كونها كلمات براقّة صادرة كبحث علمي مشفق ومنصف، وهناك اربعة من فضلاء الحوزة العلمية سبقوكم في بحث اشتركوا فيه بلغة تحليلية استدلالية خالية من الطعن والتكفير، وهل ان معرفة القرآن أصبحت تحطّ من شأن المروّة، الم تأتي خطاباته على سبيل الحكمة؟ إذن لماذا أصبحت من المعاندين للقرآن.

ألم أك قمة السحاب رحمة بالصديق

ألم أك ساقي عطاشى قتلى القلب المحطم

فلم لا يباع قصب سكره

والف سُكر يُشع من ناي قلمه[1]

---

(1) حافظ، غزل ٤٧١

لكن عجبي في البدء من مقولتك "سكوته لا يغفر ذنبه من التقرير الذي أوردته"!!

هل أنت متيقن من سكوتي؟

ألم تقرأ حواري في هذا المورد بالذات مع صحيفة كارگزاران؟

أم هو ذنب المخبرين... فهذه الأخبار لا تسرّك.

لهذا سأورد هنا نص مقالتك وبعدها سأفصّل ما أجمل منها، وسترى الكثير من الأجوبة على اعتراضاتك والاخرين صريحة وافية عن كثير مما ذكرتموه، وأني على ثقة أنك لو أمعنت النظر فيها سيكون جهدكم المبذول أقّل وطأة وأكثر رحمة، وطريقة انتقاداتك ستكون بنحو آخر.

نص الحوار
كلام مُحمَّد، إعجاز مُحمَّد

أورت بعض الصحف والمواقع الالكترونية ان الدكتور سروش رسمياً " ينكر نزول القرآن من الله ويعتقد انه كلام بشري لمحمد"

هل هو كذلك؟

ولعله مزحة أو هناك اغراض سياسية وشخصية لا سامح الله

ما هو رائيكم الحالي وتوضيحكم؟

اسأل الله ان يكونوا قد غفلوا عن حقيقة المعنى الذي قصدته.

ولو ان شخصاً عارفاً بالولاية الإلهية العامة وقرب اولياء الله من الله ويعلم بتجربتهم الاتحادية به لما انكر هذا الخطاب.

اولياء الله ونتيجة قربهم من الله إلى حد الفناء يصبح كلامهم عين كلام الله وأوامرهم ونواهيهم، وحبهم وبغضهم هو ذات الأمر والنهي والحب والبغض الإلهي، النبي كان بشرا معترفاً ببشريته ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً﴾[1] وفي الوقت ذاته هو بشرٌ بوصف ولون الهي، والوسائط " حتى جبرئيل " بينه وبين الله حاصلة بطريقة: ان ما يقوله هو كلام انساني ووحي الهي وكلا الخطابين لا ينفكان عن بعضهما.

كحجر صار أصلاً لكل الياقوت
صار مليئاً من صفات الشمس[2]

---

(1) الاسراء:٩٣

(2) المولوي، المثنوي، بتصحيح ومقدمة عبد الكريم سروش، الدفتر الخامس، بيت ٢٠٢٥

إن شاء الله مع التأمل في هذه الدقيقة العرفانية ستنحل عقدة الإشكال ويتضح سرّ الكلام.

نزول جبرئيل والإتيان بالوحي

وماذا عن نزول جبرئيل والاتيان بالوحي؟

من وجهة نظر عرفنية لم يك جبرائيل أقرب إلى الله منه إلى محمد ﷺ بل هو تابع للنبي.

ألم يرد في قصة المعراج ان جبرائيل كان بمعية النبي وكان يخشى من احتراق جناحه وريشه؟

ما معنى هذه الحكاية؟

ألم يقل قائد الثورة الفقيد " حتى جبرئيل أيضاً ينزله النبي "؟

هل معنى هذا الخطاب ان الله لم يرسل جبرئيل؟ أو أن المعنى كما يقول المولوي:

لا أريد المرضعة امي هي الفاضلة   موسوي انا ومرضعتي الامومة
لا أريد اللطف بالواسطة   فهلاك الخلق تلك الرابطة[1]

عندما نقول أن القرآن كلام محمد هو بالضبط كقولنا القرآن معجزة محمد ﷺ بلا فرق، كلا الاثنين بمقياس واحد وينتسبون إلى الله، وتأكيد احدهما لا ينفي الآخر، وفي عالم الواقع حاصل ذلك بعلم الباري واذنه وارادته، ولا ينبغي لموحد الشك في ذلك، ولهذا كلٌ يعرف الكرز بأنه فاكهة شجرة الكرز، وهل يجب علينا ان نقول ان الله هو الذي يعطي الكرز لنكون موحدّين؟

هذه هي الأشعرية البالية التي تغلّف لباس القداسة الجديد وتخاطب به القاعدة لتشوش معنى الخطاب الدقيق والجميل النادر، القرآن هو ثمرة الشجرة الطيبة لشخصية محمد ﷺ التي ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[2] وهو عين نزول الوحي وبإرادة إلهية.

(1) المولوي، المثنوي، الدفتر الخامس، أبيات ٧٠١-٧٠٢

(2) ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إبراهيم: ٢٥

وصيتي للمنصفين (ولا ادري ماذا اقول للمغرضين) بما اوصى به المولوي ان يتجنبوا نسبة سوء الظن لأولياء الحق لانهم لا ينفصلوا عن الحق، ولا يحطوا من الشأن القرب والولاء الرفيع لهؤلاء الأعزاء والأحبة:

أولياء الحق عن الحق لا ينفصلان   إن كان ظنك حسنٌ للأولياء فمن تكون؟
خلف الملك محل سجود جبرائيلي   عن مُلك الاب تَرَفّع ايها البائس فمن تكون؟[1]

على ما يبدو ان لك في هذا الباب أبيات شعرٍ؟

نعم لدي منظومة اتغنى بها في حب النبي الاكرم اهديها إلى فاتح الآفاق، واقول فيها:

تجردتُ واصفاً جَسُوُرُ التجربة فاتح الآفاقِ
في ليلةٍ سابقَ الريحِ من مدارٍ إلى مدارِ
من السوادِ إلى الخيالِ ومن الخيالِ إلى الهلالِ
الفارسُ أنت وقافلة الريح يسوقُها جبرئيلُ
لرؤيته صفّتْ الملاكُ جناح لجناحِ
انت الطائر القدسي إلى الجنان وانت مهبط الطيران

أشير في هذه الأبيات إلى الرواية النبوية الشريفة؛ ان النبي في سجوده لله كان يقول: سَجَدَ لكَ سِوَادِي وخَيالِي وآمنَ بِكَ فُؤَادِي"[2]

وتأمل أيضاً ان القول: بأن القرآن مُحَّدي – ونعني بالمحمدي أنه بشريٌ بالكامل – خطاب معقول جداً ومبرهن عليه وهي مقولة كبار العرفانيين والمفكرين المسلمين وذات معنى عميق واكثر عمقاً بألف مرة من كونه جبرائيلي.

---

(1) المولوي، ديون شمس، الغزل ٨٤٤

(2) سَجَدَ لَكَ وَسَوَادِي خَيَالِي، وَآمَنَ بِكَ فُؤَادِي ، وَهَذِهِ يَدِيَ الَّتِي جَنَيْتُ بِهَا عَلَى نَفْسِي، حديث عن الامام الصادق (ع).

بذات الالفاظ رواه ابن حجر العسقلاني برواية عائشة في المطالب العلية بزوائد المسانيد الثمانية، بتحقيق محمد حسن اسماعيل، ط دار الكتب العلمية – بيروت ج٢ ص ٢٤٠ ح ١٩١٥

و هذا لا ينافي كون القرآن قول لجبرائيل ﴿إنه لقولُ رسولٍ كريمٍ﴾، وعلى حدّ تعبير السيد الخميني وهو تعبير العرفاء المسلمين كافة أيضاً " ان النبي الاكرم هو منزل جبرائيل " وبهذه الحصيلة تصبح النسبة إلى الله سواء داخلية أو خارجية على حدّ سواء، وكذلك السابقة واللاحقة، والظاهرة والباطنة.

وقولي أن لا تفاوت بين ظاهرة الوحي بالنسبة للنبي داخلية أو خارجية يعنى ان الله يعلم الموحدين الصادقين وانه حاضر عند النبي في داخله وخارجه وعلى مستوى واحد، فأي فرق في قولنا ان الوحي الإلهي جاء من اعماق النبي أو من شيء خارج عنه، وان جبرئيل اوحى إليه من الخارج أو الداخل؟ وهل ان الله خارج عن النبي أو ان النبي بعيدُ عن الله؟

لا أدري لماذا تتناسى حالة قرب الحق من العبد واندكاك الممكن في الواجب وتوضع مكانها صورة السلطان والسفير والرعية، وهو ما يتجلى في ايضاحات اية الله سبحاني.

الوحي والسياق الشعري

أما قصة الشاعرية:

لأجل توضيح ملابسات وضع الوحي في السياق الشعري هو الاستعانة بظاهرة الشعر المعروفة – والابداع الفني بشكل عام – لا دراك ظاهرة الوحي الغامضة بشكل أفضل وذلك في مقام التصوير فقط، وهذا هو مذهب الغزالي أيضاً.

يقول الغزالي: يمكن الاستعانة بظاهرة الوساوس الشيطانية لا دراك ظاهرة الوحي ﴿أنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ (1)

(1) ﴿ ولا تأكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ الأنعام: ١٢١

سماحة الشيخ: ينبغي الالتفات إلى الشعر - بحسب المفهوم المعاصر - هو فن خلاق متسامي يختلف كثيراً عن الشعر بالمفهوم الذي يختلج في ذهنية ابي جهل وابي سفيان، أن توظيف الفن لتقريب معنى الوحي لا يقلل من شأن القرآن شيئاً ولا يرفع من شأن ابي لهب، وكما ان العلامة الطباطبائي يعتبر الوحي شعوراً خفياً، ارى التعبير بالفن الخفي أكثر مناسبة.

و أما استثمار المولوي:

من دواعي سروري ان اجدكم متفقين معي في الاستشهاد بتجارب وحِكم عارف له باع طويل وراسخ في العرفان الإسلامي وان الاستشهاد بشعره لا يعني الاستشهاد بالشعر بما هو شعر، ذلك لان المولوي في المثنوي ناظم وليس بشاعر، ورجائي من الشيخ سبحاني ان يقرأ هذا السفر الشريف بدقة ولا يكتفي ببعض الكلمات المشهورة عنه فيكون انتقائياً في احكامه. ولتعطير مذاق سماحة الشيخ سأشير لبعض الأبيات:

لم يبق لي شيء لأقولَهُ   لكني اقولها لروح القدس بلا تصنّع
سأقولها لك واهمسها بأذنك   لست انا ولا غيري هنا يا أنت مني
حتى وقت نومي أنت فوقي وتحتي   اتحدث اليك في نومي العميق وانت سر
يا نِعمَ الصديق والبحر العميق   ....(1)

ألا ترى ان روح القدس أكثر معرفة بمراتب الناس ويرى المرء كبحر عميق متعدد الطبقات احدهما تناجي الأخرى وهذه هي مناجاة روح القدس، حتى حواراته في المنام وكانه يخاطب ذاته بذاته، وهذه نافذة يمكن ادراك الوحي والالهام من خلالها، حتى قيل ان النبي في حالة تلّقيه للوحي يحدث له تحولات وتفاعلات تنعكس على شخصيته ويتحدث بأفضلية نبوية وكل هذا يحدث بإذن الله وبعين الله يكون حاضراً في كل مكان ومحيط بكل شيء .

ولا أجامل إن قلت - ولا أجد تعبير أفضل من ذلك - ان أحمد أفضل من جبرئيل، وان جبرائيل متلاشٍ امامه.

(1) المولوي، المثنوي، الدفتر ٣، بيت ١٢٩٨-١٣٠٣

لا أعلم سبباً ولا عنواناً لغفلة سماحة الشيخ عن كل ما افصحتُ به بشأن الهية نفس النبي، وتفسير البشرية بالنطق عن الهوى؟

ان محمّد ﷺ وهو الفاعل والقابل للوحي، بشر ومؤيد ومطهر، وكل إناء بالذي فيه ينضح، ولا تثمر الشجرة الطيبة الا ثمراً طيباً، ولو اغمضنا النظر عن النبي فإن غير المعصومين من البشر من امثالكم والسيد البروجردي وابن سينا وسعدي وناصر خسرو وديكارت پوپر كانوا مثل النبي لم تكن انجازاتهم بفعل الاهواء.

حتى لو فرض ان الوحي كان بشرياً صرفاً فهو الهي في الوقت ذاته، هو شيء ما وراء الطبيعة. قّدر له ان يكون ضمن مقدرات الطبيعة، امر متعال قّدر له التدني، هو بحر في إناء، وهو نفسٌ قّدر له ان يعزف الناي، وهو الهي جالس مع الناس، وإنسان مفعم بوجود الله، أتمنحني الحق في أن أصف ميتافيزيقيتك بالبعد والفراق وميتافيزقيتي بالقرب والوصال، إذن تصورك الذهني عن الله ومحمّد اشبه بتصور الخطيب والميكرفون – أو آلة التسجيل – فالخطيب يتكلم والميكرفون ينقل الصوت؛ أي ان النبي ليس سوى صرف اداة وعدّة، وأين ذلك من نزول القرآن على قلب النبي، وكأنه نزول على لسانه وليس على قلبه.

أما تصوري عن تلك العلاقة هي أقرب من حبل الوريد(1) هي علاقة النفس والجسد، وببساطة هي علاقة المزارع بالشجرة كيف يغرس البذرة والشجرة فتعطي الثمر، والثمرة هذه مدانة إلى الشجرة في كل ما تملك من اللون والرائحة والشكل والفيتامينات، والشجرة مدانة بدورها إلى التربة الصالحة والنور والغذاء والهواء.

كل ذلك بإذن الله، ولا شك في ذلك عند الموحدين، بل ان وجود الشجرة هو عين وجود الله.

وهذه ليست اعتبارات بشرية احدهم يأمر والاخر ينفذ، وعجبي من اعتباركم النظام الإلهي كالأنظمة الادارية والتنفيذية البشرية.

---

(1) ق: ١٦

وللتوضيح أقول:

رغم أن الأشياء كلها ذات طبيعة إلهية إلا أن كل ما في الطبيعة طبيعي، وكل ما البشر بشري، وكل ما في التأريخ تأريخي، لذلك فأن للنبي في مسألة الوحي دور محوري وليس طريقي، فهو بشر نزل عليه القرآن وصدر عنه – وكلا التعبيرين ورد ذكرهما في القرآن – فالنزول والبشرية قيدان حاضران في عمق معاني الوحي، ومن دونهما لا يمكن تقديم تفسير منطقي للوحي، وبالرجوع إلى تبسيط المعنى لا نقول: ان الله لا يعطي الثمرة، وإنما نقول لأجل اعطاء الثمرة عليه ان يخلق الشجرة لتقوم الشجرة بالإثمار، كذلك لا نقول: أن الله لا يتكلم وإنما نقول: إذا أراد الله التكلم عليه أن يفصح بالكلام من خلال نبيه، وهنا يُعد كلام النبي كلام لله.

طبقاً لتصوراتك يتمكن الخطيب من قول كل شيء عبر الميكرفون شعر كان أو فلسفة أو رياضيات بالعربية أو الإنجليزية أو الصينية، أما طبق تصوراتي فإن كل ثمرة لا تُنتج من كل شجرة، فشجرة التفاح لا تثمر سوى التفاح، والقول بأن كل ثمرة محصول لكل شجرة هي الأشعرية الصرفة.

وحتى في صورة الخطيب والميكرفون فإن لهذه الآلة دورُ تفرضه محدوديتها على صوت الخطيب.

هكذا يكون معنى الاصورة من الله والصورة من مُحَمّد، النفخ من الله والناي من مُحَمّد، الماء من الله والاناء من مُحَمّد، الله الذي يصب بحر وجوده في اناء شخص باسم مُحَمّد بن عبد الله فيصبح كل شيء مُحَمّدياً.

محمدٌ العربي؛ ولذا يصبح القرآن عربي.

محمدٌ في الحجاز بين قبائل تسكن الخيام؛ ولذا تصبح الجنة ذات طابع عربي، وفيها نساء ذوات عيون سوداوات جالسات في الخيّام ﴿حُوُر مقصوراتٌ في الخيام﴾[1].

وتكتسب بلاغة القرآن شكلاً تبعاً لأحوال النبي أفولاً وصعوداً، كذلك المطر يُعد من رحمة الله، ولعله أكثر من نور الشمس ... وقس على ذلك.

---

(1) الرحمن: ٧٢

وبهذا المعنى تُحمل تبعية الوحي وجبرئيل لشخصية النبي، وتُحمل أيضاً المقولة الحكيمة لابي نصر الفارابي والخواجة نصير الدين الطوسي القائلة بتدخل قوة النبي التخيلية وتأثيرها على الوحي، وعلى حد تعبير مولانا الرومي: "اللاصورة تفتقر إلى الصورة ".

تتجلى شخصية محمد ﷺ البشرية التاريخية في جميع مواضع القرآن، تلك الشخصية التي اعدّها الله لتكون كمال النعمة التي انعم بها على المسلمين، ولذا فإن خطاب هذا الولي المؤيد الفاني في ذات الله هو خطاب الله، وهذا هو معنى:

بـرغم القـرآن مـن لُـب النـبي كـل قائـل بغـير هـذا الحـق كـافر[1]

نعم مصحفنا مستفاد من المصطفى، وهل يوجد طريق آخر للخطاب الإلهي غير هذا، واذا كان لديكم طريقة أخرى لحل معضلة كلام الله نرجو التفضل بها، وليس العرفاء فقط من يدعمونا في هذا الاتجاه بل حتى الفلاسفة أيضاً معنا في هذه المواجهة مع الشيخ السبحاني.

أليس مقولة الحكماء ومن أفضلهم شأناً صدر الدين الشيرازي: "إن كل حادث مسبوق بمادة ومدّة " وحادثة الوحي المحمدي وجدت ضمن شروط مادية وتأريخية خاصة، ولتلك الظروف مدخلية تامة في تكوين الوحي، ولعب دور في العلة الصورية والمادية للوحي، مع الالتفات إلى أن المسألة أبعد من كونها لفظ ومعنى، هي مسألة الصورة والاصورة، واللفظ احد تلك الصور.

والخلاصة هي أن ما جاء به محمد ﷺ هي محدوديته العلمية والوجودية والتاريخية وما إلى ذلك مما لا مفر لمخلوق منها، وهنا نسأل جناب للشيخ السبحاني: لماذا نزل القرآن باللغة العربية؟

لا شك انه سيجيب الحكمة الإلهية اقتضت ذلك فهي إرادة الله، وأنا لا أنفي ذاك، لكني أقول أن عروبة نبي الإسلام "هي ارادة الله" وقس على ذلك الأمور الأخرى.

---

(1) المثنوي، الدفتر٤، بيت٦٣٢

الخطأ في القرآن وعلم النبي

المراد من الخطأ هنا ما يُعد خطأ من وجهة نظر الناس؛ بمعنى عدم الانسجام مع معطيات العلوم البشرية، ولم يرد في القرآن أن الله علّم نبيه جميع العلوم، ولم يدّع النبي ذلك ولا أحد يتوقع منه الاحاطة بتلك العلوم، بدءً بالإلهيات والروحانيات إلى الطب والرياضيات والموسيقى والفلك، خلافا لرأي الشيخ السبحاني.

يقول القرآن: ﴿وَعلمَكَ ما لم تكُن تعلَم﴾[1] ولا يعني ذلك انه علّم جميع العلوم، بل هو – بحسب مقولة المناطقة – " المهملة في قوة الجزئية "، مضافاً إلى أن النبي يقول ﴿وقل رّب زدني عِلماً ﴾ [2].

ابن خلدون في المقدمة يقول بشكل صريح: أن أقوال النبي في الطب هي نفس اقوال وآراء الاعراب من سكان البادية، وكان يرجع إلى الطبيب.

ابن عربي – وفتوحاته المكية التي يعتبرها الامام الخميني مزهرية المعارف الإسلامية والعرفان واوصى غورباتشوف بقراءته – يقول في باب ان الكامل من جميع الجهات لا يُعد أفضل من الناقص، وفي الفص الشيئي من فصوص الحِكم: " ان النبي منع أهل البادية من تلقيح النخيل وتأثيرها، فلما خرجت شيصاً تنبه إلى خطأه وقال: أنتم اعرف بأمور دنياكم وانا أعرف منكم بدينكم "، وقد سمعت بهذه الرواية من المرحوم الاستاذ مطهري قبل قراءتها في فصوص الحِكم.

ونقل أيضاً رواية أخرى مفادها ان النبي فضّل رأي عمر على رأيه في أسرى معركة بدر.

يقول القرآن في قضية إبراهيم والملائكة أنه لم يتعرّف عليهم وأنه أوجس منهم خيفة.

وقال ابن عربي: ان إبراهيم لا يعلم تعبير الرؤيا ولذلك قدّم إسماعيل قرباناً عن طريق الخطأ.

---

(1) النساء: 113.

(2) طه: 114.

وعليه لو ان شخصا يقول بأن علم النبي بالرياضيات الطبيعية الدنيوية مساوٍ لعلم قومه والمعاصرين له لا يكون مخطئاً – بالتأكيد ليس العلم الديني والرؤية الملكوتية والعلم بالأسرار الربوبية – أو على اقل التقادير لم يخالف قوله هذا ضرورة من ضرورات الدين.

عدم انسجام ظواهر القرآن مع العلم البشري

أليست هذه مقولة كل من التجأ إلى التأويل بعد ان وجدها مخالفة للعلوم البشرية؟

اليس التأويل هو اللجوء إلى علم بشري ورفع اليد عن علم بشري آخر؟

استاذكم العلامة محمد حسين الطباطبائي كان يقول بصراحة وصدق علميّ تام في تفسير الميزان، وفي تفسير استراق السمع من قبل الشياطين وهروبهم من الشهب السماوية (من الآية الأولى إلى الآية العاشرة من سورة الصافات):

" ان تفاسير قدماء المفسرين المعتمدة على علم الهيئة القديمة وظواهر الآيات والروايات كلها باطلة وقد ثبت بطلانها في عصرنا يقيناً، ولذلك لابد من البحث عن معنى جديد لتلك الآيات ".

ثم اكمل بحثه مستعيناً بالفلسفة الإسلامية اليونانية وهي علم بشري آخر، وذهب إلى تأويلات بعيدة غير مقنعة رغم انه اعترف بتشكيكه وعدم قطعه بهذه التأويلات في هذا التفسير؛ بالاستفادة من الفاظ " يحتمل " و" والله العالم "[1]

وكان يقول ايضاً: هذا من قبيل ضرب الامثال، أو ان المراد من السماء عالم الملكوت، أو المراد ان الشياطين يهاجمون الحقائق ليبطلوها فتصدهم الملائكة بشهب الحقيقة ليدحضوا باطلهم[2] . . .

وكأن المرحوم الطباطبائي نسي ان هذه الشهب إنما تنطلق من سماء هذه الدنيا نحو الشياطين وليست من ناحية الملكوت: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾[3]

(1) الطبطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن،، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ج١٧ص ١٢٥
(2) المصدر السابق، ص ١٢٣-١٢٥
(3) الملك:٥

هكذا تظهر منعطفات القبض والبسط في التفسير، حيث يسقط المعنى الذي كان بديهياً عند القدماء عن بداهته، ويخضع ظاهر الآيات للتأويل لكي تنسجم مع علم بشري آخر، تلك الآيات التي كانت منسجمة مع العلم القديم ولم يشكك بها السابقون.

في هذا القبض والبسط بحث تفسيري، ولا ملامة على المفسّر؛ فهذه طبيعة ومآل كل التفاسير، إنما الكلام في اذعاننا منطقياً بعدم الانسجام قبل التأويل، وسعينا الحثيث نحو البحث عن حيلة لرفع الإشكالية.

يذهب السيد الطالقاني إلى أبعد من ذلك في كتابه " پرتوي از قرآن" في تفسير الآية ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[1] فيقول: " إن اعتبار الجنون مُسبّب عن مس الجن والشيطان من معتقدات العرب في الجاهلية، وقد تحدّث القرآن بلغة القوم"[2] (ذهب إلى هذا الرأي شطر من المفسرين العرب المعاصرين)، ولم يبذل أي جهد في التأويل بل يعترف بالخطأ ويرى ان هناك مصلحة في ذكر هذا الخطأ في القرآن، وهذا الكلام ليس إبداعاً ولا بدعة.

جار الله الزمخشري المعتزلي في تفسيره الكشاف سبق السيد الطالقاني بثمان قرون في بيان هذا الرأي بقوله: " إن هذه المعتقدات الباطلة التي كان يؤمن بها عرب الجاهلية من ان مس الجن يوجب الصرع، وقد نزل القرآن طبقاً لما يعتقدونه.

هناك موضوع يستدعي التأمل وهو أن: التفسير والكلام الإسلامي السلس أبتلي هذه الأيام بالجمود حتى اعتبرت أفكارنا أجنبية عنه ونسبت إلى إبداع المستشرقين، بل والأكثر استدعاءً للتأمل هو: ان المتقدمين لم يكّفروا المعتزلة، واقصى ما نسبه الاشاعرة اليهم أن قالوا: مَن يُنكر مس الجن هو المجنون ...

---

(1) البقرة: ٢٧٥

(2) الطالقاني، محمود، پرتوي از قرآن، الشركة المساهمة انتشار، طهران، ط٣ ج٢ص٢٥١-٢٥٦ الزمخشري، جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣ ج ١ص ٣٢٠

قصة السموات السبع لا يوجد أكثر وضوحاً منها، حيث اجمع قدماء المفسرين على تطبيقها على نظرية هيئة بطليموس، ولِمَ لا يطبقونها والظواهر كلها دالة عليه ... إلى القرن التاسع عشر والعشرين توصل المفسرون العرب وغيرهم إلى تفسير جديد اهتدوا إليه على ضوء العلوم الجديدة ليتبنّوا معان جديدة لا تخلو بدورها من الشكوك.

وعليه لا مفرّ من القبول بعدم الانسجام - الشديد ربّما - بين الظواهر القرآنية والعلم.

وتتجلى هنا أساليب متنوعة لدفع هذا الاشكال والتخلص منه:

فأما اللجوء إلى التأويلات البعيدة كما هو منهج الطبطبائي.

أو حملها على طبيعة اللغة والثقافة العربية كما هو منهج المعتزلة والطالقاني.

أو نعتبر لغة الدين اجنبية عن لغة العلم.

أو نعتبر لغة الدين تصويرية واستعارية كما هو منهج بعض المتكلمين المسيحيين.

أو إلى أن معطيّات الوحي قابلة للصدق أو الكذب كما هو مذهب بعض المعاصرين.

أو إلى أن المعنى من الله واللفظ من النبي كما هو مذهب ولي الله دهلوي.

وأيّاً كان الجواب فأني ارى ان هذا النوع من الآيات من جنس العرضي - وقد ذكرتها مفصلاً في كتاب بسط التجربة النبوية - والتي لا تؤثر في رسالة النبي ونداء الدين، سأتخطاها بالطريقة الاسهل أو على أقل التقادير أكون أكثر ميَلاً لأسلوب المعتزلة خلاصاً من محاولات المتكلّفين.

أما تأريخية القرآن: فمعناها واضح وقد اوردت هذا المعنى في كتاب بسط التجربة النبوية، ومن جملة ما ورد جواب عن اسئلة العصر الشائعة، والتعرض لشؤون النبي الأسرية والتي بالإمكان عدم حدوثها ولا ينبغي طرحها في القرآن.

لا أتصور بأنكم اليوم مصرون على كون السماوات سبعاً، أو الصرع والجنون مسبباً عن مس الجن، أو أن الشهب السماوية تستهدف الفضوليين من الشياطين

وتحرقهم لكي لا تستمع إلى اسرار الملائكة، كل ذلك من اجل ان تستميلوا قلب شخص نحو الإسلام، أو تثبتوا افضلية الإسلام على البوذية مثلاً.

سحر الوحي المحمدي لا يكمن في تلك المتشابهات في سورة كسورة الحديد بمجرد ان اسمها الحديد زعم ان نسيجها من حرير وهي جوهرة القرآن كما يسميها الغزالي حيث صاغ الله القيامة والايمان والنفاق والجهاد والخشوع والزهد و... وما إلى ذلك بصلابة إلى جانب الرحمة، ويكفي ذلك النداء لتطرب إليه الأرواح ويضيء سراج الايمان مساكن القلوب ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (1)

أما ما تفضلتم به:

القرآن بشري وإمكانية وقوع الخطأ فيه؛ إذن ما الحاجة إلى ترجمته وتفسيره بلغة العصر، وأنت عندما تعنون القرآن ككتاب قابل للخطأ وبشري تكون قد ابتعدت عن المجتمع الإسلامي، ولا حاجة لنا بنصائحك، ومن له اهلّية النصح هو أحد أفراد هذا الجمع.

وقد اوضحت المراد من الخطأ وكونه بشرياً، والآن أقدّم ما يلي:

اولاً: اقول بمقولة القرآن ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾(2)

ثانياً: سلطتُ الضوء على ما فعله العلامة الطباطبائي والطالقاني والزمخشري.

ثالثاً: هات ما عندك من معايير متقنة ومتينة لحل هذه المشكلة للخروج من مأزق تعارض العلم مع القرآن، وقد تحدثت عن التجربة الحضارية ولم اذكر شيئاً عن اللغة العصرية على التفصيل الذي جاء في مقال " الذاتي والعرضي في الأديان " في كتاب "بسط التجربة النبوية "

---

(1) ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ الحديد ١٦

(2) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ النساء: ٩٤

رابعاً: لا تدعو المحققين إلى التقليد، ولا تخوفوهم من سوء العاقبة وزوال السعادة ان ركبوا طريق التأمل والتحقيق، واذا كانت هناك سعادة فهي في التحقيق الصادق – حتى لو أدت بزعمكم إلى نتائج غير صائبة – لا في التقليد الساذج.

رغم أني لا أشك في صلاحكم، وأقدّر حرصكم إلا أني لا اروم ترك التحقيق والتعمّق، وسأواصل التمسك بحبل التعقّل المتين، فإن عطر مسك هذا التمسك يشدّني حقيقة إلى بائعي العطور ولا يمكنني تركهم.

مُحَّد رسول الله أراه عاشقاً مبدعاً منحته تجربته الروحانية سعة في الصدر، وبصيرة في القلب، امتلأت روحه بوجود الله، حتى أصبح ما يراه ويقوله إلهياً، ويرى الإنسان والعالم – سواء بسماواته السبع أو السبعين وسواء بعناصره الاربعة أو المائة والاربع – مخلوقاً لله متعلقاً به ومصيره إليه، و بهذا الكشف النبوي هو سعيد بإشراك الآخرين بهذه التجربة وانجذابهم إليه ليغطي سوداويتهم ببحر طهره.

إني أعشق هذا البشر البشير، وإذا كنت أستمع لعطر الكلام الإلهي من هذه الزهور لأني عايشتها، سنوات مضت اتحدث مع مُحَّد ﷺ وأنشد:

نسخةُ قوانيننا عين الشفا — مصحفنا مستفاد من المصطفى
مبارك أنت ذاك فرش الورود — منعش ذاك وصفك بالمزّمل
لم تكن ملائكياً ولا ترابيا — انت طاهر بشراً وبشيرا[1]

خشية للإطالة اكتفي بهذا المقدار ولنترك بعض الفروع الجزئية، مع الشكر للجهد المليء بالرحيق وخطاب اللاعتاب لسماحة الشيخ، ولندع باب هذه المباحثة والمناظرة مفتوحا للاستمرار بها.

وأضيف: أني حالياً منشغل بالتدريس في احدى الجامعات الامريكية، واقوم بما حرمت منه في ايران ببركة سعة صدر المسؤولين، وارغب عند العودة إلى إيران – إن أمكن ذلك – أن أدعو سماحة الشيخ لتوفير مناخ آمن وهادئ للمشاركة في حوار

(1) عبد الكريم سروش

مباشر في هذا الشأن بغية احقاق الحق ودحض الباطل، وبما انني أرى ان الغاية القصوى من التدين، والهدف من كل هذه الدقة العرفانية والكلامية هي بناء مجتمع خلّاق وعادل، فإن مسؤوليتي الوجدانية تدعوني إلى مطالبة سماحة الشيخ في الوقوف بوجه الانحرافات العملية والأخلاقية، وأن لا تلتزموا الصمت ازاء جفاء أو ظلم يتعرض له المظلوم، وان تتمسكوا بالوفاء بالعهد بين الله والعلماء، وان تكونوا مثال واسوة للآخرين، والله المستعان.

عبد الكريم سروش

واشنطن.

مارس ٢٠٠٨

الببغاء والنحلة

الجواب الثاني في الردّ على الشيخ جعفر سبحاني

بسم الله

الأستاذ المكرّم سماحة السيخ جعفر سبحاني.

بعد التحية، سررتُ بوصول رسالتك الثانية التي زادت من اكباري وإجلالي لكم:

الأول:

ابتدأتم الحديث عن القوس النزولي [المنحنى البياني] عن افكاري واحوالي خلال العشرين سنة الاخيرة من حين ظهور "كتاب القبض والبسط في الشريعة " فما بعد، وانا سعيد وشاكر لكم اهتمامكم بأحوالي من إقبال الطالع وإدباره، لكني اجهل موقع الرصد، ويبدو ان الشاقول والاسطرلاب بيدكم وبه تقيسون ارتفاع الشمس وتتحكمون بصعود وافول الكواكب ... ليس هذا بالأمر المهم، ولو كان الأمر بيدي لقست الافكار بميزان الحجة ومعيار الحقيقة، ومنحت المخاطب حظاً وشأناً في الاختيار والاجتهاد.

ذكرت مجالس قم وطهران واحتجاجكم في هذه المسألة وتلك، واعتبرتم عدم قناعتي بحججهم دليلاً على الهبوط، أليس من المحتمل ان يكون ذلك ضعفاً في حجتكم وليس دليلاً على ضعف في عقيدتي وصدقي؟

اتذكر تلك المجالس جيداً، حيث تحدثتم في" مؤسسة الحكمة والأديان " عن حسن الصدق عقلاً وقبح الكذب عقلاً، وقلت لكم حينها: ان المعتزلة يرون أن الكذب قبيح عقلاً إذا كان ضاراً وليس مطلق الكذب وإن لم يكن ضاراً، وأقررتم بالإيجاب، عندها قلت لكم: حينئذٍ لا مانع لديكم من أن يكذب الله على خلقه كذبة

تعود بالنفع عليهم - في القرآن أو في مكان آخر -؟ واجبتم ان هذا محتمل لكن احتماله واحد بالمليون، هل تتذكرون ذلك؟

هذا هو اجتهادكم في مسألة احتمال صدور الكذب من الله، ولا الومكم على اجتهادكم هذا، ولا اطلب منكم التوبة، لكن عجبي على لومكم لشخص قضى عمره في الاجتهاد والتحقيق بدلاً من التقليد، لا يخشى المقدسين الأرثودوكسيين، وينظر إلى الوحي بعقل ناقد الذي هو هبة الله، وعلى ثقة ان سمعة الشريعة لا تذهب بهذا المقدار.

وفي ذات الحال الذي رصدتم قوس نزول عقيدتي اتمنى ان لو رصدتم قوس صعود القسوة بالقياس إلى الشفقة، وتجنبتم شبهة التواطؤ مع الجفاة، ولم تسهموا بسكوتكم زيادة شحذ وصقل سيوف القساة، واخذتم بنظر الاعتبار المظالم التي تعرض لها صاحب هذا القلم بل جميع حملة الاقلام وشجبتم وقبّحتم تلك المظالم.

و لننسى قضيتي ... فما هو ذنب ذلك المرجع الفذ قطب الزمان وقمة الجبل الراسخ، وما هي جريرته التي استحق من اجلها تلك الصواعق من العذاب، لماذا اخفيت وسائر المراجع رؤوسكم في التراب[1]، ولم تبدوا أي اعتراض! ان الظلم الذي تعرض له هذا الفقيه من الحصار والسجن والالم -وما زال - ما لا تحتمله السموات، وان تبعات هذا الظلم ستلاحقنا إلى يوم القيامة، وامثاله كثيرون.

إذاً أين سيشهد الناس استشعارهم بالظلم؟ وكيف سيثقون بأن المجتمع الإسلامي يأخذ للمظلوم حقه غير منقوص، كما اشرتم مستشهدين بعبارة نهج البلاغة التي تعلمتها من سنوات مضت وجعلتها معياراً للتقييم.

ذكرتم أن الشبهات التي أثيرها تضعف إيمان الشباب!

ألا ترون أن سلوك المترفين ممن يحاربون الفكر وبعض من رجال الدين أكثر تقصيراً ومسؤولية في هذا الخصوص؟

أتعلمون أي شيء يحرق جذر الإيمان؟

(1) في المتن "گليم" والگليم هو الفرش المصنوع من الحرير أو الصوف، ولا يستقيم المعنى في السياق العربي

هو نشر الخرافة باسم الدين والظلم باسم الله، والسكوت في مقابل الظلم، حيث تشهدون حالياً أن انتقاد القيادة في إيران يساوي الانتحار، إنكم تتركون تلابيب السياسة التي تقوّض الإيمان وتقضي على العدالة، وتكسرون الجرار على رأسي بحجة إضعافي لإيمان الشباب، شرب الخمور والعربدة ليست بأخطر من أتخاذ القرآن مصيدة للتمويه على الناس كما يقول حافظ الشيرازي، وهل يبدي رجال الدين تجاه هذا التمويه نفس الحساسية التي يبدونها تجاه التفسير؟ ومتى واين شاهد شبابنا سلوكيات حسنة من رجال الدين الحاكمين تساعد على تعزيز إيمانهم؟

من هذه الروحانية لم يشاهدوا سوى الجسمانية حتى تسمو أرواحهم!

كل ذلك من أجل إرسال ذوي الامزجة الباردة إلى المجلس النيابي مع ختم لقائمة الفائزين بالانتخابات بختم صاحب الزمان، والترويج للخرافات من على منابر الاذاعة والتلفزيون، والانقضاض على لمعارضين والترويج على العنف، وخنق الافكار، وطلب التوبة من المفكرين.

بنوا المدرسة المعصومية واستنفذوا سهم الإمام فيها، وأثاروا الفتن على يد هؤلاء من رجال الدين، وهتكوا حرمة مرجع محترم، ولم تسلم منهم حتى الخانقاه هدموها على رؤوس أصحابها، وفي خطب صلاة الجمعة هناك تحسين وترويج للإرهاب ايضاً! أفي ذلك علامة لفعل أو لقول حسنٍ.

إن مؤسستنا الدينية لا تدرك الدور غير اللائق الذي تلعبه في إضعاف إيمان الشباب، وتضرب يميناً وشمالاً في البحث عن الجاني والمقصّر.

ولنكن منصفين ونستثني قلة قليلة من العلماء الزاهدين المتعففين من هذه المجموعة، ولو لم يكن غرضي من هذه الافكار الفلسفية الكلامية سوى اقامة العدل ونشر الفضيلة لما اطلت الكلام في انحرافات رجال الدين.

لسان حال شبابنا اليوم يقول:

سـلوك أهـل الصـومعة صـار يُعبَـد

هـذا الـدخان الـذي سّود اوراقـي أنـت مصـدره(1)

عندما يأتي غافل من قافلة فقهاء قم ويلقي دروس في القتل والإرهاب بالتزامن مع عرض فيلم " الفتنة" الذي يثبت من أوله إلى آخره عنف المسلمين وخشونة الإسلام، وفي كناية هي أبلغ من التصريح يقول " على المسلمين ان يعرفوا ما عليهم فعله تجاه سروش "، لماذا لم ينتفض بوجهه من يتلّبسون بلباسه؟

أيها الغافل ان كانت هذه فتوى فلماذا تحدد مصداقها؟

وإن كان حكماً فهذا ليس من حقك مع وجود الولي الفقيه؟

ولماذا لا يُسحب من عنقه كما أخذ بعناق الإسلام، وبسبب تشويهه سمعة المسلمين، واشهاره السيف امام واجهة التحقيق، وحثه على العنف قبال الادلة.

ماذا تتوقعون من المشاهدين لهذه المناظر المنفّرة؟

انعدام الثقافة بل حرقها هل يقوّي ايمانهم؟

هل يشعرون بالخجل من كونهم مسلمين؟

لا تنسَوا ان القرون الاربعة الماضية شهدت جبال من الكتب لمؤلفين ملحدين وكفرة تبطل تعاليم المسيحية وتسخر منها، الا ان الذي قصم ظهر الكنيسة لم تكن تلك المؤلفات، وإنما مواجهة ومحاربة الكرادلة للغالوليين(2) رغم انهم اكتفوا بحبسه في بيته ولم يقتلوه، ولا زالت الكنيسة تحمر خجلاً من خزيها، ولا يزال جبينها يرشح عرقاً من حيائها، ولا امل لهم في يوم مشرق تنعم فيه بجفاف عرقهم بحرارة شمسه.

لقد حصلت على إيماني من العرفاء وليس من الفقهاء، ولذا لا أخشى على نفسي وإيماني من نهيب غير مهَيب.

---

(1) الشيرازي، الغزليات، غزل ٤١٣

(2) جمع غاليلو

أما أنتم ايها الفقهاء فعليكم بالشباب ممن يأخذ دينه منكم، وما ان يفتحوا عيونهم حتى يستشعروا رائحة الدم والعنف من أفواه معلميهم، " فيهتز إيمانهم كغصن رقيق امام العواصف".

آية الله مكارم الشيرازي الذي لا يتورع قلمه عن الالفاظ النابية والمنفّرة، ومع ذلك يسلب مني التوبة، دون ان يدرك ان التوبة إنما تكون عن المعصية ولا توبة عن المعرفة، فما ظنك ب " انوار الفقاهة " التي تنشر الظلمة، وتعتبر التعليم والمعارف من جملة المعاصي، وأيُّ درس سيء يعطيه هذا الفقيه الذي يحرّم الفكر، ويختم الافكار بختم الحلال والحرام، ويطالب المحققين بالتوبة والاستغفار.

والآن يا جناب السبحاني أنت لست فقط لا تصدح بوجه هؤلاء الفقهاء بل أنت تكرم عديمي الثقافة.

وفي هفوة تأريخية قلتم: ان كلامي اقترن بنشر صحيفة دانماركية للرسوم المسيئة، وعليّ أن أرد بأن بحثي حول كلام الباري وكلام محمد ﷺ قد سبق وإن ذكرته في كتاب " بسط التجربة النبوية "، والمقابلة مع الصحفي الهولندي كانت قبل سنة تقريباً، وقبل إغلاق مجلة " المدرسة " . . .

وعليه يكون الأول قبل ثماني سنوات من الرسم الكاريكاتوري المناوئ للحرية، والثاني بعد سنتين، وفي تلك الفترة كتبت قطعة وعنونتها " لا يمكن التلاعب باسم محمد"، وقد جاء فيها:

"إن هذا الاسم هو شرف المسلمين وثروتهم المقدسة، وهو لواء فخر وشعور وفكر وسمعة العالم الإسلامي، ومثال لجميع أرواح الكرام والاطهار في العالَمين، إن اسم أحمد اسم لكل الأنبياء.

قبل عام ونصف كان لي خطاب مفصل في نقد كلام البابا بندكت السادس عشر حيث قال:" بما أن المسلمين يعتبرون القرآن عين كلام الله لذلك لا يقومون بتفسيره وتأويله " – الكتابات والخطابات موجودة على موقعي الالكتروني بالإمكان الاتيان بها وقراءتها – فلا مجال لشبهة التواطؤ مع المعاندين والطاعنين.

تلك الصحيفة المتاجرة بالولاية لا همّ لها سوى تحريف الحقائق وشرعنة العنف، وتتهمني علناً وفي وضح النهار لأسباب فكرية بالعمالة للموساد والسي أي أي، دون أي رادع منك ...

لا تلك الصحيفة ولا أولئك الذين يطالبوني بالتوبة، ويحرضون المسلمين عليّ عملاً بتكليفهم، لا احد من هؤلاء يخدم المعرفة والعدالة والخير والحقيقة، ولا يحلّون عقد المشاكل بكلماتهم، بل يثبتون العكس وانّهم غافلون ولا عام لهم بها.

و بدلاً من الخوض في البحوث التحقيقية والعقلية يلجؤون إلى اسلحة قديمة؛ كالإلغاء وإسكات المجددين، والتهديد بالعقوبات الدنيوية والأخروية مكررين أخطاء الأسلاف غير معتبرين بالتجارب التاريخية للأديان والأقوام السابقين، كالذي يغمض عينيه كي لا يرى الشمس متمنياً زوالها في الوقت ذاته.

سماحة الشيخ السبحاني: أود إعلامكم بأن إخراج المعارف الإسلامية عن جمودها والعودة بها إلى ما قبل المناخ الأرثوذكسي، والاستفادة من العلوم والابحاث الجديدة هو شرط بقاء الإسلام في العالم المعاصر، ولا يكون ذلك الا من خلال التحقيق الحر والواسع، وهذا لا يتناسب والارهاب والتكفير، وإذا ما أرادت الحوزات العلمية من مواكبة هذه العملية أو تسييرها فعليها أن تحتاط في سلوكياتها وخطاباتها، وإذا لم تستطع زرع الزهور فلا تنثر الأشواك.

بالطبع أنا سعيد باهتمام المراجع والمشايخ العظام لهذا البحث، وفي مقدمتهم الالمع والافضل اية الله العظمى الشيخ المنتظري الذي هو بحق فخر المرجعية والمؤسسة الدينية، واعتبر هذا الاهتمام دليلاً على أهمية الحوزة وخطورة المسألة، لكن ما يؤرقني ويحبط الجمهور هي لغة العنف والتكفير مما ينبغي وضع حدّ لها.

الثاني:

النظرية التي يراد لها حل مشكلة "كلام الباري " هي نظرية يقبلها العقل، ويمكن الاستدلال عليها والدفاع عنها، وترفع من أسهم شخصية مُحَمَّد الناسوتية والبشرية في مسألة الوحي، والتي أكد عليها القرآن بشدة وغفل عنها الناقدون، والتي يدعمها

جمهور كبير من العرفاء والفلاسفة المسلمين ... ولست ادري لِمَ تعتبر هذه النظرية – عمداً أو غفلة – نفياً لكلام الباري تعالى، ومحاربة للقرآن؟!

معرفة كاتب هذه السطور بالقرآن الكريم – ولله الحمد – إن لم تكن أكثر من معرفتي بالمثنوي لجلال الدين فهي ليست بأقل منه، وإن جميع الآيات التي استشهد بها سماحة اية الله وغيره من المنتقدين المحترمين امثال السادة: عبد العلي بازرگان وحسيني طباطبائي، وايازي ...، أحفظها جيداً، ولا توجد عندي أي مشكلة في حلّها وفهمها، وأنه كلام الله، وانه مفعم بصيغة " قُلْ "، وانه كان يحدث للوحي ان يتأخّر في نزوله، مما يضطر النبي إلى الانتظار، وان النبي قد نُهي عن التعجل في القرآن من قبل أن يقضى إليه وحيه، وان النبي لم يكن له الحق في تغييره، وان كلام الله قد وصل إلى الناس على نحو ما كان يريده، وإن القران معجزة، وامثال ذلك ...

و ما هو التفاوت بين كون القرآن نتاج كشف وتجربة إنسان مبعوث ومؤيّد واستثنائي، وان كلامه مقبول من قبل الله، وإن كشفه كان نتيجة لحظات خالصة ونادرة من التجارب الروحانية المتعالية.

لست أدري ما هو تفسير المنتقدين لظواهر مثل الموت والمطر، فقد ذكر القرآن مرارا ان الله قابض للأرواح بنفسه ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[1]

أو ان الذي يتولى ذلك هو ملك الموت ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[2]،

أو أن الذي يتولى قبض أرواح الناس الملائكة ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[3]

ومع ذلك لا توجد منافاة بين موت الناس الطبيعي والمادي، وبين قبض الله للأرواح وقبضها من قبل ملك الموت، أوَليس الله هو الذي ينزل المطر ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾[4].

(1) ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الزمر: ٤٢

(2) السجدة: ١١

(3) الانعام: ٦١

(4) النبأ: ١٤

وكما ورد في بعض الروايات ان ملكا ينزل مع كل قطرة مطر " والهابطين مع قطر المطر اذا نزل " [1]، فهل التفسير الطبيعي والمادي لظاهرة نزول المطر تسلب الله قدرته وتجرده عنها؟

ألسنا نقول في ذلك: ان الله مبدأ المبادئ، وانه في طول العلل الطبيعية، وان جميع الاشياء تقع بإذنه وتدبيره؟

فإذا كان كذلك لماذا يكون البيان الطبيعي والمادي للوحي وكلام الله وابراز دور النبي فيه منقطع النسبة إلى الله، وسالباً لدور الله فيه؟

أليس كل ما في الطبيعة يقع ضمن العلل الطبيعية، فلماذا يُستثنى الوحي النازل على النبي من القاعدة، ويتم اسناده إلى ما وراء الطبيعة من دون واسطة طبيعية ما؟

أفكر أحيانا واقول في نفسي: يبدو اننا عُدنا إلى الزمن السحيق الذي كان فيه بعض المتدينين يعتبرون ان نسبة المطر إلى الشمس والبحار والريح منافياً للمشيئة الإلهية، فكانوا ينسبون نزول المطر إلى الله مباشرة، وها نحن وبنفس المنطق ننسب نزول وابل الوحي إلى الله مباشرة، دون ربطه بعلله الطبيعية وهي نفس النبي، ومجتمع عصره، وعلمه، ولغته، وما إلى ذلك ... مستندين إلى آيات كريمة تكرر ذكرها في القرآن من قبيل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾[2] ولا نتدبر في ان هذا الانزال والارسال قد استعمل في القرآن بشأن المطر والريح أيضاً، وهذا ما يمكن استيعابه في عالم مفعم بالألوهية، وترى الله فيه محيطا بكل شيء، وهذا عين الكشف المحمدي.

والعجيب انهم في ما يتعلق بكلام الباري يحملون النزول على المعنى المجازي وليس النزول المكاني من الاعلى إلى الاسفل كما هو حال المطر وإنما يحملونه على المكانة

(1) روي عن علي (ع): عن النبي ﷺ " وانزل من السماء ماء يعني المطر ينزل مع كل قطرة ملك يضعها في موضعها الذي يأمره به ربّه عز وجل فعجبوا من ذلك ..." التفسير المنسوب إلى الامام الحسن العسكري، مدرسة الامام المهدي (عج)، ايران، قم ط١ ١٤٠٩ هـ، ص ١٥٠

المجلسي، محمّد باقر، بحار الانوار، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط ٢ ج ٢٧ص ٩٧

(2) الحجر: ٩

الارفع إلى المكانة الادنى، أي من عالم الملكوت إلى عالم الملك أو من الحقيقة إلى الرقيقة، اما الكلام فلا يحملونه على المعنى المجازي وبهذا المعنى يحملون الالفاظ البشرية عليه، لماذا كل هذا الابهام وعدم الوضوح وانصاف الحلول والافعال؟ فالكلام والنزول لابد من حملهما على المجازية لتنحل عقدة الاشكال، أو الذهاب إلى المعنى الحقيقي في كليهما لئلا نضيع في هذه المتاهات.

ينبغي الترحم على روح الامام الفخر الرازي كان يقول: هذا الذي جاء في القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] ليس فيه معنى غريب يضطرنا إلى البحث عنه في ما وراء الطبيعة، فما دام المسلمون قد اهتموا بجمع القرآن واثبتوه في المصحف كان ذلك هو عين الحفظ الإلهي، وعلى هذا القياس تجري بقية الأمور[2].

الثالث:

هذا الذي نقوله: بأن القرآن نتاج الكشف النبوي لمحمد بن عبد الله لا يعني بأيِّ نحوٍ انه كشفا جزافاً بمعنى ان النبي يحق له التغيير أو ان تتنزل عليه الآيات متى شاء ... دع عنك النبوة؛ ولنتكلم في الكشوفات البشرية، فإن هذا الحكم لا يصدق حتى في الاكتشافات العلمية والفلسفية والرياضية، فاذا كان قانون الجاذبية اكتشاف بشري لنيوتن ليس لازمه ان لنيوتن قول كل ما يريد أو ان يُصيغ النظرية وفقاً لمذاقه ويبيعها للناس.

وهكذا نقول بالنسبة لاكتشاف نظرية اصالة الوجود الفلسفية، وهل يستطيع صدر الدين الشيرازي من ان يتجاوز البرهان، وان يضع التعاريف، ويؤسس القواعد لتناسب رغباته وأهوائه، فهو تابع للدليل وليس العكس، و كان استدلاله ومعرفته على قدر طاقته، ولا يمكن لأي شخص يحمّل نفسه أكثر من طاقتها، الحكمة كما يقال:" هي العلم بأحوال اعيان الموجودات على ما هي عليها بقدر الطاقة البشرية "[3]

---

(1) الحجر: 9.

(2) الفخر الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ، ط ٣، ج ١٩ص١٢٣

(3) السبزواري، ملا هادي، المنظومة

واذا تجاوزنا العلم والفلسفة وذهبنا إلى الشعر، فالشاعر كذلك لا يمكنه قول الشعر متى ما بدا له وكأن المعاني والصور حاضرة امام عينيه دائما، ويتصرف بالصور الخيالية في كل الاحوال، بل على العكس فهو مسخّر للشعر لا ان الشعر مسخّر له.

وقد حدث ذلك للمولوي بعد ان أتم الدفتر الأول من المثنوي تعسّر عليه انشاد الشعر، واستمرت هذه الحالة عامين، حتى عادت إليه قريحته الشعرية، وفاضت الحكمة من بين جوانحه.

﴿ قل ﴾ الواردة في القرآن قصتها واضحة، وهذا الاسلوب يعتبر من فنون الكلام بأن يوجه المتكلم الخطاب لنفسه قاصداً غيره، والمولوي يعطي امثلة جيدة عندما يخاطب نفسه في المثنوي وغزليات شمس.

إذن ما الفرق بين:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾(1)

و **﴿قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم﴾** (2)

أو **﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أو ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾** (3)

ولست أدري كيف يعالج اية الله سبحاني الآية: **﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾**(4) فهل كان النبي يشك في نبوته؟

إن الأرثوذوكسية الإسلامية ترفض هذا التفكير.

---

(1) الإخلاص:١

(2) ﴿ قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ال عمران: ٦٤

(3) ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ او ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾.الاسراء: ١١٠.

(4) ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ يونس: ٩٤

أو أن الآية تحمل نوعًا من التفنن في الكلام كأن يكون الخطاب متوجّها لغير النبي، ويظهر ذلك من سياق بعض الآيات مثل: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[1].

نعم يمكن بيان المراد بأنواع مختلفة من أساليب الكلام.

ان اسلوب الحوار في القرآن والذي شرحته في كتاب بسط التجربة النبوية يكشف النقاب عن الفنون البلاغية بوضوح، ويكشف عن ذهنية النبي تجاه الناس وحوادث المجتمع، سواء في الموضع الذي يقول فيه ﴿ ويَسَألُنك﴾ أو في غيره، وكأن القرآن حوار متواصل ومتعدد الجوانب بين الله والكون والإنسان والطبيعة والتاريخ الذي كان النبي يعيش في وسطه، وفيه إجابات عن تساؤلات وتحديّات ذلك العصر، وإن التساؤلات التحديات هي التي كانت تجعل روحه متعطشة ومتلهفة لكشف الحقائق ليحصل على إجابات من ملك الوحي، ونقلها إلى الناس بلغة يفهمونها.

وكل هذه المتطلبات الكامنة أحيانا والظاهرة أخرى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾[2] كانت توقظ ضمير محمّد وتحفز تلاطم بحر وجوده وهو الذي ادّى إلى اكتشاف الوحي.

لمحمدٍ شخصية استثنائية بطبيعة الحال، هو زهرة نبتت وسط الصحراء، ويتيماً لم يقرأ كتاباً وجاء بكتابٍ صنع ثقافة في محيط من الجهل والظلام ويُعَد ذلك في لغة الدين معجزةً، وهذا ما جعل من النبي وكتابه إنساناً وكتاباً فريداً لا يضاهى، وعلى رأي مولانا " غريبٌ، غريبٌ كعلوّ الله "، فالمعجزة هو شخص محُمّد، والقران اكتسب اعجازه من اعجاز محُمّد، لو جاء شخص آخر مثل افلاطون لما كان معجزة، أما محُمّد الامّي فلم

(1) ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾البقرة: ٢٣

(2) ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة: ١٤٤

يحتمل منه صدور مثل هذا الأمر الخارق للعادة، فليس عبثا ما قاله بعض المفسرين في تفسير الآية: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[1] أي بسورة مثل شخص محمّد، كما في تفسير الصافي والميزان ومفاتيح الغيب.

وليس عبثاً ذهاب كبار المعتزلة والتشيّع إلى إمكان الاتيان بمثل القرآن لكن الله يحول عنهم، وهو مذهب الصرفة.

لقد كان لهذه الشخصية البديعة قلبٌ متيقظ، وعين واعية، وذهن متوقّد هي من صنع الله، اما سائر الأمور الأخرى فهي من صنع هذه الشخصية، وتابعة لكشفه وإبداعه، لقد كان محمدٌ كتاباً كتبه الله، وكان يقرأ كتاب وجوده ويترجمه قرآناً، ومن هنا كان القرآن كلام الله حيث خلق الله محمّداً وخلق محمّد القرآن، فكان القرآن كتاب الله. كما خلق الله النحل فأنتج النحل العسل، فكان العسل نتاج ذلك الوحي.

نعم، فلو نظرنا إلى ظاهر الآيات والروايات نجد الله متكلّماً ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

كما أنه يمشي على قدمين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾[2]

و كذلك يعتريه الغضب ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[3]

و يجلس على العرش ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[4]

و يعرض له التردد " مَا مِنْ شَيْءٍ أَتَرَدَّدُ فيهِ مِثْلَ تَرَدُّدي عِنْدَ قَبْضِ رُوحِ الْمُؤْمِنِ "[5]

---

(1) البقرة:٢٣ النساء:١٦٤

(2) ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ الفرقان:٢٣

(3) ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الزخرف: ٥٥

(4) طه: ٥

(5) هذا الحديث القدسي ورد في منابع متعددة بتفاوت مختصر من المصادر الشيعية والسنية:
الكليني، الكافي، باب الرضا بموهبة الايمان، ج٣ ص ٣٤٤
الصدوق، التوحيد، باب ٦٢، ص ٣٩٩، ح ١
أحمد بن حنبل، المسند، ج٦ ص ٢٥٦

أما لو نظرنا إلى المعنى فلا يصدق أياً من تلك المحاذير، فالمتكلم الحقيقي هو مُحَمّد الذي يكون كلامه؛ لفرط قربه وأنسه هو عين كلام الله، وان اسناد كلامه إلى الله كإسناد سائر الأفعال البشرية إليه على سبيل المجاز دون الحقيقة، والتشبيهية دون التنزيهية.

الموديل والنسخة التي رسموها للوحي تصوّر النبي كناقل ومتلقٍّ محض، والعلاقة بينه وبين الله كالعلاقة بين الخطيب والمايكرفون، والهبوط بقلب النبي وضميره إلى مستوى الصفر، وجبرئيل مجرد ساعي بريد يتردد على الدوام بين الله والنبي، ويقيم بين الباعث والمبعوث، وهذه تمثل علاقة البعد بدلاً من علاقة القرب، ويجعل من الرسول مقلّداً لجبرئيل، ويصوّر الله سلطاناً والناس رعايا لذلك السلطان، ويرى كلام الله من قبيل كلام الناس، ويقرّ التشبيه بدلاً من التنزيه...

هذه النظرة لا تنسجم بطبيعة الحال مع الرأي المذكور آنفاً.اما المثال التوضيحي الذي اوردته هو مثال النحل القرآني أو النخل العرفاني، الذي يعتبر ما يقوم به من عمل عين ما يوحى اليه؛ فيغدو بيته مليئا بالحلوى:

و كما اوحى الرب إلى النحل تعالَى   بيت وحييه صار مليئاً بالحلوى

هو بنور وحي الحق عزّ وجل   صنع العالم شمع وعسلا[1]

و الآية القرآنية هكذا تقول: وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ[2]

ومن الواضح ان للنحل دور ومدخلية في نتاج الوحي، وليس مجرد ناقل للعسل، بمعنى ان يأخذه من مصدره ويوصله لغايته كما يفعل سعاة البريد، ومع ذلك فهو شراب الهي للاستشفاء.

---

(1) المولوي، المثنوي، الدفتر الخامس، الأبيات ١٢٢٩ – ١٢٣١

(2) ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل: ٦٨- ٦٩

أفلا تكفي هذه الآيات ليتدبر المفكرون والعلماء ان القرآن من قبيل نتاج النحلة، وليس من قبيل ما يردده الببغاء.

و مثال الشجرة أورده ابن عربي في الفص الشيثي من فصوص الحكِم.

يقول في تشبيهه لأهل اكشف وما يحصلون عليه من كشوفاتهم: " فمن شجرة نفسه جنى ثمره غرسه "[1].

أجل، إن في النحل آية لمن تدبر ونظر، ولو أن سماحة آية الله نظر إلى النحل والنخل بدلاً من الببغاء لحصل على صورة أروع وأفضل للوحي المنسوب إلى مُحَمَّد، فأين الببغاء المقلّد من النحل المنتج.

وأين كلام حافظ من كل ذلك:

في مـــرآة الببغـــاء صـــفاتٌ   كلما قال الاستاذ قُل كرره

وأين كلام المولوي:

هو وحي النبوة لا خازنُ امين   ولا أقلَّ من وحي قلب النحلة[2]

الرابع:

الحذر من تصور ان النبي كان يسمع كلام الله من جبرئيل على نحو ما نسمعه نحن من كلام النبي، أو تصور ان النبي كان مقلّداً لجبرئيل كتقليد الأمة للنبي، هيهات اين

---

(1) " فأي صاحب كشف شاهد سورة تلقى إليه مالم تكن قبل ذلك في يده فتلك عينه لا غيره، فمن شجرة نفسه جنى ثمرة علمه " ابن عربي، فصوص الحكم، بترجمة مُحَمَّد على موحد، طهران، نشر كارنامه ص ٥ (المؤلف)

(2) المولوي بخذاقته وعرفانيته لا يعد النحلة فقط تتلقى الوحي بل حتى دودة القزّ ايضا،
المولوي، المثنوي، الدفتر الاول.
وليس فقط النحلة ودودة القز بل كل الغابات والاشجار تستقبل الوحي وتصبح مليئة بالابتسامة والفاكهة،
المولوي، ديوان شمس، الغزل ٨٦٤
حافظ في البيت الآتي يقترب من مفهوم الوحي:
البلبل من فيض معرفته بالزهور، كل هذه الكلام والغزل معبأ في منقاره
حافظ، الغزل ٢٧٧

هـذا مـن ذاك؟ هـذان نوعـان متباينـان، ولم يكـن التقليـد يومـاً علمـاً اصـيلاً أو سماعـاً حقيقياً؟[1]

فمحور الكلام في ملك الوحي ونوع ارتباطه بالنبي، واذا تجاوزنا الحشوية والحنابلة فليس من الفلاسفة المسلمين ابتداءً من ابن سينا إلى الخواجة نصير الدين الطوسي من هو قائل بإمكانية الوحي دون تدخل القوة الخيالية للنبي، واذا كان هناك جبرئيل فهو حاضـر ومتصـور في مخيلـة النـبي، أي حـتى في هـذه الناحيـة تلعـب المخيلـة دورهـا في استقبال جبرئيل تعطيه صورته وصفته، واذا كان لـه مـن دور فهـو اعـداد النبي ليصل بنفسه إلى العلم الاصيل، لا ان يكون النبي تلميذاً يتعلم من جبرئيل؛ ليعلم الناس فيما بعد ما تعلّمه منه.

هـذا هـو الفهـم الفلسـفي للوحي، وهـو بطبيعـة الحـال يختلـف عـن الفهـم العـامي اختلافاً كبيراً؛ كـاختلاف المنضـدة بـين رؤيـة علمـاء الفيـزياء ورؤيـة عامـة النـاس، حيـث يقـول الفيزيائي الإنكليزي استانلي أدينغتـون: " ان المنضـدة في عـين العامـة عبـارة عـن شيء صـلب صـلد لا تجاويف فيه، الا انها في عين الفيزيائي مليئة بالتجاويف، حيـث يراها عبارة عن ذرات الكترونية لا حدّ لها، لكن يمكـن الحـديث عـن احتمـال زيادتها أو نقصانها هنا وهناك، وعندما نعمل المنشـار فيهـا تتمحـور هـذه الـذرات فيمـا بينهـا ... " وهذه هي حقيقة الملائكة بالنسبة إلى الخاصة والعامة.

ورد في بعض الروايات: ان لجبرئيل ستمائة جناح أو ستمائة الف جناح، وان النبي شـاهده في المعراج على هـذه الصـورة، والقـرآن يقـول أيضـاً ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[2]. وقد ذهب عامة المفسرين ومقلّديهم إلى تفسير الاجنحة بمعناها الظـاهري؛ متصورين أن الملائكة ذوات الأجنحة تطير بين السماء والأرض[3].

---

(1) صدر الدين الشيرازي، الأسفار الأربعة، الموقف السابع من السفر الثالث، ج٧ص٩

(2) ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فاطر:١

(3) في تفسير الصافي وفي ذيل الآية الأولى من سورة فاطر، نقلاً كتاب الكافي:

عن أبي حمزة الثمالي قال: دخلت على علي بن الحسين (رابع الائمة) وهو يلتقط شيئاً وأدخل يده من وراء الستر، فناوله من كان في البيت، فقلت: جعلت فداك هذا الذي أراك تلتقطه أي شيء هو؟ فقال: فضلة من

وفي هذا المجال تعامل الفخر الرازي المفسّر والمتكلم في القرن السادس الهجري باحتياط واحتراس في تفسير هذه الآية فقال: ربما كان المراد بالأجنحة النشاطات المختلفة للملائكة من قبيل الأرزاق وقبض الأرواح وما إلى ذلك(1).

وحينما نصل إلى صاحب الميزان نجده يطرح هذا الرأي بقوة وجرأة أكثر، فقال من خلال التعرض لبحث لغوي تفسيري: ان الملائكة ليست اجساماً ليكون لها اجنحة، وإنما المراد من الاجنحة الغايات والاغراض المترتبة على هذه الاجنحة، أي الادوار والمهام التي تضطلع بها...

ثم أضاف: كان يتراءى في خيال النبي ان للملائكة أجنحة، الا انها هذه ليست اجنحة واقعية للملائكة، كما هو الحال بالنسبة إلى الملك الذي تراءى لمريم، والنار التي ابصرها موسى، وموارد أخرى(2) إن القرآن بوضوح تام يقول: أن للملائكة أجنحة مثنى وثلاثون رباع، والعلّامة يرى استحالة ذلك، ويقول أنها أجنحة في مخيلة النبي وليس في الواقع، وطبعاً ليس الطباطبائي فقط، وإنما هي خطوات في مسير الاسس الفلسفية التي شيّدها الفارابي والخواجة نصير الدين الطوسي ...، ولا تنتهي الا بهذا المقتضى والمقصد.

في هذا الأسلوب وبهذا التفسير يحدث نزول الملك والاتيان بالوحي، وامثال ذلك من الحوادث التي تقع في نفس النبي، ويتم بيانها بلغة دينية تشبيهية كأنها طائر بستمائة جناح يتنزل على النبي ويتحدث إليه بالعربية.

زغب الملائكة نجمعه إذا خلونا، نجعله سيحاً لأولادنا، فقلت: جعلت فداك وإنهم ليأتونكم؟ فقال: يا أبا حمزة إنهم ليزاحمونا على تكأتنا. الكليني، الكافي، باب أن الائمة تدخل الملائكة بيوتهم وتطأ بسطهم وتأتيهم بالأخبار، ج١ ص ٣٩٣ ح ٢.

(1) الألوسي في تفسير روح المعاني بعد نقله لهذا الحديث الشيعي يقول: وعندي ان امثال هذه الأحاديث خرافة. كتاب الكافي يعود إلى القرن الثالث الهجري، وكتاب الصافي إلى القرن الحادي عشر، وتفسير الآلوسي إلى القرن الثالث عشر؛ يظهر ذلك عودة العصرنة وأخذها محل الشك في الميتافيزيقية الأسطورية.

محمد بن عمر الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ج ٢٦ ص ٢٢٢.

(2) الطبطبائي محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ط ٢ ج ١٧ ص ١٢-١٣٥)

وببيان أكثر وضوحاً: أن التفسير الأوضح من وجهة نظر صاحب الميزان في قول الله ان الملائكة بجناحين أو ثلاث أو أربع، معناه وتفسيره: أن النبي يقول إني أراهم بجناحين وثلاثة أجنحة وأربعة ...

وأي فرق بين هذا المعنى وقول العرفاء أن النبي كان يُنزل جبرئيل وأن جبرائيل ما هو إلا وعي النبي وإدراكه[1].

والحقيقة هي: أنه يجب اتباع الفلاسفة والعرفاء في ما يقوم به النبي من تصور الحقائق المجردة، وهذا ما لا يمكن لغير الأنبياء القيام به، ويأتي العرفاء والشعراء في مرحلة متدنية:

في مقدمة صفات الكبرياء   يأتي الشعراء وفي المقدمة الأنبياء

ولا يقتصر تصوير النبي للأجنحة والطيور في المخيال المبدع للنبي، بل يتعداها إلى تصوير اللوح والقلم والعرش والكرسي، وكذلك النار والحور والصراط والميزان وما إلى ذلك، وقد استعار النبي هذه الصور من البيئة التي يعيش فيها والمألوفة له، إذ لا تجد صورة غريبة عن محيط البادية العربية بين تلك الصور [2].

أما اللغة والألفاظ والكلمات فلا كلام في انها قوالب بشرية، وقد استوعبت الوحي في متنها، وكلها منبثقة من المخزون العقلي للنبي ومستوعبة للمعاني المجردة.

وتكمن صعوبة ما يقوم به الأنبياء والعرفاء في رسم الصور التي تفرض حجاباً على المجردات، مما يؤدي بعبدة التعلق بالصورة إلى الغفلة عن الأصورة بل يكفّروا من يكرس رؤيته على الواقع التجريدي.

---

(1) السيد الخميني في خطاب له في ١٤ إبريل ١٩٨٧ (كما في المجلد السادس من صحيفة النور) هكذا قال: "شهر رمضان مبارك لأن الوحي نزل فيه، وبعبارة أخرى: معنويات رسول الله هي التي انزلت الوحي، وعبارة أخرى: ان النبي الاكرم هو الذي انزل جبرئيل الامين إلى الدنيا ..."

المولوي يقول في اولياء الله: الفائدة من الولي قائمة ودائمة إلى يوم القيامة * والإمام حيٌ قائم لأنه من نسل علي وعمر * لانه نور وادراك جبرئيل وهو قبس من قنديله. (المؤلف)

(2) حول الصورة واللاصورة تحدثت وكتبت الكثير، ويمكن القول والحديث فيها أكثر من ذلك، هذه النظرية لها بالغ الاثر في بيان التأويل والاسطورة الدينية، للاطلاع أكثر يراجع موقعي على الانترنيت، وكذلك الاعداد المختلفة من مجلة آفتاب، ٢٠٠٤ (المؤلف).

أنا اشعر بضيق اللسان ومرارة البيان عن الافصاح عن رجل عظيم كجلال الدين الرومي المولوي فكيف بالأنبياء، وأفهمه جيدا عندما يتحدث عن اللاصورة والمجردات[1].

كان نبي الإسلام يمارس مهام النبوة وهو محاصر من جهتين:

الأولى: الصور التي تحد من كشوفاته المجردة، وتقيّد اللامكان في بعده المكاني.

الثانية: الحصار العرفي حيث يعطي لعدله وسياسته صفة محلية وعصرية، ويلبسها ثياب القوانين القبلية الضيقة، وهي التي يُدعى الشرّاح إلى ترجمتها فلسفياً وعرفانياً وثقافياً.

وما أن يتكلم الله (أو النبي) باللغة العربية حتى يمضي بالعرف العربي ويكون قد فرض على نفسه بعض المحدوديات مسبقاً، ولم يقم أي دليل على ان اللغة العربية هي أفضل اللغات في احتواء المعاني المجردة في عمقها، فإن المواضيع وان كانت من النبي الا انها تصورات ومفاهيم لغوية، وإن هذا التصورات والمفاهيم تضع القيود على التصديقات، وهكذا الاعراف والتقاليد السائدة في عصر النبي، والتي لم تكن أفضل الاعراف والتقاليد الموجودة والممكنة، ولكن الشارع أمضى اكثرها وصادق عليها فاتخذت صفة الاحكام الإلهية.

إن الوحي الذي نزل على النبي قد نزل باللغة العربية، والعربية هي المرآة المنبثقة عن ثقافة القوميات العربية، " وليست هناك لغة نازلة من السماء دون غيرها "[2] وهذه الثقافة هي التي تغدو مادة لتصوير الوحي، أوَليس النحل الذي يتغذى على الازهار والنباتات المحيطة به ويحولها إلى عسل أفضل مثال لما يقوم به الأنبياء من الاستفادة من المواد الموجودة بين ايديهم، وما يوفره الزمان والمكان الذي يعيشون فيه، ويوظفونه في تجربة وحيهم، ويصنعون من التراب ذهباً.

---

(1) المولوي، المثنوي، الدفتر الثالث، الأبيات ١٢٧٨-١٢٦٩

(2) كما يقول ويتغنشتاين (المؤلف)
Ludwig Wittgenstin 1889-1951

لا يصح الابتعاد كثيراً، ويجب ادراك مفهومي" النزول" و"البشرية " بعمق؛ لفهم معنى الوحي واعتبار كل ما فيه بشرياً، وهذا عين ما يقوله القرآن.

يتساءل المعاصرون للنبي قائلين: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾[1] فكانوا يتصورون ان النبي مَلكاً لا يأكل ولا يتزوج.

والمعاصرون اليوم يرددون ذات التساؤلات حيث يقولون: ما لهذا الرسول يتناول ثقافة عصره، ويمشي في اسواق التأريخ وأزقته؟ كلا المنطقين واحد، فكلاهما يريد من النبي ان يتنصل عن بشريته المحاطة بالزمان والمكان واللغة والثقافة، ولا يكون ذلك الا بتحوله إلى مَلك.

نعم، كان النبي إنساناً استثنائياً، وكما يعبّر عنه في اللغة الدينية بأنه " ولي الله " الا ان ولايته لا تنفي بشريته، فإن وعاء البشرية من السعة ما يستوعب الولاية والنبوة، وان شَهْد كلام النبي يحكي نحلة في عالم قدسي، وليس ببغاء سدرة المنتهى، وكانت اختياراته واسعة أيضاً، فكل ما يفكّر به ويقوله كان الله يصادق عليه ويمضيه:

ألم يزيد في عِداد ركعات الصلاة، كما ورد في مسند أحمد بن حنبل، ووسائل الشيعة للحر العاملي.

ألم يقل " لولا ان اشق على أمتي لأوجبت السواك لكل صلاة "، كما ورد في سنن الترمذي.

ألم يقل: " لو قلت حجّوا في كل عام لوجب الحج في كل عام "، كما ورد في صحيح مسلم.

ولم تكن احكاماً مؤقتة، وبرغم بشريته يرى نفسه مقبولاً عند الله، ومن خلال بشريته يتخذ الوجوب والتحريم صبغة الهية.

إن هذا النوع من النظر إلى الإسلام والأحكام والقرآن يساعد على فهم ظاهرة الوحي، ويخفف من وطأة التأويلات المتكلفة، ويفتح القرآن أمام أعيننا بوصفه نصاً تاريخياً وبشرياً، ويحول جغرافيته السماوية إلى جغرافية أرضية.

---

(1) ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إليه مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾الفرقان ٧

ومن هنا لا نستغرب كون التقويم القرآني تقويماً قمرياً، وان يوجب على المسلمين صيام شهر رمضان، كما في سورة البقرة.

أو أن يرشد الناس إلى عظيم صنع الله من خلال النظر إلى خلق الإبل، كما سورة الغاشية.

أو أن يحدِّث جميع الأديان عن إيلاف قريش، كما في سورة الغاشية.

أو أن يخص باللعن أبي لهب من بين جميع الأعداء، كما في سورة المسد.

أو أن يُجلس حور الجنان في الخيّام العربية، كما في الرحمن.

أو يتحدث عن وأد البنات، كما في التكوير.

أو المبالغة في ايمان الجن كما في الجن.

أو الإخبار عن أزواج النبي وسلوكياتهن، كما في سورة التحريم

أو بيان عقائد الاعراب بشأن بنات الله، كما في النجم، مما هو بلون وذائقة عربية قومية شخصية هو شديد الصلة ببادية الحجاز، وإننا اذا ابتعدنا عن هذا المحيط قليلاً لن نعثر على شخص يطرب لهذه الصور الغريبة عن ثقافته واعرافه.

وكذلك لا نستغرب جواب القرآن عن اسئلة لا تستهوي غير العرب وليست بالمهمة اصلاً كسؤال الأهلة، وذي القرنين، وسن اليأس عند النساء، والقتال في الاشهر الحرم، مما يعود إلى السابقة الذهنية والتاريخية لسكان الجزيرة أو نمط حياتهم.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى السماوات السبع، او خروج النطفة من بين الصلب والترائب، أو رجم الشياطين المتطفلين بالشهب، أو كون القلب هو مركز الادراك (لا المخ) مما يُعد قصور في العلوم البشرية آنذاك.

وأين هذه الآيات من آيات مثل:

﴿وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمور﴾[1]

---

(1) فاطر: ٤

أو ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.[1]

أو ﴿هُوَ الأول وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [2]

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [3]

هذه الآيات تكشف عن اوج المعراج الروحي للنبي، وقوة اكتشافه لحجب الغيب، وإلا كيف نفسّر كل هذه الأنواع من القبض والبسط والصعود والهبوط.

أليس من الأصح البحث عن القبض والبسط في وجود النبي نفسه، وهو الذي دخل المدرسة الاجتماعية بوصفه أستاذاً معالجاً، حيث عدّ القرآن الشفاء والتعليم رسالتين أساسيتين في مهمة النبي لإلقاء بعض الدروس وهي الحِكم وثمار النبوة التي ملأت جوانحه حتى فاضت، فأحب ان يشارك بها الاخرين وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ[4] وحل مشاكل الناس وإزاحة أوجاعهم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[5]، ثم يرجع وبتحفيز الهي يبدأ خطواته في مدرسة المجتمع ليعلم الجاهلون ويشفي المرضى، ورأس ماله الاساسي الروح الطاهرة، والحياة الزاهرة، والقلب المتألم، والخيال المتفنن، كل ذلك يرشده إلى رؤية الحقائق وحكاية تجربتيه الحياتية، وحكاية الحياة والعالم يصّورها في نظره برونق آخر، ثم يعرضها على المخاطبين ويُفصح من خلالها عن كشفه الجديد ببهجة وبلاغة متعالية.

والذي يراه مشرقاً من العالم هو ان كل شيء فيه الهيٌ غير متكئ على ذاته، حضوره موجود في كل مكان كالشمس تضئ الافاق، اينما يذهب يجده امامه، الرياح والمطر هو من يرسلها، والزرع هو من ينبته، وهو من يعطي الروح ويستردها، والحياة ذاهبة إلى مقصد، والبصر الناظر إلى العالم الحسن والسيء، هو من يهب القدرة على

---

(1) النور:٣٥

(2) الحديد:٣

(3) البقرة:٥

(4) الجمعة:٢

(5) التوبة:١٢٨

التمييز، يتأمل في ذاته يوم كان يتيما ضالاً فأعطاه قلباً يهتدي به، وزوجه بذات ثروة، فيرجع كل ذلك إلى الله ونعمته: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾(1)

ويعد الشكر واجباً تجاه كل هذه النعم، ويعلّم طلابه دروس الشكر والطاعة والبعد عن التكبر والانا والجاهلية، ويحذرهم من العصيان والتمرد والانحراف عن المنعم، فتحدث ضجة في الفصل، وتبادر جماعة إلى الانكار، وهناك من يشهر السلاح بوجهه، وهناك من يختبره بأسئلة تافهة، وهناك من يؤمن به ويسلم له، كل هذا منعكس بالدروس الشفهية التي القاها، واتخذت فيما بعد شكل المصحف، فيولد القرآن من صلب هذه التجربة الحية، ويتحول المعلم الشافي لدى مواكبته لهذه التجربة الحيوية أكثر خبرة، وتغدو دروسه أكثر ثراءً، ولا شك في ان حياته لو امتدت أكثر لكانت تجربته أكثر غناءً وسعة، وبعكس ذلك لو اكتفى واقتنع بعزلته في الغار لما عرفنا عنه سوى اكتشافات متعالية بسيطة.

وعليه من الصعب القبول بأن جميع هذه الجزئيات والأحوال والاسئلة قد كانت في قبالها آيات مكتوبة ومعينة منذ الازل، وأن الله قد وظف جبرئيل لإنزال كل آية وقت الحاجة اليها، وهو عين ما يصوره عامة العلماء السابقين، باستثناء الفلاسفة الذين كان لهم تصّور فلسفي عن الوحي، وقد ذكروا في كلماتهم بصراحة ضرب جبرئيل لجناحيه وتردده السريع بين السماء والارض.

كما أن من الخطأ تصور أن كل حادثة تحدث في الأرض تؤدي إلى تجدد ارادة الباري لينزل فيها آية، ويأمر جبرئيل بحملها إلى النبي، فهذا لا ينسجم مع ماورائية الطبيعة حتى عند الفلاسفة المسلمين، كما سيأتي ذكره، فإن هذا التصور يحوّل حياة النبي إلى فيلم معّد سلفاً، ليؤدي كل دوره ؛ فيعطى لفلان آية ليقرأها بشكل يتطابق والآية الموجودة والمعدّة قبل إنزالها على النبي، وليس للنبي من دور سوى التجوال على

(1) الضحى: ٦-٨

خشبة المسرح حاملاً مكبر الصوت ليكرر ألفاظاً يقرأها عليه جبرئيل، فهل يمكن التنزل بالنبي إلى أكثر من هذا المستوى.

أليس من المنطقي والمعقول ان نقول: أن شخصية النبي القوية تمثل الدور بتمامه فهو الكاشف والمعلم والناطق والسامع والمشرّع. أي ان ما قام به الله تعالى هو ارسال المعلم، وترك الأمور الأخرى تدور مدار تجاربه وردود فعله، وقد كان هذا المعلم معدّاً ومحصناً يعيد جيداً ما يقوله وما يفعله، ومع ذلك كان بشراً بكل الخصال البشرية، فأحيانا يرتفع رصيده التعليمي، وأحيانا يبتلى بطلاب مشاغبين، فتارة ينطلق شوقاً وحماساً وتارة أخرى يصاب بالملل والضجر، وتارة يسمو في كلامه، ويهبط تارة أخرى.. كالنحل يتغذى من كل شيء ؛ من الكشوف المعنوية السامية، إلى التساؤلات وردود الافعال المشاكسة والعدوانية، وإلى ما يختزنه من معلومات، وطبعاً مآل الأمور ينتهي بأجمعه إلى المبادئ العالية، ومنها إلى مبدأ المبادي وغاية الغايات، حيث لا تسقط من ورقة الا بإذنه وعلمه تعالى، ولا ينتج النحل من العسل إلا بوحيه.

طبعًا القران هو نتاج حالات النبي الخاصة، لكن هذا لا يعني انها أكثر متعالية من بقية كلام النبي، وهل سورة المسد أكثر دلالة وبلاغة من الحديث غير القرآني للنبي!

هذان نموذجان من الوحي، ما اقدّمه أكثر انسجاما مع تجربة النبي الحيوية ويوافق ما وراء الطبيعة التي يقول بها حكماء المسلمين وتأويل العرفاء، وما تقدمونه يروّج للأساطير ويوافق رؤية أهل الحديث، انتم تقولون بأن الله يقوم بكل شيء من خلال جبرئيل، وانا اقول بأنه تعالى يقوم بكل شيء من خلال النبي وجبرئيل ما هو الا جزء من النبي.

الخامس:

تقدم الاستدلال بالقاعدة الفلسفية القائلة "كل حادث مسبوق بمادة ومدة "، والوحي يكون مسبوقا بالشروط المادية، وعليه فالشروط الذهنية والجسدية للنبي معدّة وممهدة لنزول الوحي، وهذا ما استدعى اية الله سبحاني على الاعتراض، ومع الاعتذار فهذا الاعتراض غير وارد ؛ ولعل انغماركم في ممارسة الفقاهة هو السبب بي ذلك.

يقول صدر الدين الشيرازي: " بأن القاعدة لا تقتصر في تطبيقاتها على الأمور المادية كما تصورتم، بل هي جارية في الصور الجسمية والنفوس الانسانية، ويستثنى منها المفارقات المحضة فقط " [1].

وللتذكير اقول ان استاذكم العلاّمة الطباطبائي يقول في حاشيته على هذا الموضع من الأسفار: "أن القاعدة جارية حتى على قول المشائين الذين يذهبون إلى تجرد النفوس"، فيكون رأيه مطابقاً لصدر المتألهين، حيث يرى ان النفوس جسمانية الحدوث روحانية البقاء. وهذا الأمر واضح جداً.

و بعبارة اوضح: ان كل ما يتعلق بالمادة سواء كانت صورة أو روحاً أو وحياً فهو خاضع لهذه القاعدة، وان المادية الارضية شرط في حصولها وحضورها، وطبعاً ليس للمادة علّة فاعلة كما تقرر في الفلسفة الأولى.

و هنا أضيف شيئاً: إن تجدد الإرادة بالنسبة إلى الباري تعالى محال ؛ إذ لما كان الله تعالى لا يقع معرضاً للحوادث، ولا يطرأ عليه التغيير، فلا يمكن ان يغيّر إرادته من وقت لآخر، وعليه فإن تردد جبرئيل بين الله والنبي، ونزوله عند كل حادثة لا ينسجم مع ميتافيزيقية الفلاسفة والمتكلمين المسلمين، ولا يمكن توجيهه أو تعقّله.

نعم، قد يناسب تصوراً عامياً يرى الله سلطاناً وجبرئيل مجنحاً، وسماوات وارض بطليموسية، وهو التصور الذي ذهب إليه عموم المفسرين للقرآن ممن ينتمي إلى مرحلة ما قبل التطور.

و أضيف أيضاً: ان الاقوال الإلهية طبقا للحكمة والفلسفة الإسلامية غير مسبوقة أو معللة بالإعراض، وقد ثبت في محله استحالة قيام الباري تعالى بعمل للوصول إلى الغاية والهدف ؛ فهو ليس فاعلاً بالقصد، فإن تجدد الارادة وانزال اية للوصول إلى غاية أو إيضاح مسألة أو إيجاب أمر أو تحريمه من اشد المحالات على الله تعالى، فإنه وإن يتم بإذنه وعلمه وإرادته، الا ان هذه الإرادة ليست كالإرادة الانسانية.

(1) صدر الدين الشيرازي، الاسفار الأربعة، المرحلة السابعة، زالفصل السادس عشر، ج٣ص ٥٥

وإن حل جميع هذه المعضلات في الذهاب إلى نفس النبي القوية والمؤيدة وهي الفاعلة لتلك الارادة صاحبة الاغراض والغايات وخلاقة الآيات، وواضعة الاحكام، وهي النفس التي استحقت ؛لفرط قوتها ان تصبح خليفة الله على الارض، وأن تغدو يد الله وقول الله، وأن يكون القرآن معجزة له.

إن النظام الواحد للوجود، والنسبة الفاعلية والمعية القيومية لله تجاه جميع الممكنات، وقيام العلية في كافة أنحاء الوجود، لا تبقى أي موضع للروابط الاعتبارية والانسانية القائمة على السلطان وساعي البريد، فإن الله لا يديد العالم كما يدير الملك مملكته،، وإنما إدارته كإدارة النفس للجسد في النماذج التقليدية الطبيعيات،، فإن الجسد يعمل أتوماتيكياً، لكنه خاضع لإرادة النفس وسلطانها لا ان الدورة الدموية لا تقوم بوظائفها الا بإرادة النفس، رغم ان صدر الدين الشيرازي يقول ان التنفس أيضاً يعمل بإرادة خفية، لكنه مجرد مثال توضيحي يثبت إننا ما لم نكوّن تصويرًا صحيحاً عن نوع الرابطة بين الله والعالم فلن يتضح معنى النبوة، وسنبقى في حصار الأساطير التي تنحت لكل رابطة علّية أو فاعلية صورة حسية، وتملأ الاجواء بضجيج الكائنات الخيالية التي تتردد بين السماء والارض.

هذا الذي تقدّم مطابق لحكمة الحكماء المسلمون ومقبول للمخاطبين المحترمين وموافقا للفلسفة الجديدة.

السادس:

في باب الإشارات والتنبيهات وفي خصوص ما ذكره سماحة الشيخ من تعارض ظواهر القرآن مع العلم ... سوف لا اطيل في هذا المورد، لكن لا اخفي استغرابي من علماء المسلمين والشيعة وانهم لا يتعظون من تجارب الكنيسة وهم يكررون نفس اقوالها، ويعيدون سياستها تجاه كوبرنيك وغاليلو، ولا زالوا يعتبرون فهمهم للدين هو البديع، ولا يفكروا قليلاً في ان البناة الاوائل لهذا المنهج قد تركوه منذ أمدٍ بعيد، ولجأوا إلى أنواع القبض والبسط والانعطافات الكبيرة والعظيمة في فهم هرمونيطيقيا الصحف المقدسة.

قد مكثوا ردحاً من الزمن يمنّون النفس بالتوفيق بين العلم الحقيقي والوحي الحقيقي، وأخذوا يسخرون من العلم لفترة، وتحدثوا برهة عن عدم فهم المراد الجدي للمتكلم، وعمدوا في احيانٍ أخرى إلى تأويلات بعيدة، ولكنهم رغم ذكائهم وعبقريتهم أخفقوا في نهاية الامر، واذعنوا بفشلهم، وصححوا مسارهم وأسسوا لطرح جديد لإدراكهم وتصورهم عن الباري تعالى والوحي والعلم من الاساس، واخرجوا انفسهم من زوبعة هذا الاعصار الهادر. ان حجم المؤلفات المتعلقة بالتعرض بين العلم والدين قد بلغ من الكثرة درجة لا يستهان بها، ومع ذلك لايزال نصيبنا منها محدود جداً.

إذا لم يتضح المراد الجدي للمتكلم بعد مضي ألف وأربعمائة عام، إذن هذا المراد الجدي لمن وأين؟

إذا كان يتعين علينا الانتظار طويلاً ليقم العلم التجريبي بالكشف عن المراد الجدي عما هو معنى السماوات السبع؟ ولماذا يقرع الكل على رأس هذا العلم؟ هذا العلم الذي نستمد منه برهان النظم لإثبات وجود الله، والعلم الذي يستند إليه العلامة الطباطبائي في تأويل معنى رجم الشياطين بالشهب ويفتي على خلاف إجماع المفسرين؟

وإذا كان العثور على المراد الجدي للمتكلم يستغرق كل هذا الوقت الطويل وتلك العقبات في مثل هذه المسائل الثانوية كالسماوات السبع مما لا ربط له بسعادة المؤمنين وشقائهم، فكيف يكون الأمر في ما هو أهم كمسائل المبدأ والمعاد؟

ألا يؤدي هذا النوع من الفهم والتعاطي مع القرآن إلى خروق لا تقبل الرتق؟

ألا تُهدينا سُبل المعتزلة طرق أفضل في اعتبار المسائل القرآنية مسايرة في حقيقتها للمعتقدات السائدة بين العرب، لنتخلص من التأويلات البعيدة وغير الصحيحة، ونخلّص القرآن وننفض عنه غبار هذه الإسهامات؟ سواء كانت هذه الآيات مجرد مجارات للعرب ام نابعة من محدودية علم النبي.

قلتم: لو احتمل وجود مثل الاخطاء العلمية في القرآن سوف تضعف من الاعتماد على القرآن، وسيغدو كله محتمل الخطأ.

يا للعجب!! أليس في القرآن محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ، وهل انفصمت عرى الاعتماد بالقرآن؟

نعم ستبقى هناك آيات مجهولة المعنى، لا يعرف ان كانت محكمة أو متشابهة مثل لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ حيث ذهب بعض المفسرين إلى نسخها بآيات القتال.

صحيح ان القول بالنسخ سيجعل بعض مواطن القرآن عديمة الجدوى، ولكن هل صرف احتمال النسخ أفضى إلى عدم الجدوى؟

هل أخل التفسير في فهم الكتاب والتعاطي معه؟

وهذه مقولة أهل الظاهر ؛ حيث كانوا يحذرون من القول بوجود الاستعارة والمجاز في القرآن لأنه سيفضي إلى عجز الباري عن استعمال الحقيقة، وسيخل بالاعتماد على القرآن، وقد يختلط علينا الأمر أحيانا فلا نعرف ما اذا كان الاستعمال في بعض المواطن حقيقياً ام مجازياً، إلا ان تاريخ القرآن أثبت بطلان هذا الوهم، وإن ابقى على بعض الموارد المتشابهة.

سماحة الشيخ السبحاني:

الكلام ليس في صحة رأي السيد الطباطبائي أو خطأه في تفسير " الشهب والشياطين " وإنما في المنهج وانه استفاد من هذا التفسير من العلم الحديث والميتافيزيقيا الإسلامية اليونانية، فأبطل فهم جميع من سبقه من المفسرين، فإذا كان العلم بمثل هذه القوة، وكان حسناً، فهو حسن في جميع المواطن، حتى عندما يؤدي إلى نتائج تخالف ما نحن عليه، والمهم هو فتح باب الحوار بين الوحي والعقل، وليس إلغاء احدهما بقرار الآخر.

أما حديث تلقيح النباتات وتأبير النخل ممكن ومثلما قلتم انه ضعيف أو موضوع، هذا ليس مهماً، فهناك الكثير من الموضوعات في كتب الحديث الشيعية والسنية، والمهم هو ان المسلمين وكبار العلم والعرفان قد عايشوا هذه الروايات لقرون طويلة وآمنوا بها، ولم يجدوها منافية للإيمان والنبوة، فقد ذهب شخص بمكانة ابن عربي – وامثاله الكثير – إلى الاعتقاد بجهل النبي الاكرم حتى بعلوم عصره من الطب والفلك

والنبات، فضلا عن العلوم التي تأسست فيما بعد، ومع ذلك لم يعتبر ذلك مؤشراً على ضعف الايمان، ولا موجب لوهن النبوة.

ألم يؤمن كثير من علماء أهل السنة بأن قصة الغرانيق كانت تدخّلاً من الشيطان في الوحي النبوي ومن بينهم الغزالي وابن تيمية والمولوي؟

ألم يذهب بعض علماء الشيعة إلى تحريف القرآن؟

قد لا ترون صحة هذه الآراء لكن لا يمكن انكارها ؛ لأن كبار العلماء كانوا يؤمنون بها دون اعتبارها منافية للإيمان والوحي النبوي، وبقوا متمسكين بإيمانهم بإسلامهم وقرآنهم. والأمر الآخر الاهم: انه لم يبادر أي إلى تكفير من يقول بتحريف القرآن، أو يؤمن بقصة الغرانيق.

ختام الكلام ...

ينبغي النظر إلى الإسلام في ألوانه المتعددة ؛ فهو غير منحصر في الحوزات الشيعية في ايران، أو المدارس الوهابية في شبه الجزيرة العربية، بل الإسلام هو مجموع الفهم والتفسير المقدّم عن الإسلام، وهكذا المسيحية واليهودية والماركسية و...

ولو قصرنا النظر على اسلام المحدّثون والفقهاء لم يبق عطر ولون للحضارة الإسلامية، ولو ان الأرثوذكسية نجحت في فترة ما بالوقوف امام انسيابية الكلام والتفسير فعلى الحوزات العلمية ان تكون الرائدة في ازاحة العقبات من امامها، وان تعمل على الترحيب بتنوّع الآراء الكلامية، دون وصفها بالكفر والايمان ودون ان تصاب بعقدة الاستغناء والجمود، فالطريق الوحيد لاستمرار الدين وبقاءه إنما يكون عبر فتح الابواب واستنشاق هواء جديد ونظيف، والعودة إلى ما كان يتمتع به الإسلام من تنوّع في الثقافة، وتسابق المسلمين إلى أخذ الحكمة من الهند والصين وإيران واليونان.

لا بّد من حفظ كرامة السنن والطرق والمشارب المختلفة للثقافة الإسلامية، ولا تكون الامنيات في احياء احدهما وموت سواها، فقد تعايش في تاريخ هذه الديانة جميع الالوان والاطياف بدءاً بأهل التأويل والباطنية واخوان الصفا والمتصوفة والفلاسفة، إلى أهل الحديث والظاهريين والحشوة والحنابلة والمجسمة وغيرهم ...وكان لهم حضورهم،

وكلهم كانوا مسلمون، وقد اسهم الجميع في تحريك ديناميكية هذه الحضارة، واذا حدث ان تغلّب احد هذه الالوان يوماً بالقهر والغلبة سيكون ذلك اليوم هو يوم احتضار هذه الديانة، وليس من العبقرية غلق الابواب والتوافذ، بل اذا امكنكم فتح باب جديد فافعلوا.

لم يبقَ أمام المسلم المعاصر من خيار سوى الحوار، وليس حوار الجماعة ذاتها، وإنما الحوار مع الصديق والعدو على حد سواء، الحوار مع العلماء دون الجهلاء، بهدف تحريك الجمود الذي اصاب الإلهيات الإسلامية، والعودة بها إلى ما قبل العصر الأرثوذوكسي، والحوار بحاجة إلى تحمل وسعة صدر واستعداد وتواضع واقرار بالحاجة ورغبة في التعلم وجرأة في التفكير ونبذ التقليد واحترام الفكر بوصفه تدفقاً مقدساً، لا بوصفه منطقة خطرة أو مجلساً للمعصية، ان الذين يطالبون الباحثين بالتوبة إنما يأتون ببدعة سيئة، يحبسون طائر الفكر في قفص الفقه، ويخيفون ظباء التفكير من ذئب التكفير، ويشربون التحقيق بالتفسير،، ويرفعون المقلِدين على المحققين، ويجلّون الببغاوات ويقدمونها على النحل، ويحولون الدين إلى حلبة للصراع والخصومة، ويبيعون الخل بدلاً من العسل.

و هل إذا سقينا شجرة الفقاهة بماء الكلام الآسن ستنمو صحيحة لتصدر الأحكام والفتاوى السليمة؟

و هل سيتمكن الكلام المصاب بآفة الجمود الفقهي من كسب جولة جديدة؟

الفقهاء المعاصرون قد تورطوا في مغالطات مهلكة، فبدلاً من اعتمادهم على المتكلمون وكلامهم في عملية تجديد فقههم تراهم يهاجون المتكلمون، وبدلاً من الاقرار بحاجتهم إلى المتكلمين يصرون على العكس، وما ذلك الا بسبب شعورهم بالسُمنة والغرور، واستصغارهم لعلم الكلام، وما دام التوازن والتواضع مفقودا فلا ترجو حلاً لمعضلات الدين المستحكمة.

عبد الكريم سروش

مارس ٢٠٠٨

واشنطن

رُؤْيا مُحَمّد

محمد ﷺ راوي الأحلام النبوية (١)

الأول:

يقول جلال الدين مُحَمَّد البلخي [الرومي]:

" القرآن هو احوال الأنبياء "[1]

و استميح روح هذا العزيز العذر واقول: " القرآن هو أحلام المصطفى " ولكن أي أحلام:

حُلــمٌ اراه لكــن لــيس في الحلــمِ ادعيــه ولكــن لســت كــذابٍ[2]

أدعي في هذه المقالة أننا نغفل عن مسألة سهلة ومهمة في فهم الكلام الموحى، وهي ان المعنى الصحيح والعميق في لغة القرآن انها انسانية وبشرية، والقرآن بطريق مباشر ومن دون الوسائط هو من تأليف وتجربة وتفاعل روح مُحَمَّد ﷺ.

إن لغة القرآن بشرية تعكس تجربة النبي ولغته وبيانه، والتي أصبحت بالتدريج أكثر نبوية واكثر بياناً، مُحَمَّد التاريخي وفي سيره التكاملي وفي خطواته الزمانية أصبح أكثر نبوية، وروحة وبصره أصبحتا أكثر انفتاحاً وبياناً، واكثر حدّة في صيد المعاني والمعارف، واكثر معرفة واشد وصفاً لله، واكثر ممارسة واكتشافاً لطرق مبتكرة في حلّ مشاكل المجتمع، ولو عمّر أكثر لأصبح أكثر غوصاً في معرفة الخير واقوى هضماً للمفاهيم من بحر الحقائق واستخراج جواهره الثمينة، والقرآن أكثر ثراءً، والعالم أكثر استطاعة[3].

---

(1) جلال الدين المولوي، المثنوي، انتشارات علمي فرهنكي، بتصحيح عبد الكريم سروش، الدفتر الاول، البيت ١٥٤١

(2) المصدر السابق، البيت ٤٠٦٥

(3) يمكن ان يكون ما ذكرناه مدلولات ومعلولات مستفادة ومستنبطة من دعاء النبي ﴿ربي زدني علماً﴾ طه: ١١٤، واستجابة لدعائه زاده الله علماً في سيره التكاملي وأصبح أكثر نبوة.

قلنا: ان هناك الكثير من القوانين شّرعت بلغة عربية وعرفية وبشرية منبعها ضمير النبي وتجربته القدسية، ولغة التجربة لم تكن مقدسة أو الهية، حتى في مقام التأسيس، وإنما احوال النبي وصوره الذهنية والحوادث المحيطة به، والوضع الجغرافي والاجتماعي القبلي هو من ألبسها الغطاء التاريخي والجغرافي.

بمعنى ان الله لم يقل خطاباً ولم يكتب كتاباً، بل الإنسان التأريخي هو من تكلم بدلاً عنه وكتب كتاباً بالنيابة عنه، وأصبح خطاب الإنسان التاريخي خطابه، وقولٌ الهي في جلد بشري، وما وراء الطبيعة اضحت في ثوب طبيعي، وما وراء التاريخ أصبح في معرض التاريخ.

ومع كل هذه النوافذ في فهم الوحي لازالت هناك نافذة كبيرة مغلقة، وهذا المقال بصدد فتح هذه النافذة.

الثاني:

أوردت في عنوان المقال " محمد ﷺ راوي الأحلام النبوية " وفي كل صيغة في العنوان خصوصية مقصودة، سأعرض اليها تباعاً:

محمد راوي

بمعنى أنه ليس مخاطَب وليس بمخبر، وكذلك ليس بمخاطِب يأخذ الأصوات في سمعه الباطني ويبلغه إلى الاخرين، بل إن محمداً ﷺ راوٍ لتجارب، ومشاهِد لمناظر قد رآها، والفرق عظيم بين ناظر راويٍ ومخاطَب مخبر.

لم يخبروه بأن اذهب إلى الناس وقل لهم ان الله واحد[1]، بل هو الذي رأى الله بصفته الوحدانية وشاهدها، ونقل مشاهداته الينا.

لم يخبروه بأن اذهب إلى الناس وقل لهم بأن الله والملائكة وأولي العلم شهدوا بوحدانية الله[2]، بل هو رأى وسمع شهادة الله والملائكة وأولى العلم، وروى ما رآه وما سمعه.

(1) ﴿ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ الحشر: ٢٢

(2) ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ ال عمران: ١٨

لم يخبروه بأن اذهب إلى الناس وقل لهم بأن هناك قيامة وحساب وجهنم وحدائق وحشر الخلائق ونشر الكتب، بل هو رآها بنفسه وعينه، كان ناظر وراوٍ لتلك المناظر، رأى أهل الجنة يتنازعون الشراب[1] ورأى أهل النار تسلخ جلودهم كلما نضجت[2]

لم يخبروه بأن كل شيء يسبّح لله، بل هو شاهد وسمع تسبيحهم [3]. وقس على هذا.

هذا التصور عن نزول الملائكة على قلب محمد ﷺ فيقرأون له الآيات، ينبغي تصويره بكون محمد ﷺ مراسل خبري من قلب الحدث ينقل الوقائع والاحداث، وبدل ذلك لابد من تصوير هذا مراسل وهو يحكي التقارير في القرآن، فالله المتحدث ومحمد ﷺ المستمع، لكن هذا المراسل في قرآن محمد ﷺ ناظر، ومحمد ﷺ راوٍ. والحقيقة لا وجود للمخاطب ولا للمخبر أو المتكلم ولا كلام في البين، بل كلها مشاهدات وروايات، وكلها بعين الله وبإذنه.

هذه المشاهد والوقائع من الرسول الصادق هي مرويات مختلفة جدا. ابتداءً من حياة الأنبياء إلى نزول الملائكة في ليلة القدر[4] ومن هطول الملائكة على الظالمين حال الموت[5] إلى وقائع اهوال القيامة[6]، ومن جلوس الله على العرش[7] إلى غروب الشمس في الطين[8]، ومن سجود الملائكة لآدم[9] إلى مجادلة إبراهيم مع الله[10]، ومن قصة أصحاب الكهف إلى احداث اسراء ومعراج محمد ﷺ [11]

---

(1) ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ الطور: ٢٣

(2) كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ النساء ٥٦

(3) ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأرض وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ الاسراء: ٤٤

(4) ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ *لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ القدر: ١-٤

(5) ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ محمد ٤٧

(6) ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مريم ٣٧

(7) ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ طه: ٥

(8) ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ الكهف: ٨٦

(9) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة: ٣٤

(10) ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهيم الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ هود: ٧٤

(11) سورة الكهف، والاسراء، والنجم.

ولنأخذ نماذج من ذلك:

النموذج الاول:

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ *وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أنت عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أنت الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أنت الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (1)

النموذج الثاني:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأرض إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ* وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ

---

(1) المائدة: ١١٢-١٢٠

يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(1)

النموذج الثالث:

سورة الواقعة روت منظراً آخر من القيامة:

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * . . .

وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ . . .

فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . . .

إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إنشاء * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا . . .

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . . .﴾(2)

---

(1) الزمر: ٦٨-٧٤

(2) الواقعة: ١-٤٣

هناك إشارات لطيفة للمرحوم سيد قطب في التصوير الفني للقرآن تسكن الفؤاد كتعقيب له على المشاهد الجذابة المتقدمة[1] ... إذ يلاحظ غياب تام للخطاب اللهي، والملاحظ هو الناقل والراوي، وكأن النبي حاضر وشاهد وراوٍ للحوار مع غياب للإله، فالحوار تارة بين الله وعيسى، الله يتكلم وعيسى يجيب.

وفي مكان آخر وحوارية أخرى بين الملائكة واهل الجنة واهل النار، الملائكة تسأل وهؤلاء يجيبون.

في ذلك المقطع: الله لا يتكلم ويقول انا قلت لعيسى كذا وكذا، وإنما هناك شخص آخر وهو محمد ﷺ، حيث يروي ان الله قال لعيسى كذا وسمع كذا، وهذا يعنى ان محمداً ليس بمخاطَب لكلام الله، وإنما هو شاهدَ وروى حوارية الله وعيسى.

مشاهد يوم القيامة أكثر جاذبية؛ وكأن النبي يقف على مشهد مليء بالأحداث، والأنبياء والشهداء والملائكة يغدون ويروحون من امام عينيه، والكتاب والجنان وجهنم قد فُتحت ابوابها، في مشهد يعبّر عنه القرآن " بالمشهد العظيم "، خصوصًا ان الصيغة المستعملة للتعبير عن تلك المشاهدات هي صيغة الماضي التي تحاكي احداث شوهدت متحققة.

لكن المفسرين وفي غفلة منهم فسروا تلك الوقائع على انها احداث مستقبلية واخبار من قبل الله بأن يأتي يوم يكون الأنبياء والشهداء حاضرين وقائع يوم القيامة ؛ فأبدلوا افعال الماضي إلى افعال مضارعة، لا لشي سوى تأييداً لفرضية وجود متكلم يقوم مقام الله في الخطاب.

وعللوا ذلك بالبلاغة المتعالية في القرآن من استخدامه أفعالاً ماضية لأحداث مستقبلية للدلالة على وقوعها لا محالة، وقالوا بحتمية وقوع اهوال يوم القيامة بدلالة ذكرها بصيغة الماضي.

---

(1) التصوير الفني في القرآن

لكن صدر المتألهين الشيرازي وباستشعاره رائحة السرد والرواية للنبي لم يقل ببلاغة افعال الماضي ودلالتها على حتمية وقوعها في المستقبل، وإنما ذكر بصراحة تامة في تفسيره للآية ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ إن واقعة القيامة قد وقعت بالفعل[1]، باعتبار ان زمن الوقوع المحقق هو المضارع ولذا اُوردت بصيغة الماضي[2].

اين وقعت تلك المناظر والمشاهدات؟

وقعت في الرؤيا.

يمكن للقارئ استبدال صيغة الرؤيا بصيغ المكاشفة والواقعة والمثال والخيال المنفصل والمتصل أو الأقاليم الثمانية أو جابلقا وجابلسا[3] أو ارض الملكوت -كما فعلوا-، ومع عدم المخالفة مع تلك الصيغ اخترتُ القول بأن حصول تلك المشاهدات كان من سنخ الرؤيا.

إطلاق صفة الرؤيا عن تلك المشاهدات كانت عن عمد ؛ لأسباب:

أولاً: الحذر من الابهام الذي قد يشوش ذهن القاري جراء الاستفادة من المصطلحات القديمة والفلسفية والميتافيزيقية أحيانا.

ثانياً: لأنها مرتبطة بتجربة نبوية أكثر وضوحاً، إذ لا يوجد إنسان لم ير مناما يعكس حالات معينة في حياته حلوها ومرّها، فكيف بالنبي أو العارف والصوفي حيث تحصل لهم في مناماتهم حالات من المكاشفة والعيش في عالم المثل.

وكثيراً ما تجد في كتب العرفاء والمتصوفة عبارة "الكشف المحمدي التام" للإشارة إلى حصول الاشراق والمعرفة فوق الحسية.

---

(1) صدر الدين الشيرازي، تفسير القرآن الكريم، انتشارات بيادر، قم، ط٢ ج ٧ ص ١٤

(2) كذلك جار الله الزمخشري في الجلد الرابع، الصفحة ٤٥٥ من الكشاف في ذيل الآية، بتصحيح مصطفى حسين احمد، دار الكتاب العربي.

(3) إشارة إلى المشرق والمغرب في الاصطلاح القديم

بالإضافة إلى الحديث المروي عن النبي والذي يوصف الأحلام الصادقة أو الصالحة بأنها جزء من ستة واربعين جزء من النبوة[1]

وفيما يرتبط بمعراج النبي، وبالمراجعة إلى كتب المفسرين تجد انهم تحدثوا عن معراج النبي كتجربة معنوية، وأحلام نبوية، وعروج روحاني وليس طيران جسدي[2].

والمأثور التاريخي يحدثنا عن حالة من النوم العميق والتعرق الشديد المصاحب لنزول الوحي الأمر ؛ الذي جعل بعض معاصريه يتهمه بالجنون، أو اتهام بعض رجال الدين المسيحيين له بالصرع...

لعل المتابع لهذه المقالة يتصور ان محور الحديث هو عن نظرية المعرفة والخيال والمثال المحسوس، لا ليس كذلك بل هي معرفة ظواهر الخيال وبيان صيغ رواية الرؤى، وهذا هو لب لباب هذه المقالة، وأعود لأذكر أننا بصدد فتح تلك النافذة المغلقة، وهي فريضة مباركة.

نحن ومن خلال قرأتنا للقرآن نتناسى اننا نواجه "رسالة أحلام" وإن اللغة المستعملة في تصوير المشاهد هي ليست لغة اليقظة وإنما هي في الحقيقة لغة احلام، نعم هي لغة بشرية عذبة لكنها في الوقت ذاته هي لغة أحلام.

---

(1) نجم الدين الرازي، صاحب مرصاد العباد يذكر في شرح هذا الحديث كلاماً بديعا وغريبا ان الله اوحى إلى نبيه في المنام ستة اشهر، ثم اوحى إليه بعد ذلك في اليقظة بقية مدة حياته، ونسبتها من الوحي في المنام جزء من ستة واربعين جزءا، لانه عاش بعد النبوة ثلاثا وعشرين سنة. والله اعلم الرازي، نجم الدين، مرصاد العباد بإهتمام محمد امين الرياحي، ص ٢٨٩-٣٩٠ (المؤلف)

الحديث مروي أيضاً في البخاري أيضاً، رقم الحديث: ٦٩٨٩

(2) من جملة المفسرين صاحب تفسير الميزان في شرح الآيات الأول من سورة الإسراء وسورة النجم، حيث يقول: أما عروج النبي إلى السماء كما يدل عليه ظاهر آيات سورة النجم الآتي تفسيرها قريباً ان شاء الله، وصريح الروايات الكثيرة الآتي ذكرها: ان هذا العروج واقع لا محالة ولامجال لانكاره، لكن الذي يجب قوله ان هذا العروج كان بروحه المقدسة لكن ليس كما يقولون انه من سنخ المنامات. (المؤلف)

الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، موسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٢ ج١٣ ص ٣

نص عبارته في الميزان هكذا: لما نفى النافون منهم كون عروجه ﷺ إلى السماوات بجسمه المادي اضطروا إلى القول بكونه في المنام وهو عندهم خاصة مادية للروح المادي واضطروا لذلك إلى تأويل الآيات والروايات بما لا تلائمه ولا واحدة منها.

أحلام في أتم صورها، فيها رموز الأحلام وضبابيتها، وبحاجة إلى تعبير وتأويل، ومن يتخذ هذه اللغة كلغة اليقظة ارتكب خطأ عظيماً ومهلكاً، معادلة لغة الرؤيا باليقظة من الاخطاء المهلكة وأكثر فداحة من الخلط بين الحقيقة والمجاز واستنتاج الوجوب من الحال.

وأستطيع أن أدعي أن أكثر المفسرين وقعوا في شراك هذه المغالطة ؛ بمعنى أن لفظة النار والشمس والغضب والرحمة والماء والميزان وما إلى ذلك مما ورد في القران اصطلاحات معروفة لدينا، لكنهم غفلوا عن أن راويها صحاب البصيرة النافذة رآها في عالم الرؤيا والخيال فكانت لغة ورمزاً لأشياء بعيدة كل البعد وغريبة عن لغة اليقظة؛ إذ لا سنخية بين اللغتين وإنما هي رموز وإشارات إلى الواقع.

مثال على ذلك:

المفسرون يقرأون في القرآن: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾[1] ويفسرونها بذات الشمس الموجودة في السماء فيقولون: يوم القيامة يحصل كسوفاً للشمس وكذا يحصل لذات النجوم والجبال والبحار...

من المفترض ان تفسر كل تلك الأجرام وما يحدث لها في عالم الرؤيا بما ترمز إليه في اليقظة، تماما كما حصل للشمس والقمر التي رآها يوسف في منامه، ولماذا لا نقول أن محمد رأى في منامه كسوف الشمس، ونذهب إلى تعبير صحيح لتلك الرؤيا.

الرمزية في لغة الأحلام :

لا يخفى ان الرمزية موجودة في المناسك الدينية والمتون المقدسة، وقد كثر الكلام عنها، واكثر ثراءً في القصص والامثال، وكذلك في آثار شهاب الدين السهروردي مثلاً، وفي كل اللغات، هذا الأمر واضح ولا حاجة إلى الخوض فيه[2]، لكن حديثي شيء آخر ...

(1) التكوير: ١-٢

(2) الرمز والقصص الرمزية في الأدب الفارسي تأليف الدكتور تقي پورنامداريان، من المراجع المهمة في هذا الموضوع.(المؤلف)

على سبيل المثال: في قصة الخلق المذكورة في التوراة والقرآن المتمثلة بالثلاثي ابطال القصة آدم وحواء والشيطان، المشابهة برمزيتها بقصة الملك والجارية المذكورة في مثنوي جلال الدين الرومي والتي ترمز إلى العقل والشهوة، والمشابهة أيضاً للألفاظ التي جاء على ذكرها الشاعر حافظ الشيرازي النبيذ والربابة والحاجب والزلف إذ كل ذلك - على زعم الزاعمون - كنايات واستعارات لحقائق مختلفة، فالحاجب كما قيل هو كناية عن صفات الحق مثلاً.

وكذلك الحال في معاني الالفاظ مثل الميزان والقلم فهي غير منحصرة بالمصاديق المتبادرة إلى اذهاننا للوهلة الأولى، وعلى سبيل المثال كل شيء كُتِب فيه وحُقِق له دلالاته المادية وغير المادية[1] كل ذلك ليس من سنخ المنامات.

والحالة نفسها تنطبق على بعض الأخلاقيات والمناسك كالذبح في مراسم الحج، وعلى حدّ تعبير ناصر خسرو " يجب تذكّر النفس الاليمة حال الذبح ..."[2]، أو حدوث العواصف والسيول فهي تعبيرات مجازية وكنايات واستعارات... في المتون المقدسة ودواوين الشعر، نعم قد لا تشبه لغة الأحلام لكنها بالتأكيد ليست هي ذاتها الموجودة في الواقع.

ثم إن لغة الأحلام لا تحتوي على المجازات والاستعارات والكنايات، بمعنى أن التصورات التي يراها الحالم في منامه لا تحمل الا على معانيها الحقيقية، وليست بحاجة إلى مراجعة القواميس اللغوية للوقوف على معاني الالفاظ ودلالاتها، ولعل مفسري الأحلام هم القادرون على فهم دلالاتها، والحالم برؤية الشمس والقمر أو البقرات السمان والعجاف[3]، عند نقله لرؤيته لتلك الاجرام للآخرين فهو ينقل مشاهدة الشمس والقمر حقيقة لا شيء اخر، فلغة الأحلام هذه تختلف عن لغة الادب، مثلا

(1) الطريقة التي اتبعها الفيض الكاشاني في تفسير الصافي والعّلامة الطباطبائي في تفسير الميزان لحل مشكلة متشابهات القرآن. (المؤلف)

(2) ناصر خسرو، الديوان، القصيدة ١٤٧.

(3) قصة يوسف في القرآن.

الشاعر حينما يضَمن ابياته الفاظا كالشمس والقمر فهو يرمز إلى محبوبته بالشمس أو القمر ولا يقصد القمر بذاته لوجه شبه ما يجمعهما كالجمال مثلا...

وحينئـذ عنـدما تقـول الآيـة وكـان عرشـه علـى المـاء[1]، هـذه حكايـة رؤيا محمد ﷺ ولا يعني ذلك ان للعرش معنى مغاير عن العرش المتعارف عليه وان الماء شيء اخر غير ما نعرفه عن الماء، فلا العرش كناية عن شيء ولا الماء، فالآية ليست خبرا منقولا أريد به الإخبار ليضعونا في صورة ما نُقل ؛ وما علينا سوى دراسة القرائن اللفظية واللُبيّة لنفهم سرّه وكينونته.

كذلك الحال عندما رأى محمد كسوف الشمس والكواكب، واستماع الجن إلى القرآن، وسجود الملائكة لآدم، واجنحتهم المثنى والثلاث والرباع، والشهب الثاقبة، والخزنة التسعة عشر لجهنم، وجلوس الله على العرش، ومجيئ صفوف من الملائكة، وشروق السماوات والأرض بنور الله، ونزول الملائكة ليلة القدر، والجنان المليئة بالموز والرمان والعنب ... كل ذلك عين مشاهداته ومكاشفاته المنقولة بمعانيها الحقيقية ومن دون المجازات والاستعارات، ولو أريد لنا تفسير هذه الآية لابد من الالتزام بالمعنى الحقيقي للعرش والماء وان عرش الله على الماء، هكذا رآها النبي ونقلها لمخاطبيه، لكن فهمها يتوقف على انها رؤيا، وانها ترمز إلى شيء ما في الواقع، وهي بحاجة إلى مفسري الأحلام.

إلا أن ما يُسكن الفؤاد من كل تلك الرؤى هي رؤيا محمد ﷺ وهو يرى السماوات والأرض وظلالهما ليلاً ونهاراً طوعاً وكراهية[2] تسجد في حضرة الله، أي رؤياً هذه وايُّ مكاشفة وايُّ خيال لطيف هذا، عجيبة تلك سعة الافق المتخَيلَة!

لم يكن محمد ﷺ كشهاب الدين السهروردي لينهض مستيقظاً ويتأمل ويكتب قصة صفير سيمرغ، والعقل الاحمر، ولغة موران، إذ كل واحد منها مليء بالعشرات من

---

(1) هود: ٧.

(2) ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ الرعد: ١٥

الرموز المطابقة لفلسفته ورؤيته الكونية، ليأتي من بعده من يكشف تلك الرموز وذاك الغموض. لقد كان نبياً يظهر الحقائق بلغة خاصة ويعرضها كرؤيا لنا نحن المستيقظون. " مباركة لنا مراتب الحلم شبيه باليقظة "[1].

لقد أصبحت قريبا من افكار صاحب العرش جلال الدين الرومي والذي أخذ شيئا من المعتزلة في تأويل التسبيح الوارد في الآية وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ [2] بأن هذه الاشياء منحتنا كيفية التسبيح لله:

لأنها علمتنا كيف نسبح الله   فكانت الدلالة عين المقولة

هذا هو تأويل أهل الاعتزال   لمن لا يملك نور الحال[3]

ويضيف أيضاً بأن الدخول إلى عالم الروح يجعله يستمع إلى دغدغة اجزاء هذا العالم ويبتعد بقلبه عن وسوسة التأويل:

من الجماد إلى عالم الأرواح لو دخلت   ستستمع لدغدغة اجزاء هذا العالم

وستكشف تسبيح تلك الجمادات   وتبتعد عن وساوس التأويل

ولان روحك تفتقد للقناديل   نصيب رؤياك هو التأويل[4]

يعني أن كل الأشياء في عالم الروح بحسب رؤيا الأنبياء صحيحة وواضحة، حتى التسبيح يصبح ظاهراً وبلغة فصيحة، وفي هذه التجربة يتساوى العرفاء والأنبياء لانهم يشتركون في الأذواق.

كذلك بكاء الجذع الذي كان النبي يتخذه للخطابة بعد صناعة المنبر، وحنين هذا الجذع الذي وصل إلى اسماع النبي[5]، يقول المولوي:

---

(1) " زهي مراتب خوابي كه به ز بيداري است"، حافظ الشيرازي، الغزل ٦٦

(2) الإسراء: ٤٤

(3) المولوي، المثنوي، الدفتر ٣، الأبيات ١٠٢٦-١٠٢٧

(4) المثنوي، الدفتر ٣، الأبيات ١٠٢١-١٠٢٣

(5) حديث متواتر روي في الصحاح والسنن، لاحظ: الترمذي الحديث ٣٦٣٢، بتحقيق أحمد شاكر

أيهـا الفيلسـوف المنكـر للحنّانـة   أنـت غريـب عـن إدراك الأنبيـاء[1]

والفيلسوف المقصود في كلام المولوي هو المعتزلي الذي لا يدرك الحس النبوي ولا يقدّر التجربة النبوية ورؤيا الأنبياء فلا يصدّق هذه الحكاية.

سماع بكاء الحائط في المنام لماذا لا يكون ممكناً ومعقولاً.

القول بالأحلام النبوية يجعلنا نُبعد الكم العظيم من التعبيرات المجازية عن القرآن، ولا حاجة لنا بتأويل عبارات القرآن، بل نبقيها على ظواهرها، والا ما الذي يجبر مفسراً عالماً ومقّدراً للعلم كصاحب الميزان ان يرتكب أي تكلّف في التأويل ان يأتي من جانب بآيات الشهب السماوية التي تتبع الشياطين المردة الهاربة من الشهب[2] ويأخذها بمعناها الفيزيائي المتعارف عليه، ومن جانب آخر وباللجوء إلى خلفياته الميتافيزيقية يعبر عنها بالشياطين غير المادية. وهو بهذا يوقع نفسه في متاهاتٍ إذ كيف يعُقل لشياطين غير محسوسة وما وراء الطبيعة ان تُحرق بشهب محسوسة ومن ضمن الطبيعة، فأحراق شهاب طبيعي لشيطان ما وراء الطبيعة اوصله بالنهاية لرأي غير مقنعٍ، وعلى خلاف عامة المفسرين الاقدمين إلى: ان الشهب كناية عن الحجب غير المادية، ولا مناص من تأويل هذه الآية بحسب متطلبات العلم الحديث[3].

لو تنبه صاحب الميزان إلى أن رمي الشياطين بالشهب كان في عالم الرؤيا لما احتاج إلى كل تلك التأويلات، ولذهب إلى خبير بالأحلام والأنثربولوجيا ليدله على معنى: شخص في تاريخ وجغرافية الحجاز ومن ثقافة تلك الحقبة يرى في المنام ان الشياطين تقذف بالشهب، افتونا في رؤيانا ان كنتم للرؤيا تعبرون؟

---

(1) المولوي، المثنوي، الدفتر الاول، البيت ٣٢٨٥

(2) ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ الصافات: ١٠

(3) تفسير الميزان: ج١٧ ص١٢٤، تفسير سورة يس.

نص كلام السيد الطباطبائي في الميزان هكذا: " هذه الآيات من قبيل الامثال المضروبة التي تصور بها الحقائق الخارجة عن الحس في صورة المحسوس لتقريبها من الحس، فيكون المراد من السماء التي تسكنها الملائكة عالما ملكوتيا ذا أفق أعلى، نسبته إلى هذا العالم المشهود نسبة السماء المحسوسة باجرامها إلى الأرض. والمراد باقتراب الشياطين من السماء واستراقهم السمع وقذفهم بالشهب اقترابهم من عالم الملائكة للاطلاع على أسرار الخلقة والحوادث

لكن من يقرأ ويفهم الشهاب والشيطان بلغة اليقظة سيقع في مخمصة التفسير غير المقبول. تأويلات هذا المفسّر المعاصر في باب انشقاق القمر جعله يعتبرها بمنزلة معجزات النبي، وهذه القصة لابد من وضعها في خانة تلك المعرفة، والكل على هذا المنوال، هو مفسّر وليس معبّر، وهنا لب الكلام.

الذهاب من التفسير إلى التعبير يتطلب فتح باب البارادايم [1]، وتغيير في النمط البنيوي.



(1) Paradigm

محمد ﷺ راوي الأحلام النبوية (٢)

قــال النــبي عينــاي تنــام ولا ينـام القلـب عـن رب الأنام[1]
هـذا الخيـال هـو غـذاء الأوليـاء منظــر بهــاء بســتان الإلــه[2]

الأول: القرآن رسالة أحلام

ذكرت ان مُحمَّداً راوٍ، وهـو المعبّر الحقيقـي عـن الأحـلام النبويـة بلغـة العُـرف العربي المبيـن مـن دون مجـاز ولا كنايـة، والقـرآن رسـالة احلامـه، الـتي تتطلـب مفسـري أحـلام يكشـفوا الحقـائق بلغـة الـرؤيا الخاصـة بـرؤياه، وبلغـة الشـهود يُعـبّروا لغـة الـرؤيا إلى لغـة اليقظة، ويعملوا التعبير بدلاً من التفسير والتأويل للمتون، ويقربوا العالم المليء بالغموض والرموز، ويحولون انظارنا إلى المنظر البهي لبستان الله.

الهـدف مـن معرفـة تجليـات الـوحي والـرؤى هـو بنـاء رؤيا روائيـة تتخطـى التفسـير الكلاسيكي للمتـون المقدسـة، وليس تحقيقاً كلامياً أو معرفة وجودية نبغي من ورائها اثبات نبوة نبي الإسلام أو التشكيك بوثوق وصدق وسلامة رؤياه، فالمؤمنون بمحمد (ومنهم الكاتب) يعتقدون بنبوته، ومن الطبيعي ان تكون تلك المكاشفات والرؤى عزيزة عليهم وشريفة، وكشف الغاز لغة تلك المكاشفات أمر جدّي، يرجون من ورائه سـلوك طريـق السـعادة الأخرويـة، مـن خـلال الاسـتفادة العظيمـة مـن تلـك المعـارف والأخلاقيـات، تلـك الفائـدة الـتي لا تقـل عـن كشـف اسـرار لغـة المولـوي وحـافظ لإشـتراكهم في الاذواق، وهـذا لا يعـنى الاعتقـاد والالتـزام بالنبـوة، إنمـا هـو خـيط رفيـع

(1) المولوي، المثنوي، الدفتر الثاني، البيت ٣٥٥٧
(2) المصدر السابق، الدفتر الأول، بيت٧٢

يساعد في معرفة الوحي النبوي، وفهم ونقد الكتاب الذي هو منبع اللغة الخيالية، بخطوات تدعوك للاحتياط وأخرى تحرك نحو التأمل.

كذلك البحث والتحقيق في طريقة وجود عالم الخيال والرؤيا ومعرفة الوجود الميتافيزيقي ونسبته إلى عالم الملكوت والجبروت، وكذلك اثبات وجود العالم غير المشهود، وكيفية نزول الوحي وحصول الرؤيا، وحصول الصورة من اللاصورة، ومنابع نزول فيض الباري، ومراتب الوجود ... كل ذلك غريب عن الغاية المتوخاة من هذه المقالة.

يجب معرفة هذه العجائب من العرفاء، لهؤلاء يتوجه السؤال عن طيور السماء، وسالكين الطرق الباطنية، وشرق وغرب واسفل واعلا الملكوت الذين رأوا نوره برياضتهم وعلو همّمهم، وتمتعوا بنسائم السكارى مع ساكني حرم الستر والعفة في الملكوت، والذين شربوا ماء الحياة واستحصلوا من غصة النجاة.

سجناء الطبيعة كفى ... من بدء الافلاطونية إلى ظلال الحقيقة، عليهم النظر في عدم عبور ما هو غير مقدّر لهم عبوره.

بناء على ذلك: الكلام ليس في قبول النبوّة ولا في حقيقة الوحي، إنما الكلام في تجليات الوحي، ولغة الرؤيا في الفضاء المرموز، والجو الضبابي وهو ميراث النبوة الذي يقع على عاتقنا فك اقفاله ...

الوحي في كل الأحوال فضاء مختلف عن فضاء اليقظة بشهادة التأريخ والموروث الديني، وذات لغة خاصة تحاكي الحقائق، وبما انها لغة أحلام فهي بحاجة إلى تعبير للمنامات، ألم يقل الامام علي:" رؤيا الأنبياء وحيٌ "(1)

(1) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي ج١ص٣٣٨ ح ٢٨، المجلسي، بحار الانوار، ج١١ ص٦٤، ح ٤، روى هذا الحديث أهل السنة عن النبي. وهناك كلام جدير بالقراءة للغزالي اورده الفيض الكاشاني في كتابه علم اليقين: نُقل عن احد العلماء قوله: ما من كلمة في القرآن الا وتحتها رموز واشارات إلى معنى خفي يدركها من يدرك الموازنة والمناسبة بين عالم الملك وعالم الشهادة وبين عالم الغيب والملكوت...

انظروا إلى ما ينكشف للنائم في نومه من الرؤيا الصحيحة التي هي جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة وكيف ينكشف بأمثلة خيالية، فمن يعلم الحكمة غير أهلها يرى في المنام أنه يعلق الدر على الخنازير

أليس النبي كان يغمى عليه حال نزول الوحي، وكان يحدّث الصحابة بما رآه وما سمعه عند استعادته لوعيه؟

ألم ير الملائكة في خياله وكان يخبر عن هيئتهم المهيبة واجنحتهم الستمائة؟

ألم تكلّم الشجرة موسى بخطاب "إني أنا الله" في تلك الصحراء القاحلة الباردة، وسمعها لوحده؟ ولو كان معه احد هل يتمكن من الاشتراك في هذه التجربة ولَسمع الخطاب أيضاً؟

عروض الوحي بهذه الطريقة الخاصة والباطنية وعلى حين غفلة ورؤياه التي كل ما فيها حوادث من عالم اليقظة، والتي من جملتها اللغة المختلفة ... الم تكن تجربة رؤية عرش الله محمول على اكتاف ثمانية من الملائكة[1] صورة مأخوذة من عالم اليقظة، ولغتها لغة اليقظة أيضاً؟

ورأى بعضهم أنه كان في يده خاتم يختم به فروج النساء وأفواه الرجال فقال له ابن سيرين أنت رجل تؤذن في رمضان قبل الصبح فقال نعم، ورأى آخر كأنه يصب الزيت في الزيتون فقال له ان كان تحتك جارية فهي أمك قد سبيت وبيعت واشتريتها أنت ولا تعرف فكان كذلك؛ فانظر ختم الأفواه والفروج بالخاتم مشاركا للأذان قبل الصبح في روح الخاتم وهو المنع وان كان مخالفا في صورته وقس على ما ذكرته ما لم أذكره...

واعلم أن القرآن والأخبار تشتمل على كثير من هذا الجنس ؛ فانظر إلى هذا الحديث بدقة:" قلب المومن بين أصبعين من أصابع الرحمن..." يقلبها كيفما يريد

وبالجملة فاعلم ان كل ما يحتمله فهمك فان القرآن يلقيه اليك على الوجه الذي لو كنت في النوم مطالعا بروحك اللوح المحفوظ لتمثل ذلك لك بمثال مناسب يحتاج إلى التعبير، واعلم أن التأويل يجري مجرى التعبير.. فلذلك قلنا يدور المفسر على القشر إذ ليس من يترجم معنى الخاتم والفروج والأفواه كمن يدرك أنه أذان قبل الصبح ...

فاعلم أن هذا تعرفه اذا عرفت أن النائم لم ينكشف له الغيب من اللوح المحفوظ الا بالمثال دون الكشف الصريح كما حكيت لك المثل وذلك يعرفه من يعرف العلاقة الخفية التي بين عالم الملك والملكوت ثم اذا عرفت ذلك عرفت أنك في هذا العالم نائم وان كنت مستيقظا فالناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا فينكشف لهم عند الانتباه بالموت حقائق ما سمعوه بالمثال...(المؤلف)

الفيض الكاشاني، علم اليقين، ج١ ص ٦٥٤-٦٥٨. الغزالي، فيض الرحمان في تفسير جواهر القرآن ج١ص٢١

(1) ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ الحاقة:١٦

إلى أولئك الذين ما زالوا غير مصدقّين بأن لغة الوحي هي ليست لغة اليقظة، عليهم ان يعلموا هذه الدقيقة: وهي ان كان لدينا ظاهرة اسمها الوحي وهي نتاج حالة غير متعارفة فلابد من تصديق ان لغتها أيضاً غير متعارف عليها، حتى لو كانت متشابهة مع لغتنا، وهذه هي ذات الفكرة عن احلامنا من دون تكلّف أو تأمل، وعلينا الرجوع إلى مفسري الأحلام.

هذا الذي يذكره القرآن بأنه لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ [1] لا ينافي بأي وجه من الوجوه القول بأنه رؤى، نعم القرآن قول جديّ، ولم يؤدى على سبيل الترف، ولهذا السبب كان من الضروري له من تعبير للأحلام.

في المنام أيضاً يقال " قل" أو " اسمع" أو " اذهب " وهل يمكن تبديل تلك الخطابات من لغة الرؤيا إلى لغة اليقظة، أو ان السامع والقائل كلاهما يعزف ويغني ...

ولو ان "النار" و" الماء " لهما ذات المعنى في النوم واليقظة كذلك الحال في قل أو اسمع لهما ذات المدلول.

نسمع هذه الخطابات كثيراً في أبيات مولانا جلال الدين فمن ذاته يتكلم مع ذاته، ومن ذاته يتخيّل الآخرين، يسمع خطابه من فم الآخرين[2] ...

ومن مفاجأة عالم الرؤيا، تلك المفاجأة الخدّاعة الموجبة للتوهم بالثنائية التي تبعد المستمع عن المتحدّث، وتقع الخلق في الخطأ.

محي الدين بن عربي عند قوله: " فمن شجرة نفسه جنى ثمرة علمه " [3] كان ناظراً إلى هذه الإشارة اللطيفة وقائل بتصديق الرؤيا على عالم الكشف والباطن.

وبالعودة إلى لطائف مولانا:

---

(1) الطارق:١٣-١٤

(2) المولوي، المثنوي، الدفتر الثالث، الأبيات ١٣٠٤، ١٣٠٢، ١٢٩٨

(3) فأي صاحب كشف شاهد صورة تلقى إليه مالم تكن قبل ذلك في يده فتلك الصورة عينه لا غيره، فمن شجرة نفسه جنى ثمرة علمه " ابن عربي، فصوص الحكم، ترجمة محمد على موحد، طهران، نشر كارنامه، ص ٥٤٢، كذلك " ان موطن الخيال يطلب التعبير، ص ٥٧١

كـان سـكراً مـن غـابات النـاي يمـر مـنى رويـداً مـني ويشـرب[1]

الثاني: قراءة الرؤيا واليقظة في القرآن

القـارئ للـنص القـرآني المقـدس أمـام نـوعين مـن القـراءة، قـراءة يشـوبها الغيـب، والأخرى تعلوها الشهادة.

حـين يـتكلم الـنص عـن غـير المرئيـات كالملائكـة، والقيامـة، والشـيطان، والجـن، والعرش... يصبح البيـان القـرآني تصـويري وفـني حيث يصعب معرفة شيئاً آخر غـير الرؤى.

وحـين يـتكلم عـن المرئيـات، والاوامـر والنـواهي تلاحـظ البيـان عـالم مـن الواقعيـة واليقظة، وكأن العين التي قد غشيتها النوم قد صحت، وحلّت اليقظة محل النوم.

المفسـرون قاطبـة ابتـداؤا قـراءتهم للنصـوص مـن عـالم الشـهادة وغرّتهم صيغة "قُلْ" وكذلك والأحكام والتشريعات، وانتهوا بعالم الغيب فوقعوا في ورطة صباغة عالم الغيب بلون عالم الشهادة لدرجة اندماج لغة الغيب بلغة التشريعات، وحكموا على الكل بحكم واحد، ومن هنا احتضنوا القرآن بين ذراعي فقه الغارات وسلطة حواراته.

ممـا لا شـك فيـه ان للقـرآن لغـة واحـدة، امـا لغـة اليقظـة أو لغـة النـوم، ولا يوجـد غيرهما، اما الحكم بأن الفضاء الذي تتحرك به لغة الوحي هو فضاء من الرؤى لا ينبغي التردد فيه، وان لغة القرآن جميعها تعلوها لغة الأحلام، وان منبع الخيال في هذه اللغة (كما هو الدليل الأصلي والمستحكم على المدعى) له علائم واضحة في البناء الروائي للقـرآن والمبعـد للاحتمـالات الأخـرى عـن الـذهن، وتجعـل مـن الـرؤيا متصـدرة عـرش المقبولية.

الخطأ البنيوي الذي وقع فيه النافون والمنتقدون كما أوردته في مقالاتي الأخرى[2] هو في توضيح نسبة الخلق والخالق، فالتصور الذهني عن الله والناتج من اتصال الخالق

(1) المولوي، المثنوي، الدفتر الثاني، البيت ٢٤٣٠

(2) مقالات بشر وبشير والببغاء والزنبور، انظر القسم الأول من هذا الكتاب.

بالمخلوق، وتصور الإله بشكله المادي البشري، فيتصور الذهن ان الله جالس على العرش كالملك المقتدر المهيمن الذي يرسل أوامره إلى عباده عن بُعد ...

اما لو رفعوا الغشاوة عنهم ونظروا إلى قيمومة الحق على مخلوقاته بمنظار حسن، لاستبدلوا ميتافيزيقية الفراق بميتافيزيقية الوصال، ولرأوا الظواهر والبواطن الحقة في الاشياء كما هي في الأحلام القدسية للنبي يرونها كما ينبغي، وعلى حد تعبير صدر الدين الشيرازي " الاشياء شؤون ونعوت للحق هكذا ينبغي رؤيتها "[1]

ليس الله فحسب وإنما النبي أيضاً ؛ لأنه من الله، وكل خلاّقيات الاله خلاّقياته هو أيضاً، ولا يوجد سبب آخر موجب لان يكون رب الموحدين حاضر وبلا حجاب في الكائنات والممكنات، وجميع الممكنات والكائنات حاضرة فيه، فالعالم إلهي.

أهم شيء في الانكشاف الروحي الحاصل لمحمد ﷺ هو إلهية العالم:

إرسال الرياح كان يراه بأمر الله [2]، وتسبيح الرعد[3]، هو من يشعل النيران[4]، وهو من يرسل الأمطار[5]، وبقدرته تقبض الأرواح[6] ...

ويبدو أنه حاضر في كل تلك الحوادث ؛ لأن وجوده في قلب الماهية، وأوامره نافذة عليها مباشرة، هبوب الرياح، وامواج البحار، وهطول الأمطار، وتسليم الناس لأرواحهم، تبدو وكأن الله هو من يضرب بأمواج البحر، ويهطل الأمطار، ويأخذ

---

(1) صدر الدين الشيرازي، الحكمة المتعالية في الاسفار الاربعة، دار احياء التراث، بيروت، ط٣، ج٢ص٣٠٠

(2) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾ الفرقان:٤٨

(3) ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ الرعد:١٣

(4) ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ الواقعة ٧١

(5) ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ لقمان:٣٤

(6) ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الزمر:٤٢

بالأرواح، هناك فاعل واحد ولا يوجد غيره، وكل هذه الأفاعيل هي عين فعله، وعلى رأي صدر الدين الشيرازي: " إنه تعالى ينزل منازل الاشياء ويفعل فعلها "[1]

هـذا هـو التوحيـد الإفعـالي المبرهَن عليـه ببراهـين الحكمـة، والـدال عليـه مئـات التجارب القدسية والعرفانية، وهو صريح القرآن أيضاً ﴿وَهُو مَعَكُم ايْن ما كنُتُم﴾[2] ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[3]

وهنـاك مغفّـل مـن أهـل الغفلـة ينحـت دائمـاً وفي كـل مكـان صـورة وهميـة لربطهـا ونسبتها إلى اللاواسطة واللاسبب لحجب الحقيقة:

يكثـرون مـن الوسـائط الفلسـفية ومـن الـدلائل، وعكسـه صـافٌ زلال
إذا الـدخان دليـل وجـود النـار فاللادخان عندنا في هذه النار متعةٌ[4]

صدر الدين الشيرازي عندما يصل إلى هذه الدقيقة اللطيفة ينبه على أن لا يُتصوَر من سماع هذ الكلام أن الله حالٌ في هذا العالم أو متحدٌ معه:

" هيهات أن الحالّية والمحلّية مما يقتضيان الإثنينية ... "[5]

فالحلول يستلزم الاثنينية، أما في الوحدة فلا مجال الاثنينية.

"ظهر أن لا ثاني في الوجود، وأن ليس في الدار غيره ديّار " [6]

وعلى حد قول الشيخ محمود الشبستري:

---

(1) " فلا حكم الا لله ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم يعني كل حول فهو حوله وكل قوة فهي قوته فهو مع غاية عظمته وعلو ينزل منازل الاشياء ويفعل فعلها، كما أنه مع غاية تجرده وتقدّسه لا يخلو منه ارض ولا سماء كما في قوله تعالى ﴿ وَهُو مَعَكُم ايْن ما كنُتُم ﴾ " صدر الدين الشيرازي، الحكمة المتعالية، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٩٨١ ط٣ ج٦ص٣٧٥

(2) ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض فِي سِتَّةِ أيام ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ الحديد: ٤

(3) البقرة: ١١٥

(4) المولوي، المثنوي، الدفتر الخامس، الأبيات ٥٦٩-٥٧١

(5) الحكمة المتعالية، ج٢ص٣٠٠

(6) المصدر السابق

الحلـــول والاتحـــاد هنـــا محـــال ففـي الوحـدة اثنـان عـين الضـلال[1]

لانجذاب المولوي لشمس التبريزي وعشقه له شهرة فاقت الآفاق، روحه امتزجت بروح شمس لدرجة أنه يخاطبه:

أي قـرب هـذا لروحـك مـن روحـي فكـل شـيء تفكّـر بـه أعلمـه [2]

قصـة العشـق بـين روحـين في العـالم السـفلي يمكـن قياسـها علـى الـروح العلويـة، فمحمد العاشق لمعشوقه الازلي يصبح قربه منه لدرجة ان كل ما يفكر به الله يعلمه بل يـراه، وهـل رؤيا الـوحي شـيء اخـر غـير هـذا؟ لكـن ضـيق العبـارة لا يسـمح بأكثـر مـن ذلك:

بعد كل هذا الشرح يصبح قولي أبلهً كذلك شرح الماورائية يصبح إعلاناً[3]

هـذه الرؤيا وإن كانـت سـراباً قدسياً والهياً إلا أنها ملوّنة بالـوان الطبيعـة، ومقـدرة بأقـدار بشـرية، مـن الـروح إلى الجسـد، واحكـام الجسـد جاريـة فيهـا، نفـس في الطبيعـة ومعها كل شؤون الطبيعة.

أصـــبح جـــزء مـــن كُـــلّ حـــال حلـــول الـــروح في الجســـمِ
شـــخص لم يفعـــل ســـوى العجائـــب والطلاســـم[4]

الثالث: رؤيا الوحي مصدر قوة

تصـوير الـوحي بالـرؤى لا يضـعف مـن قوتـه وغنـاه بـل يزيـد عليهـا، ومـا اعتـبره المفسرون للوحي انه مسموعات النبي هي في الحقيقة مرئياته، فعندما يقولون ان اخبار القيامة كان قد سمعها النبي من الله ونقلها الينا، نحن نقول: هـو رأى مشـاهد القيامة، كذلك الجن والملك والشيطان والعرش والكرسي ...

(1) محمود شبستري، گلشن راز، بتصحيح بديع الزمان فروزانفر، انتشارات صفي علي شاه، طهران، ط ١ ج١ص٤٤

(2) المولوي، كليات شمس التبريزي، الغزل ١٥١٥

(3) المصدر السابق، بيت ١٧٧٥

(4) العطار النيشابوري، منطق الطير، في توحيد الباري تعالى جلّ وعلا، حكاية اسير اكل الخبز والملح ...

عندما يقولون ان قصة سجود الملائكة لآدم وامتناع الشيطان كانت قد رويت للنبي، نحن نقول: ان ذلك المشهد البديع رآه النبي بعين الرؤيا وحدثنا به، وأي منظر كان إنه يخطف العقل، وأي حكاية كانت مليئة بالرموز والاسرار.

مما يؤسف له اننا نعيش في عصر نفقد به الاهمية القصوى للرؤى، وعندما نسمع خواص رؤيا الناس نتذكر الأحلام المزعجة المخيفة، وهذا جفاء كبير للحقيقة.

الرؤيا مقولة ما لا يقال واظهار ما لا يمكن اظهاره، كذلك هو الشعر الاصيل، والفن الاصيل، هو طائر الحقيقة في قفص الواقعية الضيق وغير المستوعب، ولا مناص الا باللجوء إلى خيال الشعر لينطلق اللسان بلغة الشعر والرؤى، الرؤى والواقع، والحلم واليقظة صفتان اينما تضيق احدهما تتفتق الأخرى لتصدح بما لا يقال بما يقال، الأنبياء ابطال عالم الخيال والاهم من كل ذلك انكشافاتهم التي توسع دنيا الطبيعة من ضيقها إلى عالم أوسع.

نعم توجد لدينا أحلام سفيهة واضغاث أحلام كأشعارنا الهابطة أحيانا، لكن بين هذا وذاك تتوافر لدينا أحلام متعالية تفصح عما لا يمكن الافصاح عنه في اليقظة، أحلام الأنبياء من هذا النوع الذي يحتاج إلى تعبير للأحلام، مئات العبارات من الاستعارات والكنايات في اليقظة لا تساوى رؤيا واحدة غنية وثمينة، الرؤى المتعارف عليها كمعادن الأرض كل شي موجود في تجاويفها إذ لا تبقى منها نصيب. ويبقى مكان الأحلام المتعالية جدا تتسامى في أعالي السماء اللامتناهية، والناس هم من يشخصوا احلامهم، كذلك الأنبياء.

في هذه الرؤى ترى تجليات النبوة، تلك التجليات لا تجدها في التشريعات، وهذه بدورها تمثل احدى حصص النبوة الهابطة.

الحكيم أبو القاسم الفردوسي كان محقاً حينما يقول:

لو تحسب الأحلام بلا فائدة   فتعلّم الفائدة من النبوة(1)

---

(1) أبو القاسم الفردوسي، الشاهنامه، القسم ٣ قصة بو ذر جهوري، الملك كسرى في الثمانية والأربعين عاماً.

الأحـلام النبويـة لمحمـد ﷺ توسـعت دائـرة تجربتهـا لتشـمل تجـارب كـل الأنبيـاء السابقين، وكأن محمداً مع موسى حين نودي من الشجرة وقد سمع نداء التوحيد[1].

وكأنه مع عيسى حين اعدمه قومه[2].

وكأنه مع إبراهيم حين أخذه لابنه لمحل الذبح[3].

وكان مع ذي النون حين غضب من ربه، وكان معه حين تاب[4].

وكان مع جميع الأنبياء في الأوقات العصيبة من اليأس وقشعريرة التردد، حينما كُذبوا ولم يُعبأ بهم، حتى جاءهم نصر الله فكان شاهداً عليه ويشعر بالسكينة وبهجة اليقين[5].

تجربة ورؤيا الأنبياء السابقين كانت رؤيا محمد ﷺ أيضاً، وكانت له حصة من المواجهة مع الأمر القدسي والخطاب الإلهي العذب، ولم يكن متلقٍ للخبر فقط، ولعله كان يعيش اللحظة، وخطاب أني أنا الله قد سمعها من بوتقة النار وصار شريكاً مع موسى في الذوق، وهذا هو حال بقية الأنبياء

وهنا يأتي كلام جلال الدين في موقعه الصحيح:

القرآن أحوال الأنبياء

هم أسماك بحر طاهر الكبرياء

---

(1) ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾القصص: ٣٠

(2) ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾النساء:١٥٧.

(3) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ الصافات:١٠٢

(4) ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الأنبياء:٨٧

(5) ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ. ﴾ يوسف: ١١٠

اسم أحمد اسم جملة الأنبياء

لأن مائة منهم قد جاءوا وتسعون من خلفنا[1]

ولهذا قلت: **رؤيا أحمد هي رؤيا جميع الأنبياء.**

تاريخ الأنبياء يتكرر في أحلام محمد ﷺ، وأقوام آدم ونوح وابراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى كان يراها بمثابة قومه، كان يرى في نومه ان نوحاً دعا قومه تسعمائة وخمسين سنة[2].

وكان يرى تحول بعض اليهود إلى قردة وخنازير[3].

و إن عيسى لم يذهب إلى الصليب وإنما شخص آخر شبيه له، والعزيز ومركبه يعودوا إلى الحياة ثانيةً[4].

وموسى يشق النيل[5].

وعصاه تتحول إلى أفعى[6].

وفرعون يغرق في البحر[7].

وذو القرنين يشيّد السد من حديد[8].

---

(1) المولوي، المثنوي، الدفتر الاول، ١٥٤١-١١٠٩

(2) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ العنكبوت: ١٤

(3) ﴿ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ المائدة: ٦٠

(4) ﴿ أو كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة: ٣٥٩

(5) ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ البقرة: ٣٦

(6) ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ الاعراف: ١٠٧، الشعراء: ٣٢

(7) ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ القصص: ٤٠

(8) ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ؛ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأرض فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ الكهف: ٩٣-٩٤

وإدريس يذهب إلى السماء[1]...

كل هذه الرؤى رواها محمد ﷺ، والخشية ان كانت قد تركت أثراً في التاريخ!

وهل القردة والخنازير التي رآها في المنام هي كذلك في اليقظة؟

وهل ان رجوع عزير إلى الحياة ثانية لم يكن رؤيا؟

وهل انشقاق البحر ورؤية التنين في المنام كما هي رؤيتهما في اليقظة؟

كل ذلك بحاجة إلى تعبير للرؤيا ليستقيم المعنى دون الحاجة إلى مزيد من التأويل الذي يخدش رسالتها.

والطاغي على كل ذلك هو ظهور محمد ﷺ في رؤياه مع ذاته أحيانا ويتقمص دور الآخرين وينوب مناب الأنبياء، فيصبح آدم وابراهيم وموسى، يتحدث بالنيابة عنهم، ويفصح عن تجاربهم الباطنية، ولذا اسم أحمد هو اسم لكل الأنبياء وليس اسماً لجملة منهم.

عندما رأى محمدٌ ﷺ إبراهيم في المنام يطلب من الله كيفية إحياءه الموتى للمزيد من اليقين والاطمئنان فيأتي وجواب الرب ان يأخذ اربعة من الطير ويقطع رقابها ويفرّق اجزاءها على راس اربعة جبال، ثم ليرى إبراهيم بعينه كيفية رجوع الطيور ثانية للحياة[2].

يظهر محمد هنا بصورة إبراهيم ويعرض طلبه بلسانه هو ويحصل على الجواب، ألم تكن تجربة إبراهيم التي ابتدأها برؤية الله في القمر والشمس والنهاية الوصول إلى الله الذي لا يغيب[3]. هي تجربة محمدية بلباس إبراهيمي.

(1) ﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ؛ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ مريم: ٥٦

(2)﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة:٢٥٩-٢٦٠

(3) ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ؛ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ؛ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الانعام:٧٦-٧٩

المصطفى قال زينا كآدم والأنبياء كونوا خلفي تحت هذا اللواء
فائدة اقوال هذا ذو الفنون رمز نحن الآخرون السابقون[1]

هكذا يجب ان تكون الرؤى، والعجب ان لا تكون كذلك، لعبة معكوسة ونعل منكوسة، الزمان في الرؤيا يتقدم ويتأخر، الشخصيات يحلّ احدهم مكان الآخر، التناقض والبارادوكس ممكن، الانظمة والاحجام والمعايير متداخلة مع بعضها البعض، و...

القرآن يحدثنا عن اعداء محمّد ﷺ في المنام وكيف ان الله يقللهم في عينيه ليرفع الخشية عنهم، ويكثّر من جنوده ليزيد من حماسه لينتصر عليهم في الحرب، وقد انتصر بالفعل، ومحمّد ﷺ قد أعتقد حقيقةً ان اعداءه قليلون فكان منامه عين يقظته، وهو تدبير الهي ومقتضى طبيعة الحلم التي تعكس الاشياء فالكثير تظهره قليل والقليل كثير[2].

محي الدين بن عربي يقول لنا أيضاً ان إبراهيم قد اخطأ في رؤياه حينما رأى في المنام ان يقدم ابنه قرباناً، وهو غافل عن ان الرؤيا ليس واقعاً ويجب تعبيرها، فعقد العزم على قتل ابنه، فأشير عليه ان التفسير الصحيح لرؤياه هو التضحية بكبش لا بولده.

يقول ابن عربي:

"إن إبراهيم الخليل قال لابنه: إني أرى في المنام أنّي أذبحك والمنام حضرة الخيال فلم يعّبرها، وكان الكبش ظهر في صورة ابن إبراهيم في المنام، فصدّق إبراهيم الرؤيا، ففداه ربه ... فالتجلي الصوري في حضرة الخيال محتاج إلى علم أخر يدرك به ما أراد الله تعالى بتلك الصورة "[3]

---

(1) المولوي، المثنوي، الدفتر الرابع، الأبيات ٥٢٤-٥٢٥

(2) ﴿ إذ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الأمر وَلَٰكِنَّ اللهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الأنفال:٤٣.

(3) ابن عربى، فصوص الحكم، ١٣٨٥، فصّ اسحاقى ص ٣٦٤-٣٦٥

جبرئيل هو عقل محمد ﷺ المتجلي له في رؤياه القدسية، والذي يظهر له بمخيله بصورة مَلَكْ، والمعطي له ما كان قد امتلكه من قبل.

ولو اغمضنا النظر عن لغة الأحلام ومغالطة المعبّرين له، فالتعبير بما يمتلكه إلى الروح الامين تعبير قاصر، وخلقٌ للوسائط لإيصال القرآن إلى قلب محمد ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[1].

مع ملاحظة طبيعة الأحلام ولغتها يتضح ان لا وجود لشخصين في هذه القضية، ثم ما الداعي لوجود جبرئيل وهو يتكلم العربية؟ هذه الحالة تشبه حالة الشيطان حينما يقول للإنسان أكفر، لا وجود للشيطان ليقول ذلك، هو ذات الإنسان وحديثه النفسي ووساوسه، اما رسالة الأحلام القرآنية تصورها على انها محاورة بين الإنسان والشيطان: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إذ قَالَ لِلْإِنسان اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [2]

يقول مولانا:

النفس والشيطان كلاهما كانوا في البدن   لكن ظهورهم كان على شكل صورتين
ولأن الملائكة والعقل كانا في البدن   من فوائد الحِكم صاروا صورتان[3]

والأكثر من ذلك ان النبي في رؤياه ينوب مناب الله أيضاً ويتكلم بالنيابة عنه، وكل الآيات المبتدئة ب "انزلناه " و"قل" لابد من قراءتها وفهمها بهذا السياق.

الخطاب مع الذات أمر جائز، وله موارد كثيرة في شعر حافظ وسعدي والاخرين،، وكذلك في المنام حيث يتكلم الرائي مع ذاته وينوب مناب الاخرين في الحديث ... إن صحَ هذا الأمر فأي شيء يدعوا للعجب ان قلنا ان الله يحلّ في النبي ويجلس هو مكانه ويتكلم بالنيابة عنه؟

---

(1) الشعراء: ١٩٢-١٩٤

(2) الحشر: ١٦

(3) المولوي، المثنوي، دفتر الثالث، ٤٠٥٢-٤٠٥٣.

ومن حسن الحظ أن حديث " قرب النوافل " وهو حديث قدسي رواه الشيعة والسنة ويتحدث عن حقيقة قرآنية متعالية ترفع الغموض الحاصل وتذلل الصعوبات، ومفادها: ان العبد ما يزال يتقرب بالنوافل إلى الله حتى يصبح يده ورجله وعينه واذنه ... فلا عجب أن يترقى ويصبح ذهنه ولغته ذهن الحق ولغته.

جلال الدين الرومي يلتقط هذه الفكرة بجمالية عندما يقول أن خطابات "يا عبادي " الواردة في القرآن تعني خطاب محمد ﷺ إلى الناس:

عبادي أحمد قرأها في رشادِ قالها لكل الناس قل يا عبادِ[1]

مؤيدات نظرية الرؤيا

الرابع:

بالإضافة إلى ما ورد في الأثر والنقل من أن أحلام الأنبياء هي وحي موحى اليهم، فإن فضاء المنامات تقتضي الرمزية في لغة الوحي وتصبح بالضرورة بحاجة إلى تعبير للأحلام ... وبالإضافة إلى كل ذلك، هناك مؤيدات تعضد هذا الكلام، وشواهد كثيرة من القرآن تؤيد هذا المدعى:

الفوضوية والتشويش في النظم القرآني:

يقول حافظ الشيرازي:

حافظ في هذه الساعة يكتب هذا النظم بتشتتٍ
فكره كطائر وقع في فخ الاشتياق[2]

تشتت نظم حافظ ليس دليل انغلاقه واضطرابه، وكلنا يعلم ان كل بيت من غزله هذا اجنبيٌ عن القصد وعن البدء والمنتهى!

(1) المثنوي، الدفتر الأول بيت ٢٥٠١

(2) حافظ، الديوان، نشر طهران زوّار، غزل ٢١٢.

لماذا؟

هذا هو بيت القصيد.

الخبير في شعر حافظ والمعاصر المعروف بهاء الدين الخرمشهري يعتقد ان حافظ في هذا الأمر قد حذا خذو القرآن[1]

النقطة المهمة الأخرى التي أنيط عنها اللثام في هذا السياق هي التشويش في النظم القرآني، والسؤال لماذا كل هذا التشويش في النظم القرآني؟

ولماذا يفتقر كلام الله إلى وحدة الموضوع، إذ لا ارتباط بين بداية السورة ووسطها وانتهائها؟

و لماذا تمتزج في كلام الله القصة والأخلاق والفقه والغيب والشهادة، حتى يقع المفسرّ في مخمصة ادراك ما هو المراد؟

المفسرون أتعبوا أنفسهم في كشف هذه الألغاز، وجربوا حظهم أكثر من مرة، وصوبوا سهامهم في كل جانب، واتعبوا انفسهم من دون فائدة، ورجعوا إلى الديار كخالي الوفاض ينطبق عليهم القول:" لأنه لم ير الحقيقة وصفها بالخرافة "[2]

بعض من هؤلاء المفسرين ارتكب هذا النوع من التكلّف وحاول ايجاد نوع ترابط بين آيات القرآن ؛ كجلال الدين السيوطي في الاتقان في علوم القران، إذ توصل خلال محاولاته إلى شرح حسنٍ.

و هناك بعض آخر كالشيخ المفيد المتكلم الشيعي البارز في القرن الرابع الهجري نسبوا التشويش إلى انه من صنع المخالفين[3]. واكثر المفسرين على قبول القرآن كما هو، بل اوردوا رواية ان النبي هو من وضع مكان الآيات في السور، وهذا التشويش هو من إمضاءه وتأييده.

---

(1) بهاءالدين خرمشاهى، ذهن وزبان حافظ، طهران، نشر ناهيد.

(2) هكذا جاء المثل بالفارسية: چون نديدند حقيقت را افسانه زدند.

و يقابله في العربية حكاية ذاك الثعلب الذي لم تصل يده إلى العنب فقال: هذا حصرم رأيته في حلب

(3) مُحَمَّد بن النعمان المفيد، اوائل المقالات في المذاهب المختارات، بتعليق ومقدمة الشيخ فضل الله الزنداني، نشر مطبعة الرضائي، تبريز، ط١ ص ٩٧

المثال الأول:

سورة المائدة على القول بأنها اخر سورة نزلت على محمد ﷺ، نلاحظ عليها ما يلي:

الآية الأولى تتحدث عن الوفاء بالعقود، ثم حليّة اكل بعض لحوم المواشي، بعد ذلك تتعرض إلى احكام الصيد في حال الإحرام. ثم الحديث عن حرمة الدم والذبيحة ولحم الخنزير، وكذلك الحيوانات المختنقة والمتردية من شاهق أو المقتولة أثر التناطح فيما بينها، وكذلك حرمة القمار.

ثم ومن دون مقدمات تقول الآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ... فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإذا شخص خاف الموت من شدة الجوع والمخمصة يجوز له اكل الميتة.

ثم الآية التي بعدها تتكلم عن الصيد بواسطة الكلب الصيد، ثم حلّية طعام أهل الكتاب على المؤمنين، وكذلك حلّية النساء العفيفات والكفارات على المؤدين، ثم الكلام عن كيفية الوضوء والتيمم بالتراب في حال عدم الحصول على الماء، وبعد التوصية بالعدل يذكّر بالنِعم الإلهية على المؤمنين وان الله دفع عنهم شر الاعداء.

ثم الحديث عن الميثاق مع بني اسرائيل ونقضهم اياه، وبعد عن ميثاق النصارى ونقضهم له أيضاً، ثم الحديث عن النبي الحالي وان كتابه نور ومبين، بعدها قصة كفر المسيحيين الذين اتخذوا ابن مريم إلهاً، ثم خطاب اليهود والنصارى وقولهم نحن ابناء الله وأحباؤه، بعدها خطاب لأهل الكتاب بقبول النبي والبشير والنذير الحالي، ثم خطاب موسى لقومه وحثهم على الجهاد ومجادلتهم اياه، وهو سبب التيه الذي حصل لهم اربعين سنة في الصحراء.

ثم قصة بني آدم وقرابينهم، ومقتل هابيل على يد قابيل، ومجيء الغراب ليريهم كيف تنبش الأرض ويدفن الجسد فيها، ثم عقوبة القتلة والمحاربين ان تقطّع ايديهم وارجلهم، بعدها حكم السرّاق وقطع أيديهم، ثم تسلية النبي من طعن الطاعنين خصوصاً اليهود آكلي الربا. وبعد ذلك الاحكام الجزائية في التوراة كالنفس بالنفس

والعين بالعين، والأنف والأذن والسن في مقابل الانف والأذن والسن، ثم بعد ذلك التوصية للمؤمنين أن لا تتخذوا من اليهود والنصارى اصدقاء، إنما أولياء المؤمنين هم المقيمون للصلاة والمخرجين للزكاة، ثم الخطاب لأهل الكتاب بأن اكثركم الفاسقين وبعضكم مشمول باللعنة الإلهية وجعلكم كالقردة والخنازير، بعدها خطاب اليهود بأن يد الله مغلولة، والاعتراض على هذا الخطاب بأن يد الله مبسوطة.

ثم خطاب النبي بإرسال الرسالة وإن لم تفعل فأنت لست بنبي، بعدها خطاب لأهل الكتاب وأمرهم بالعمل بالتوراة والانجيل، ثم خطاب إلى اليهود والنصارى والمسلمين والصابئة والأمر بعبادة الله والعمل الصالح وهو الامان من العذاب، ثم الرجوع إلى قصة كفر المسيحيين واتخاذهم ابن مريم إلها وقولهم ان الله ثالث ثلاثة، في حال ان المسيح نبي كبقية الأنبياء وكان مع أمه الصدّيقة يأكلا الطعام.

بعدها البحث حول غلو المسيحيين وعداء اليهود الشديد للمسلمين، والكلام عن رقّة قلوب المسيحيين وبكائهم حال سماع القرآن، ثم الحديث عن الرزق الحلال وكفارة القسم وهي اطعام عشرة مساكين أو صيام ثلاثة أيام، ثم حكم حرمة القمار والشراب، ثم الحديث مرة أخرى عن الصيد حال الاحرام، ثم حليّة صيد حيوانات البحر، ثم نفي المقدسات العربية (من قبيل منع البنات من شرب حليب الناقة وما إلى ذلك)، بعدها المسائل المرتبطة بالوصية والميراث.

ثم العودة إلى كلام الله مع عيسى والمنّة عليه بأنه مؤيّد بروح القدس، وتكلم الناس في المهد، وعلّمتك الكتاب والحكمة وايّدك بالمعجزات فتصنع من الطين طيراً ومع نفخه تدب فيه الروح، وتحيي الموتى، ويوما ما اوحيت إلى الحواريين ان آمنوا بي وبرسولي، وطلب الحواريون من عيسى ان ينزل عليهم مائدة من السماء، ودعا عيسى واستجاب الله دعاءَه، وكذلك قول الله لعيسى أنت قلت للناس اعبدوني انا وامي؟ وقال عيسى سبحان الله أنت تعلم انا لم اقل، واذا اردت عذابهم فهم عبادك، أو لا فأنت اعرف.

المثال الثاني:

سورة النور تبتدأ بالحديث عن تهمة الزنا والاحكام الفقهية المتعلقة بها، ثم بعد ايراد عدد من الآيات وبشكل مفاجئ تتجلى سورة النور في واحدةٍ من غرر الآيات التوحيدية في القرآن ومن نوادر الرؤى القدسية لمحمد ﷺ ﴿اللَّهُ نُورُ السّماوات والأرض﴾ وآيات أخر في ذات الموضوع، ثم ترجع الآيات لأحكام زواج الإماء والشباب الفقراء.

الشي الملفت ان السورة تبتدأ بالقول ﴿سورةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَّضْنَاهَا وَأَنْزَلْنا فيها آيَات بَيِّنَات لَعَلَّكُم تَذكَّرُون﴾ التي تعطي انطباعاً بأنها قطعة واحدة منبثقة من داخل مؤلف لا تغمض عينه شيئاً.

الفوضوية والتشتت في آيات هذه السورة بل حتى في الآية الواحدة أمر مشهود ولا حاجة لإثباته، ويمكن رؤيته في كتابات المؤلفين المبتدئين أيضاً، ولابد من الاذعان بأن تلك الفوضوية ليست من فعل الاعداء، ولا غفلة الجامعين، ولا هي دون علم صاحب الوحي، وإنما راوي السور المبتنية على الرموز والرؤى غالباً ما يفتقر إلى المنطق في التسلسل، وينتقل من هذه النقطة إلى تلك ومن تلك الجهة إلى الأخرى، فيفقد الانسجام والانتظام.

ألم تسمع عتاب الحق لموسى المتحلي بالأدب عند تحقيره لراعي محترق القلب مرتجف اللسان كما يصوره مولانا جلال الدين في هذه الابيات:

موسـيا صـاحب الأدب مختلـف　　محـترق الـروح والـنفس مختلـف[1]

هذا هو أدب المنام ولا وجود لليقظة فيه....

ولو اخذنا برأي مولانا في العشق وقوله " إن أدب العشق لا أدب فيه " لابد أن نقول هنا " أدب المنام لا أدب فيه"

قصص القرآن مليئة بصور المنامات ... ارتفاعات وانخفاضات وفضاءات يصور الراوي احداثها وكأنه لم يرها ولم يقلها، وأحيانا ما يراه وما يقوله غير مرئي في عالم

---

(1) المولوي، المثنوي، الدفتر الثاني، بيت ١٧٦٤

اليقظة، وتشبه بالضبط رؤيا لوقائع تتبدل بسرعة وتصبح مقطوعات لا أثر للزمان فيها وغموض للمكان أيضاً، أحيانا ترى الراوي في قلب الحدث، وأحيانا يشاهده عن بُعد، ينتقل من الشخص الأول إلى شخص ثالث وبالعكس، وبالطبع درك تلك المعاني غير متيسرة الا لمفسر الأحلام ولغير المؤرخ.

النبي في تقريره لحروب زمانه قد خلط بين الواقع والخيال، حيث ينقل خبر نزول آلاف الملائكة لنصرة المؤمنين، وتارة يرى ابليس يغوي الكفار ويشجعهم على القتال ثم يتخلى عنهم، ويتركهم لوحدهم...[1]

هذا يعني ان تقرير النبي لحوادث عصره لم تكن بلغة المؤرخ وكان يراها في فضاء آخر، وكان يضيف عليها توليفة غير مرئية ومنامية.

ويظهر أيضاً ان النبي كان قد رأى موسى (ع) في المنام أكثر من مائة مرة، وفي كل مرة كان يروي له قصته (أكثر من ثلاثين سورة) بمشهد جديد يختلف عن سابقتها أو تتشابه معها.

لا يمكن ان ترى كل هذا التكرار من مؤلف واحد، نعم الحالم يمكن ان يرى صديقه عشرات المرات ويروي له حكايته بطرق مختلفة.

مولانا جلال الدين في نظمه المضطرب ل " للمثنوي "كتبها بقوة وسبك قرآني حتى قيل عنه قرآن بلغة فارسية، وكان يحتوي على مئتان وخمسين قصة لم تجد سوى قصة واحدة مكرره.

التداعي الحر هو من يقود ذهن مولانا المليء الخزين من المعارف والكماليات، وهذا هو الموجود في المثنوي إذ يأخذك من هذا الجانب إلى ذاك، ومن قصة إلى قصة

---

(1) ﴿ وإذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وإِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللهَ واللهُ شَدِيدُ الْعِقابِ ﴾ الأنفال:٤٨

﴿ولَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إذ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴾ ال عمران ١٢٣-١٢٤

أخرى، حيث يختلط فيها القصة والموعظة والتاريخ والجد والهزل، وأحيانا يتركك في فضاء لينتقل إلى خطاب آخر، يملأه من خياله ويدع القارئ في حيرة من أمره!

بناء المتن القرآني حكاية واضحة عن التداعي الحر هذا.

لا أحد كجلال الدين يعرف محمد وحكايات قصصه، وهو القائل:

هذه الحكاية قالها شديد المراس   كفعل عاشق لا راس له ولا اطراف(1)

و لا أحد كجلال الدين يعرف صفة الوحي وبيانه للرؤيا الواردة في حق موسى:

ألقي في قلب موسى أحاديث   وعلّموه أيضاً الرؤية والقول(2)

ولهذا السبب من النظم المشتت والرؤى يتحد القرآن المثنوي في أنك من أي مكان فتحته وكأنك حاضر في بداية الجلسة، لتتعلم درس جديد.

السهروردي كان يقول عليك بقراءة القرآن وكانه نزل عليك، ولا جرم لابد من تكملتها بهذا الشكل: "وكأن في المنام وقد نزل عليك "

(1) المولوي، المثنوى، دفتر الاول، بيت ٢٩٠٢.

(2) المصدر السابق، بيت ١٧٧٣

محمد راوي الأحلام النبوية (٣)

مقراض التناقض الحاد

بارادوكسات القرآن

ما زال الكلام عن مؤيدات وشواهد لنظرية الرؤيا من داخل النص والتشويش احدى تلك الشواهد، وقد مرت الإشارة إليه في القسم الثاني، في هذا القسم سيكون البحث عن التناقض في المتن، واحدى أنواع التناقض مسألة العلية والزمان، وهي علامات دالة على رواية رؤيا المتن ايضاً.

للرؤى فضاء اوسع من فضاء الطبيعة، والمشاهِد لتلك الالغاز يكون ضيفاً لحوادث لا يتسنى له رؤيتها في عالم اليقظة، كالخلط بين أنواع السببية في احوال متعارضة ومتضادّة، وهناك انبساط وانقباض في الزمان، والتحصّل على امل متحقق الوقوع وغير متحقق، وحوداث تنتمي إلى عالم الخيال والمنامات، وكل ذلك بحاجة إلى تعبير وتأويل.

لا شك ولا ترديد في ان تقارير العرفاء وتجاربهم ورؤياهم الاشراقية تعلوها الضبابية والبارادوكسية المتناقضة في الظاهر، وان تلك هي ابرز خصال وخصائص احلامهم العلوية (وحتى السفلية).

وليس ذلك بالأمر العجيب عندما يواجهون ضيق وعدم استيعاب للغتهم ويشعرون بالحاجة إلى لغة أخرى فيتوسلون بالخيال، وخيالهم لا يخونهم في وصف تجاربهم. وقد نستمع لشكوى جلال الدين البلخي من ضيق قفص اليقظة في بعض ابياته في المثنوي:

أتمـــنى ان يكـــون لي لســـاناً في الوجود وقد رُفِعَتْ انه الحُجُب [1]
اسفي من قطاع الطرق وهو جالسون وقد اغلقوا لساني بمئات العُقَد[2]

ابن سينا في قصة حي بن يقظان الرمزية يروي حكاية اللقاء مع الشيخ الشاب:

شيخ يظهر من بعيد طاعن في السن، لكنه بهي الطلعة، ممتلئ القوة، أكسبته السنين خبرات كبيرة، مرن كأنه خال من العظام، ولا اعوجاج في قوامه، ولا أثر فيه للكِبَر سوى جلالته ... [3]

مولانا يتحدث أيضاً عن الجهة واللاجهة، والبذور والأبذور، والخياطة هي ذاتها الفتق، والساكن والجاري، والكلام بلا لغة، وكنس البحر ورفع الغبار عنه ...كل هذا الخطاب من جنس التصورات والصور المنحنية غير المتلائمة في رَحِم الكلمات كالجنين البدين بلا ثبات:

كل الطيور تحلق بإتجاه إلا هذا الطائر
محلّق باتجاه وغير محلق بأي اتجاه.
نحن لسنا بطيور حرة في الجو ولسنا طيور أهلية
طعامنا ليس كأي طعام، هو طعام وليس بطعام[4]

أعطاني مكنسة بيدي وقال أيها الحبيب
نظّف البحر من زبد الغبار[5]

(1) المولوي، المثنوي، الدفتر الثالث، أبيات ٤٧٢٤

(2) المصدر السابق، بيت ٣٣٨

(3) پورنامداريان، تقي، الرمز والقصص الرمزية في الأدب الفارسي، ص٣٢٠، نقلا. عن ابن سينا، التمثيل العرفاني ص ٢٨-٣٤

(4) المولوي، المثنوي، الدفتر الخامس، ٣٥١-٣٥٣

(5) المولوي، ديوان شمس، ج١ غزل ١٠٩٥

متى يكون جرياني الساكن ساكن وجارٍ

قلت من طرف لساني قولي بلا لغة[1]

ومن هذه المجموعة أيضاً تأتي عبارات السنائي التي يقول فيها : "ورق من اللاورق"

وكذلك بيت حافظ الشيرازي: "في ماء هو ليس بماءٍ"

و كذلك "وجود الحاضر الغائب" لسعدي.

و كل خطاب أكثر رمزية وأكثر شاعرية وحالمية يزيد من حجم تلك المفاهيم علواً وشأناً بدرجة تكون معيار للسفر عبر السحاب إلى عالم الخيال.

وتظهر ثمرة البرودوكسات المتخيلَة في أن الاختار والامتيقّظ أمام أعاصير التصورات المتناقضة فيقع في علم من الرمزيات والرؤى، وتعلو فوق لغته سحب من الحيرة:

عطر هـذا الحبيـب يصبح كالطـائر   و اللغـة تصبح في جملـة الحيـارى[2]

اللغة الحائرة دلالة النفس الحائرة، وكأن ثقل تلك اللغة لا يتناسب وصغر الذهن.

تلك الحالة يصورها مولانا بهجوم جمل محمّل بالتجارب الغنية على قفص طيور الذهن الخَرِب:

لأن رجِلَ بعير سحقت قلب قفص الطيور   تهشم البيت وخر من فوقه السقف[3]

في الوقت الذي يتجنب الفلاسفة التناقضَ نجد العرفاء سعداء به، ولا يتجنبونه أصلاً، وكلما كان التناقض علامة على سخف الرأي الفلسفي هو علامة على صلابة وثراء التجربة العرفانية:

مـــن هـــذه الجهـــة إلى تلـــك الجهـــة جيـــوش عقـــل الـــولي

مــــــن الأزل وإلى الأبـــــــد فرصـــــــة الـــــــدراويش[4]

---

(1) ديوان شمس، غزل ٦٥٤، ج٢ص٩٠٩

(2) ديوان شمس، غزل ١٧٥٩

(3) المثنوي، الدفتر الرابع، بيت ٤٦٦٨

(4) حافظ، الديوان، غزل ٤٩

كذلك الحال فيما ذكرته سابقاً من أن التشريعات احدى الفوائد الهابطة لبعث النبوة ولوازم شؤون الحكومة، وذلك لأنها تتطلب اللغة المباشرة الخالية من الرموز والاوجه، وكل ما كانت لغة القرآن أكثر حالمية صارت أكثر نبوةً، حتى البارادوكسات عندما تظهر يستشعر القارئ انه في حالة من الحيرة والضياع، اما " البسطاء ممن لم يسلك الطريق " فهذه التناقضات بالنسبة لهم علاءم ضعف ودونية القرآن[1]

لكن " العارفين بالطريق" لسان حالهم يقول: " جميلتي أمامك قبيحةٌ ".

تلك الحيرة في لغة القرآن دلالة الرؤى الثرة والأحلام النبوية البعيدة، والجواهر الثمينة لتجارب محمد ﷺ التي لا يتحمّلها صدف الكلام، وغير منسجمة مع العادات اللغوية والذهنية، والتي تفتح آفاقاً واسعة للمعاني، وفي قول جلال الدين الرومي "لا هدف للدين سوى جعلك حيران " إشارة إلى هذا المعنى السامي[2].

لنبدأ من الماء والنار

صور يوم القيامة في سورة التكوير المكية تبتدأ مع حوادث مثل كسوف الشمس، وانحسار نور النجوم، واهمال الجمال، وحشر الوحوش، واشتعال النيران في البحار [3].

على الرغم من غرابة حضور الجمال مع الوحوش مع بعضهم البعض في عرصات القيامة، الا ان الاغرب منه اشتعال النيران في البحار، وليس فقط الصورة البارادوكسية لاشتعال الماء منظر حالم وخيالي من مناظر القيامة وإنما خروج النبات من قلب جهنم، وطلوع رؤوس الشياطين هي اوسع من المدركات الذهنية، وهي تجليات للرؤيا:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ...[4]

---

(1) كعلي الدشتي في كتاب ثلاثة وعشرين سنة.

(2) گه چنين بنمايد گه ضد اين   جز كه حيراني نباشد كار دين

المولوي، المثنوي، الدفتر الاول، بيت ٣١٢

ذكرت تفاصيل هذه المقولة في مقالاتي:" الإيمان والحيرة " و" سُمنة الأيديولوجية "، نشر الصراط، طهران ٢٠٠٢ (المؤلف).

(3) ﴿ وَإِذا البِحارُ سُجِّرتْ ﴾ التكوير:٦

(4) الصافات:٦٢ – ٦٧

حضور هكذا مفاهيم وصور في المتن المقدس كلها إشعارات على رؤيا الرواية.

ولنذهب إلى نماذج أخرى:

شباب لا تشيخ ابداً (1)

حوريات في حالة بُكارة دائمية(2).

خمور سُكرها لا يسبب الصداع (3).

لبن لا يفسُد(4).

لباس لا يُشبع (5) (والمفروض انه يُلبس)...

وفوق كل هذا العجب لابد أن نعجب للخطاب الموجه للنبي: "إنك رميت ولكنك لم ترمِ، بل الله الذي رمى "(6)، وفي جملة واحدة هناك اثبات ونفي لرمية محمد ﷺ.

ولهذا السبب يقول جلال الدين الرومي وقبله الغزالي أيضاً في الإشارة لهذه الآية:

قال الله ما رميت إذ رميت(7) انت تقرأ من القرآن تفسير هذا البيت

ليبقى جسدك في تشضٍ(8) أقرأت وما رميت إذ رميت

أنت لم ترمِ لأنه كان بقوة الحق(9) انت رميت لأنه كان في يدك

الظاهر أن روح القرآن يمكن مشاهدتها في هذا البارادوكس، كذلك نسبة "معرفة القرب بين ربّ الناس وروح الناس" يمكن أخذه كمقياس على ذلك.

---

(1) ﴿ وَيطُوفُ عَلَيهِم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ الواقعة:١٧

(2) ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ الرحمان:٥٦

(3) ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ . لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ الواقعة:١٨-١٩

(4) ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ محمد:١٥

(5) ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ النحل:١١٢

(6) ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ الأنفال:١٧

(7) المولوي، المثنوي، الدفتر الاول، بيت ٦١٨

(8) المثنوي، الدفتر الرابع، بيت ٧٦٢

(9) المثنوي، الدفتر الثالث، بيت ٣٦٦٠

ولعل المفاجأة الأكثر غرابة تأتي في الطريق ...

بستان في جهنم، ونار في البحر، ونار على الشجرة (في قصة موسى) رغم انها رؤى وبارادوكسات إلا أنها تصورات مقبولة، لكن ما عساي ان اقول في باب أن " الله أول وآخر وظاهر وباطن"[1]، كل هذه الصفات غير المتجانسة، بل هي غير ممكنة حتى في الذهن والرؤيا، لكنها تحكي تجربة نبوية غنيّة لا تفتق النطق فحسب وإنما تهشم المنطق وتستهزئ بقواعد العقل المستنير.

تقليب دفاتر التفسير تجعل القارئ أمام سيل من التكلّفات والتوجيهات ...

مثلاً صيغة " الظاهر ":

لاحظ كيف تلاعب بها المفسرون لإظهار معناها:

تارة في تغيير معنى تلك الصيغة، فالظاهر تُفسَر بالغالب للتخلص من التناقض بين الظاهر والباطن، وتارة أخرى يفسر الظهور ليس في الذات وإنما في المخلوقات، فيختفي في الصانع ويظهر في المصنوعات، و تارة ثالثة تفسر بمعنى بقاءه بعد فناء الخلق، وهنا يصعب الاعتقاد ببقاء الأرواح والخلود في الجنة والنار، وهكذا ...

حتى جلال الدين لم يوف المطلب حق اداءه كما ينبغي له:

خاف عن الأنظار، وكل الأنظار عليه   هو ظاهر في صنعته مختفٍ في الآمال[2]

ومن الإنصاف أن لا نبخس حق الحكماء كصدر الدين الشيرازي في فتح اقفال العبارات البارادوكسية والآيات المتشابهة، وهي محط اجلال وتقدير، كما في باب المعراج والمعاد الجسماني الآتي ذكره في القسم الرابع، هناك اختصر الطريق في الفهم والاذعان لرواية الرؤيا في المتن، والاهتمام بتعبير الأحلام النبوية،، والاستغناء عن صعوبة الميتافيزيق الأرسطي- الإسلامي، والاستعارات والكنايات البلاغية - الأدبية.

---

(1) ﴿ هُوَ الأول وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ الحديد: ٣

(2) المولوي، للمثنوي، الدفتر الخامس، بيت ٣٢٨

التناقضات

ولنضرب صفحاً عن البارادوكسات (وما ظاهره التناقض) ولننظر إلى التناقضات التي اغرقت القرآن بأجمعه، واغرقت قوماً آخرين ...

الله الذي يجيب ويدافع عما فعله بعقلانية ثم ويرسل الرسل منذرين ومبشرين لئلا تبقى للناس حجة[1]

ويعطي للناس الفسحة للوفاء بعهدهم، وفي مكان آخر هناك نداء " لا يُسأل عما يفعل "[2]

الله الذي يطلب التوبة والايمان والتسليم من عباده[3]، ثم يحذرهم من اتّباع الشيطان[4]، ومن جانب آخر يقرن الايمان بالإذن الإلهي ويعده امراً غير ممكنٍ[5]، فالهداية والظلالة بمشيئة الله وحده[6]، بل إرادة الإنسان منوطة بإرادة الله [7].

الامثلة من آيات القرآن كثيرة في هذا الباب لا داعي لذكرها.

المعتزلة والاشاعرة

هذه التناقضات الصعبة اوجدت مدرستين كلاميتين كبيرتين في التاريخ الإسلامي، وطائفتين متناحرتين وقفتا وجه لوجه في صراع طويل لم يخفت لهيبه لهذا اليوم، وهم المعتزلة القائلون بالاختيار والاشاعرة الجبريين، وكلاهما مستند للقرآن، ولكل آياته المؤيدة على مطلبه من ذات القرآن.

---

(1) ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ النساء:١٦٥.

﴿ وَإِذْ أخذ رَبُّكَ مِن بَنِي آدم مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾ الاعراف:١٧٢

(2) ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴾ الفرقان: ١٦

(3) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ التحريم:٨

(4) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ النور:٢١

(5) ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ يونس: ١٠٠

(6) ﴿ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ المدثر: ٣١

(7) ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ التكوير:٢٩

مولانا المتوقّد الذكاء له رأي آخر في النزاع الكلامي هذا، هذا الرأي مآله في النهاية إلى تجربته، وعلو صوته المستمد من العشق والعرفان، وهو طريق ثالث لحل العقد العمياء:

هكذا يستمر البحث إلى حشر البشر   بين جبريين وأهل القدر

فائدة هذا البحث من العشق وكفى ...[1]

وبحسب اعتقاده فإن الجبر والاختيار يمكن أن يكونا سبباً للصلح أو يشعلان النار.

أما رسالة العشق الإلهي فهي "كل ما يأتي من الصديق فهو جميل " و"كل خسرو فهو شيرين "[2]، نعم في ديار العشق هكذا تكون النتيجة، يد العشق ممتدة بين العاشقين إلى الروح والايمان، ولا مجال للسؤال أو الاعتراض "لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ". لكن هذا العشق الحارق للجبر والاختيار، لا يحلّ مشاكل المتن المقدس، ولا يرفع للتناقض التفسيري.

حتى المجرب يخطأ في تجربته، جربوا الآيات القرآنية لألف مرة من حيث الاستفادة من المجاز والكناية والتمثيل والاستعارة، حاكموا الصيغ والجمل والآيات، وخرجت من أفواههم كلمات جديدة في الظاهر اختاروا فيها الجبر على الاختيار أو الاختيار على الجبر، لكنها لم تفي بالغرض؛ لأن التعارض متأصل ضارب في القِدم ولا يمكن رفعه، إلا إذا اعدنا النظر في لغة المتن لترتفع الغشاوة عن أسراره وتُحل ألغازه.

البارادوكسات والتناقضات لوازم للخيال وعالم الرؤى ولغة الأحلام التي تنسجم وتتناغم مع المنام لا مع الواقع، ولا يوجد شيء أكثر إمكانية ووقوعاً مثل شخصٍ يرى في المنام أنه حرٌ وعبد، وأنه على ارتفاع وانخفاض، وساكن ومتحرك، في الماء والنار، ويرى نفسه لابس وعريان، شيخ وشاب ...في كل هذه الأحوال يجلس مرتاحاً في

(1) المثنوي، الدفتر الخامس، أبيات ٣٢١٤، ٣٢١٧، ٣٢٤٠

(2) إشارة إلى القصة الرومانسية التي تجمع بين الملك الساساني خسرو والأميرة الأرمنية شيرين، التي أصبحت ملكة بلاد فارس، كاتب الشاعر نظامي الكنجوي، وهو كاتب رواية ليلى ومجنون أيضاً.

مجلس يغبط عليه، أما في وقت اليقظة تتلعثم الحكاية، ولا تدع مجالاً لبساط أن يأخذ مكانه في البسيطة.

لماذا لا نقول بأن محمد ﷺ في رؤياه "كقلم بين اصابع الرب يقلبهُ "[1]، والعالم بأسره مسخّر في قبضة الرب، حتى ورق الشجر لا يسقط الا بإذنه، وفي الوقت ذاته يرى نفسه حرّ طليق يدعو الله الرحمة والمغفرة، ويطلب العقوبة باسم الله للمجرمين والمشركين.

كون الإنسان مختار ومجبور في القرآن لا تفرق كثيراً، وحالها حال الشجرة الجهنمية واشتعال الماء وجلوس النار على الشجرة، وعادل وجبار، وهادٍ ومضل ... كل هؤلاء ضيوف لمضياف واحد في ديوان واحد، ولكلٍ معناه الحقيقي لا كناية ولا استعارة، وفي الوقت ذاته بحاجة إلى تعبير تفسير وتشريح.

هناك آيتان متجاورتان كمقراض التناقض الحاد خادشة لذهن القارئ، واجتماعهما في مكان واحد (كما يظهر للعيان) لم يكن بلا سببٍ:

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا. مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ ...[2]

يكفي القارئ ان يراجع تفسيرين لقطبي عالم التفسير الفخر الرازي في مفاتيح الغيب، والعلامة الطبطبائي في الميزان ليرى بأم عينه كيف حلّوا هذا التناقض:

العلامة الطباطبائي في حل رموز تلك الآيتين، وبعد لفّ ودوران طويلين يظهر انه نسى ان السعادة والشقاء من عند الله، ويذهب دفعة واحدة إلى القول بوجود الحسنات وعدمية السيئات، وبطريقة الفلاسفة والاستعانة بها يذهب إلى أن الله لم يخلق الشقاء؛ لأنها عين العدم والفقدان، ثم وفي الخاتمة يقول:" ولو راجعت التفاسير لتقف متحير

(1) غافل عن أحوال الدنيا كقلم بين اصابع الرب يقلبهُ
المولوي، المثنوي، الدفتر الاول، بيت ٣٩٤.
(2) النساء:٨٧-٩٧

ومبهوت من كثرة الآراء والاهواء والاقوال المتكثرة والإشكالات المختلفة ..." وهو على حق ما يقوله.

الإمام الفخر الرازي في حل تناقض الآيتين، يشمّر عن ساعديه، ويصل بالنهاية إلى نتيجة:" أن السعادة والشقاء والكفر والإيمان كل من عند الله، لكننا من باب الأدب لا ننسب السوء والشقاء والكفر إليه، كما أننا ندعو الله مدبّر السموات والأرض ولا ندعوه مدبر القمل والخنافس"، لان مقام الربوبية لا يسمح لنا ان نتجاوز الادب، وفي الخاتمة وفي إشارة إلى عدم رضاه مما اروده يقول: " هذه عصارة المطالب في شرح هذه الآيات مما توصلت اليه، والله اعلم بأسرار كلامه ".

وفي مقابل هذه " الآراء والأهواء والأقوال المختلفة " هناك عقول جبارة وقعوا في مشقة سببها يمكن ارجاعه إلى اعتبار لغة القرآن لغة اليقظة، متناسين كل تلك التناقضات، وكأن الله الهادي الرحيم يجعل عباده في مواجهة مع ورطة الالغاز والرموز، وليس أكثر من ان يقال ان لغة المتن المقدس تعلوها الرؤى، خطاب متناقض ومتعارض وهو عين مقتضى الراوي محمّد ﷺ حيث يضعه امامنا بكامل الصدق وبعيد عن التكلّف والاستحسان، ولو ان هذا الكتاب وضعه حكماء عقلاء مطابق مع الموازين المنطقية ولا وجود للبارادوكسات فيه لم يجد المفسرون تعباً وعسر في تفسيره ولم يضعوا قيوداً وقرائن للتمييز بين المحكم وبين ما خالطته الرموز من المتشابهات.

و لهذا يقول الله العليم الا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً [1]. وهذا معناه واضح، نعم "رسالة الأحلام المحمدية " لا وجود فيها للتعارض، لكن لو خرجنا من فرن الخيال الدافئ إلى بركة الصقيع الباردة المتيقظة لأصبحت اجزاؤنا المذابة قطعة قطعة متقابلة ومتخاصمة مع بعضها البعض.

إبداع وتخيّل اللقاء والسماع ورؤى الخلاّقة لمحمد ﷺ أوردت وحياً مرموزاً، ومتناً فنّياً، ورسالة أحلام مليئة بالبارادوكسات من صدرها حتى ذيلها وهو ما يجعلها ممتازة وبديعة وموجبة للحيرة.

(1) ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ النساء: ٨٢

في هذا المتن يبتدأ الخلق بصيغة " **كن** " ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [1] والذي هو بارادوكس عظيم، اذا كل شيء يخلق بـ " **كن** " فمَن خلق "**كن**"؟ لا جرم انها خُلقت ب "كن " أخرى وهي سلسلة لا نهاية لها ...!

والخالق هو ذاته أول وآخر، وظاهر وباطن، وعادل وجبّار، والإنسان مختار ومجبور، والنبي تارة هو هو وتارة الله، وأخرى جبرئيل، والمعاد هو هكذا خيالي، قانون العلية غير جارٍ ولا حاكم، والزمان والمكان لا واقعية له، مثل هكذا عالم وهكذا لغة لا يمكن وصفها الا ان نقول انها رؤى فنيّة وخيال خلاّق للنبي ولا يمكن وصفها بشيء آخر. ولا وسيلة لدينا لحل تلك الالغاز سوى التوسل بالتعبير،

ولابد ان نكون متحدي اللغة مع جلال الدين الرومي عندما يرفع الستائر ويكشف الالغاز، وكأن الناس قد وعوا من نومتهم، وانشدوا بنبرات حزينة:

وكأنها اقوال تكشف الغطاء وكأنها لم تكن بالحسبان[2]

هذا الكتاب حقاً رسالة أحلام تعلوه الاسرار رُويَ بطريقة فنيّة، ولو ان شخصاً راويه غير مُحَمّد الامي لكان اثراً بديعاً فنيّاً، لكنه عند المؤمنين بنبوة مُحَمّد عليه السلام هو كتاب ناظر إلى الواقع، وتحوّل عندهم إلى كتاب صانع للحضارة ومرشد للسعادة، ومعلّم للحكمة، وكان هوية المسلمين ومازال.

قوانين عليّة الزمان والسببيّة

يقول جلال الدين الرومي:

جملة القرآن في قطع السبب عزّ درويشٍ وهلاك بو لهب
هكذا بداية القرآن حتى تمامه رفض العلل والاسباب والسلام[3]

(1) النحل: ٤٠
بعض المفسرين كجار الله الزمخشري يرى ان استعمال هكذا صيغ تمثيلية وتخيلية محضة.
(2) المولوي، المثنوي، الدفتر الثاني، بيت ١٧٩٦
(3) المثنوي، الدفتر الثالث، بيت ٢٥٢٠، ٢٥٢٥

لا داعي لفتح صفحة النزاع الأشعري المعتزلي حول السببيّة، لكن على الإجمال فالأشاعرة ينفون السببية عن الطبيعة، وزمام العلية بيد الجبّار المتعالي، وكل ما يريده يحصل، ولا يحصل ما لا يريده، والطبيعة منظرٌ للإله، ولا وجود لقانون العليّة الفولاذي، ولذا الماء يطفئ النار في العادة لكنه من الممكن ان يشعلها، وقس على ذلك:

من الماء تستمد النار وهجها وكأنها زيت — من الاهليلج القابض يأتي الانبساط[1]

ممكن قدرة الخارق تصيّر السنن — هكذا الأحوال تسير وفق السنن[2]

قيل أن قوانين العليّة تكبّل يد الله ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [3].

إذن كل ما في الكون يسير بأذنه، ولو حصل شيء لانقلبت القوالب، ومولانا جلال الدين يقول في أبيات له: ان لمن الغفلة التصديق بمقولة العليّة، فنظام العالم قائم بدونها، ولو رفعنا الغطاء عن هذه الغفلة لم يبق حجر على حجر:

لا وسائط ولا أسباب يا ابي — من المسبب يصل الخير والشر

حتى تعمّ الغفلة كل مكان — لا شيء سوى خيال في الطريق[4]

لكن نفي العليّة الكلامية شيء وعدم رؤية العليّة في التصرف المباشر لليد الإلهية في الأمور شيء آخر.

وعلى كل حال فالسبب والعلّة اصطلاحات ليست قرآنية، نعم الخلق صيغة منتخبة من راوي المتن المقدس، والله هو صاحب هذه الصفات الحسنة كالخالق والبارئ والمصور[5]، لكنها لم تكن يوماً علة العلل أو واجب الوجود، حتى ان المتشرعيّن من

(1) المصدر السابق، الدفتر الاول، بيت ٥٤

(2) الدفتر الخامس، بيت ١٥٤٤

(3) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ المائدة: ٦٤

(4) المثنوي، الدفتر الخامس، أبيات ١٥٥٤، ١٥٥٥، كلام مولانا حول العلية في الطبيعة، وكلامنا في غياب هذا المفهوم في الرواية القرآنية. (المؤلف).

(5) الحشر: ٢٤

المؤمنين ممنوعون من استخدام غير الأسماء الحسنى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [1].

المفسر الخبير صاحب الميزان بذل جهداً كبيراً ليصحح مسير القرآن طبق قاعدة العلّية، لكن فرضية العلية لا تساعد عليه الشواهد القرآنية، ولا يمكن ان تكون دليلا على مطلبه [2].

في القرآن يلاحَظ الله من بين الحوادث يصطع نوره، ويضّق الاسباب الطبيعية، ويوحّد بين الحوادث الغامضة، ويزيّن من بعض المشاهد الغريبة وعلى خلاف العادة، رغم انها ليست سوى رؤى واحلام.

نبيٌ عرشه مع الريح..

ملكة عرشها في طرفة عين تجده امام سليمان..

ذنوب تجعل من أساس قوم ذاهب مع الريح..

ملائكة يجعلون من قرية عاليها سافلها..

ملك يتحدث مع النمل..

اموات يرجعون لقومهم بعد أكثر مائة سنة..

إمراة عجوز وعقيمة تحمل وتولد..

جبل يقف على رأس قومٍ..

عصى تتحول إلى تنين..

ناقة تسببت في ان تسوى قرية بالأرض..

سمكة تصبح اثنان ونصف..

نار تتحول إلى برد ولا تحرق..

---

(1) ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرض ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الحشر: ٢٤

(2) انظر تفسير الآية ٢٥ من سورة البقرة.

متهم كلٌ يراه مصلوب، وكلهّم يخطأ في الرؤية والواقع ان شخصاً آخر هو الذي يصلب مكانه ...

كل ذلك لم يكن من جنس الحوادث والعلل والمعلولات، وإنما تنتمي إلى فضاء المنامات، وتداعي الصور والحوادث في مثل هذا الفضاء امر جارٍ وطبيعي.

الناس في الأحلام يطوون مسافات بعيدة، وينتصرون على الاعداء بسهولة، يطيرون في السماء، ويتحدثون مع الحيوانات.

لا ينبغي الاعتقاد بأن نوحاً عمّر ٩٥٠ سنة ام لم يعمّر ؛ إذ لابد من معرفة ان الزمان والمكان في الرؤيا غير واقعي، وهذا العمر الطويل والاطول ممكن وكائن.

ولا ينبغي الاعتقاد بأن المذنبون قد ابتلوا بابتلاءات غضب الطبيعة كالزلزلة والفيضان والطاعون ؛ إذ لابد من معرفة ان الربط السببي هو الرؤيا، ووظيفة المفسرين تعبير هذه الرؤيا، والتعامل معها على أساس الواقع سيوقعنا في مغالطة السببية المجازية في الرؤى والسببية الواقعية والطبيعية.

قصة الدقوقي في الدفتر الثالث من المثنوي تعتبر من نوادر القصص في هذا السفر الشريف الملهم، والدقوقي من المحتمل ان يكون هو ذاته جلال الدين الرومي، ولم يذكر احد هذه القصة في أي مكان آخر:

يوماً من الايام ذهب مشتاق إلى الساحل لرؤية انوار الصديق، فجأةً يرى سبع شمعات نورهم يصل لأعنان السماء، وفجأةً أيضاً تصبح السبع شمعات شمعة واحدة، ثم ترجع السبع شمعات مرة أخرى، بعدها يخرج سبع رجال ثم سبع اشجار مع فاكهة تثمر للمرة الأولى، والرجال الاشجار من دون ايدي ولا ارجل يقعون بين راكع وساجد، دقوقي وفي حيرة من امره يذهب للرجل الشجرة ويجلس عنده ويطرح له مشاكله ويسأل ويجيب، ثم يدعوه لإقامة صلاة الجماعة والدقوقي يقف اماماً ويصلي بهم، وفي خضم اداء الصلاة يصيبهم الطوفان فيجلسوا ويتضرعوا طلباً للنجاة، الدقوقي يجلب لهؤلاء الرحمة ويستجيب الله لدعائه وينجيهم من الغرق، وبين الرجال الاشجار يقع صخب وهمس أي فضول هذا كان له حق الاعتراض والنجاة وطلب الدعاء من الله؟ فظهر انه من فعل الدقوقي، والدقوقي يلتفت خلفه فلا يجد لهم اثرا.

مولانا في هذه الرؤيا المليئة بالرموز خارج الزمان والمكان تراه في اماكن عديدة منها يتفتّح لدرجة تجلب الحيرة، ولهذا أعتبر المثنوي عِدل القرآن ؛لأنه استظل بظل القرآن وبقوة في فضاء الرؤى القرآني(1).

مولانا في هذه القصة يتعرض لساعة الزمان، ويصرّح بأن لا وجود للزمان الفيزيائي في حضرة الخيال وعالم الرؤيا، واللازمان هذا موجب للحيرة.

ضبابية الزمان في النص المقدس

بالرجوع للقرآن والكلام عن يوم القيامة، وعروج الروح والملائكة نحو عروش الرب، هذا العروج كانت مدته خمسين الف سنة(2).

ذكر المفسرون ان شدة العذاب على المذنبين جعلت من اليوم طويلاً، لكنه على المؤمنين بمقدار الظهر إلى العصر(3).

صاحب الميزان كان محتاطاً واكثر فلسفية ولم يقحم نفسه بتكلّف زائد ليرفع مسؤولية التفسير عن كتفه، وعلى خلاف سيره ومشربه الفلسفي ذكر ما يلي:

"المراد من اليوم الذي مقداره خمسين الف سنة بالقياس لأيام الدنيا والزمن الجاري"(4).

بعد ذلك مباشرة يضيف:

" بأن المراد من عروج الروح والملائكة إلى الله في يوم القيامة وهو يوم تذهب فيه العلل والاسباب من بين الاشياء، وهذا معناه رجوع كل شيء إلى الله وفي مرتبة واحدة يجلسون تحت عرش الله(5).

---

(1) المثنوي، الدفتر الثالث، أبيات ٢٠٧٤، ٢٠٧٦

(2) ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إليه فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ المعارج: ٤

(3) يراجع الكشاف لجار الله الزمخشري، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي في تفسير الآية ٤ من المعارج

(4) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان ج٢٠ص ٧

(5) " والمراد بعروج الملائكة والروح إليه يومئذ رجوعهم إليه تعالى عند رجوع الكل إليه فإن يوم القيامة يوم بروز سقوط الوسائط وتقطع الاسباب وارتفاع الروابط بينها وبين مسبباتها والملائكة وسائط موكلة على امور العالم وحوادث الكون فإذا تقطعت الاسباب عن مسبباتها وزيل الله بينهم ورجع الكل إلى الله عز اسمه رجعوا إليه وعرجوا معارجهم فحفوا من حول عرش ربهم " المصدر السابق.

وهنا يبرز سؤال:

إن رجوع الأشياء إلى الله وزوال الأسباب والمسببات هل يحتاج إلى وقت مقداره خمسين الف سنة؟

لا شك ولا ترديد في ان صاحب الميزان قد اخفى رأيه الواقعي هروباً من غوغاء العامة، ولو رجع لمبانيه الكلامية والفلسفية لتمكن وبسهولة من الحكم على عالم الاخرة انه عالم اللازمان واللامكان، وهذه الآيات تعتبر من المتشابهات القابلة للتأويل، وبناء على الرأي المختار في هذا المقال ان الآيات قابلة للتعبير(1)

وبناء على اقوال بقية المفسرين وبعض الروايات الشيعية والسنية فإن هذا الزمان ليس زماناً عيني خارجي، وإنما هو زمان داخلي نفسي، والا كيف يعقل ان تكون نسبته مختلفة بين المؤمن والكافر، وهذه دلالة على انه زمان بحسب الخيال وفيه قبض وبسط، ولا ربط بين هذا الزمان وزمان الحركة والمسافة الفيزيائية.

صدر الدين الشيرازي كان صريحاً في تفسير سورة الواقعة، فيقول:" والناظرون في علم الكتاب بعين الاحتجاب يظنون ان زمان الآخرة وساعتها من جنس أزمنة الدنيا وساعتها، حتى انّهم يتوهمون ان يوم القيامة يوم مخصوص متصل أوله بآخر أيام الدنيا، فيشكل عليهم وقوع الإخبار عن وقوعه ووقوع حالاته بالفعل - كما في الآية.

وقد تكررت الإخبار عن وقوع القيامة وحالاتها في القرآن لألفاظ دالّة ثبوتها وتحققها بالفعل، مثل قوله تعالى: ﴿ونُفِخَ في الصُور فصَعِق من في السّماوات ومن في الأرض﴾.

وقوله: ﴿وَنَزَعنا ما في صُدُرِهم مِنْ غِلّ﴾

(1) لا بأس بذكر هذه الخاطرة التي حدثت عام ١٩٧٨ عند مجي صاحب الميزان إلى لندن للعلاج من ضيق النفس ورعشة اليد، كنتُ معه لمدة شهر كامل مترجماً ومعاشراً ومستفيداً من نعمة هذه الصحبة مع هذه القامة الكبيرة، سألته يوماً: لماذا لم تكتب حاشية على الأسفار الأربعة لصدر الدين الشيرازي؟ اجاب: أنا لا أرى في الملا صدراً إلا رجلاً آخوند فاهم لا أكثر. يظهر من الجواب الصريح أن آراء صدر الدين في معرفة المعاد موجبة لتكفيره، ولا أنفي ذلك.(المؤلف)

و: ﴿وَنادى أصْحابُ﴾ ...

﴿نادى أصَحابُ النّار﴾ ...

و﴿نادى أصحَابُ الأعراف﴾...

وأشباهها كثيرة فوقعوا في تكلّف أرباب المجاز والمبالغة، كما قيل في الكشاف وغيره: " انها وصفت بالوقوع لأنها تقع لا محالة، ولم يتذكّروا بمعنى قوله تعالى وَما خَلْقُكُم ولا بعثُكُم الا كَنَفسٍ واحِدَةٍ، فنسبة البعث إليه كنسبة الخلق "[1].

شواهد على ضبابية الزمان:

وهذا ليس منحصراً بالقيامة، فالزمان في القرآن بشكل عام لا ثبوت له ولا صورة واضحة لديه لا في الماضي ولا في المستقبل، شأنه شأن الرؤى، دخول الأشياء بعضها ببعض، أحدهم ينوب مناب الآخر ...

في بدايات سورة البقرة -على سبيل المثال – هناك حوار الله مع الملائكة في فجر الخليقة حول تنصيب خليفة في الأرض للنصرة، والملائكة تعترض، ثم قصة سجود الملائكة لآدم وهذا قبل خلق ابناء آدم، ثم يأتي عصيان الشيطان ...

وفي سورة الاعراف تلاحظ مقاطع من هذه القصة مع رتوشات جديدة، ثم تتحرك عجلة الزمن لتصل إلى الآية الحادية عشر حيث تقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾[2].

إذن سجود الملائكة حدث بعد الخلقة والتصوير، وفي سورة البقرة حصل السجود قبل خلق بني آدم.

المفسرون وقفوا عند هذه المغايرة ولم يهتدِ احد منهم إلى طريق للحل من هذه المخمصة، ولا حَلَّ يلوح في الأفق ؛ لأنهم يعتقدون بتأريخية الواقعة وزمانها العيني الواقعي.

---

(1) صدر الدين الشيرازي، تفسير القرآن الكريم، ج ٧ ص١٤

(2) الأعراف:١١

والحق ان زمان هذه الاسطورة كحال الاسطورة ذاتها منام ورؤيا، لكنها أصبحت جزء من عجلة الزمن الواقعي وهو جارٍ على زمن الرؤيا.

شاهد آخر على عدم وضوح الترتيب الزماني :

وفي هذا المضمار الآيات الاخيرة من سورة المائدة وفي قسمها الأول سؤال الله لعيسى ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ وجواب عيسى ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ وفي الخاتمة يقول الله ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ في هذا المقطع لغة محاورة تتبدل أحيانا ويتداخل الماضي بالمستقبل.

شاهد ثالث على غياب الزمان والمكان معاً :

كذاك الحال في الآية ١٧٢ من سورة الاعراف وهي من عجائب ما ورد في القرآن ومن عويص الكلام:

﴿وَإِذْ أخذ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدم مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ. أو تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾

هذا هو العهد الذي تحدث عنه الروايات والأدبيات الإسلامية الذي حدث في عالم الذر، في زمان غير معلوم ومكان مجهول، والناس مازالوا نطفاً في ظهور آبائهم، ويطلب منهم الإقرار والإشهاد بربربيته: ألست بربكم؟

وهم في تلك الحالة يقرّون ويشهدون بالإيجاب!

هذا المكان هو عالم الرؤيا، ويسمونه عالم الذر أي عالم النمل، ولِمَ سمي بذلك؟ لأن الناس كانوا نطفاً ومن فرط صغرهم فهم كالنمل ومع ذلك يحضرون ويستمعون لنداء الحق ويلبونه بلغة القلب.

وليس من العجب ان يتحدث المفسرون عن لغة الرمزية والخيال في تفسير هذه الآية، ويطلقون سهام الحدس والتأويل، و ضروب من الاحتمالات، ثم يتركونها لظلمة التأريخ.

جار الله الزمخشري في تفسير الكشاف يرى انها جملة واحدة تمثيل وتخيّل.

يقول جار الله: "إن لله على وحدانيته دلائل وشواهد غرسها في عمق العقول، ويسألها: ألست بربكم، وتجيب بلى أنت ربنا " (1)

العلاّمة الطباطبائي في تفسير الميزان وعلى نهجه في تسلّق سلّم الفلسفة يرى هناك عالم مقدّم على عالم الانسانية زمانا ومكانا يقع في ما وراء المادة، في مقام تحققت فيه هذه المحاورة واقعاً لا تخيلاً. (2)

بقية المفسرين كالفخر الرازي والشوكاني والطبري اتخذوا موقعاً وسطاً، خصوصا الفخر الرازي بعد ذكره لآراء المعتزلة والاشاعرة، اختار طريقاً ثالثاً لحل معضلات هذه الآية فأقترح قولاً على الاجمال لتجاوز هذه القصة، وهو القول بوجود الأرواح قبل الأجساد (3).

---

(1) نص قول الزمخشري كما ورد في الكشاف هكذا: " قوله: ألست بربكم قالوا بلى شهدنا: من باب التمثيل والتخييل !ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم، وبصائرهم التي ركبها فيهم، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم، وقررهم، وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى، أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا، وأقررنا بوحدانيتك، وباب التمثيل واسع في كلام الله ورسوله وفي كلام العرب، ونظيره قوله تعالى: إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين" الكشاف ٢/٥٤٥ ط١، مطبعة العبيكان.

(2) السيد الطباطبائي وبعد تفصيل طويل الذيل حول معنى أخذ الرب من بني آدم من ظهورهم وكيفية انفصال بني الإنسان عن بعضهم البعض واستقلالهم بعد ان كانوا جزء منهم، يقول ما نصه:
"معنى الآية أنا خلقنا بني آدم في الأرض وفرقناهم وميزنا بعضهم من بعض بالتناسل والتوالد، وأوقفناهم على احتياجهم ومربوبيتهم لنا فاعترفوا بذلك قائلين: بلى شهدنا أنك ربنا، وعلى هذا يكون قولهم: «بلى شهدنا» من قبيل القول بلسان الحال..."

(3) يقول الفخر: "وفي الآية قول ثالث، وهو أن الأرواح البشرية موجودة قبل الأبدان، والإقرار بوجود الإله من لوازم ذواتها وحقائقها، وهذا العلم ليس يحتاج في تحصيله إلى كسب وطلب، وهذا البحث إنما ينكشف تمام الانكشاف بأبحاث عقلية غامضة، لا يمكن ذكرها في هذا الكتاب. والله اعلم، التفسير الكبير، تفسير سورة الأعراف، الآية ١٧٢ص ٤٤

الفيض الكاشاني في تفسير الصافي وعلى خلاف طريقته المعهودة يلتجئ إلى التأويلات الغريبة، حتى لفظة " الظَهر " لا يدعها وشأنها، ويعتبرها مع الظهور من اصل واحد ليجمّل صورتها المادية ويجعلها مناسبة لعالم النمل.

الملا سلطان علي گنابادي في بيان السعادة يرى: ان هناك أكثر من آدم مثالي غير آدم ابو البشر، ويقترح ان نسلهم يمكن إخراجه من ظهورهم وهلم جرا ....

لا يوجد شاهد على الخلط بين الرؤيا واليقظة وفرض زمان وعليّة الرؤيا على الواقع الملموس أكثر حلاوة من هذا الشاهد، طبعاً هؤلاء الاولاد لم يأتوا إلى الدنيا وخروجهم من ظهور آبائهم الذين لم يولدوهم أيضاً، هذا على فرض ان نطفة الإنسان تقع في الظهَر أصلاً.

وعلى الفرض أيضاً ان بني آدم هم أولاد آدم حقيقة، وننقل المحاورة معهم مباشرة والحال هذه، نقول: هذا الأمر غير معقول وغير ممكن، لأنه قطع لعجلة الزمن، وتكلّس لقانون العلّية، ودخول المستقبل في الماضي، كل هذه الأمور غير قابلة للتصديق وبحاجة إلى التأويل، هذه الحادثة بهذه الصورة محالة بل أكثر مهابة ومحالة مائة مرة، لكن في الرؤيا ممكن رؤيتها تصديقها.

رغم أن هذه الآية حقاً اتعبت المفسرين، الا انه يمكن رفع كل هذه التركة من التأويلات عن كاهلهم بالقول بأن محمد ﷺ تصّور في وحي رؤياه وخياله المحال الخارج عن الزمان والمكان أولاد آدم الذين لم يولدوا بعد وكان يراهم نطفاً وقد سمعوا نداء الله "ألستُ"، وجوابهم " بلى" في مقام ليس قبل خلق الإنسان ولا بعده، وليس في هذا العالم ولا خارج عنه، وإنما في رؤياه المليئة بالغيوم والخيال، وخارج عوارض عالم اليقظة ولغته وزمانه، وعلى رأي ويلسون فولت وهو من محققي نظرية الآداب: "كل شيء في هذه القصة حقيقي لو حصل بتمامه "(1)

---

(1) ويلسون فولت، نظرية الآداب، ترجمة ضياء موحد وپرويز مهاجر، طهران، انتشارات علمي وفرهنگي، ص٢٤٢.

حكاية الأيام الست:

قصة خلق السماوات والأرض في ستة أيام مقولة ضبابية النص المقدس المتقدمة، وهي قصة توراتية تكرر ذكرها في أكثر من موطن من القرآن تبعاً للتوراة، وورد ذكرها قبل ذلك في " أوستا " زرادشت أيضاً.

وبناء على ما ذكره المفسرون تبعاً للروايات حُددتْ الأيام والمنجز من بناء الكون من تلك الايام. من هؤلاء المفسرين السيوطي حيث حدد يوم الاثنين لفعل الشي الفلاني، ويوم الثلاثاء كذا وكذا، حتى الآيات الأولى من سورة فصلت اوصلت عِداد الأيام إلى ثمانية أيام[1].

اجهد المفسرون انفسهم لدمج الايام ببعضها البعض ليحصلوا على نتيجة الأيام الست، كذلك فعل الفخر الرازي.

البحث الجديد في هذه القصة، وأصبح مورداً للسؤال هو: ان الآيات تتحدث عن خلق الأرض ثم خلق السماوات والحال ان سورة النازعات تثبت أن ﴿الأرض بعد ذلك دحاها﴾ بمعنى انه خلقها بعد اتمامه لخلق السماوات!

لكن يظهر من مقولة المفسرين في بيان ضبابية الزمان هنا ان الله عاد ورجع إلى الأرض بعد خلق السماوات لبسطها ووضع أقواتها!

هذا الجواب لم يقنع الفخر ويضعه امام تحدي "ان قلتَ " " قلتُ. وبالنهاية يذر المسألة كالمعلقة من دون جواب[2].

---

(1) ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أيام سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَىٰ إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أو كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ فصلت:٩-١٢

(2) يقول الفخر الرازي ما نصه:
"ظاهر الآية يقتضي كون الأرض بعد السماء، وقوله: في حم السجدة: **ثم استوى إلى السماء** يقتضي كون السماء بعد الأرض، وقد ذكرنا هذه المسألة في سورة البقرة في تفسير قوله: **ثم استوى إلى السماء**... لما ثبت أن الله تعالى خلق الأرض أولا ثم خلق السماء ثانيا، ثم دحى الأرض بعد ذلك ثالثا، ذكروا في تقدير تلك الأزمنة وجوها... واعلم أن الرجوع في أمثال هذه الأشياء إلى كتب الحديث أولى".

والحق في خلق السموات والأرض وأيهما مقدم هو التوسل بالرؤى، إذ لم اجد حلا مقنعا لخلق السماوات والأرض غير التوسل بكونها حلم ورؤيا...

أما التمسك بأساطير خلق الأرض من تحت الكعبة، أو من تحت صخرة البيت المقدس فهو كطاحن الماء في الهاون.

وكذلك قصة الأيام في النص المقدس هل هي من جنس الأيام السبعة أو بمعنى اليوم بألف سنة(1).

وكل تلك المعاني لا تخلو من الاشكالية، واقل ما يقال هنا استحالة وجود الزمان قبل المادة سواء كان يوماً واحداً أو قرن من الزمان.

يمكن تصحيح ذلك ومن دون الحاجة إلى أدنى تكلف ولا داعي للدخول في متاهات التأويل أن يقال: أن اليوم ممكن أن يكون من أيام الأسبوع، وهذا اليوم قبل خلق الأرض والسموات يوما أو شهرا أو سنة، ووقوع هذا اليوم في حالة عدم وجود الزمان في ظرف خلق الكون، ووقوع التناقض يحصل ضمن حسابات عالم اليقظة. أما في حالة الرؤيا والمنام فلا وجود لتناقض الزمان والحال هذه.

لا واقعية للزمان في النص القرآني:

أما بالنسبة إلى عدم واقعية الزمان في النص القرآني فلا يوجد دليل أكثر حجية ودلالة وصراحة من الآية ٤٧ من سورة الحج القائلة إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ.

ماذا يفهم من هذه الجملة؟

هل هناك عقد أو اتفاق ابرمه الاله مع نفسه أو مع الملائكة يكون بموجبه نسبة اليوم الأرضي إلى اليوم الإلهي 1000/1، بمعنى ان كل الف سنة أرضية تساوي يوماً سماوي واحد، فتكون وحدة قياسية مثل الألف كيلو تساوي طناً واحداً. لكن هذه

(1) ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ الحج:٤٧

الوحدة القياسية في عالم الوجود باطلة إذ لا يمكن للزمان أن يمتد إلى أربعة وعشرين ساعة وإلى الف سنة [1]

إلا على القول بعالم ما وراء الطبيعة حيث اليوم يعادل ألف سنة، وهذا الفرض باطل أيضا، لأن العالم أوسع وأشمل من الطبيعة والزمان، وعليه ولا وجهة للقياس بينهما.

يبقى أن يقال أن الزمان نسبي فيطول ويقصر بحسب الحال، وهذا ما ذهب إليه أكثر المفسرين فأن يوم العذاب الإلهي وما يحتويه من الشدة والمشقة كأنه ألف سنة من مشقة الدنيا، كما أن ليلة القدر وما فيها من المعنويات كأنها خير من ألف شهر، فيكون اليوم هو ذات اليوم ذو الأربعة وعشرين ساعة لكنك تشعر به وتتحسس آلامه وكأنه ألف سنة.

ويمكن لهذا التفسير النسبي للزمان أن يكون غير واقعي ويتلاشى حينئذ بطؤه وقصره وطوله الفيزيائي، لكن المعنى الأكثر مقبولية هو القول بأن اليوم الإلهي في الرؤيا والمنام يعادل ألف سنة. والأف هذه ليست عدداً ثابتاً وإنما هي حاكية عن حالة ممكنة. وكما يقول صدر المتألهين أن طول يوم القيامة يكون أحيانا كلمح البصر وأحيانا ألف سنة وأحيانا ثالثة خمسين ألف سنة...

كل ذلك يتأتى في منام محمد ﷺ، حينئذ يجلسون مع بعض دون تخاصم أو تزاحم:

لا مكــــان تحـــــت نــــور الله ايـــن حالــه وماضـــيه ومســــتقبله
ماضـــيه ومســـتقبله بالنســـبة إليـــه كلاهمـــا شـــيء رفيـــق للخيـــال[2]

---

(1) لعل بعض القرّاء المتنبهين إلى أن طرح هذا السؤال يذكّرهم بالنظرية النسبية لإنشتاين، لكن المتنبهين انفسهم يعلمون ان معنى النظرية شئ آخر وليس مكانا لطرحها واستخلاص النتيجة منها هنا. (المؤلف).

(2) المولوي، المثنوي، الدفتر الثالث، بيت ١١٥٠-١١٥١

محمد ﷺ راوي الأحلام النبوية (٤)

انتفاء الشريعة وامتناع الرسالة

خمـــرتي عيبُهـــا انهـــا تجعـــل روحـــي صـــافية صـــوفية
الهـــي لا تجعـــل النصـــيب الســـيئ يـــوم كـــل عاقـــلٍ(1)

تأخر هذا المثنوي لمدة، وبسبب عوائد الأيام حُجبت تلك الرؤى، لكن العاقبة كانت إلى خير، وبداية لرفع النواقص الحاصلة.

في هذه المقالة سأتعرض لأهم الانتقادات العلمية والبناءّة وردّها، واترك الجزئيات للقرّاء لتفكيكها، ثم نرجع لقصة المعراج والمعاد للنظر فيها، وتقوية " الأحلام النبوية " لفهمها وحلّ معضلاتها. بعون الله تعالى.

لابد من التنبيه إلى أن ما سبق من الكلام وما سيأتي كان مع الجماعة المؤمنة بالنبوة، ولست بصدد اقناع المنكرين لها.

مشروعية الأحلام :

الاعترض الاول:

الأحلام ليست حجة، والوحي إن كان من سنخ الأحلام فهو ساقط عن الحجية ؛ ولازمه بطلان التعاليم والاحكام التي جاء بها النبي، والاكثر من ذلك امتناع الرسالة.(2)

---

(1) حافظ الشيرازي، الديوان، غزل ٣٥٤

(2) جعفر نيكونام، نقد نظرية الأحلام النبوية، ويبسايت جرس، مهر ١٣٩٢ هـ.ش
http//www.rahesabz.net/story/73667

حسناً، إن أحلام الأنبياء نوع من أنواع الوحي، فهو حجة على المؤمنين به بلا فرق بين كون الوحي يأتي في حالة اليقظة أو المنام، فالمؤمنون بالوحي يعتقدون به من أي طريق جاء، حلم كان أو يقظة.

قالوا: لو تصورنا منظر النبي وهو يدعو ابا جهل للإيمان به ويقول له أني رأيت في المنام!

ماذا لو أجاب أبو جهل: بأني أيضاً أرى في المنام.

بناء على نظرية "أحلام نبوية" هل نعطي الحق لابي جهل في رؤياه بل لدعوة النبي لرؤياه، ويكفي هنا تبديل صيغة الرؤيا بصيغة الوحي، وكأنه يقول للنبي كما أنت ترى الوحي أنا كذلك أرى الوحي[1].

الجواب على ذلك هو ذات الجواب، والجواب هو: إذا كنا نمتلك الادلة المقنعة على أداء أبي جهل لابد من تصديقه، ولا لُبس في الادعاء سواء كان ادعاء الرؤيا أو ادعاء الوحي، والفيصل في النزاع هو البرهان ولا شيء سواه، ألم يقبل المسلمون العارفون بنبوة النبي بصرف النظر عن دعوى محمد ﷺ.

ثم إن الكلام في طريقة وصول الوحي ودور النبي في صياغته وتصويره، لا في تصديقه أو تكذيبه.

هذا التصور الجديد يجعل من ادراك المؤمنين لظاهرة الوحي أكثر سهولة وشفافية، وخصلة السمع والبصر أكثر شيوعاً، لو كانوا يستمعون لخطاب النبي في فضاء مبهم وشعور مرموز اسمه الوحي، بإمكانهم الآن معرفة التصورات في فضاء واضح اسمه الرؤيا، ويتحدثون بلغته حديثاً من دون حجاب ولا استعارة وبلغة عرفية وليست عرفانية، وفي الوقت ذاته وكغيره من الأحلام بحاجة إلى التعبير.

تأتي أهمية هذا التصور عندما نواجه مسألتي المبدأ والمعاد وأي فائدة تربوية نبوية نتعلمها، وكذلك الحال في تجربة المعراج التي تُعَد من أعظم التجارب وأرفعها.

---

(1) محسن آرمين، الرؤيا الخيالية في القرآن: تعبير حتى التحريف، ويبسايت جرس، مهر ١٣٩٢هـ.ش
http // www.rahesabz.net / story / 76237

صفات الله واوصاف القيامة كلها رؤى، وما الجهد الجهيد الذي تحمله اغلب المفسرين لحل الغوامض والمتشابهات والتأويلات إلا لإثبات مراد المتكلم في عتمة البيت اللغوي لكشف المعاني الحقيقة من الكلام ...

الآن وقد حُلّت المعضلة، وأصبح من الواضح أن ادعاء أهل الظاهر من عدم تجاوزهم للمعاني الظاهرية امر صحيح،

واللجوء إلى التأويلات لا يمكن الركون اليه، وكذلك أهل التأويل إذ لا حلّ آخر يمكن التمسك به غير التأويل خصوصاً المتشابهات.

الرؤيا القدسية في الوقت ذاته لغتها عرفية وبحاجة إلى التعبير، ومعاني الفاظها حقيقية وظاهرة وفي الوقت نفسه بحاجة إلى مفسر احلام، وبعبارة أخرى المنام هو مقام جامع للمجاز والحقيقة معاً.

وكأن القصة كقولهم: بدرهم تشتري كُروم وعنب واستافيل[1].

ثم ان الكلام في فهم ظاهرة الوحي، وليس في اثبات الوحي أو صدق رسالة النبي وتكذيب ابي جهل، هذه المسألة لا نقاش فيها عند المؤمنين.

الاعتراض الثاني

قالوا: لو حسبنا الرؤيا وحي نبوي، والقرآن مليء بالاستعارات والمجازات وهما زينة المتن المقدس وأحد وجوه الاعجاز، فالتمسك بالرؤى انكار للاستعارات والمجازات، ويجعلهما بلا مصداق وبلا موضوع، ولازم القول بالرؤى التمسك بالظواهر، الالتزام بالظواهر معناه تصحيح لمذهبي المجسمة والمشبهة المنكرين للمجاز والاستعارة والتشبيه والكناية في القرآن، بالإضافة إلى أن لطافة الكلام وايصاله إلى حد الاعجاز متقوم بالمجازات والاستعارات والايمان بالأحلام الغاء لكل ذلك. [2]

(1) الكَرْم والعنب والاستافيل: الفاظ لمعنى واحد وهو العنب

(2) القائلون هم السادة آرمين ونيكونام

أولاً:

الشيء العجيب من هؤلاء الأعزاء المعترضين إنهم لاحظوا انتفاء المجاز ولم يلحظوا إثبات تعبير الرؤيا...

وإن كنت نافيا للاستعارة من المتن المقدس كما يزعمون فأنا مثبت لتعبير الرؤيا، بمعنى أن ما اكتسبه الآخرون بالتأويل أوضحته عن طريق التعبير.

ثانياً:

القول بلطافة الكلام وجماليته متقوم بالمجازات والاستعارات ومن دونهما يفقد الكلام حلاوته وطراوته، هذا كلام أهل البلاغة والفصاحة، لكن الأمر لا يتوقف على هؤلاء وفي المقابل هناك الاخرون كالعرفاء واصحاب الرأي والمؤلف قد اقتفى اثرهم، وتأملاته أوصلته إلى أن الاستعارة قول ما لا يقال وحكاية ما لا يصح الإفصاح عنه، عندما يضيق الكلام عن الإفصاح بأمر ما ينطلق لسان آخر ليعبر عما ضاق به الكلام الطبيعي بلغة الإشارات العرفانية أو الاستعارات الأدبية، (ولغة الطيور كما يسميها الغزالي).

نعم الاستعارات تارة تعطي للكلام رونقا آخر إذا أريد منها تزيين الكلام وتجميله، لكن ضيق اللغة عن البيان يخلق ويكشف لغة جديدة عريقة متوارية في لب تلك اللغة.

إذن التفنن في استعمال المجاز ليست صنعة فقط وإنما هو كشف ورواية عن عالم الخيال وتجربة خاصة من نوع تجربة مولى بلخ – جلال الدين – عندما يقفز بالزانة من الدروب الضيقة:

القفز بالزانه من تحت الفروع الضيقة القافزي بالزانة كلهم مسحوقين من الضيق[1]

أو من نوع تجربة سعدي، الخيّاط الخبير بالمعاني:

(1) المولوي، المثنوي، تفسير يا ايها المزّمل، الدفتر الرابع، بيت ١٤٨٥

بحثت عن ألف زي ووجدته قصيراً لا يناسب طول قامتك[1]

الاستعارات في بعض الأحيان تضيف جمالاً للمقال، لكن إضافتها ليست ملازمة لإرادة صانعي الجمال، وإنما ضيق اللغة عن استيعاب التجارب والمعاني هو من يجبرهم على خلق لغة جديدة من لُب اللغة القديمة.

إذن مقولة المجاز ليست صنعة بل هي كشف أيضاً، وليست كما يقول العلّامة الطباطبائي: " أنها حدّ يعطي ويضيف شيء لشيء آخر "

وكما يقول سيف فرغاني:

جمال البلاد ليس أثرا تركه زئير الاسود هو آثار ما تركه عوعو كلابكم[2]

أو كما يقول ناصر خسرو:

هذا أنا الذي لا يرمى الحلي تحت أرجل الخنازير

حديث قيمته درر في الفاظ دريّة[3]

وصف الاسود يعطى للأبطال، ووصف الكلاب والخنازير للأشرار، فبدل ان يقول الابطال تركوا البلاد وذهبوا يقول الاسود تركوا القافلة وذهبوا، وبتعبير العلاّمة الطباطبائي هو ليس الاّ فرض واعتبار، لكنه قائم في الذهن وباختيار المعتبر ذاته، ومقدمة ونتيجة لا برهان عليها ... إلى آخر مقولته.

نعم عندما نتحدث عن زئير الاسود ونباح الكلاب يحدث نفوذ وتأثير يختلف عما لو تحدثنا بكلام ظاهري عن الرجال الابطال من دون تشبيه، وفرق بين شاعر يمتدح الملك ويقول له:

سمكة أنت لا وجود لها في السماء سَروٌ أنت لا وجود لها في البساتينِ[4]

(1) سعدي الشيرازي، كليات سعدي، الغزليات، باهتمام مظاهر مصفّا، وروزنه، الغزل ٢٣١

(2) روش رئاليسم، المقالة السادسة، الادراكات الاعتبارية، نشر صدرا، ط٢١، ج٢

(3) ديوان اشعار، قصائد وقطعات، " دع الموت في عالمك ".

(4) السرو: شَجَرٌ مِنْ فَصِيلَةِ الصَّنَوْبَرِيَّاتِ، مَعْرُوفٌ مُنْذُ القِدَمِ، لَهُ شَكْلٌ جَمِيلٌ، دَائِمُ الخُضْرَةِ، يُزْرَعُ لِلتَّزْيِينِ، وسياج

و بين أن يقول أنت جميل متناسق الجسم.

القصة بتمامها ليست في ان الادباء متى ما شاءوا استبدلوا معنى مكان معنى آخر، واستعاروا معنىً جديداً مكان المعنى القديم للوصول إلى الغرض المطلوب، حقيقة الأمر: لا قصد ولا مقصد في البين، إنما صاحب التجربة ومن دون تأمل أو شهود يرى في ذلك الشيء أمراً جديداً، وهذه ليست ارادة وإنما هي كشف ورؤيا في عالم الخيال وتجربة ما وراء اللغة، ابتداءً من تجربة الراعي وقوله:"امشط شعر الله" إلى التجربة المحمديّة ورؤيا الله نور السماوات والارض، وعلى العرش استوى، وكان عرشه على الماء.

كل ذلك ليس اعتبار ولا كناية أو استعارة، ليس الله ولا رسول الله محمد ﷺ لم يكن أحد منهم قد عصر فكره لأجل تتزيين الخطاب لجلب انتباه المخاطب، إنما هي معاني عارية عن الاستعارة بمعانٍ اخر، ونظر ثاقب في كشف جوهر المراد، ولعل رؤية محمّد مَلكٌ نوراني وجبّار جالس على عرش السلطنة كانت في فضاء خيالي ورآها كمشاهدة الرؤيا، كما في العهد القديم وفي مكاشفة دانيال وحزقيل ومشاهدتهم الله على عرش متحرك على عجلات نيرانية.

كذلك قصة شرب الخمر لأهل الجنان، وترابية بني آدم، ونارية الجن، وبعث الأموات من القبور، وشجرة الزقّوم الجهنمية، وكون القرآن كتاباً، وامثال الكثير الكثير...

فلا شرب الخمر لأهل الجنان كناية عن اللذات، ولا انين المعذبين من أهل النار كناية عن العذاب، وإنما هي عين الواقعة التصويرية التي ظهرت لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم في رؤياه القدسية.

كل ذلك ليست كنايات، ولا تفنن بلاغي، وليست ترفاً ادبياً، ولا صداً موزونة في اسماع النبي، وليس كما يقول حافظ:

للمَزْرُوعَاتِ.

حديث اهوال القيامة قالها واعظ الحي   حكـايات قالهـا مـن هجـران الزمـان[1]

نعم هي تقارير من المنام الاشراقي النبوي.

ذلك الكتاب.. أي كتاب:

وبالنظر لصيغة الكتاب الواردة في القرآن ذلك الكتاب لا ريب فيه[2] أي كتاب هذا المشار إليه بذلك، وعند ظهور النبي لم هنالك كتاب قد جمع بعد!

بعض المفسرين قال: إشارة إلى النسخة الملكوتية ودفتر العرش!

كيف ذلك؟ وبعض الخطابات لم تنزل بعدُ، ولم تكتب أو تجمع بعدُ، وبعض الحوادث لما تقع أصلاً.

وقيل: إشارة إلى الكتاب الموعود، وقيل غير ذلك ...

أليس من الأولى في كل ما قيل من تأويلات حول هذا الكتاب ان يقال: هو ينشد لكتاب كان حاضراً في رؤياه.

إنزال الحديد:

في حادثة نزول الحديد والحيوانات، وكيف سلك المفسرون طرقاً ضيقة في بيان معنى نزول الحديد والأنعام من السماء؟!

مجموعة من المفسرين اوردوا طائفة من الروايات المجعولة التي تقول بأن الله عندما طرد آدم ابو البشر من الجنة أنزل معه العلاة وهي السندان والمطرقة والأبرة ...[3]

---

(1) حافظ الشيرازي، الديوان، غزل ٨٨

(2) البقرة: ٢

(3) محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، دار احياء التراث العربي، تقديم اغا بزرك الطهراني، ط بيروت، ج٩ص٥٣

يقول الطوسي: "وهذا صحيح ولا بد منه، لان الواحد منا لا يمكنه أن يفعل آلات من حديد وغيرها إلا بآلات قبلها، وينتهي إلى آلات يتولى الله صنعها تعالى الله علواً كبيراً "

ويزيد الزمخشري في الكشاف على ما ذكره الطوسي فائدة مهمة!! في بيان معنى الحديد.

مجموعة آخري من المفسرين قالوا بأن الحيوانات كانت من قبل في الجنة ثم أنزلت إلى الأرض[1].

و مجموعة ثالثة قالوا الإنزال في الآيات بمعنى الانشاء ويعني الايجاد[2]، وهي مقولة لا دليل عليها.

لو قلنا بأن إنزال الحديد والأنعام كان على حالة من الرؤيا الم يكن هذا اللغز قد حُلَ.

وبناء على ما ذكرناه في لغة الاستعارة، وانها لغة وليدة من رحِم لغةٌ أخرى، يصح تعريفها: بأنها منام في عالم اليقظة، أو رؤية الشيء بمنزلة شيء آخر، ففي الواقع هو يرى مناماً ويسير بين ثنايا الرؤى والخيال، وبذلك هو يبتعد عن عالم اليقظة.

حينما يقول مولى بلخ [جلال الدين]:

" سلام مبارك طويل الذيل نوراني "

في الحقيقة يرى السلام ذو الذنب النوراني الطويل ولم يتصنّع ذنبٌ طويل يلحقه بالسلام، وهذا السلام بتلك المواصفات لا تجده الا في الخيال والرؤيا، ولا وجود له في اليقظة. " منام أراه لكنه ليس في المنام ..."[3]

"روي أن جبريل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح وقال: مر قومك يزنوا به.

وأنزلنا الحديد قيل: نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد: السندان، والكلبتان، والميقعة والمطرقة، والإبرة.

وروي: ومعه المسن والمسحاة.

وعن النبي: إن الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: أنزل "الحديد، والنار، والماء، والملح"

والموضوع مفصل بالتمام والكمال حول انزال الحديد وفوائده في التفسير الكبير للفخر الرازي...

جار الله الزمخشري، الكشاف، نشر مكتبة العبيكان، ط١ ١٩٩٨، ج٦ص٥٢

(1) لتفسير الكبير، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية ببروت، ٢٠٠٤، ص٢١١

(2) الطباطبائي في الميزان، وصدر الدين الشيرازي في تفسير القرآن في تفسير آية انزال الحديد.

(3) منام أراه لكنه ليس في المنام ادعيه انا ولست بكذابٍ

المولوي، المثنوي، الدفتر السادس، بيت ٤٠٦٥

ولنقتدي بهذا الشاعر المعاصر حين يقول:

" تعالَ ايها الشعر فقد قتلتني تلك اللغة ..."

ويصح أن يقال على غراره:

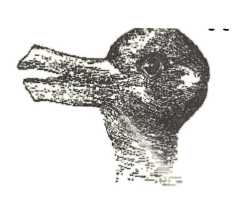
" تعالَ أيها الحُلم فقد قتلتني تلك اليقظة ..."

لكن بحاجة إلى هذه الإضافة:

منام الطاهرين لا يصلح قياسه ...

الفلاسفة علماء النفس المعاصرين ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فصوّروا المجاز ورسموه بما يعُرف بالبارادايم.

البارادايم



للمـرة الأولى عـام ١٨٩٢ أظهـرت مجلة المانية صورة لمصمم مجهول يشاهد من خلالهـا وفي آن واحـد صـورتين لأرنـب وبطة، فلو رأيتها من جهةٍ لشاهدت ارنبا ولـو عكسـت اتجـاه الرؤيـة لرأيـت بطـة، وكانـت مثـالا للخـدع البصـرية للوهلـة الأولى، لكن هذه الصورة أحدثت انقلاباً في التفكير وصارت مرجعا للباحثين في مجالي الفلسفة وعلم النفس.

الفيلسوف النمساوي -الانكليزي لودويك انتغنشتاين استلهم من تلك الصورة مطلبا اخر وتحدث عن مقولة رؤية الشي بمنزلة شيء اخر وفصلها عن الرؤية المجردة المحضة، **ومن هنا انطلق مفهموم البارادايم**[1]

ثم جاء توماس كوون واتخذ من هذا الخطأ البصري حجة ليقول للفلاسفة أن البارادايم العلمي يقوم بذات العمل الذي تقوم به تلك الخدعة البصرية، وليذكّر للعلماء بكيفة الرؤية، وأي شيء تراه ابصارهم هل البطة أو الارنب؟ ولا بد من تدريب الذهن كيفية الفهم، ومثاله كان في باب الشاقول وتغيّر مراحل حركته بين بارامادمتين اثنتين الأرسطية والغاليلولية[2]، والكلام فيها طويل الذيل.

---

(1)Ludwig Wittgenstein (1953) philosophical Investigations (Oxford: Blackwell),Part2, PP.1994-1997

(2)T. Kuhn, The Structure of Scientific Revolution university of Chicago 1962

للوقوف على التفاصيل في المصادر العربية يراجع:

هـذا الأمـر يجعـل مـن العلـم التجريبي يحدّ مـن غـروره، ويشـعر العلمـاء بتواضـعهم وقنـاعتهم ؛ ليعرفـوا ان التجربـة دائمـاً مـا تكـون بصـبغة النظريـة ومسـبوقة بالفرضـية والبارادايم، ولا مناص ولا مخلص لها غير ذلك.

تحوّل البطة إلى ارنب والارنب إلى بطة حقيقتها خطأ بصري لكنه يكشف الغطاء عن مائة صواب نظري، وهنا يجب ترديد مقولة " رُبّ خطأ اولى من مائة صواب "[1]

المجاز المصّور هو خيال منفصل عن الشيء، ذلك الشيء هو حقيقة واحدة، بمعنى انهما صورتان ناشئتان من اصل واحد، والمجاز والاستعارة جزء من هذا الشيء، ففي التشبيه والاستعارة لا يقال الإنسان مثل الملَك وإنما يقال الإنسان الذي هو مَلَك، والرجل الشجاع هو الاسد لا انه مثل الاسد، وهذا يعني انه مجاز في صورتين مركبتين على مادة مبهمة واحدة، كجلوس البطة والارنب على مجلس واحد، وهذه ظريفة فاخرة وعظيمة لا تُرى إلا إكراماً لعين الأرنب، وهي شكل البطة، لكنها وإكراماً لعين الدنيا لا تُرى لا هذه ولا تلك، وفي الوقت ذاته هي هذه وتلك معاً، بسبكٍ يفقد السؤال معناه ويفقد الواقع بريقه.

صرنا نقترب أكثر من أقوال ديفيدسون ونيتشيه لكن للقلم لغة تثقل خطواتنا...

للاستذكار المؤكد والمتجدد أقول: بأن الآراء الأدبية وظائفها متواضعة بالقياس إلى وظائف الاستعارات.

وآراء هذين العلمين واسعة جدا، أوسع مما بين السموات والارض[2].

توماس كون، تركيب الثورات العلمية ص178، نقلا عن نظرية البارادايم عند توماس كون واثرها في علم الاجتماع المعاصر، قاسم عبد المحبشي

(1) دماء الشهداء اولى من الماء رُبّ خطأ أولى من مائة صواب .

المولوي، عتاب الحق تعالى على موسى، الدفتر الثاني، بيت ١٧٦٧

(2) على اقوال ديفيدسون ونيتشيه وكيف أصبح سروش يقترب من اقوالهما يذكر المؤلف مصدرين لكتابيهما في الهامش لمن احب الرجوع إلى التفاصيل:

Davidson, D , What metaphors mean , in Davidson, D inquires into Truth and interpretation , p 245-264.

Nietzsche , N , On Truth and Lies in a Non-moral Sense , Create Space Independent , Publishing Platform.

القبض والبسط بين الفقه والأخلاق:

بناء على الأحلام النبوية سوف ينتهي بنا المقام إلى الإباحة وانتفاء الهدف من الشريعة وسيكون الفقه بلا فائدة مرجوة، لأن آيات الاحكام ستسقط عن الاعتبار وتنتفي حجيتها، إذ كيف يمكن العمل على طبق أحكام متقوّمة بالظاهر والعرف، وهذان المعنيان لا يصح الاستناد اليهما لو فسرنا تلك الاحكام على نحو من الرؤيا والأحلام[1].

أرى في هذا الاعتراض انتصار للفقه على التفسير والمعرفة الدينية، رغم ان الفقه هو أكثر شيء فقراً انتجه الوحي، وكأن المعترض يريد ان يصحح الوحي ليطابق مزاج الفقه.

وفي هذا الاعتراض نسيان للأخلاق الفاضلة والتوجه في الصلاة نحو قبلة الفقه...

و لو فُرض سقوط حجية الاحكام الفقهية، ولم يبق روح في قالب الفقه فهل هذا يؤدي إلى الإباحة!

فصلية ارغون، باب الحقيقة والكذب بمفهوم غير اخلاقي، مقالة نيتشيه، ترجمة مراد فرهادپور، العدد ٣، خريف ١٣٧٣ هـ ش

باختصار شديد اشير إلى رؤية نيتشه إلى الحقيقة ومطابقتها التقليدية للواقع، وما هو معيار صدق الحقيقة؟ هل هو المفهوم العقلي المنطقي فما طابق الواقع هو الحقيقة وما خالفه فهو غير حقيقة؟

أو هو معيار واقعي مادي تجريبي؟ أي هل معيار الحقيقة هو معيار مطابقة الفكر لمبادئه أم مطابقة الفكر للواقع؟

أم أن معيار الحقيقة يوجد خارج ثنائية العقل والتجربة؟

إن كل الأفكار عن العالم مصدرها العالم الحسي وأدواتها هي الحوار وبالتالي فالحقيقة مادية ومعيارها هو التجربة، وأن ما يصل إليه من نتائج إنما تكون صادقة فقط عندما تتطابق مع ما هو في الواقع الخارجي.

في مقابل التصور التقليدي للحقيقة العقلانية التجريبية، فإن أطروحات الفلسفة المعاصرة تتجاوز مسالة حصر الحقيقة في ثنائية العقل والتجربة، وبالتالي معيار المطابقة من أهم أطروحات الفلسفة المعاصرة. وهنا ينتقد نيتشه مسألة التطابق بمعناها التقليدي. فهو يشكك في قدرة العقل على بلوغ الحقيقة، أن العقل لم ينتج عبر تاريخه إلا الوهم...

(1) جعفر نيكونام، نقد نظرية الأحلام النبوية، موقع جرس، ايلول ١٣٩٢
73667/http//www.rahesabz.net/story

الدين يمتلك الأخلاق الفاخرة كيف ينجر نحو الاباحة؟

على الاقل لو قيل ان نظرية رؤيا الوحي تسقط حجية الأخلاق لخففت شيئاً من الاتهام بالإباحية.

وعلى الفرض المزعوم اين انهدام بناء الفقه من الوقوع في الهرج والمرج السلوكي والانجرار نحو الخطيئة، هناك فرق بينهما، وهذا هو ورم الفقه المهول، أو الرشد السرطاني (كما كان يصفه المرحوم بازرگان) المسبب باعوجاج جسد الدين. ولهذا السبب يطلق مُحَمّد عابد الجابري تسميته للحضارة الإسلامية بحضارة الفقه[1]

ومن قبله ابو حامد الغزالي الذي تكلم كثيرا في كتابه احياء علوم الدين عن التضخم الفقهي وغرور الفقهاء. وكان يقول هؤلاء مشغولون بتفرعات غير مجدية في الفقه، ومهتمون بدقائق الأمور في باب النجاسات والطهارات التي لم تكن في يوم ما موردا لاهتمام الجيل الأول للمسلمين[2]

وقبل الدخول في تأويلات آيات الأحكام ونسبتها إلى الرؤيا القدسية الموحاة، ارى من الضروري الإشارة - ولو على سبيل المقدمة - إلى النمو الفقهي غير المرحب به والذي هو عين الانحراف عن الحكم القرآني.

لا تسألوا عن أشياءَ:

هناك آيات في القرآن كأن الفقهاء لم يقرؤوها جيدا، أو انهم مرّوا عليها لكنهم وبطريقة خفية افتوا بنسخها... وتوسعوا في بسط هذا العلم الدنيوي، الذي لا فائدة مرجوة منه، وبالترغيب تمكّنو من جرّ مقلديهم للسؤال أكثر فأكثر عن زوايا مظلمة في التكاليف الشرعية، ليغرسوا بذور الخوف من الخذلان في قلوبهم.

هذه الآية المظلومة والمتروكة هكذا تقول:

---

(1) في كتابه نقد العقل العربي.

(2) ابو حامد الغزالي، احياء علوم الدين، ربع المهلكات، كتاب الغرور.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[1]

هناك قلَة من المفسرين ذهبوا إلى أن النهي الوارد في الآية معطوف على الاسئلة الفقهية، وذكروا في ذيل الآية رواية اتفقت على روايتها المجاميع الحديثية للمسلمين:

خطبنا رسول الله فقال: أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا.

فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟

فسكت حتى قالها ثلاثا...

فقال رسول الله: لو قلت: نعم، لوجبت ولما استطعتم

وفي رواية أخرى: " ثم قال: ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه "

و في روايات أخرى نهى عن كثرة السؤال، وهذه الطائفة من الروايات كثيرة[2]

ثم تكملة الآية: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أصبحواْ بِهَا كُفِرِينَ﴾ [3]

ومن خلال السرد القصصي للأمم السابقة يظهر أن حالة النمو الفقهي والتكاثر المفرط في التفريعات الفقهية لم تختص به امة الإسلام بل هي سُنة سيئة ابتليت بها تلك الامم ايضا، وفي سورة البقرة تروى قصة بني إسرائيل حينما أمرهم الله أن يذبحوا بقرة،

---

(1) المائدة: ١٠١

(2) كما في تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي، مفاتيح الغيب للفخر الرازي، خصوصاً في ظلال القرآن لسيد قطب فهو أفضل من البقية من حيث السرد العصري.

أبو زكريا النووي، شرح النووي على مسلم، دار الخير -1996، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، حديث1337.

علي بن عمر الدارقطني، سنن الدار قطني، دار المؤيد – 2001، كتاب الحج، باب المواقيت، مسألة 2670 ح 206

سيد قطب، في ظلال القرآن، ط دار الشروق ٢٠٠٣، ج٢ص ٩٨٥

(3) المائدة: ١٠٢

بلا شروط ولا قيود، كانت تجزيهم فيها بقرة أية بقرة.. أخذوا يسألون عن أوصافها ويدققون، كم عمرها وما هو لونها ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (1)

الغريب في الامر: ان الله ونبي الله، ولا اعلم بأي لغة اسهل من هذه يتحدّثون اليكم، ويأمرونكم بالكف عن الاسئلة، بالمجمل والمحدود من الأوامر والنواهي السهلة والبسيطة فالشريعة سهلة سمحة، توضّح بما لا مجال للشك وتقول للمتشرعين المقدسين كفّوا عن التساؤلات في الأحكام، لان السؤال يولد الحكم وانتفاء السؤال انتفاء للحكم، ومع عدم وجود الأحكام فالأصل في الأشياء الإباحة.

ولو التزم الفقهاء بالنهي الوارد في الآية والحديث لتركوا ظلمات كتب الفقه وتوجهوا إلى تضييق الفقه وتوسعة الأخلاق، لكن القصة جاءت على العكس تماما فحضارة الفقه تسير نحو توسعة الفقه وانكماش الأخلاق. فأي من الفقهاء سلط الضوء على آية ﴿لا تسألوا عن أشياء﴾ وطلب من مقلديه الكف عن الاسئلة الجزافية المولدة للأحكام، بل على العكس من ذلك حيث فتحوا بابا على مواقعهم الالكترونية وبأكثر من لغة، تحت عنوان اسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

هذه الحالة تصل إلى قمّتها حينما يتحدثون بافتخار وزهو عن التفريعات الفقهية في باب الفقه السياسي والطبي والاقتصادي وحالة عبادات الناس على القمر أو المريخ أو المشتري، وأن تراب تلك الكواكب مجز في التيمم أو لا؟ تحت عناوين الاحكام المستحدثة، وان الدين كامل جامع خاتم فيه حكم ما كان وما يكون.

حتى أن رجلاً حكيماً كمرتضى المطهري يعتقد بأن خاتمة النبوة في خاتمية الفقه الذي فيه كسب القوّة والقوت(2).

النبي قالها بمائة لغة لا تأتوا ولا تسألوا، والقائمين مقامه بألف لغة يقولون: تعالوا اليوم وخذوا الفتوى! وبكل تأكيد يجب ان يقال بأن تضخم الفقه ليس علامة على

(1) البقرة: ٧١

(2) بسط التجربة النبوية، مقالة الخاتمية.

ضعف الدين فحسب بل هو عين العداء للدين، ومدرسة منتفعة على خلاف مراد مؤسس الدين.

كاتب هذه الاوراق وقبل هذا وذاك اظهرت آرائي بشيء من التفصيل في مجال علم الفقه الدنيوي[1] ولا أريد التكرار الممل في هذا الباب، لكني أقول: القرآن ليس كتاب قانون، وهذا ظاهر في النواهي القرآنية، ولو أرادها رسول الله هكذا لقالها، وينبغي ان يقال وبحرقة يجب الاطناب في بابي الحقوق والأخلاق ولا ينبغي السماح بتضخم وانتفاخ التكاليف غير المربية على حساب الأخلاق والحقوق لئلا يتسنى للمعارضين من تصدير افتراءاتهم[2]

الفقه المعاصر لا يحرم المباحات من خلال تلك الاسئلة والاستفتاءات فحسب، وإنما يجيز الرذائل وينتهك حقوق الانسان.

ينبغي الرجوع إلى نواهي القرآن ومعالجة ذلك الورم المهول.

اتضح أن كل هذا الذي قالوه، كان من اجل الفقه، وكل هذا المأتم الذي أقاموه على الإباحيات المدعاة كانت على قبرٍ لا وجود لميت فيه. وكنا نمنّي النفس بأن كل هذا البكاء لو حصل على الأخلاق والحقوق لما كان مورداً للتأسف، وكيف أطلقوا الأحكام الظالمة في مورد السؤال، واعتبروها فراراً من الشرع واشاعة الإباحية، وشاهدنا خلاف ذلك.

حان الوقت الذي نرى فيه نظرية " الأحلام النبوية " مخرجة للفقه خالي الوفاض، وأن يكون الفقه قتيلها وضحيتها، أو لا يكون كذلك[3]

---

(1) مراسلات مع اية الله منتظري، سياست نامه ج٢، وفيها تفصيل للكلام أكثر من مكان آخر.(المؤلف)

(2) عبد الكريم سروش، اللعب بدين الناس، جرس ١٣٩٢ هـ ش
http//www.rahesabz.net/story/73112

(3) بودي ان اشبع الكلام في باب الفقه لئلا يعزف على الوتر المخالف:

أ: النبي الاكرم لكل الانسانية ولكل زمان ومكان وأوامره الواصلة على نحو الوجوب يجب اتباعها، والحديث عن ما هو الواصل من هذا العظيم، وكيف وصل وأين؟

القدر المتيقن هو ان الاحكام الشرعية الواردة في القرآن وحديث النبي، مؤقت بوقته وزمانه، ومتعلق بعصر ما قبل التطور، إلا ما ثبت خلافه.

هل الاحكام الفقهية رؤى أيضاً؟

يمكن وصف الاحكام الفقهية في النص القرآني انها حاصل تجربة أحلام النبي ومفسرة لها، الطهارة المعنوية بصورتها الظاهرية من غسل اليدين والوجه والتي هي مقدمة لإقامة الصلاة قد رآها النبي في رؤيا الوحي وقد امر بها، وكذلك الأمر بالنسبة إلى النواهي كالخمر والخنزير والدم وبقية المحرمات الواردة في النص...

وبعبارة أخرى: الهدف من الطهارة والنورانية والتي جاءت على شكل آداب ومناسك... ظهرت له عن طريق الرؤيا، ومن هنا جاء النص في سورة المائدة بعد ذكر أحكام الوضوء والغسل والتيمم ليقول: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن

المشكلة الرئيسية للمسلمين انهم لا يفرقوا بين دنيا عصر النبوة ودنياهم الحالية؛ إذ ان عصر النبوة والواقع المعاصر عندهم سيان، سوى تغيّر الزمان والمكان باعتراف الفقهاء انفسهم، فقهاء الشيعة كان لهم قدم السبق في هذا الباب فأفتى جمع منهم بتعطيل صلاة الجمعة والعمل بالقصاص لحين حضور الامام المعصوم وظهور الامام الغائب، ولا دليل على انتفاء شروط بقية الأحكام.

ب: النسخة الفقهية الحالية أجنبية عن الحقوق والأخلاق، ودخول هذان الضيفان لمحل الضيوف سيغيّر الكثير، وفقه المستقبل سيكون مختلفاً كثيراً مع الفقه بنسخته الحالية.

ج: الطقوس العبادية كالصلاة والصوم والحج والزكاة واجتناب الخمر والخبائث هي العمق المتبقي للفقه، وهي الجلد الواقي للأخلاق، ونواة سلوك الأنبياء، ويمكن لهذه الطقوس ان تكون المحفّز للمعنويات والمحافظ على الهوية الإسلامية، لكن تطبيقها على الحياة بإيقاعها الحالي بحاجة إلى اجتهاد وابداع مضاعف.

د: الاحكام السياسية والجزائية من أكثر اقسام الفقه شكاً واندراساً، ومليئة بالحجازية والقبلية، وروح المجتمع البدوي حاضر فيها بقوة، ومزاجه الضعيف لا يقوى على علاجه أي علاج.

النقد الراديكالي ووجهات نظره غير الضارة يمكن ان تجعل من الحقوق المعاصرة بديلا عنه - كما هي آراء إقبال لاهوري في احياء الفكر الديني في الإسلام - رغم ان الفقه يُعد من العرضيات، بمعنى انه من الممكن ان يتخذ له وجهة أخرى، بل إن هذا القسم من الفقه من أكثر الأمور عرضيةً.

هـ: على القول بالتقليد، ينبغي ان ينصب التقليد على الفقه لا الفقهاء بشكل خاص، وعلى المقلدين فعل ما يلي:

أولاً: تجنب كثرة السؤال.

ثانياً: الرجوع إلى الفقهاء بشكل عام سواء كانوا اموات أو احياء، شيعة أو سنة، رجالاً أو نساءً، وأخذ الحكم الشرعي بطريقة سهلة يسيرة.

و: بسط التجربة النبوية هي ذاتها بسط الرؤى النبوية، والحكم بخاتميتها لا يوسّع الاحكام الشرعية. (المؤلف)

﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، فجعل تلويث اليدين والوجه بالتراب نوعا من الطهارة، وهذا النوع من الطهارة حالة من الرؤيا، وعليه فالأحكام العبادية لا يمكن تحليلها أو تبيانها عن طريق العلم والتجربة لأنها تنتمي إلى عالم الخيال والرؤيا وهو عصي على التحليل العلمي التجريبي، لان مقدماته غير حسية وغير موصلة إلى الغايات الحسية.

لاحظوا حكم حرمة لبس خاتم الذهب على الرجال:

روي: " أن النبي رأى خاتماً من ذهب في يد رجل فنزعه وطرحه وقال: يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده... "[1]

وهل يعني ان سبب التحريم كان اقتصادياً أو اختلاف الجنس مثلاً، لا بل هي مشاهدة ورؤيا الذهب في يد رجلٍ وكأنها نار، وهذا الحكم الفقهي بتحريم لبس الذهب ظاهرة يصح قياس بقية الاحكام عليها.

من هنا لا يمكن قياس تشريع الاحكام الدينية على تقنين القوانين البشرية، فالمقننين لهم غاياتهم التجريبية والاجتماعية والنفسية التي تتطلبها تلك القوانين، وهذه الغايات مفقودة عند الأنبياء، إذ لا غايات في التشريع سوى التعبد وقصد القربى. ولهذا السبب حينما تصل المبادئ الحسيّة إلى الرؤيا حينئذ صورة الأعمال الجارية في حضر ودهر النبي تنجذب إليه ... كالتيمم وقطع يد السارق و...، كالنحلة تأخذ من رحيق الأزهار والنبات من البساتين لتغذية محيطه.

هذه مجرد حقائق ومبادئ غير حسية يعلوها الوجوب والتحريم، أما حدود هذه الواجبات والمحرّمات الزمانية والمكانية، وما هي مديات دائرة اعتبارهما فهذا بحث اخر له موازينه الخاصة، لكن الأمر المتيقن للمؤمنين هو العمل على وفق الرؤيا القدسية النبوية ولا حياد عنها.

---

(1) صحيح مسلم، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت، ح ٢٠٩٠،
وورد في سنن النسائي عن أبي سعيد: " أن رجلا قدم من نجران إلى رسول الله وعليه خاتم من ذهب فأعرض عنه رسول الله وقال: إنك جئتني وفي يدك جمرة من نار ". أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي، كتاب الزينة، ح 5188

أما وضوء النبي وصلاته والعمل وفق احكام الشريعة وأمر الآخرين بالعمل بها يعتبر علامة مهمة دالة على أن هذه الاحكام ليست بحاجة إلى التعبير، وإنما هي تعبير عن حقائق، هذا الكلام يقترب كثير من آراء المفسرين للآيات الأحكام وجعلها من المحكمات ورمي بقية الآيات في زمرة المتشابهات[1].

وبعبارة واضحة: إن رؤيا النبي بالنسبة للأحكام تتلخص في أنه رأى مشاهد الجنة والنار وأحوال أهل الجنان وأهل النار ولا غير، فأهل الشرك والنفاق والفواحش اعمالهم متصفة بالحرمة ومنهي عنها، وأهل الطاعة والصوم والانفاق والجهاد و... أعمالهم متصفة بالوجوب ومأمور بها، وتجربة المعراج ومشاهد الرؤيا في هذه الرحلة الملكوتية تتجلى بجمالية على هذا الأمر كما سنرى.

فلننظر لهذه الآيات:

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ. فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ. عَنِ الْمُجْرِمِينَ. مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [2]

وهل تعطى صحيفة اعمال المتقين بيدهم اليمين؟!

وهم في بساتين الجنة يسألون المجرمين:ما سلككم في صقر؟

ويقولون لم نك من المصلين ...

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[3]

---

(1) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، ج٣، ذيل الآية السابعة من سورة آل عمران.
كذلك: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ذيل الآية السابقة

(2) المدثر:٣٩-٤٧

(3) الحديد: ١٢-١٥

بناءً على نظرية الأحلام النبوية هذه الآيات ونظائرها ليست من باب الإخبار عن مستقبل أهل جهنم والإخبار عن عاقبة المنافقين، وإنما هي أحوال وصور شاهدها النبي في رؤياه القدسية، وبالتبع شُرّعت الصلاة والزكاة و... قطع اليد.

وكذلك الحال في باب آكلي الربا وأموال اليتامى في سورتي البقرة والنساء:

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[1]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[2]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3]

لاحظوا الصور والمشاهدات الخيالية لفاعلي الخير والشر رآها النبي في رؤياه وشرع عليها احكاما بالوجوب والحرمة، ويظهر أيضاً أن النبي يداه مبسوطتان في مجال التشريع ليأمر بالحلّية والحرمة والإيجاب، ليعطيها صبغة أخروية بصورة شريعة.

وإنما ذكرت ذلك: لإثبات ان يد النبي في التشريع مبسوطة، وهو يعطي الاوامر بالحرمة والوجوب، وهنا تأتي قوّته عندما جيب عن سؤال السائل حول الحج، وسيصبح واجباً ان سأله عن جوب الحج كل عام، وقوله " لولا ان اشق على امتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة "[4].

(1) البقرة:٢٥٧

(2) النساء:١٠

(3) البقرة:١٧٤

(4) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، كتاب الطهارة.
الحر العاملي، وسائل الشيعة، الحديث١٣٥٤

والحق: ان الآيات الفقهية في القرآن والاوامر والنواهي الإلهية هي عِدل للأوامر النبوية، واحدهما يكمل الآخر في النقض والإبرام؛ وحتى اجوبة النبي للأسئلة غير المطلوبة هو تشريع وفقه مشوب بالرؤى، وفي مرتبة واحدة من تشريع اليقظة، وهذه بحد ذاتها دلالة دقيقة على ان كلام محمد ﷺ نص مقدس، ووحدة صورية جوهرية.

إلى هنا تنتهي قصة الأخلاق الطويلة ...

وخلاصة الكلام:

" حضرة العشق مدخلٌ اسمى من العقلِ " (1).

الفقه أضعف شيء انتجته النبوة، لأن التشريع يمكن تبديله بتشريع آخر، أما الأخلاق فهي أسمى من التشريع ؛ فالحج واجب في الشريعة الإسلامية وليس واجباً في جميع الشرائع، أما الكذب فهو حرام أينما كان وفي كل الشرائع والملل، ومن هنا يقول النبي "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" بما يعني أن أصل رسالته متقومة بتوسعة الأخلاق لا الفقه ومذاق المشرع على قبض الفقه وبسط الأخلاق.

الأحلام النبوية عصيّة على النقد والبطلان :

قالوا: هذه النظرية عصيّة على النقد والإبطال، إذ كلما ورد الشاهد من القرآن على البطلان قلتم هذه أحلام ورؤى، وفي المقابل لو لم تكن آيات القرآن نتاج الرؤيا لأمكن إبطالها، وفي كلا الحالتين لابد من نمط يتناسب مع دواخلنا وتظهر آثاره علينا، وهذا يكفي، وامثال هذه النظريات الظريفة يكون ابطالها خارجة عن المنظومة التحقيقية الدقيقة (2).

نظرية الأحلام النبوية لا تعارض ظواهر القرآن، بل توضّح وجود الشخص الثالث وهو الرسول، وكذلك توضّح الآيات العجيبة الواردة في سعة الزمان وضيق مبدأ العليّة،

(1) حافظ، الديوان، غزل ١٢١

(2) الاستفادة من اصطلاح مقبولية النقد أولى في هذا المقام من القول بالبطلان، لأنه خاص بالنظريات التجريبية -العلمية. (المؤلف)

وايضاً التناقضات الحاصلة بين العلم والوحي، والصفات الجغرافية والقبلية للأحكام، وكذلك الأساطير التاريخية والمناظر الأخروية، وصفات الله وشؤونه، كما انها تحلّ الغاز التشريعات والأخلاقيات، والمحكمات والمتشابهات ...

لماذا ندع هذا النمط من التفكير ونتمسك بنمط يحتاج إلى كل هذه التكلّفات والتأويلات لتوضيح الموارد المتقدمة.

بالإضافة إلى وجود الروايات المؤيدة لهذا النمط والقائلة بأن رؤيا الأنبياء وحيٌ، وعلى اقل التقادير لا بد من الإقرار والتسليم بأن قسماً من القرآن نوعاً من الرؤى والأحلام، ولا أسلمَ ولا أوضحَ من التسليم بالقول بأنها " رسالة أحلام قرآنية " مع وجود كل هذه المؤيدات والمنّجزّات.

التعارض مع بعض الآيات القرآنية:

قالوا: نظرية الأحلام النبوية لا تتناسب مع بعض آيات القرآن، تلك التي تبتدئ بـ" قل"، أو المتضمنة لمعنى الوحي والانزال كقوله " انّا انزلناه " أو " واوحينا اليك " وأمثال ذلك ...

لقد بحثنا عن آيات تتحدث بصراحة عن نتاج الرؤيا أو كلام محمّد صلى الله عليه وسلم ولم نجد.

هؤلاء الأعزاء يرجع اعتراضهم إلى ما قبل القبض والبسط، والتذكير بأن التفسير بدون مقدمات غير ممكن – بالطبع أي مقدمات ستكون غير مقبولة – والتمسك بالظواهر بمثابة المقدمات للمنتقدين، وفيه مصادرة على المطلوب، فالنص القرآني لو صرح بأنه نتاج للرؤيا، لقال المنكرون أنه مجاز ولا يصح التمسك بالظواهر، ولو صرح القرآن بأنه شامل للمجاز أيضاً لقالوا من المحتمل ان لا يكون مجازاً.

والحقيقة أنه من غير المعلوم أن يقال له مجازاً أو حقيقة.

و هذا الرأي يجب أن يكون خارج إطار القرآن، ولا يبتني على القرآن ذاته، فلو لم يصرح القرآن بشموله على المحكمات والمتشابهات سيكون شاملاً لها بحكم طبيعة اللغة.

المعترضون افترضوا أن في القرآن شخصان متكلم ومستمع، ويقولون إن الآيات الشريفة تثبت وجود شخصين خطيب ومخاطب!

يكفي هؤلاء تصور المنام ليروا أن المتكلم والمستمع واحد.

يكفي هؤلاء مطالعة ديوان شمس وهو جدير بالمطالعة ليروا كلاماً لشاعر ومعشوق يتناغمان من دون معرفة الكلام لأيّ منهما.

يكفي الاستماع والاستمتاع بلذة الخطاب كما يستمتع به أهل الفن ...

لنستمع إلى التفنن في المخاطبة كما في هذا البيت:

قلت: حزنــــــك في وجـــــــودي قــال: حزنــك هــو مـــن ســرى

و ما دمنا نتحدث عن الشعر والشعراء، فهناك من لا يعتبر الشعر دليلاً وبرهاناً.

والجواب:

أولاً: إن بعض الشعراء هم من المفكرين والعرفاء الكبار، وكلامهم الموزون لا يقل قوة عن كلامهم العادي.

ثانياً: التجربة العرفانية قريبة ومتشابهة مع تجارب الأنبياء، والمدخل الاوسع لدنيا كشوفات رسل الله، وافضل خارطة طريق هو الفضاء الروحاني.

قالوا إن أول شخص لم يحترم هذه النظرية ولم يعمل بها هو صاحب النظرية نفسه، لأنه يستأنس بالقرآن باعتباره لغة يقظة لا لغة منام، وهذه الحالة لا تخلو من أمرين:

إما الاستفادة من سلاح الخصم لدفع حجته والاستدلال عليه من ذات الحجة.

أو أن لغة الرؤيا لا تعني أن مداليلها بصيغتها المنامية يطابق معناها الأصلي، حتى إضافة الحروف لها يغيّر من معناها، ولغة المنام بناء على تصريح خبراء الرؤى هي بعض من المسموعات والمرئيات، بعضها بعيد عن عالم اليقظة والبعض الآخر قريب منه، وصاحب الرؤيا تجده على الساحل وتجده في قلب الأمواج، رغم ان

لغته من اولها إلى آخرها لغة احلام، الا انها لغة مستفادة كل الاستفادة من عالم اليقظة ؛ كماهي لغة الشاعر فيها نزول وفيها الصعود، كذلك هي الفصاحة في بعض منها، وآيات القرآن كذلك:

" وكيف أصبحت تبت يدا مثل يا ارض ابلعي "[1]

أما السؤال عن أي الآيات أكثر منامية وأكثرها تصويرية. بحجة إلى تعبير للرؤيا، وأيهما أكثر صراحة ويقظة، هو سؤال شبيه بالسؤال عن أكثر الآيات محكمة واكثرها متشابهة، أو أي التعبيرات القرآنية حقيقة وأيهما كناية واستعارة ... يمكن ان تغوص في اعماق البحر هبوطاً وصعوداً، لكن لا يمكن إنكار وجود البحر.

قالوا هذه النظرية هي عدول عن الاعتزال وقبول بالأشعرية، خصوصاً في موارد نفي اصل العليّة، والانتصار للجريمة على العقاب[2]

أولاً: هذا القائل المحترم لو كان واقفاً على المشاكل الفلسفية في أصل العليّة لما كانت فتواه مندرجة في هذا البحث من القرآن.

ثانياً: ما أهمية عناوين الأشعري والمعتزلي، وهي اسماء اطلقوها لسهولة الرجوع، ولتصنيف الطبقات، لا للتقليد الايديولوجي.

ثالثاً: هاتان المدرستان الكلاميتان استقبلتا الكثير من التحولات وبقيتا على ما هي عليه حال الشروع.

رابعاً: جلال الدين الرومي ينفي مبدأ العليّة لكن لا على أساس اشعري، وإنما بسبب وحدة الشهود، إذ لا يرى مسبباً يمكن ان يكون سبباً[3]

---

(1) كلام الله وحي منزّل ولانقاش   كيف أصبحت تبّت يدا مثل يا ارض ابلعي

(2) محسن أرمين، المصدر السابق.

(3) المولوي المثنوي، الدفتر الثاني، البيت ٣٧٩٦.

محمد ﷺ راوي الأحلام النبوية (٥)

الاستيقاظ ليلة وعبور الفلك

حديث الاسراء:

فيما تقدم من الكلام في الأقسام الأربعة الفائتة كان بيانا مفصلاً ومنفصلاً عن لغة التصوير والرؤى في القرآن، أثبتُ من خلالها قدر المستطاع: إن القرآن روايةً لرؤى النبي، ناظرا ومخبرا لمشاهداته لنا... قائلاً ومستمعا تارة، مخاطبا لنفسه ولغيره أخرى.

يبتعد عن نفسه تارة ويقبل عليها تارة أخرى، مرهف بليغ فصيح الخطاب تارة وتعب ملل ضجر تارة أخرى، في القمة تارة وفي الهبوط تارة أخرى، يحصل له الكشف العرفاني فيتنبأ تارة ويخطي علميا تارة أخرى... وفي كل هذه الأحوال وفي ذات الوقت مؤيد بروح قدسية ومقيَد بقيود بشرية.

رؤياه بُينت بلغة عرفية إلا أنها بحاجة إلى من هم للرؤيا يعبرون.

صحيح ان التعبير وتفسير الأحلام يشابه إلى حد ما التأويل الا انه ليس تأويلا، وهؤلاء المؤولون والمتمسكون بظواهر الكلام وبطريقة لا ارادية اقتربوا كثيرا من المعبرَين ومفسري الأحلام، ومن هنا يمكن قراءة القرآن على انه كلام الله إلا أنّ عنوان "رسالة أحلام محمّد" أكثر ملائمة وأكثر صدقا عليه، ورغم أن صيغة المنام الظاهرة في تلك الخطابات يمكن وصفها أيضاً بمكاشفات محمّد.

هو المحور، ورؤياه وتجاربه وتقاريره جعلت من شخصه النقطة الشاخصة والخصبة للنبوة وقطب دائرة الأديان، به ينتهي الوحي، وبه تصل حدود الطاقة والمعرفة والتحليق بالخيال إلى الأعالي، مرآة خياله يتسع ليرى الرب كسلطان جالس على عرشه، وعرش

الرب على الماء، يحمله ملائكة ثمان، وسعته بسعة السموات والأرض، يطوفون حوله ملائكة بأجنحة اثنان وثلاث ورباع...

يتنقل بين السماء والأرض ذهاباً وإياباً، فالشهب السماوية تهبط ضاربة، و الملائكة تستقبل أهل الجنان في ركن، وفي ركن آخر منشغلين بتعذيب أهل النار، وفي قلب النار تنبت شجرة طلعها كأنه رؤوس الشياطين، وذرات العالم تسبّح لله، والرعد والبرق منشغلين بالحمد والثناء ...

الإسرائيليون مسخو قردة وخنازير، ونوح طال به العمر حتى بلغ تسعمائة عام، والأموات يخرجون من التراب، واهل الجنان في خيامهم يتسامرون مع حوريات باكرات دائماً، يأكلون الموز والرمان والتمر، ويتبادلون كؤوس الخمرة، والمذنبون يلبسون ثياب من زيت يغلي، وتحرق جلودهم في النار ...

مرآة خياله تصور فجر طلوع التاريخ بسجود الملائكة لآدم، وغواية إبليس له ليخرجه من الجنة فيهبط إلى الارض، وتقع الخصومة بين اثنين من اولاده فتسفك فيها الدماء ليسجل التأريخ بدايته الحمراء بقتال الأخوة، ويسجل نهايته السوداء بظلمة الشمس واحتراق البحار ثم وقوف ابناء آدم صفاً صفاً، بعدها تعرج الملائكة وتحلق خمسين ألف سنة لتصل إلى الرب.

مخيال محمد ﷺ في سياحة يجوب في عالم من الرؤى والتصورات والأساطير في اللامكان واللازمان وخارج قوانين العليّة، ويأخذنا معه في هذه السياحة ...ظلمة الشمس وتحليق الملائكة خمسين الف سنة إلى عرش يجلس عليه الرب، هذه ليست كنايات لأمور أخرى، وإنما هي مشاهد ومناظر رآها رسول الإسلام وتعلّمها وجرّبها وسمعها بلغة مليئة بالكنايات، نقلها الينا لنكون معه شركاء في تذوقها.

في هذه المرئيات والمسموعات كان خيال الرسول فعّالاً، وكشوفاته اللاصورية صيّرها في صورة لغة وزمان ومكان، وببصيرته ألبست تلك الجواهر بالاعراض، وغلّفها بالتاريخ والطبيعة.

رؤية تلك الاعراض وكشف القناع عنها، ورفع اللباس عن تلك الجواهر وتعريتها وظيفة مفسري الأحلام ومن يضفي الخدمة الثرية بعد الرسول عليه السلام:

خدمــة الســاقي جعْلُهــا بيننــا وبذلــه كــل مــا يملــك[1]

تجربتان رائدتان.. الإسراء والمعراج:

من بين التجارب القدسية والرؤى الروحانية للنبي ﷺ تظهر تجربتان بارزتان:

خروجه من الأرض وسفره إلى ما وراء الطبيعة وعروجه إلى السماء وسياحته في عالم الملكوت وعالم المثال، الذي يشكل عتبة لدخول ارض الملكوت والاقليم الثامن وجابلقا وجابلسا وهورقليا كما يسميها شيخ الاشراق شهاب الدين السهروردي، هناك عند مجالسة ارواح الفائزين بالنعيم المقيم والملائكة...

والخروج إلى ما وراء التأريخ ومشاهداته لعاقبة بني آدم يوم القيامة وعذابات ولذائذ الفائزين والخاسرين.

تحدث القرآن عن تلكم التجربتين باختصار عن الأولى[2] وبتفصيل عن الثانية[3]، وبالتبع تكلم المتكلمون والمفسرون عن تلك التجربتين، تجربة المعراج وتجربة المعاد واكثروا في الكلام والتأويل، لكنهم اختلفوا في كون الرحلتين حصلتا بجسم طار في الافاق، أو بروح عرجت إلى الملكوت.

حديث المتكلمين والمفسرين القدماء ممن لا يمتلك الذائقة الفلسفية يدور حول فهمهم العرفي من لغة القرآن والحديث، فالنبي صعد على مركب الطبيعة وتجوّل بين عالمي المعراج والمعاد الماديين، وهذا ما اثبتته النصوص من الكتاب والسنة وعليه لابد من الاذعان بها، وعدّوا ذلك ممن المسلمات والضرورات لان الاجماع قائم عليه، ومن يعتقد غير ذلك فهو خارج دائرة المسلمين.

---

(1) اقبال لاهوري، المجموعة الشعرية الفارسية لإقبال لاهوري " رموز بيخودي " مع مقدمة وحواشي درويش، مؤسسة جاويدان للنشر، ط٣، طهران ١٣٦٦ هـ ش.

(2) سورة النجم والاسراء.

(3) عموم سور القرآن

الآية الأولى من سورة الإسراء تقول:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

أما تفاصيل تلك الرحلة الليلية نجدها في الكثير من الروايات والأحاديث المنقولة في كتب الصحاح والسنن، نقل بعض منها جلال الدين السيوطي في الدر المنثور [1].

تخبرنا روايات السيوطي بما يلي:

ليلة أسري برسول الله من مسجد الكعبة جاءه الملائكة وهو نائم في المسجد الحرام، فأيقظوه واحتملوه فوضعوه عند بئر زمزم، فشقوا ما بين نحره إلى لبته، فغسلوه من ماء زمزم حتى نقى جوفه، ثم أطبقوا، واصعدوه على فرس سريع الخطى يسمى البراق، وبدأ خطواته نحو سدرة المنتهى.

هناك التقى محمد ﷺ بالأنبياء وبإشارة من جبرئيل صلى بهم جماعة ...

بعدها يبدأ معراجه في السماوات السبع صعوداً، وكلما يصل إلى سماء يُرَحب به من قبل نزلاء هذه السماء من الملائكة والأنبياء.

هذا العروج يستمر معه إلى سدرة المنتهى (وهي الشجرة الواقعة في نهاية الطريق) وهي شجرة ذات اوراق سدر عريضة كأذان الفيل ... يستمر النبي في عروجه بمعية جبرئيل إلى أن يصل على مقربة ذراعين من عرش الله حيث يدور حديث بينهما، ويعلمه بأنه جعل خليفة وقائم مقام له [2]، واوجبوا عليه خمس صلوات في اليوم.

---

(1) جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور، دار الفكر - بيروت، تفسير سورة الإسراء ج5 ص213

روايات الشيعة في الفيض الكاشاني، محمد حسين مرتضى (ملا محسن)، تفسير الصافي، نشر مكتبة الصدر، طهران ١٤١٥ هـ، ج٣ص١٦٦-١٧٦.و كذلك في الكافي للكليني ايضاً.

(2) روايات الشيعة في الفيض الكاشاني، محمد حسين مرتضى (ملا محسن)، تفسير الصافي، نشر مكتبة الصدر، طهران ١٤١٥ هـ، ج٣ص١٦٦-١٧٦.و كذلك في الكافي للكليني ايضاً.

في طريق العودة أخبر محمّد موسى في السماء السادسة، وأوصاه أن يرجع ويطلب من الله تخفيف التكليف، وبالفعل رجع واعطي التخفيف، وتكررت هذه الحالة أكثر من مرّة إلى أن أصبحت في النهاية سبعة عشر ركعة، وموسى دائم التكرار ويصرّ عليه أن يخففها أكثر، لكن محمّد كان يقول: استحي من الله ولا أقدر أطلب أكثر من هذا.

في السفر من مكة إلى بيت المقدس، يرى محمّد عجوزاً على جانب الطريق فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال: سر يا محمّد. فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا شيء يدعوه متنحيا عن الطريق يقول: هلم يا محمّد. فقال له جبريل: سر يا محمّد. فسار ما شاء الله أن يسير، فلقيه خلق من خلق الله فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر. فقال له جبريل: اردد السلام. فرد السلام، ثم لقيه الثانية فقال له مثل ذلك، ثم الثالثة كذلك حتى انتهى إلى بيت المقدس، فعرض عليه الماء والخمر واللبن، فتناول رسول الله اللبن. فقال له جبريل: أصبت الفطرة، ولو شربت الماء لغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغوت أمتك. ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء، فأمهم رسول الله تلك الليلة، ثم قال له جبريل: أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق، فلم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز، وأما الذي أراد أن تميل إليه، فذاك عدو الله إبليس.

في هذه السفرة السماوية والروحانية وفي السماء الأولى يرى محمّد نساء معلقات من أثدائهن، ورجالاً ذات كروش متورمة يكادون يسقطون أرضاً أثناء سيرهم، وأُناس كأن شفاههم شفاه البعير،، وآخرين كأن لحومهم تخرج من أفواههم ... وجبرئيل يوضح الاسباب بأنهن زانيات، وأولئك آكلون الربا، والمستهزئين، واهل الغيبة، وآكلي الحرام.

في السماء السابعة يرى أربعة روافد جارية من ماء وحليب وعسل وخمر عند ساق سدرة المنتهى، فيشرب من نهر الكوثر، ويغتسل من نهر الرحمة ... ثم في طريق العودة يستيقظ ويذهب إلى مكة ويصلي الصبح في المسجد الحرام.

جزئيات سفرة محمّد إلى البيت المقدس ثم إلى ارض الملكوت مختلفة ومتعارضة بين روايات السنة والشيعة، ومثل هذه الروايات والأساطير تعج بها كتب الحديث السنية

والشيعية على حد سواء، لكن هنالك كلام للطبرسي في تفسيره مجمع البيان يسكن له الفؤاد في تعليقه على معتقدات القوم بناء على تلك المرويات، يقول الطبرسي:

ما قاله بعضهم إن ذلك كان في النوم، فظاهر البطلان، إذ لا معجز يكون فيه، ولا برهان.

وقد وردت روايات كثيرة في قصة المعراج في عروج نبينا ﷺ، إلى السماء، ورواه كثير من الصحابة مثل ابن عباس وابن مسعود وأنس وجابر بن عبد الله وحذيفة وعائشة وأم هاني وغيرهم عن النبي ﷺ، وزاد بعضهم ونقص بعض

وتنقسم جملتها إلى أربعة أوجه:

١- ما يقطع على صحته لتواتر الأخبار به، وإحاطة العلم بصحته.

٢- ما ورد في ذلك مما تجوزه العقول ولا تأباه الأصول، فنحن نجوزه ثم نقطع على أن ذلك كان في يقظته دون منامه

٣- ما يكون ظاهره مخالفا لبعض الأصول، إلا أنه يمكن تأويلها على وجه يوافق المعقول، فالأولى أن نؤوله على ما يطابق الحق والدليل

٤ - ما لا يصح ظاهره ولا يمكن تأويله إلا على التعسف البعيد، فالأولى أن لا نقبله.

فأما الأول المقطوع به: فهو أنه أسري به على الجملة.

أما الثاني: فمنه ما روي أنه طاف في السماوات ورأى الأنبياء، والعرش، والسدرة المنتهى، والجنة والنار، ونحو ذلك.

أما الثالث: فنحو ما روي أنه رأى قوما في الجنة يتنعمون فيها، وقوما في النار يعذبون فيها، فيحمل على أنه رأى صفتهم أو أسماءهم.

أما الرابع: فنحو ما روي أنه ﷺ كلم الله سبحانه جهرة ورآه وقعد معه على سريره ونحو ذلك مما يوجب ظاهره التشبيه، والله سبحانه يتقدس عن ذلك، وكذلك ما

روي أنه شق بطنه وغسله، لأنه ﷺ كان طاهراً مطهراً من كل سوء وعيب، وكيف يطهر القلب وما فيه من الاعتقاد بالماء[1]

كما ذكرت سابقا من أن أكثر المفسرين يرون بجسمانية سفر النبي إلى البيت المقدس والاختلاف في الجولة الثانية من السفر نحو السماء وهل بجسم طار أو روح عرجت؟

هناك جمع كثير ذهبوا إلى جسمية الرحلة[2]، وقليل منهم ذهبوا إلى روحانيتها.

صاحب الميزان من بين علماء الإمامية القائل بروحانية المعراج، ويرى بأن هذا الأمر لا اشكال فيه بشرط ان القرائن تؤيده، كلام لطيف ومشروط للطباطبائي ويظهر منه الميل لهذا القول[3].

يقول الألوسي وهو من علماء أهل السنة في تفسير روح المعاني:

" وليس معنى الإسراء بالروح الذهاب يقظة كالانسلاخ الذي ذهب إليه الصوفية والحكماء، فإنه وإن كان خارقا للعادة ومحلا للتعجب أيضاً إلا أنه أمر لا تعرفه العرب ولم يذهب إليه أحد من السلف.

والأكثر على أن المعراج كالإسراء بالروح والبدن "[4]

---

(1) الطبرسي، فضل بن حسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، بتصحيح يزدي طباطبائي، نشر ناصر خسرو، طهران ١٣٧٢ هـ ش، ج٦ص٦٠٩

(2) كالطباطبائي، والفخر الرازي، والشيخ الطوسي ...

(3) محمد حسن الطباطبائي، الميزان تفسير القرآن، تفسير الآيات الأول من سورة النجم، ج١٩ص ٣٦، "وهذا نص كلام صاحب الميزان: "وقد نقلنا هناك في ذيل الروايات الاختلاف في كيفية معراجه ﷺ أنه كان في المنام أو في اليقظة وعلى الثاني بجسمه وروحه معا أو بروحه فحسب، ونقلنا عن صاحب المناقب أن الإمامية ترى أن إسراءه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بالروح والجسم معا على ما تدل عليه آية الإسراء. وأما من المسجد الأقصى إلى السماوات فقد قال قوم بكونه بالروح والجسم معا أيضاً ووافقهم كثير من الشيعة، ومال بعضهم إلى كونه بالروح، ومال إليه بعض المتأخرين.

ولا ضير في القول به لو أيدته القرائن الحافة بالآيات والروايات".

(4) الآلوسي، محمود، روح المعاني في تفسير القران العظيم، جمع شمس الدين إبراهيم، بتحقيق عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـ، ج٨ص٩

القائلون بروحانية الاسراء: وهو الرحلة الليلية من البيت الحرام إلى البيت المقدس، وكذلك المعراج: وهو الرحلة من بيت المقدس إلى السماء يتكئون على الآية قرآنية تأييدا لمقولتهم:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا • وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ (1)

ونقل عن عائشة ومعاوية تفسيرهما لتلك الرؤيا على انها الرحلة الليلية إلى البيت المقدس وأنها حدثت في الرؤيا.

لكن المفسرين كالطباطبائي، الفخر الرازي لم يعتنوا بتلك المقولة لما يترتب عليها من آثار محضورة إذ لم يروا أي محذور من القول بالمعراج الجسماني(2).

أما قصة الشجرة الملعونة التي رآها النبي في منامه فهي أمر أوقع المفسرين في حيرة عظيمة هل هي شجرة الزقوم أو هي نسل بني أمية التي نطقت بها روايات الشيعة حيث رأى النبي في منامه قردة ينزون على منبره! (3)

للسيد عبد الكريم الموسوي الاردبيلي كلام نادر وجميل حول الشجرة الملعونة ويعتقد انها تلك الشجرة الممنوعة والتي كانت السبب في خروج آدم من الجنة (4).

ومقتضى هذا الكلام كما هو صريح عبارته ان قصة آدم وبداية الخلق كانت رؤيا راها النبي في منامه..

هذا الاستنباط الذكي يمكن ان يفتح الطريق سالكا لدرك كنه الرؤيا في القرآن كما هو مدعانا، ويجعل المنكرين أكثر خضوعا لهذه الفكرة.

---

(1) الإسراء: ٦٠-٦١

(2) تفسير الميزان ج١٣ص٢٤، التفسير الكبير ج٢٠ص٢٩٣

(3) تفسير الصافي ج٣ص٢٠٠

(4) نامه مفيد، العدد ١٠، ١٣٧٦ هـ ش، مقالة: " تعارض العلم والدين في خلق الإنسان " ص١٥

المعراج في ميزان الفلاسفة:

لم تقتصر قصة المعراج على المفسرين، وإنما كان للمتكلمين والحكماء دور وسهم فيها، رغم ان بعضهم اعتبر الرحلة الليلية السريعة من البيت الحرام إلى البيت المقدس لا يمكن وقوعها – إذ لعلها تستغرق شهراً كاملاً وهذا امرٌ محال التحقق –

و هنا يبرز الفخر الرازي بقوة في ميدان البحث الفلسفي ويتحدث بلغة الفلاسفة دون مجاملة أو محاباة أو تنازل، فيقول بأن الله القدير قادر على فعل الاخطر من هذا، من قبيل هبوب الرياح العاصفة، حركة الشياطين – الأجسام اللطيفة – من المشرق إلى المغرب، وإحضار عرش بلقيس بطرفة عين أمام سليمان ...[1]، وبالقياس بين سرعة عروج محمد ﷺ إلى السماء ورجوعه بسرعة حركة الشمس حول الارض، ستكون حينئذ الرحلة الجسمانية بقسميها من الممكنات[2]

(1) ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ النمل: ٤٠

(2) المؤلف والفخر الرازي ينشدون لذات اللحن، ورأيه صائب في انكان وقوع المعجزات، وذلك لأن عالمنا المشهود والمنظّم عالم ممكن، وليس ممكناً فقط فهناك من القوانين الطبيعية لم تكتشف لحد الآن، ولذا وقوع الحادثة على خلاف المعهود والمألوف لا اشكال فيه مطلقاً لا علمياً ولا عقلياً، والمهم صحة وقوعه، وعلى رأي الشيخ الرئيس ابن سينا "كلما طرق سمعك فذره في بقعة الامكان " (المؤلف)

نص كلام الفخر الرازي كما يلي: واعلم أن الكلام في هذا الباب يقع في مقامين في إثبات الجواز العقلي وفي الوقوع... فالحركة الواقعة في السرعة إلى هذا الحد ممكنة في نفسها. والله تعالى قادر على جميع الممكنات، وذلك يدل على أن حصول الحركة في هذا الحد من السرعة غير ممتنع"

وبعد ذكر القرائن العلمية الدالة على امكانية سرعة عروج النبي إلى السماء في زمن قدره ثلث الليل، يقول الفخر مسترسلا في ذكر المؤيدات:

" أنه كما يستبعد في العقل صعود الجسم الكثيف من مركز العالم إلى ما فوق العرش، فكذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحاني من فوق العرش إلى مركز العالم، فإن كان القول بمعراج محمد ﷺ في الليلة الواحدة ممتنعا في العقول، كان القول بنزول جبريل من العرش إلى مكة في اللحظة الواحدة ممتنعا، ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعنا في نبوة جميع الأنبياء، والقول بثبوت المعراج فرع على تسليم جواز أصل النبوة، فثبت أن القائلين بامتناع حصول حركة سريعة إلى هذا الحد، يلزمهم القول بامتناع نزول جبريل في اللحظة من العرش إلى مكة، ولما كان ذلك باطلا كان ما ذكروه أيضاً باطلا".

والبحث موجود بتمامه في التفسير الكبير للفخر الرازي عند تفسيره للاية الأولى من سورة الاسراء

القصة لم تنته لهذا الحد فالحكماء والطبيعيون الأرسطيون يرون الافلاك اللطيفة والبسيطة من صنع عنصر خامس غير قابل للخرق والالتئام، الفتق وخياطته ليست من صفاته، فلا مجال لدخول الأجسام الترابية المركبة من أربعة عناصر، وهذا الخامس سيمنعها ويصدّها، وبناء على ذلك وعلى القول بإمكانية المعراج فلابد ان يكون روحانياً محضاً، ولا يمكن أن يكون جسمانياً وإلا سنقع في المحذور.

الحكيم السبزواري المتقبل بشكل تام للطبيعيات اليونانية حينما يصل إلى المعراج الجسماني يتعرض للمحقق اللاهيجي بالانتقاد ؛ ولماذا يعفى الفلك الاقصى من الخرق والالتئام والقول بالإمكان في بقية الافلاك ... ولأجل التوفيق بين ظاهر الشريعة والحفاظ عليها وبين الالتزام بالأصل اليوناني المزعوم وهو امتناع خرق والتئام الأفلاك، افتى بإمكانية عبور الجسد الترابي للنبي من الأفلاك للطافته ورقته ولا يحصل أي خرق[1].

حوار مع السيد الطباطبائي:

لكن هناك حكيم معاصر لم تحده حدود الطبيعيات القديمة، وعلى اطلاع بالعلوم الحديثة، ومجهّز بمعدات الحكمة الصدرية[2] يرى عالم الملكوت بنظرة مختلفة عما كان ينظر إليه القدماء، يراه غير مادي وفوق الطبيعة كلاماً واحداً. وأن جبرئيل وبقية الملائكة عقول مجردة، وأنوار قاهرة، وهو بهذا يسحب يده من تفسير المفسرين الساكنين في سجن العالم البطليموسي - الأرسطي، القائلين بأن المجرات مساكن للملائكة وأهل الجنان وأهل النار ...

رحلة محمد ﷺ إلى الأفلاك قبل الموت رحلة خاصة وامتياز نادر، وفرصة لم تسنح إلا للقليل من الأولياء، وهذه الموانع التي صنعوها كاستحالة خرق والتئام الافلاك... تكلّفات وتوجيهات لم يعر لها أي اهتمام.

---

(1) صدر الدين الشيرازي، الاسفار الاربعة، دار احياء التراث العربي، ج٩ هوامش صفحات ٤٨-٥١

(2) الحكمة الصدرية نسبة إلى صدر الدين الشيرازي.

ومن السخاء الفلسفي للحكيم المعاصر السيد مُحَمَّد حسين الطباطبائي في تفسير المعراج أن له رأي يتناسب مع القبض والبسط غير المتعارف عليه في العلوم الدينية والفلسفية والعلمية للبشر، فهو يرى ان المعراج والبراق وأنهار العسل واللبن والملائكة بنصف ثلج ونصف نار، وتلك النسوة المعلقات من اثدائهن...، كل تلك المشاهد كانت في عالم المثل البرزخي وروح النبي كانت في فضاء من المثل ....

هكذا يفصل صاحب الميزان كيفية الإسراء في خاتمة تفسيره لسورة الإسراء من الميزان.

يقول السيد الطباطبائي:

وأما كيفية الإسراء فظاهر الآية والروايات بما تحفّها من القرائن ظهوراً لا يقبل الدفع أنه أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بروحه وجسده جميعاً، وأما العروج إلى السماوات فظاهر الآيات.. وصريح الروايات...

ولا سبيل إلى إنكاره من أصله غير أنه من الجائز أن يقال بكونه بروحه لكن لا على النحو الذي يراه القائلون به من كون ذلك من قبيل الأحلام ومن نوع ما يراه النائم من الرؤى، ولو كان كذلك لم يكن لما يدل عليه الآيات بسياقها من إظهار المقدرة والكرامة معنى، ولا لذاك الإنكار الشديد الذي أظهرته قريش عند ما قص (ع) لهم القصة وجه، ولا لما أخبرهم به من حوادث الطريق مفهوم معقول.

بل ذلك - إن كان - بعروجه ﷺ بروحه الشريفة إلى ما وراء هذا العالم المادي مما يسكنه الملائكة المكرمون وينتهي إليه الأعمال ويصدَر منه الأقدار ورأى عند ذلك من آيات ربه الكبرى وتمثلت له حقائق الأشياء ونتائج الأعمال وشاهد أرواح الأنبياء العظام وفاوضهم ولقي الملائكة الكرام وسامرهم، ورأى من الآيات الإلهية ما لا يوصف إلا بالأمثال كالعرش والحجب والسرادقات.

والقوم لذهابهم إلى أصالة الوجود المادي وقصر الوجود غير المادي فيه تعالى لما وجدوا الكتاب والسنة يصفان أمورا غير محسوسة بتمثيلها في خواص الأجسام المحسوسة كالملائكة الكرام والعرش والكرسي واللوح والقلم والحجب والسرادقات حملوا ذلك على

كونها أجساما مادية لا يتعلق بها الحس ولا يجري فيها أحكام المادة، وحملوا أيضاً ما ورد من التمثيلات في مقامات الصالحين ومعارج القرب وبواطن صور المعاصي ونتائج الأعمال وما يناظر ذلك إلى نوع من التشبيه والاستعارة فوقعوا في ورطة السفسطة بتغليظ الحس وإثبات الروابط الجزافية بين الأعمال ونتائجها وغير ذلك من المحاذير.

ولذلك أيضاً لما نفى النافون منهم كون عروجه ﷺ إلى السماوات بجسمه المادي اضطروا إلى القول بكونه في المنام وهو عندهم خاصة مادية للروح المادي واضطروا لذلك إلى تأويل الآيات والروايات بما لا تلائمه ولا واحدة منها".

إذا كان الطباطبائي يعتقد بان معراج النبي تحليق للروح إلى عالم المثل وليس من قبيل الرؤى أو العروج الجسماني فهناك من قبله من يعتقد بالسفر الفكري وهذا المنسوب إلى ابن سينا في رسالة كتبها بالفارسية وتشتمل على اثني وأربعين خطابا عن النبي في باب المعراج، جاء في خاتمتها ما يلي:

"ولأن الجميع يرجعون، فقد رجعت إلى الديار، ولسرعة انقضاء الرحلة ما زال فراش النوم دافئاً ".

الشارح لهذه المقولة في ذلك الزمان، هكذا كتب على هامشها:

يعني: أن السفر كان رحلة فكرية ترسخت في الخاطر، والعقل هو من رتب ادراك الموجودات للوصول إلى واجب الوجود، ولأن التفكير وصل إلى نهاياته ركع إلى ذاته حيث لم يحدث في زمن، ورجوعه إلى تلك الحالة اسرع من جرح البصر[1].

وعلى كل حال عروج الروح هو ذات القول بالانسلاخ الصوفي للنفس عن الجسد، والألوسي نقلاً عن المازري يعتبر هذه المقولة غير صحيحة، ويرى استبدالها برؤيا القلب أنسب.

وفي كل الأحوال، فالعروج لم يكن جسمانياً، والأهم من كل ذلك أن لا مجال للكناية والاستعارة في البين، ولا مكان للقول بأن الخمر مثلاً في حديث النبي كناية عن

(1) دو فوشه كور، شارل هاندي، " ابن سينا والقشيري وقصة معراج النبي " ترجمة اسماعيل سعادت، نشر معارف ١٣٧٦ هـ ش، العدد ٤٢.

كذا، وإنما هي ذات الاشياء التي شاهدها النبي بعينها. ولازم هذا القول هو الذهاب بعيداً في رمزية امثال الخمر واللبن والبراق ... وتفسيرها بما تُفَسر به الأحلام

وأياً كان ذلك السفر الليلي للنبي جسمانيا أو روحانيا أو فكريا، يبقى اصرار الطباطبائي على انه ليس من سنخ الأحلام والرؤى، وإصراره هذا ناشئٌ من ميتافيزقيته، ولو اسدلنا الستار على تلك الميتافيزيقية في تصوير المعراج لكانت الصيغة المثلى للتعبير هي الرؤى والأحلام.

من الواضح أنه يعد الأحلام النبوية عروج للروح، ومن الواضح أيضاً أن الأرواح تحلق في عالم المثل، لكن المهم هو أن لا تعنون الرؤيا بعنوان النص، ولابد أن يكون عنوانها المشاهدات، وليس تقريراً كنائياً عن امور غير مرئية وخيالية، ولابد من الاذعان بأنها تجربة نبوية رائدة هي من شكّلت وصورت القرآن.

المؤلف ممن يقبّل تراب عتبة النبوة، ويصّور النبي في قصيدة طويلة كطائر يحوم حول نفسه، يحلق في الآفاق والعرش والملائكة ينظرون اليه:

تجـــردتُ واصـــفاً جَســـوُرُ التجربـــة فـــاتح الآفـــاقِ

في ليلـــةٍ ســـابقَ الـــريحِ مـــن مـــدارٍ إلى مـــدارِ

مـــن الســـوادِ إلى الخيـــالِ ومـــن الخيـــالِ إلى الهـــلالِ

الفـــارسُ أنـــت وقافلـــة الـــريح يســـوقُها جبرئيـــلُ

لرؤيتـــه صـــفّتْ المـــلاكُ جنـــاح لجنـــاحِ

انـــت الطـــائر القدســـي إلى الجنـــان وانـــت مهـــبط الطـــيران(1)

كـذلك سـيد شـيراز يصُـور في بيتـين رؤيـة ثاقبـة مشـوبة بالحسـرة لإمامـة محمد ﷺ على بقية الأنبياء ليلة المعراج:

ســكراناً تــركتني في خلــوة الملكــوت   اشــاهدك وصــخب القيامــة قــائمٌ

---

(1) السواد والخيال إشارة إلى دعاء النبي في سجوده: سجد لك سوادي وخيالي، وآمن بك فؤادي، والهلال أيضاً مأخوذ من قصة مريم وظهور الملك اليها في الدفتر الثالث من المثنوي.

أيّ تصوير حيّ هذا، وأي منظر بهيج! محمد قد مسه السُكر من شراب الشهود يصل إلى خلوة الملكوت مسرعاً مضطرباً والقيامة قائمة.

لا يُتَصُور ان رأي الطباطبائي في هذا الباب مع كل تلك الشرائط والاحتياطات إلا أن يكون رأياً غالباً وتابعاً، ففي تلك الفترة التي كتب بها الطباطبائي الميزانَ (سنة ١٣٤٠ هـ ش) كان هناك عالمان فاضلان من الحوزة العلمية في قم، وكلاهما من المراجع المؤثرين وهما ناصر مكارم الشيرازي وجعفر سبحاني التبريزي.

كتب هذان العلمان مقالات نشرت في مجلة دروس من مدرسة الإسلام حول المعراج النبوي، أثبتا من خلالها ان المعراج كان سفر جسماني إلى المنظومة الشمسية ليرى النبي عجائب الأجرام السماوية والمخلوقات من العالم العلوي ليحصل على الاطمئنان بوجود الله(1).

واستندا على معطيات العلم الحديث للرد على الشبهات التي قد تثار على مقولتهما حول إمكانية إثبات السفر إلى الفضاء الخارجي بأن نسبية الزمان وسرعة النور أو الجاذبية وغير ذلك من الموانع هي في الحقيقة ليست موانع من الغوص في عمق

(1) لكن سفر المعراج إلى المنظومة الشمسية بنظر ناصر مكارم لم يكن كافيا لوقوع تلك الرحلة بالقياس لسرعة الضوء ولئلاً يقع في محاذير النظرية النسبية، ولعله ذهب إلى الثوابت في تفسير ذلك الزمن القصير لرحلة المعراج التي لا تحتملها سرعة الضوء، ولذا اعتبر البراق أو المركبة الفضائية مشتقة من البرق لتقع الملائمة مع سرعة الضوء وتحصل الموافقة مع النظرية النسبية، ظاهر هؤلاء الاعلام ومتبنياتهم ان هناك علاقة وثيقة ومعازلة حميمية مع النظرية النسبية لالبرت اينشتاين، ومن هنا ظهرت مقولة مهمة اخيرا لرئيس مجلس الخبراء في ايران السيد محمد رضا مهدوي كني بان اينشتاين وعند اطلاعه على روايات المعراج في بحار الانوار اعلن عن اسلامه وتشيعه ومات على الايمان.

التلسكوب من الادوات المحببة لدى العلماء، ومعجزات هذا الجهاز كثير، وهناك واعظ كان يقول بإمكانية مشاهدة عمق السماء ورؤية المعادن تحت الأرض

ورجل دين آخر كان يقول ومن خلال التلسكوب يمكن رؤية الجنين في رحم أمه وتحديد عمره.

ومن لجنة استهلال الهلال التابعة للقائد انتشر خبر مفاده أن في كل عام وفي بداية شهر رمضان وفي نهايته، هناك جمع من الشيوخ وبالاستفادة من التلسكوب ومن على مرتفع يذهب هؤلاء الشيوخ ليتتبعوا آثار مسار القمر في السماء، وكأن إبصار الشيوخ أكثر أمانة وسرية في الأفلاك، ويرون العالم من الأعلى أفضل من غيرهم.

الفضاء لأن المركبات الفضائية استطاعت أن تلغي كل تلك الموانع وهذا ما حصل في المعراج[1].

لكن هؤلاء لم يذكروا كيف حصلت مشاهدات النبي للجنان والجحيم والحور العين والحليب والعسل ولقاء الأنبياء، وسدرة المنتهى، ومجاميع الملائكة التي شاهدها النبي والتقى بها، وفي أي منظومة شمسية كانت، وكيف مرَّ النبي بلحمه ودمه من جهنم وروى مشاهداته عنها.

أين هذه النظرة السطحية الظاهرية من تلك النظرة الباطنية للملا محسن الفيض الكاشاني حينما يصف الخضرة الطاغية لسدرة المنتهى، ويعتبرها كناية عن الظلمة المكانية الحالكة المتداخلة ببعض لمحمد وبياض وجوب وجود الباري تعالى، الأنوار البيضاء والسوداء المتداخلة هي من شكّل وصوّر تلك الخضرة[2]

***

ذكروا ان السفر الملكوتي للنبي حدث في السنة الثانية أو الثالثة للبعثة، وقالوا كذلك ان وجوب الصلاة على المسلمين أُقر في هذه السنين ...

يظهر ان مَلَكَة التصوير وخصوبة مخيال مُحَمَّد ﷺ استمد قوته في تلك الفترة، ولغته العرفانية ومكاشفاته ابتدأت في هذا الوقت.

هذا الذي رآه في المعراج أصبح بالتدريج تفصيل بعد اجمال، وبوضوح تام صاغت اللغة التصويرية المنامية تجربة المعراج.

معاد القرآن بسط لمعاد المعراج

التفاصيل تأتي في مقال لاحق ...

عبد الكريم سروش

حزيران ٢٠١٥

---

(1) جعفر سبحاني، مكتب إسلام، السنة الرابعة، العدد ١

ناصر مكارم الشيرازي، مكتب اسلام، السنة السابعة، العدد ٢-١٠

(2) تفسير الصافي، ذيل آيات سورة النجم

محمد ﷺ راوي الأحلام النبوية (٦)

بعد البحث حول الأحلام النبوية مع الصديق الحميم المفسّر الاستاذ عبد العلي بازرگان كتبتُ توضيحاً شاملاً للنقاط العشر التي كان قد اثارها كاعتراضات منه على النظرية ... تركت فيها العنان للقلم لقول ما لم اقله، واعادة ما قلته سابقاً لتذكير المتعلمين وتبصرة المتكلمين.

عشرون عاماً مضت على نشري لمقولة " القرآن كلام مُحَمَّد ﷺ " ابتدأتُ في كتاب بسط التجربة النبوية ثم اللقاء مع راديو هولندا بعد عشر سنين، إلى المراسلات مع المشايخ ومراجع الدين في ايران، كان اصل المدعى والمحور هو إن مقولة القرآن تجربة وتأليف مُحَمَّد ﷺ تساوق وبذات النسق مع مقولة القرآن معجزة مُحَمَّد، ومن أوجد القران هو خياله الخلاّق وعقله الفعّال وتجربيته الإشراقية وآفاقه ونفسيته.

هذه الفرضية توضّح مجموعة من المعضلات الكلامية وتساعد على تفسيرها:

١- **كيفية خطاب الله مع انبيائه،** مع كل ما تضمنه من الغاز ورموز لم يقدر على حلها على الكلام الكلاسيكي للمسلمين وإلى هذا اليوم حيث البحث في قِدم كلام الله أو الكلام النفسي، والاحتمالات الغريبة الواردة.

٢- **طعم ورائحة الثقافة العربية والقبائلية التي تفوح من مجموع القرآن** مثل أوصاف نعيم الجنة كتلك التي يستهويها عرب الحجاز حيث الحور المقصورات في الخيام.

٣- **التعارض الظاهر بين الآيات والنظريات العلمية الحديثة،** كالسموات السبع، والنُطَف في ظهور الآباء، والشهب السماوية كأنها سهام تضرب جسد الشياطين، تلك التي حار في تفسيرها المفسرون، وارتكبوا شتى التكلّفات لحل عقدِها.

٤- **المنافاة بين الاحكام الفقهية وحقوق وكرامة الإنسان** حيث تعلو تلك الاحكام رائحة الخشونة بمستوى يفوق الطاقة، كقطع ايدي وارجل المفسدين، أو قلع عيونهم، واباحة العبودية ...

٥- **الهبوط والعلو في مستوى بلاغة القرآن** في الآيات والسور، الأمر الذي أجبر المتكلمين على القول بالصرفة لتأويل تحدي الاتيان بشبيه القرآن، وعدم إمكانية تقليده، والمتجاسرين يتكفّل بهم الله ويصرف هممهم.

٦- **صورة الله البشرية في القرآن** حيث يغضب أحيانا وينتقم أحيانا أخرى، يصير صلداً قاس تارة ومشفق رحيم تارة أخرى ...

وما دمنا نرى يد الله ممدودة في القرآن بصورة مباشرة، وما محمدٍ إلا صرف منفعل في تجربته الروحانية، وما دمنا نرى القرآن نتاج العلم اللامتناهي للباري تعالى، فهذه المعضلة قائمة لا حلّ لها.

يكفي ان نقلّب الاوراق لنرى الإنسان الإلهي هو الفاعل والخالق لهذا الاثر، ونرى كل هذه الانسانية محيطة بالقرآن، وكل ما قاله وما رآه هو تجربة شاهدها في الافق وفي محيط خياله وقابلياته التامة، وعليه فمسألة الكلام الإلهي ستأخذ طريقها للحل، وكلام مُحَمّد سيحل محل كلام الله، وتحل معها مسألة الصعود والهبوط البلاغي، وكذلك قصة الثقافة العربية، والقصور والفتور العلمي، وصورة الله البشرية، ودخول الأدعية في القرآن كسورة الحمد التي قيل إنها القرآن الصاعد...

ظهر من كل ما تقدم: انها مقتضيات الإنسان المؤلف لهذا الدفتر الفاخر بكل ما يحتويه من احوال واطوار متغيرة، حيث تراه جالساً فوق الأعالي تارة، واخرى لا يرى حتى اسفل قدميه، حيث يقول وبكل تواضع ﴿أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، وكأننا نرى ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ ولا نرى ﴿أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، فهذا القرآن وإن كان وحياً إلا أنه وحي بشري محدود، والمحدودية تجري في عظامه وعروقه مجرى الدم، وكما ذكرت سابقا أن الله هو من ألّف مُحَمّد ومُحَمّد الّف القرآن.

بالطبع الوحي هو حقيقة متكونة من درجات ومراتب، كما هو صريح القرآن حيث أوحي إلى الأرض، وإلى النحل، وأوحي إلى أم موسى، وإلى محمد، كما أن العرفاء أيضاً كان لهم نصيب من التجربة الإلهامية الوحيانية، وقد اعلنوا عن هذه النعمة بكل افتخار وابتهاج ...

أما كيفية معرفة صدق الوحي من غيره ؛ فهذا ما يعلن عنه نتاج ومحصول الوحي ذاته، وكما يقول عيسى (ع) الشجرة تُعرف من ثمارها.

المقام هنا ليس مقاماً لنقض وإبرام نبوة محمد ﷺ فالمسلمون تقبلوها تحقيقاً أو تقليداً تقبلوا النبوة لأنها تشتمل على رفعة وصلابة وأنوار وأسرار، ووصفت بأنها خارقة للعادة، وأمر طبيعي في جزيرة ثقافية كالحجاز تنبع زهور القرآن يُعد هذا في لغة اللاهوت معجزة محمّدية ويُعد القرآن كتاب إلهي مقدس.

***

مرت عدّة سنوات على طرح مقولة " القرآن: كلام محمد " أثار خلالها غبار وغوغائية عظيمة كادت تقرّب المؤلف من حدود التكفير.

هدأت العاصفة، وسنحت الفرصة للنظر ثانيةً في هذا الأثر الوحياني المتين بعين العناية، واصطياد جواهر جديدة من هذا البحر، وهذه المرة بصورة وحلّة جديدة.

كون القرآن كلامي- سمعي محل تأمل وتحقيق، وحالياً منامي - بصري يغمز بالعين ويضرب بالدف، ويدعو إلى التدبر، وفي كلا الفرضيتين يكون محمد ﷺ فاعلٌ لا منفعل، ينوب مناب الشخص الأول أو الثاني أو الثالث ...

و بناء على الفرضية الجديدة سيكون على كل الحالات شاهد لمناظر - وليس مستمع لمطالب - في الأفق الأسمى من الأفق الحسي (افق الخيال والرؤيا والملكوت) وهو هنا راوٍ للرؤى، وبعض من القرآن صور تجربة الوحي المحمدية بالسمعية البصرية، وهو التعبير الأفضل.

أثبتت شواهد التأريخ على أنه وفي حالة اللاوعي واللايقظة والاستغراق، يرى الأشياء ويسمعها ثم يحدّث بها اتباعه عند رجوعه، والاتباع يستمعون أو يكتبون أو يحفظون ...

هذه الحالة أسميها بالرؤيا، وتجنباً لثقل الميتافيزيق وصعوبة الاستفادة من صيغ المكاشفة والخيال المنفصل، والملكوت الأعلى والأسفل، ولتجنب توضيح المجهول بالمجهول لابد من تفسير الوحي المجهول بالرؤيا المعلومة.

وبعد عشرين عاماً على وفاة النبي جمع الأتباع ما دونوه في دفترٍ أسموه المصحف...

و لذا لغة مصحف محمد ﷺ لغة اللايقظة، رغم ان اللغة في الظاهر لغة يقظة، وهذه هي الحلقة المفقودة في عمل المفسرين، وهي بحاجة إلى من هم للرؤيا يعبرون.

النظرية السمعية البصرية للقرآن، وكونه رؤى تجربة الرسول، يمكن اعتبارها مقدمة جديدة في لغة القرآن، لأجل فهم كون القرآن فريضة.

القبض والبسط النظري في الشريعة كان يقول: الإسلام ليس إلا قراءة تفسيرية عن الإسلام، والمقدمات والمعلومات المتناسبة مع ذاك المقطع الزماني لها مدخلية في تفسير المتن، وعلى ضوء نظرية " الأحلام النبوية " وبالإضافة إلى معرفة ظاهرة الوحي تكون النظرية مصداقاً جديداً يضاف إلى المقدمات اللغوية.

القدرة التوضيحية لنظرية الرؤيا

القدرة التوضيحية لهذه النظرية والتغطية التي تمنحها لعطاءات القرآن على درجة كبيرة من النجاح، بالقياس إلى الفرضيات المضادة، وهذا العطاء هو عين الدليل على صحة وتأييد الفرضية.

و للمعترضين الذين يطالبون بالدليل أقول: العطاء الذي تمنحه هذه الفرضية يمكن قياسه وبيان التفاضل بين ما تمنحه هذه الفرضية وبين بقية الفرضيات[1].

---

(1) من جملة المعترضين المحقق المكرم السيد يوسفي اشكوري في " استفسارات في باب وحي الرؤيا " زيتون، مارس ١٣٩٥ هـ ش،

وكذلك لاحظ المقالة ادناه لسروش الدباغ وفيها تقرير وتحرير حسن لأدلة وحي الرؤيا.
http // www.begin.soroushdabagh.com / pdf / 233.pdf

من عطاءات هذه النظرية:

1 - أوصاف ما وراء الطبيعة

ابتداءً من صفات الذات الإلهية، إلى عالم الذر، وروايات الخلق، وقصة آدم، إلى ذهاب وإياب الملائكة، والشيطان والجن، والشهب السماوية، إلى احداث ما بعد الموت، إلى القيامة ومشاهدة المناظر الغريبة وغير المعهودة، إلى وصف جهنم والجنة وحشر الاموات، ووصف الأنبياء والاولياء، وفتح صحيفة اعمال العباد، ونصب ميزان العدل، وصعود الملائكة خمسين الف سنة نحو عرش الرحمن، وحمل عرش الله على أكتاف ثمانية من الملائكة، وجلوس الله على العرش، وجلوس عرش الله على الماء، والنفخ في الصور، وحشر الوحوش، واشتعال الحرائق في البحار، وكسوف الشمس والكواكب، حضور الناس إلى المحشر وكأنهم سكارى، وسقوط الجنين من المرأة الحامل، سلخ جلود المذنبين واستبدالها بجلود غيرها، تبادل أهل الجنان الشراب، والبساتين المليئة بالرمان والموز والعنب، والخَدَمَة اولاد صغار لطفاء و...

هكذا تصوير بصري سينمائي يحدث في عالم الرؤيا ويسطع على شاشة الخيال، وحتى لو علمنا بحقيقة اللاصورة لهذه الأشياء فإن خيال محمد ﷺ يضفي صورة عليها، وهذا لا يمكن انكاره.

السبك القرآني في تلك الموارد يكون على الشكل التالي:

أولاً: الصيغ الماضوية التي تتحدث عن انقضاء الأمر ونهايته.

ثانياً: لا وجود لمتحدثٌ يتكلم مع محمد (ص)، بل هناك مشهد يراه ويرويه:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأرض إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ. وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ. وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ. وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ

وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ. قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ. وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ. وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]

2 - المعاد الجسماني

حشر الأموات يُعَد من معضلات الفلسفة الإسلامية، سواء كان حشر جسماني أو لم يكن، والحل المعقول لهذه المعضلة يتأتى على القول بفرضية رؤيا الوحي.

صدر الدين الشيرازي قائل بالمعاد الجسماني لكن مع تصرفٍ في معنى الجسمية، يقترب من الجسم المنامات والرؤى والخيال، ويتناسب مع مذاق الفلاسفة.

لكنه يتلقى الطعنات من المحدّثين والمفسرين لأنه ينكر المعاد الجسماني، وبذلك يكون قد أنكر ضرورة من ضروريات الدين.

ابن سينا الذي ناقش المعاد الجسماني واخضعه للتحليل والتوجيه العقلي والفلسفي، التزم السكوت اخيراً وتقبّل حديث النبي تعبداً.

نعم ظاهر آيات القرآن دالة على جسمانية المعاد وحشر الأبدان، وعليه فالقواعد الفلسفية على خلافه.

لكن لو تذكرنا بأن لغة القرآن لغة الرؤيا وبحاجة إلى تعبير للرؤى ؛ حينئذ لا داعي للتمسك بالظواهر كما يفعل المحدثين والمفسرين، وهنا تبرز مشكلة صدر الدين الذي يريد الحفاظ على لغة اليقظة والحفاظ على قواعده الفلسفية في آن واحد.

---

(1) الزمر: ٦٨-٧٥

ألم يقل القرآن بأن النبي رأى في المنام قيام الاموات من التراب، ورؤية الجسم في لرؤيا لا يعنى رؤيته في اليقظة، وحينئذ لا بد من تعبيره.

سيأتي شرح هذه المسألة في القسم السادس من مقالات " مُحَمّد: راوي الأحلام لنبوية " بعون الله.

3 - الآيات المتشابهات

الآيات المتشابهات بحاجة إلى التأويل ...

وبناء على هذا النظرة فالرؤى أيضاً بحاجة إلى التعبير، والطريف ان بعض قدماء المفسرين يرون ان آيات الاحكام وحدها محكمات وما دونها من الآيات كلها متشابهات، يعني تقريبا جميع القرآن من جنس المتشابهات[1]

و كقاعدة كلية: اينما تجد الحاجة إلى التأويل عند القدماء فهي دلالة على الحاجة إلى التعبير، وحينئذ لا تقع اللغة موقع التصنّع والتكلّف، وستسير الأمور على الطريقة الانسيابية.

4 - قصة آدم الأسطورية أو التمثيلية

هذا باعتقاد الكثير من المعاصرين، ولا يرونها كواقعة تأريخية، ولعلها وقعت في ما وراء التأريخ، ومن المرجح ان حقيقتها قد صبغت بصبغة الرؤى ؛ كالملك وشيطانه، وشجرته الممنوعة، وسجود الملائكة، وعصيان الشيطان، وهبوط آدم و...

معنى الأسطورة في الأصل هو تلك القصص المستمدة من البصائر الشبيه بالرؤيا، كقصة الخضر وموسى في سورة الكهف، وخلق السماوات والأرض في ستة أيام، والتي حاول المفسرون اليوم من تفسيرها بالعصور، كالفخر الرازي في تفسيره، وهناك من المفسرين من فسّرها بالأيام النجومية.

---

(1) تفسير الميزان، تفسير الآية ٧ من آل عمران.

هذا الخطاب يؤيد المعنى القائل بأن النبيّين موسى ومحمّد قد رأوا خلق العالم في ستة أيام لا ستة عصور إلا أنها كانت في الرؤيا.

5 - فوضوية القرآن

تلك الفرضوية التي تلف السورة أو حتى الآية الواحدة أحيانا، وهي تُظهِر الحالة الانسانية التي تشاهد مناظر مختلفة هنا وهناك، ومن هنا تجد هجوم المعاني والمشاهد طريقها إلى القول المنسجم، وتجد أيضاً مشاهد ومسامع موصلة وغير موصلة تطفو على الكلام.

الآية الثالثة من سورة المائدة (وهي آخر سورة نزلت على النبي)، هذه الآية نموذج ظاهر على الفوضوية: تبتدئ بالحديث عن تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وحيوانات الاضحية ...، إلى أن تصل إلى اليوم الذي اكملت لكم دينكم، ورضيت لكم الإسلام ديناً ...

ثم ترجع مرة أخرى إلى ما ابتدأت به من آيات الاضطرار إلى أكل المحرمات إنه لا إثم عليه.

المفسرون وقعوا في ورطة الربط بين هذه الآيات!

الشيعة اقتطعوا الآية المرتبطة بإكمال الدين وطبقّوها على يوم الغدير، وتنصيب علي(ع) بالوصاية والخلافة، فزادوا الإبهام والإعضال[1].

الآيات الفوضوية في القرآن كثيرة وصلت إلى الحد الذي اوصى بعضهم إلى ظهور علم جديد يتمكن من الوصول إلى السر المكنون فيها وكشف ما لم يقال.

وفي الوقت الذي يؤتى بقدم الرؤيا في وسط كل تلك الضبابية ستصبح الأمور طبيعية ومتناسبة مع ظاهر المنامات، ولا تدع مجالاً لكل هذا العجب.

---

(1) يلاحظ تفسير الميزان، بعد الاعتراف بضبابية الآية يرى انها تتعلق بواقعة الغدير.

كذلك الحال في سبك القرآن عند رواية القصص التاريخية تجدها كثيرة التقطيع والانتخاب، شبيه بصور ثابتة من فيلم متحرك، وكأنها مقاطع منتخبة ومنقولة من الذاكرة.

6 - لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ

آية مهمّة في القرآن تقول لمحمد ﷺ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ[1]، فيها دلالة واضحة على أن محمّد ﷺ عند النظر إلى مشاهد الرؤيا في عرصات الخيال يأخذه الهياج، ومن فرط الهيجان يستعجل إشراك الآخرين، الناظر الداخلي أو الخارجي - سمه الله أو جبرئيل بلغة اللاهوت - ينهاه عن القول قبل اتمام الرؤيا، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[2]

عموم المفسرين على ان النبي كان وجلاً من النسيان في قراءة القرآن قبل نهاية الوحي.

تجربة الوحي السمعية البصرية لا وجود فيها للوجل، ولا يوجد ما هو أكثر وضوحاً منها من حيث المعنى والمقتضى.

7 - مجازات عالم اليقظة

يمكن القول وبكل جرأة: أن أكثر مجازات اليقظة هي حقائق منامية قد صورها القرآن بأسلوب فائق[3].

عندما نقرأ القرآن: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [4] هذا السد رآه النبي في المنام، فاستعار القرآن السد في لغة اليقظة من حقيقة السد في عالم الرؤيا.

---

(1) القيامة:١٦

(2) القيامة:١٦-١٩

(3) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن

(4) يس:٩

كذلك حال آكلي الربا ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[1] وهنا بيان مستعار في عالم اليقظة، أما في الرؤيا فالنبي رأى آكلي الربا بهذا الشكل.

وقس على ذلك ...

في عرصات القيامة كان النبي حاضراً ومشاهداً لإنزال الحديد من السماء، وانقلاب بني اسرائيل إلى قردة وخنازير، وشاهد سجود الملائكة لآدم، الملائكة ذوات الأجنحة الكثيرة، وملائكة جهنم، والجن الجهنميين، وتراب الآدميين و...

والظاهر ظهوراً ساطعاً أن النبي لو كان يعيش في محيط مغاير لمحيطه لكانت استعاراته مختلفة أيضاً، ولصبغت بصبغة ثقافية أخرى، بمعنى أن أحلامه كانت تختلف وتصويره متلون بلون آخر.

لغة القرآن المليئة بالتمثيل والاستعارة ترفع من ستائر لغة الرؤى، ولنضرب مثلاً في باب تسبيح الأشياء:

المعتزلة يرون التسبيح كناية دالة على طهارة الاشياء التي تشهد بطهارة الخالق.

أما الأشاعرة وهم ليسوا من أهل التأويل فيقولون التسبيح هو التسبيح لا أكثر ولا أقل، ومنهم مولانا جلال الدين[2]

النبي الأكرم كان يسمع تسبيح الأشياء ويدركها حقيقة، طبعا هذا لم يقع في عالم الاستغراق، ولا نعلم كيف حصل، ولا بد من تعبيره. واذا حصل هنا، لماذا لم يحصل في أماكن أخرى؟

الملاحَظ أيضاً ان الاشياء ما وراء الطبيعة ليست الوحيدة التي لا تتشكل في صورة في المنام وبحاجة إلى تغطية من صور الخيال، بل الحوادث أيضاً المتشكلة في صورة الرؤيا

(1) البقرة: ٢٧٥

(2) المثنوي، الدفتر الثالث، البيت ١٠٢٣

ابتداءً ثم تتنزل في الكلام في صورة مجاز ظاهر[1]، وتنزيل القرآن لا يوجد له غير هذا المعنى.

إذاً في يوم نقرأ هذه الآيه:

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾[2]

ثم نسأل: وهل أن اللباس يُتذوق؟

ارتكبوا التكلفات لحل هذه العقدة، والآن باستطاعتنا ومن دون أي تكلف أن نقول: فضاء المنامات مستعد لنقل الوصلات غير المتناسقة الألوان من هنا وهناك

استعارات القرآن لو قلنا بأصالتها وخلّاقيتها وليست باهتة وميتة، حينئذ نتمكن من رفع الستائر عن عالم مُحَمَّد ﷺ ونعرف العالم كما رآه هو وسمعه، ونتمكن من الرفعة أكثر لنصل إلى رؤياه وسمعه ولمسه وذوقه، بمعنى ان الرؤيا النبوية ترتفع من ستائر السينما مما لا روح لها إلى رؤية مانحة للحياة واوصاف الحياة تتجلى فيها.

حينما يتحدث القديس أوغسطين مع الله ويقول له: " غشاء أذني الاصم يسمع نداءك، وجلالك يبصر نظري الاعمى، اتنفس عطرك، واتذوقك، والمسك، احترق لطلب صلاحك وسلامتك "[3]، يعني ان التجربة الروحية ترفع الغشاوة عن السمع والبص والذوق واللمس، ألا يمكن تصور هذا الإمكان لمحمد ﷺ الذي تعدت خطواته مئات المرات.

ومن هنا يضيف المنام تفسير نوعي للاستعارات في تعبير المنام، ويقترب كثيراً من الترجمة الثقافية في باب الأحكام الفقهية التي أوردتها في مكان آخر[4].

---

(1) الكلام الذي اوردته في باب الاستعارة قريب من رأي ديويدسن في المقالة اناه:

D.Davidson, " whatMetaphors Mean " in: Inquiries into Truth and Interpretation 1978.

(2) النحل:١١٢

(3) القديس اوغسطين، الاعترافات، ترجمة افسانه نجاتي، الفصل ٢٧، الباب العاشر.

(4) عبد الكريم سروش، بسط التجربة النبوية، " الذاتي والعرضي في الاديان "، نشر الصراط، ١٣٧٨ هـ ش ص ٣٠-٣٢.

عندما نقول بالاستعارة في مثال السدّ يعنى انه مبتلى بطريق مسدود، فهناك عمل اسمه تعبير الأحلام، والحقيقة انا نقول ان السد الذي رأيته في المنام تعبيره الوقوع في مشكلة لا حل لها، وعندما نقول آكل الربا لا يمشي مستوياً معناه: أن لا يتدبر حاله في حال اليقظة، وحينما ننظر إلى تعبير الأحلام في القرآن ستنفتح علينا ابواباً جديدة في فهم المتون المقدسة بل كل النصوص الإلهية، وأهمها القران ؛ لأنه أكثر إلهاماً ورؤى.

الصفات المستعارة كالرحيم والسميع والبصير في باب صفات الله لها مكانها الخاص، ومعناها: أن النبي رأى الله هكذا في الرؤيا، أو أنه تعالى هكذا تجلى له[1]

رحيم الرؤيا مأخوذ من رحيم اليقظة، ومن الرحمة الانسانية فُهم معنى الرحيم، هذا المعنى قطعاً غير صائب، بل يقوي شبهة الشر، وكذلك الحال بالنسبة إلى صفة الهداية والضلال الإلهيين ان لم يؤخذا بمعناهما المنامي ولم يفسرا كرؤى لا يسلم ولا يستقيم معناهما بل يؤكدا شبهة الجبر.

8 - فوضوية الزمان

الفوضوية والقبض والبسط في الزمان، ونقض قوانين الطبيعة والعلّية كلها نماذج اوردتها في المقالات الخمس من الأحلام النبوية وكلها مؤيدات ومقتضيات لتجربة الوحي المنامية للنبي.

9 - رحلة المعراج

في مورد تجربة رحلة المعراج والتي هي الأبرز في الوحي القرآني، رحلة هي رؤيا إلا أنها وحيٌ، هي رحلة عقلية كما أسماها ابن سينا تامة الشبه بالرؤيا، خصوصاً أن عائشة روت ان النبي لم يترك بيته ونام في فراشه إلى حين رجوعه من الاستغراق.

---

(1) (ه) هكذا اورده المحدثون، قال النبي: " رأيت ربي في احسن صورة ".كما في مسند أحمد بن حنبل وسنن الترمذي.

و كذلك في المسند: الحديث ١٦٠٢٦، وسنن الترمذي: الحديث ٣١٥٩

الأهم من كل تلك الادعاءات والمأثورات هو محتوى تجربة المعراج المليئة بالتصورات والرؤى والتي هي بحاجة إلى تعبير للرؤيا، وكما تحدثت رواية المعراج ان النبي كان بمعية جبرئيل يسايره خطوة بخطوة، وكان دليله في تلك الرحلة يفسّر له المناظر والحوادث، فلو سقط شخص على الأرض -على سبيل المثال - يقول له كان هذا الشخص يأكل الحرام ...

سورة النجم تحدثت عن قصة المعراج وإشارت إلى رؤيا النبي ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ**﴾.

يقول المفسرون ان بعض الاحكام شرّعت في رحلة المعراج كالصلوات الخمس حيث تعلّمها النبي هناك، وكذلك ظهرت للنبي الجنة والنار ومراتب العرش، وطبقات السماوات وأنواع الملائكة والأرواح المجردة، والعقول القاهرة، طبعا هذا السفر العُلوي للنبي حدث في مقام اللاصورة الصرفة والاستغراق المحض.

أين؟ لا يوجد طريق هنا

ألا سنا برق غيوم الله

كل الأوهام والتصورات بعيدة

نور نور نور نور [1]

10- فقهيات القرآن من العرضيات

لم يبق سوى فقهيات القرآن وهي من العرضيات[2] ويمكن لها ان تكون بطريقة أخرى، ولهذا الدليل فهي عرضية ولا صالة لها، لأنها احدى الثمرات الهابطة للنبوة.

أهمية دخول هذه المطالب في القرآن - في نظري - انها من قضاء الوحي، وأنها لم تصل من الملكوت الأعلى إلى مقام الجبروت - على رغم غلو المغالين - وفي دائرة مقام

(1) المثنوي، الدفتر السادس، الأبيات ٢١٤٥-٢١٤٦

(2) يراجع " الذاتي والعرضي في الاديان " من القبض والبسط.

الرؤيا والخيال والجغرافيا والتأريخ أصبحت لغتها قريبة من لغة اليقظة، خلافاً لأوصاف الباري واحوال القيامة واحداث الخليقة التي هي مباني اركان الدين ومن ذاتياته، واصل اللاصورة في نشأة الخيال والمصوَر والمتخيَل.

11 - ادعية القرآن

في الإشارة إلى رؤيا ادعية النبي في القرآن كما في سورة الحمد، إذ الملاحظ في هذا المتن صوتان، أنها لغة الرسول تعلو في هذا المقطع من القرآن دون ادنى تكلّف، في هذا المكان هو من يتكلم.

12 - صنعة الالتفات

تعني: الكلام من الخطاب إلى الغياب، ومن الغياب إلى الخطاب، وهي من المحسنات البلاغية عند الادباء، لكن في فرضية وحي الرؤيا هي حجة مستحكمة، وكما ذكرت سابقاً، فإن الصنائع اللغوية لو استخدمت في حال التنبه فهي صنائع، أما في عالم عدم اليقظة فهي حقائق.

وفي القرآن حينما يتكلم الشخص الأول مكان الشخص الثاني وأحيانا الثاني يقوم مقام الاول، هذا يحدث في ضمير وفي خيال محمد ﷺ واقعاً، وليس من باب الصنعة اللغوية والتحسين الكلامي، هو في ذات الوقت متكلم ومخاطب وناظر، وينوب مناب كل منهم، ويمكن مشاهدتها بوضوح في كثير من الموارد، ولعل من باب المثال نلاحظ هذا المورد ونظائره كثيرة في القرآن:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]

---

(1) الأعراف:٥٧

في البدء شخص - وهو النبي - يقول بأن الله يرسل الرياح، ثم يأخذ الله بزمام الحديث ليقول نحن نسوق الغيوم، وهنا تغيير في مكان الحاضر والغائب، ليس في العبارة وإنما في المتن الواقعي للرؤيا، وكأن النبي يتحدث بلغة الله، وأحيانا يتكلم الله بلغة النبي، في هذا النموذج يمكن التحقق والمصادقة على أكثر من صوت للقرآن.

أما صيغ " قل" و" إنزلنا " فالأمر فيها بات واضحاً.

***

التجارب النبوية لا تنتهي:

يجب التأكيد على ان كل شيء وقع على عاتق النبي، وعلى روحه، قادم من قوة نفسه، ووحدة بصيرته الباطنية، وتخيله الخلاّق، وتجربته الكاشفة، وامكاناته العقلية التي لا نظير لها، وكل شيء هو نتاج موهبته الربانية الخاصة التي مهدت له من خلال ظرفيته البشرية النظر في الآفاق البعيدة وجلب شُعلة من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ليوقد هالة في ميزان التاريخ.

مدخلية النبي وكونه محور في ظاهرة الوحي شيء لا يمكن اجتنابه أو انكاره، بل ان الدين كله متمحور حول شخصيته وتجربته، وهو يدور حول محور الله. ولو ان لمحمد ﷺ تجارب أخرى لأصبح للإسلام المحمدي لون وطعم آخر، فكل الاديان بصريح القرآن هي الإسلام، فهناك الإسلام الموسوي، والإسلام العيسوي، واسلام المسلمين وهو الإسلام المحمدي، سلام الله عليهم اجمعين.

قرب النبي إلى الله يجعل من كلامه ورؤياه إلهية، ومن دون تقليل ولو ذرة من مُحَمَّديته.

بمعنى ان مُحَمَّداً قد امتلأ من الله بحيث أصبح الله متناسب مع قامته وهيكله، ولذا كلام مُحَمَّد يناسب علم مُحَمَّد، ولا يناسب علم الله، لأنه نور غير متلون يصدع من فقاعات اللون ويأخذ من لون تلك الفقاعات، والمحدودية ناشئة من رحِم النقصان، والمحدود لا يمكن له ان يكون كاملاً، والنقصان يكون مؤثراً في أثر ونقصان المؤَلَف، ولذا فالقرآن كتأليف انساني بديع ورفيع لكنه ناقص ومحدود، ولا يمكن ان يكون كاملاً تحت أي جهة أو رأي، ومحمدٌ ذاته مدرك ومعترف بهذا وهو القائل " ما عرفناك حق معرفتك " وهو العارف بالله بقرب العاشقين هكذا تكون معرفته فكيف تكون معرفته بالأشياء الاخرى؟

النقصان العلمي والفلسفي في القرآن شيء لا يدعو للعجب " رب زدني علماً "

الله لديه الكثير مما لم يقله، ولم يتمكن من قوله برغم مجيء القرآن وآخر الأنبياء، والوحي وصل إلى نهايته ومازال هناك كلام جديد للإله ؛ نعم مازال، ولذا بسط التجربة النبوية مازالت ممكنة:

﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا • قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1]

النتيجة: القرآن أو الكلام المستعار مخلوق ذهني، ونتاج تجربة محمد(ص)، هذه الفرضية الأولى، أو هي رؤيا مستحكمة ومخلوق خيالي خلاّق وتصوّر محمد صلى الله عليه وسلم وهذه فرضية ثانية.

تلكم الفرضيتين -الفرضية الثانية متضمنة للأولى - كلاهما مقدمات لفهم النص القرآن، ولذا اطروحة " القبض والبسط" متناغمة جداً مع الفرضية، وليس فقط انهما غير متعارضين وإنما متناسقين ومتضامنين، على خلاف بعض المعترضين[2]

---

(1) الكهف:١٠٩-١١٠

(2) حسن يوسفي اشكوري، ويبسايت زيتون، مارس ١٣٩٥ هـ ش

وقفة مع الدكتور بازرگان

وصل الدور إلى الإجابة عن تساؤلات الصديق الحميم السيد عبد العلي بازرگان:

١ - لغة الرؤيا رمزية تأويلية ولا ربط لها بالبلاغ التوحيدي الواضح، والقرآن بلاغ بيّن وانذار مبين وبلسانٌ عربيٌ مبين، فأين هذه اللغة من لغة الرموز والرؤى؟

نعم لغة الرؤيا بحاجة إلى تعبير، والمنامات منها ما يكون بسيطٌ، ومنها المعقّد، لكن السؤال عن القرآن المبين الذي لابد أن تكون رسائله واضحة بيّنة أيضاً، إذن لماذا:

كل هذه الحاجة إلى التأويل والتفسير؟

أربعة عشر قرناً ومحاولات المفسرين قائمة على رفع الغطاء عن مراد ومعنى القرآن، وكل هذا الاختلاف اوجدته تلك المعاني

صاحب الميزان في تفسير الآية **﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾**[1] يقول: من هذه الآية تحتمل مليون ومائتي الف معنى، وكذلك الآية **﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾**[2]

المتشابهات تأويلها ليس واضحاً لكل أحد، فأي مكان في القرآن "مبينٌ "

المعتزلة والاشاعرة احدهم اختياري والآخر جبري وكلاهما يستند إلى القرآن "المبين"

وهل المتشابهات لها علامة فارقة؟ أو انها معلومة النوع والعدد بحيث يمكن تمييزها عن بقية الآيات؟

الاختلاف في عداد تلك الآيات، حتى الآية التي تتحدث عن التقسيم[3] هي أقرب إلى المتشابهات.

---

(1) البقرة:١٠٢

(2) هود:١٧

(3) آل عمران:٧

هناك من المفسرين من يعتقد بأن أكثر آيات القرآن من المتشابهات ...

ثم ان المحكم والمتشابه ليست من اختصاص القرآن فقط وإنما كل النصوص العمدة في لغتها بالذات تقتضي ذلك، ليس عمدا اوردها الله محكمة ومتشابه بل كل الآيات على نسق واحد لكنها بحاجة إلى التعبير.

أنا في حالة من العجب من الصديق المكرّم، وفي مرحلة أوج فلسفة اللغة وعلم الهرمونيطقا (نظرية التفسير) يتحدث عن المبين في لغة يعتبر أهل الفن أولى صفاتها انها غير شفافة ذاتاً، وبالقياس لكلامه لا بد من القول بأن المفسرين وخلال الف وأربعمائة سنة قاموا بجهد جهيد وغربلوا الماء، وذهبوا مذاهب جزافية لكشف الغطاء عن الوجه الشفاف للحقيقة، وعاشوا المعاناة لشراب صافٍ من القرآن، ولم يوفقوا لحل لغز كون القرآن مبيناً.

في وصية الامام علي (ع) لابن عباس في المحاجّة مع الخوارج يقول له: حاججهم بحديث النبي لا بالقرآن لأنه " حمّال ذو وجوه " فأنت تقول وهم يقولون ولا تصل معهم إلى نتيجة، فالقرآن لا ينطق بلسان ولا بد له من ترجمان.

يستفاد من هذه المقدمات ان هذا المبين ليس مبيناً ولابد من تبيانه!

٢- آلاف الشهداء ضحوا بدمائهم، أي ناقوس يقظة هذا الذي ينذر سامعيه للسير وراء منامات؟

الجواب هو ما تقدّم.

يبقى هناك خيَار كلمات النبي التي لها قدم السبق ؛ لأنها أكثر سهولة في الفهم من القرآن بصريح قول الامام علي (ع)

٣- دعا القرآن منكريه إلى تحدي الاتيان بسورة مشابهة لنا فيه، كيف يمكن توضيح هذا الأمر على القول بنظرية " الأحلام النبوية "؟

الجواب بسيط وجاهز، إذ يمكن للمنكرين ان يستمدوا العون من أي مكان ومن أي شخص كان، ويألفوا كتاباً مثل القرآن، والحكم في نجاحهم من عدمه على عاتق

أهل الفن، بالضبط كقولنا: لو احداً يتمكن من الاتيان بشعر كشعر حافظ فليذهب ويأتي به.

٤- استفاد القرآن من صيغ النزول والتنزيل لما يقرب من الثلاثمائة مرة، وهذا يعني ان الله انزل حقائق خالصة لهداية البشر

الخيال والوهم أيضاً هما عين نزول اللاصورة في شكل الصورة، لكن هذا النزول ليس زمانياً ولا مكانياً، وليس نزولاً من الاعلى إلى الأسفل، هو نزول استعاري مجازي.

أما كون الوحي خالصاً فهذا الأمر في اللغة العربية - التي تفرض قيودا على المعنى وتضيّق دائرته - أمر غير ممكنٍ. بالإضافة إلى فوران وغليان ذهن النبي الذي هو ذات الفعل الإلهي المنشئ لتلك الحالة.

٥- النبي في جواب صريح لمن طالبه بتغيير مكان الآيات، ان لا صلاحية له في التغيير.

صحيح ان النبي لا يمتلك المقدرة والجرأة على تغيير مكان الآيات في حال اليقظة، ونزول الآيات كان في مرحلة اللايقظة وغياب الحواس الظاهرية، وكذلك حال نسخ الآيات لو حدث فهو في الرؤيا لا اليقظة.

٦- قيل للنبي: نحن انزلنا عليك الكتاب بالحق - وليس منام وخيال - من أجل الناس.

صيغة المنام والخيال التي اضافهما السيد بزرگان محل للتعجب والعتب، ولِمَ لا تكون الرؤيا حقة أيضاً، هذا اولاً

وثانياً: لِمَ كل هذا التصغير للمنام والخيال، ألم يقل الامام علي:" رؤيا الأنبياء وحيٌ"، وفردوسي الذي كان يقول:

لا تعد النوم أمر يسير هو احدى فوائد النبوة

وقول النبي المنام جزء من ستة واربعين جزء من النبوة.

وكذلك شيخ الاشراق وغيره من الفلاسفة المتمرسين ممن كتبوا في باب الرؤى.

ألا يوجد لدينا منامات صادقة وصالحة وملائكية؟

لماذا كل هذه الغرابة عن عالم الرؤى وبطريقة لا اختيارية نجعلها اوهاماً تتعلق بأناس ذوي سلوك غير سوي؟

معراج النبي كان من جنس الرؤيا كما يعتقد بعض المفسرين.

وماذا عن رؤيا يوسف وإبراهيم، وهل كانت رؤيا باطلة وغير حقة.

٧- الاكتشافات الحديثة بلحاظ عدد الفاظ القرآن وحروفه ... حقائق عجيبة لا يمكن لنظرية الأحلام من توضيحها

لا شك أن القصد هو العدد ١٩ وحاصل الضرب الناتج عنه في آيات القرآن، ورشاد خليفة بالنهاية مدعٍ لنبوة الميثاق(1).

ولندع صحة أو سقم الاكتشافات العددية، لكن من غير الواضح بالنسبة لي سؤال عدم التناسب مع نظرية الأحلام النبوية، فلو ان حاصل ضرب الاعداد هو نتاج الوحي ؛ فلماذا لا تكون الرؤيا هي الوحي، ولماذا لا تكون معجزة.

الرؤيا بيانٌ لآليات الوحي، وكفى.

٨- عمدة الآيات التي سيقت للاستدلال على النظرية المبتكرة للرؤى القرآنية موضوعها القيامة، والحال أن لغة القرآن في بيان أحوال القيامة هي لغة تشبيهية.

في المقدمة المبسوطة من هذه المقالة تطرقت إلى سعة دائرة الرؤى القرآنية، فلا حاجة للإعادة.

٩- استعمل القرآن في موارد الرؤيا صيغ التأويل، وتعني الغاية والنتيجة من الوقوع الخارجي لخبر ما ... والسؤال: أليس من البدعة في الدين استعمال اصطلاح تأويل النص أو تعبير الرؤى في القرآن؟

---

(1) رشاد خليفة مصري - امريكي متخصص بالكيمياء الحيوية، له أبحاث في الاعجاز العددي في القرآن، والقائل بخصوصية الرقم ١٩ في القرآن، ادعى انه رسول الله ونبي الميثاق، وصدرت فتاوى تحذيرية من قبل رجال الدين ضده. اغتيل طعناً على يد احد الامريكان السود في ٣١ يناير ١٩٩٥عن عمر ناهز الاربعة والخمسين.

التعبير بالبدعة موردٌ للعتب لا يناسب قلم هذا الصديق الغيور، ولندع هذا الأمر جانباً، لكن كلامه يشبه القول بأن القرآن لم يذكر صيغة الهرمونيطقا في تفسير النص ولذا لا يصح استخدامه، وبكل الأحوال صاحب هذه الفرضية له دلائله الخاصة التي اوصلته بالنتيجة إلى استعمال هذا الاصطلاح، ولم يجد أفضل منه في الدلالة على المطلوب.

نعم لم يأت القرآن باصطلاح للدلالة على فهم النص، لكن في الوقت ذاته لم يمنع من استخدامه، ولا يوجد مانعاً شرعياً أو عقلياً أو اخلاقياً من استعماله، وليس بالأمر المخجل إلى هذا الحد الذي يجعلنا نصفه بأنه بدعة في الدين.

١٠- صريح القرآن بأن تأويل المتشابهات في القرآن لا يعلمها الا الله.

صحيح هذا الكلام، لكن نظرية الأحلام النبوية لا تتبع تأويل المتشابهات، إنما النظرية طريق لفهم معاني آيات القرآن عن طريق فهم آليات الوحي، ومع ما ذكرنا من مقدمات الرؤيا في لغة القرآن، ولزوم تعبير تلك الرؤيا هذا لا يناسب ولا يتطابق مع التأويل الممنوع.

لندع قصة التأويل المجاز والممنوع والمناقشات المستمرة واللامنتهية ونتركها للمفسرين

الأستاذ المحترم السيد بازرگان:

أشرت في مقالاتي إلى هذا المعنى، وتسألت: هل ان المؤمنين ومنذ ألف واربعمائة سنة من الانتظار والحرمان والبقاء عطاشى لغريبٍ يأتي ويعلّمهم الفهم الصحيح للقرآن؟

توضيح هذه القصة لا ينحصر بالقرآن، اليوم وبعد خمسة آلاف سنة من الحضارة البشرية صار فلاسفة اللغة يقتربون أكثر فأكثر من الشخصية الساحرة، والالغاز المعقدة للغة، وكشفها من جديد، فما العجب في باب القرآن لو اعملنا النظر والتأمل لكشف منفذ جديد في الفهم.

هذه التأملات الجديدة في فهم القرآن تعتمد الاسلوب المتحضر، والابتعاد عن الحالة المتبعة في كل نص نراه صعباً فنعمل السليقة والمزاج ونعلّقه على شماعة المتشابهات الكنايات والتمثيلات – هو العمل الذي يقوم به عموم المفسرين – ولابد من استبداله بأسلوب ولغة ذات نسق واحد تغطّي كل الحالات، دون الحاجة إلى تكليف اللغة ما لا تطيق بالكنايات والاستعارات والمحسنات والصناعات اللغوية، وكل ما قيل فيه انه استعارة وتمثيل نستبدله بلغة الرؤيا وحينئذ لابد من تعبيرها.

يبقى شيء اقوله للأستاذ بزرگان خذه من خادم الكبار، وارجع بقلمك إلى بعض الآيات وجعل تعبير الرؤيا رافع للحجاب عن وجه تلك العروس، لتظهر بمنظر جديد، وتفرح قلب المشتاقين.

بعض الناقدين والمعترضين يتكلمون عن تعبير النص بطريقة وكأن شعبذةً سوف تقع.. وحمامة ستطير فجأة من بين منديل امام حيرة وبهجة المشاهدين. طبعاً هذا بعيد عن شأن السيد بازرگان

خلاصة الكلام:

ألم يحن الوقت بعدُ لرفع التكلّف والتعسف ونتمكن من القول بأن كل آيات المعاد رؤى، وعلى أقل التقادير الشك في هذه التصورات الساذجة التي قيلت في المعاد.

ألم يحن الوقت بعدُ للاعتقاد بأن تسبيح الكائنات والعرش الإلهي ونور الله هي ذات التجربة المحمدية، ولأجل درك وفهم هذا الاشياء ان لا نذهب يميناً وشمالاً.

ألم يحن الوقت بعدُ للقول بأن صفات الله رؤى مجازية، ولننقّح ونهذّب مباحث معرفة الله.

ألم يحن الوقت بعدُ لدرك جديد عن لغة الكناية والاستعارة القرآنية، وصنعة الأدب والبلاغة، وأنها عين تجربة رؤيا مُحَمَّد ﷺ.

ألم يحن الوقت بعدُ لإدخال عنصر الرؤية والذوق والمس والشم إلى تجربة وحي مُحَمَّد ﷺ، وأنها غير منحصرة بالسمع والكلام، ولماذا نجعل الوحي محدوداً بالحس السمعي فقط، وهل هناك ما يدّل عليه.

ألم يحنْ الوقت بعدُ للكف عن الادراك الساذج والعامّي والتجسمي للجن والمَلَك والشيطان، والاعتقاد بأنها تصور رؤيوي في التجربة المحمدية.

لو حدث أن أطبقنا أدينا وارجلنا وتوصلنا إلى معنى أصابة الشهب للشياطين، حينها نعلم أن النبي كان قد رآها في المنام، إذ في عالم الخارج لا وجود لسهاب صخري يصيب شيطاناً. إن لم نصل إلى هذه الحقيقة فالجهل المركب قادم إلينا عاجلاً، إلى أن تبزغ الحقيقة المحتجبة خلف السحاب وتنير النفوس والعقول.

طلبوا من صاحب فرضية الأحلام النبوية تعبيراً للآيات؟!

هذا الطلب يشبه طلب العلم من الفيلسوف.

لا يمكن القول لفيلسوف: ان الطبيعة تحتوي على قوانين ؛ فأكشف لنا عن بعض هذه القوانين!

كشف القوانين وظيفة العلماء، والباحثون لهم نظرياتهم التفسيرية، فالتفسير والتعبير نتوقعه من المفسرين أنفسهم.

والسلام على مَن سَمِع فوعى ودعا إلى الرشاد فهدى وأخذ بحجزه هاد فنجى ...

محمد ﷺ راوي الأحلام النبوية (٧)

لغة الرؤيا ... لغة الحال

المقدمة:

الصديق الحميم والمحقق القرآني المحترم المهندس السيد عبد العلي بازرگان، اطال الله عمره ودام فضله، علّق على مقاطع من مقابلتي مع القسم الفارسي من البي بي سي في باب القرآن، وبالاستفادة من آيات القرآن أظهر آرائي بشيء من الضعف والسقم.

جهد مشكور منه جعلني أراجع النظرية بشيء من التوضيح والتنقيح وعرضها بحلّة جديدة، وتفسير للآيات المذكورة بأسلوب واضح وبلا تكلّف، ماسكاً مصباح الأحلام النبوية بيدي منيراً به بعض الظلمات.

هـذه المقالـة ناظـرة أيضـاً إلى الاعتراضـات المتكـررة للسـيد مصـطفى الحسـيني الطباطبائي، والتي أوردها فبل السيد بازرگان.

وسأتخذُ من هذه المقالة حجةً لاستعراض بعض الآراء التي لم يرد ذكرها من قبل، وستكون خاتمة للأحلام النبوية.

نقاط البداية:

في البدء أقول: أن لب اللباب وعصارة نظرية الأحلام النبوية هي الإضاءة على بعض القراءات الخاطئة والاحتمالات الضعيفة.

عصارة النظرية في عشرون بنداً:

١- القرآن كتاب الوحي.

٢- الوحي هو ذات الرؤيا.

٣- الرؤيا ظاهرة سمعية وبصرية وشمّيّة وذوقية ولمسية.

٤- لغة الرؤيا بشرية.

٥- فهم لغة الرؤيا بحاجة إلى تعبير.

٦- الرؤيا نتاج ذهن النبي وضميره الخلاّق وكشفه.

٧- النبي سهيم وفاعل وكاشف في ظاهرة الوحي.

٨- القرآن تقرير لرؤيا النبي وبلغته هو.

٩- النبي كسائر الموجودات مندكّ ومنحلّ في واجب الوجود، ولا توجد مسافة بينه وبين الله.

١٠- النبي في لحظات الوحي الخاصة يكون بلا ارادة وفاقداً للوعي.

١١- النبوة تجربة، والنبي في هذه التجربة يصبح أكثر نبوية بالاستمرارية والتدرج، ورؤياه تصبح أكثر عمقاً وسعة.

١٢- نسبة الكلام إلى الله نسبة مجازية كما في اسناد اليد إليه والرجل والأذن والعين.

١٣- تأويل المفسرين القدماء ليس سوى نوع من أنواع الرؤى الناقص.

١٤- سلسلة الزمان والعليّة منقطعة في الرؤيا، ومعانيها متلبسة بلباس الخيال، والحقائق غير المحسوسة تظهر في صور محسوسة مستنبطة من المحيط الثقافي للنبي.

١٥- قصة آدم وابليس، وبداية خلق بني آدم من طين، وحشر الوحوش، وحرق الشياطين بالشهاب الثاقب، وجلوس الله على العرش، واستقرار العرش على

الماء، واشعال البحار بالنيران، وحرق المذنبين بالنار، وقيام الاموات من التراب، وإحضار ميزان العدل، يوم القيامة مدته خمسين الف سنة، و دوران الملائكة تحت عرش الله، نصب الخيام للحوريات في حديقة الجنة، وحوار أهل النار واهل الجنة، وكسوف الشمس، وخسوف الكواكب، ونزول الملائكة ليلة القدر، ونزول الحديد من السماء، ومعراج النبي ... كل ذلك من جنس الرؤى النبوية، وليست مقاطع من تاريخ الإنسان، وليست مقاطع من واقعية العالم، بل هي صور منامية خيالية، وبحاجة إلى التعبير.

١٦- الملائكة والشياطين تصاوير لرؤى وقوى اللاصورة.

١٧- الأنبياء والعرفاء بإمكانهم خلق قصة المبدأ والمعاد وأساطير البداية والنهاية بطريقة تخيلية تصويرية، وهذه الصور بإمكان الحالم وبقدرته التصويرية الربط الوثيق بيت تلك الصور.

١٨- اختلاف الأنبياء باختلاف رؤياهم واستطاعتهم التصويرية وكشفهم الفني.

١٩- للأنبياء وظائف صعبة وغير متناسقة، فمن جانب لابد لهم من إنشاء الصورة من اللاصورة، ومن جانب آخر يخبروا مخاطبيهم ان لا تبقوا مع الصورة وعليهم تركها.

٢٠- كلام محمد كلام الله، وكلام الله لا يوجد له معنى آخر، وتصورات محمد في حكم تصورات الله، على الرغم من ان نظرة العارفين بالحقائق والوحدويين يرونهم متحدون ﴿وَمَا رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[1]

هذه قائمة العشرون بنداً، ليس لأحد منها نص عليه من القرآن، وعلى اقل التقادير فالفائدة المرجوة منها هي اخراج الاسئلة العقيمة من محيط الذهن.

فلا يسأل أحد عن مدة آلاف السنين على مجي آدم إلى الارض؟

أو كيفية استمرار نسله أو نسَبه أو قامته كم ذراع طولها؟

(1) ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إذ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنفال:١٧

أو مكان قبرهَ؟

وهل أن التناكح حصل بين بناته وأولاده لإدامة النسل، أو ان حوريات نزلن من السماء ووقع أولاد آدم في شراكهن؟

وهل أن قصة آدم تتنافى مع نظرية التطور؟

عرش الله من أي جنس كان، زمرد أو ذهب أو خشب؟

كيف تحول الطين إلى لحم، وكيف نفخ الله فيه؟

لماذا طلب الشيطان المهلة للتفرقة بين بني آدم؟

من أي جنة خرج آدم وفي أي نقطة نزل؟ في جدّة أو سيرلنكا؟

هناك مئات الأسئلة العقيمة وبلا جواب من منقولات الواقع المظنون، والقصص التاريخية، كل ذلك يمحى بطرفة عين، ويغفو على فراش الرؤى الذي يأتي من عالم الخيال وإلى عالم الخيال يذهب، ولا حظّ له من التاريخ.

النزاع حول المعاد الجسماني والروحاني يظهر على الواجهة، ومعلوم من الآية ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرىٰ﴾[1] ، أن لا دلالة فيها على قيام الناس بأجسامهم، وما هي إلا محض رؤيا شوهدت فيها الناس تخرج من قبورهم.

أما أن الكلام في تعبير هذه الرؤيا - وهي الخروج من القبور - فهذا الأمر يبقى لحين اتضاحه فيما بعد.

والمعنى إجمالاً هو أن القيام قادم في الطريق، لا أكثر.

وعلى هذا قس جميع الأوصاف والأحكام الخاصة بيوم القيامة، وصفات الله وأفعاله، كإرسال الرياح، وإنزال المطر، والنفخ في الروح، وقبض الأرواح، ونصر المؤمنين في الحرب، وأرسال الملائكة، وغضبهم من الظالمين، وأخذ ذرية آدم من أصلاب بني آدم، وأمثال ذلك.

---

(1) طه:٥٥

هذه المناظر العجيبة رآها النبي بعين الخيال من خلال ستارة الرؤيا، ونقلها لنا بلغة اليقظة، قرأها وأوضح معناها.

على كل التقادير يمكن وببساطة حلّ اقفال متشابهات القرآن بقراءتها كرؤيا.

ثم ان أي الآيات محكمة وأيهما متشابه فهذه من معضلات علم التفسير، والمفسرون يحصرون المحكمات بآيات الاحكام فقط، وبقية الآيات يضعونها في سلة المتشابهات، وهذا يقرّبها من نظرية الأحلام النبوية، رغم ان كل الآيات بحسب النظرية هي رؤى ومتشابهات، والاختلاف في درجة التشابه.

بالرغم من انها ليست طريقة للاستدلال، لكن لطمئنة المؤمنين واقناع ضمير المحققين ؛ سأنقل ثلاثة اقوال لكبار علماء الإسلام، لئلا نذهب بالأحلام النبوية مذهب البدعة الضالة المضلة، وليكن معلوماً للأذكياء ودقيقي الفكر ان لا تطرأ شبهة إلى تقواهم، والسالكين ذات الطريق والسامعين للكلام البسيط عن جبرائيل ان حقيقة الوحي لا يمكن تصورها بهذه الطريقة.

١- أبو حامد الغزالي:

" **السحر والكرامات والمعجزة من خواص القدرة القلبية للإنسان**، رغم ان هناك فرقاً كبيراً بينهما[1]

هناك حدس مبرم ان الرسول جاء بخبر من الجنة تقليداً وسماعاً من جبرئيل ...

لكن الرسول لم ير الجنة في عالم الحقيقة، ولعله أصبح جزء ذاك العالم وغائب فيه، وهذا نوع من المعراج[2] دلالة مقالة الغزالي هذه هي: إن القرآن معجزة نبوية، وهي من خواص قدرة قلب النبي، وهي عين دلالة نظرية الأحلام النبوية، فالقرآن هو حاصل غليان ضمير النبي الجاري على لسانه .

(1) أبوحامد الغزالي، كيمياي سعادت، بتصحيح حسين خديو جم، ج١ ص٣٤

(2) المصدر السابق.

٢- صدر الدين الشيرازي:

كل شيء لا يمكن فهمه يضعه القرآن امامك وكأنك تقرأ اللوح المحفوظ في المنام، وتكون الحقائق ماثلة امامك، لكنها بحاجة إلى التعبير، وهو سر مقولة ان التأويل من جنس التعبير[1].

٣- ابن عربي:

في الرواية عن عائشة: ان أول ما ابتدأ الوحي للنبي كانت الرؤيا الصادقة ...

بناء على هذا القول فإن الستة اشهر الأولى، بل ولعل طول عمر النبي كلنت على هذا المنوال، يعني منام في منام.

عندما ترد معانٍ من هذا القبيل فهي من عالم نطلق عليه بعالم الخيال، ولهذه الجهة فهو محتاج إلى التعبير ...

و عندما ينزل الوحي على النبي يكون محسوساً في العادة بالنسبة له، وكأنه يخطف أو يغشى عليه، ويصبح وكأنه مختفياً عن حاضري مجلسه، وبعد إتمام الوحي يرجع لحالته، وهذا الذي يحدث له أثناء نزول الوحي يكون في عالم الخيال ويكون مدركاً للوحي لكن لا يقال له نوم[2].

يضاف إلى ذلك وبناء على نقل أقدم تاريخ لحياة نبي الإسلام وهو الآيات الخمس الأولى من سورة العلق التي نزلت في غار حراء كانت في منام النبي.

يقول النبي عليه صلوات الله كنت نائماً إذ قَدِم جبرئيل بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أقرأ؟ فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ماذا أقرأ؟ فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ماذا أقرأ؟، ما أقول

(1) صدر الدين الشيرازي، مفاتيح الغيب، بتصحيح نجف قلي حبيبي، ج١ص١٥٨، العبارة ذاتها جاءت في المقدمة الرابعة من تفسير الصافي تأليف الفيض الكاشاني.

(2) ابن عربي، فصوص الحكم، ترجمة محمد علي موحّد، وصمد موحّد، فص الحكمة النورية، ص ٤٥١-٤٥٢

ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنسانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[1] فقرأتها.

ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي، فكأنما كتبت في قلبي كتاباً.

فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل ...[2]

وهناك نقطة تضاف إلى ما تقدم، نقطة تأريخية تفسيرية مهمة، وبها نصل إلى خاتمة هذه المقدمة:

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [3]

الملاحظ في الآية الشبه بين وحي محمد وبقية الأنبياء، ويلاحظ أيضاً حذف اسم موسى من مجموع الأنبياء، وهذا له معنى خاص غريب! والغرابة تظهر فيما لو راجعنا التوراة وكيفية وصول الوحي إليهم باستثناء موسى.

سفر العدد من أسفار التوراة الخمسة، جاء في هذا السفر ما يلي:

وقال يهوى اسمعوا كلامي هذا: إن كان بيننا نبي يرى في الرؤيا البينة، ويتكلم معي في المنام هو ليس عبدنا موسى، أعطيته أسرار الدار، يتكلم معي علانية في النور وليس مغطى[4].

وورد شبيه له في مزامير داود في الفصل ٨٩.

---

(1) العلق: ١-٢

(2) محمد عبد الملك ابن هشام، السيرة النبوية، بسرح وضبط مصطفى السق، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، ط١ دار الخير، دمشق ١٤١٢ هـ، ص١٩٠-١٩١

(3) النساء: ١٦٣.

(4) العهد القديم، ترجمة بيروز سيّار، نشر هرمس، سفر العدد ص٥٣٢-٥٣٣

إذاً في الرؤيا كان وحي الأنبياء، وهي سنةٌ يهودية ومسيحية، وسنة مُحَمَّدية بصريح القرآن، وتشبهها تمام الشبه[1].

بعد المقدمة:

"الوحي قولي سماعي " هو محض تصور، وهو حجاب الحجب، وهو ما يدفع بإتجاهه المعترضون وغير المصدّقين، القائلين بأن النبي لا يعلم شيئاً سوى أنه يسمع الحقائق عن طريق الأُذن، ومعرفته منحصرة في كيفية إيصالها.

ولو قلنا أن النبي لا يعلم شيء سوى أنه يرى الحقائق عن طريق البصيرة القلبية - الفاعلية والكاشفية النبوية – هل هذا الكلام يخالف القرآن؟

يعتقد هؤلاء – وهو حجاب آخر – عندما نقول ان النبي فاعل لازمه أنه قد صنع المطلب من عند نفسه...

هؤلاء في غفلة عن ان النبي صياد ماهر وليس مستمع منفعل.

ثم ماذا عن الآية التي تقول: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾[2]

إذ لا توجد منافاة مطلقاً بين ظاهرة الوحي السمعية البصرية والتي هي أصل مدعى الأحلام النبوية.

طبعاً النبي لم يقرأ كتب اليهود والمسيحيين ولم يستنسخها **وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ** [3]، لكنه يتحدث عن كشفيات حديثه هو وانفعالاته وتأملاته واسراره ...

كان يغوص في الغيب والشهادة وفي السكوت، ويجري وراء صوت الحقيقة والمناظر والحقائق في لباس الرؤيا، يتصورها ويسمع ندائها، وبمهارة فنية يعكسها إلى

---

(1) ورد في القرآن إن موسى كلّم الله تكليماً، وهذا التعبير لم يرد في نبي الإسلام، رؤية صورة الله غير ممكنة في الرؤيا، ولذا الفرق بين موسى وبقية الأنبياء محتمل أن تكون في رؤياه.

(2) الشورى:٥٢

بظن قوي يقصد من الكتاب هنا هو الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية كما رجحها عابد الجابري في "فهم القرآن العظيم" ترجمة محسن آرمين. (المؤلف)

(3) العنكبوت:٨٤

الناس، من المبدأ إلى المعاد، ذلك الصوت وتلك الالوان كانت تنير اعماق ضميره المتعلق اساساً بالحق.

قالوا: "أن الله أرسل رسله برسالة لإبلاغها إلى الناس، كيف يمكن لهذه الرسالة أن تكون محلاً للقبول والرفض، ولها تأثيرات حسنة وسيئة على النبي من محيطه الخارجي وأيّ رسالة لملِك من الملوك على طول التاريخ جاءت علو ذرقه وسليقته لتكون مثل رسالة الله "[1].

الفقرة التي ورد ذكرها هي لسان حال وسرّ ضمير أغلب المعترضين، لاعتبارين:

الأول: دخول النبي في عرصات الوحي ولازمه زوال عصمة الوحي.

الثاني: النسبة بين الله والنبي كنسبة السلطان والرسالة.

نعم الأنبياء هم رسل الاله، لكن الرسالة ليس منفصلة عن حاملها انفصال ميتافيزيقي، بل هي رسالة بمعية الحق وذائبة فيه، فالله يتحدث على لسانه ضمن ظرفية وفاعلية ذهنه ولسانه بوصال ميتافيزيقي.الله موجود في كل احد وكل شيء وحاضر في كل نجوى **﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**[2]

ولماذا لا يكون كذلك مع انبياءه.

الناس كلّ بحسب فاعليته وكمالاته إلاهيون بنوع ما، والنبي مختار الاله، ومعيته مع الله أكثر، وهو اقرب حضوراً إلى الله، وهو من جلسائه، وهذا ما يفعله النبي ؛ ليس لأنه يحمل رسالة من سلطان، وليست العلاقة به سوى أنه خادم له وممثلاً لأوامره.

رسل الله قامات شامخة، وثمرات من نخل الرسالة يقطفونها بأيديهم، ولا ينتظروا سقوطها في احضانه،، وهذا معنى ان لهم دور وانهم فاعلون، وشخصية النبي عجينة مع

(1) عبد العلى بزرگان " القرآن كلام الهي أو حديث النبي "، الزيتون، تموز١٣٩٧ هـ ش
(2) المجادلة:٧

رسالته، وهو عين رسالته ؛ لأنه امتلأ من الرسالة، هو الرسالة وليس مستلم للرسالة، وهذا الكلام لا مجال لإنكاره، لكن بشرط فهم ان النبي إمتلأ من الله - كما في حديث قرب النوافل -.

و كونه قابل وفاعل أنهما مع بعضهم البعض، وهذا المبحث ليس باليسير، وصعوبته تأتي من العبور من ميتافيزيقيا الفراق إلى ميتافيزيقيا الوصال، ولابد من التفطّن إلى هذه النقطة الفاخرة وهي: أن الله يتحدث من داخل النبي، ويوصل رسالته من داخله وليس شيء من خارجه، هو رسالة مندكّة ومنحلّة في السلطان، هو خيال من خيالاته، هو سواد وخيال، وفؤاده يسجد في قباله[1] بمعنى: انه غارق فيه كما في غياب النائب عن المنوب، يقول الرومي:

لأن الله لا يظهر للعيان   نائب الحق هم الأنبياء

لم اخطأ إن قلت نائب أو منوب   قبيح قولنا لو كانا خياليَن[2]

هذا الذي يُعرف عن الوحي وعن شخصية النبي وضعفه أمام الوحي الإلهي الجليل بيانٌ ناقص عن حقيقة كاملة اسمها تصورات النبي.

كتبتُ في مناسبات سابقة أن كل شيء في الطبيعة هو طبيعي، وفي التاريخ كل شيء تاريخي، وكل شيء في الإنسان هو إنساني، ولا يمكن تصور غير ذلك، إلا لمن لا يضع قدمه في الطبيعة والتاريخ.

قرآن النبي كان باللغة العربية - ولغته هي لغة جبرئيل — والوحي قهراً لابد أن يكون مغشياً بالعربية، وهذه الغشاوة تعني الغرق في الثقافة العربية، وذلك لأن اللغة مخزن ومرآة للثقافة، وهذا معناه صورة القسم الثقافي العربي في وحي اللاصورة النبوية.

الآية الأخرى التي يمكن الاتكاء عليها تلك التي تتحدث عن طلب العرب من النبي الإتيان بقرآن غير هذا: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أو

(1) سجد لك سوادي وخيالي وآمن بك فُؤادي ... " مضمون دعاء النبي في السجود، كما في الرويات السنية والشيعية، كما عن السيد ابن طاووس في اقبال الاعمال.

(2) المولوي، المثنوي، الدفتر الاول، الأبيات ٦٧٦-٦٧٧

بَدِّلْهُ» وكان جواب النبي: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(1)

و لا يوجد كلام أكثر صراحة من متلقٍ للوحي الإلهي كذات النبي يفكك الكلام الوارد في سورة الحاقة:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾(2)

حقاً أنا في حيرة ولا ادرك ان منطوق ومدلول نظرية الأحلام النبوية هو إعطاء الحق لمحمد في إلصاق الكذب بالله، أو ان فيها ما يدل على إن القرآن كان نتاجاً لرغباته أو تغيير الحقائق الواردة فيه!

هذا ليس من صنع العلماء فما بالك بالأنبياء!

الحكماء يتبعون البرهان ولا يبدلوا ويغيروا من تلقاء انفسهم، فكذلك الأنبياء يتبعون كشفهم –الكشف الذي يَسَرَ لهم سماع الاسرار والبصر الذي يَسَرَ لهم البصيرة – وفي المقابل رفع عنهم السوء وعبادة الهوى، ومُحَمَّد لا يغير شيئا ولا ينسب الكذب إلى الله، حتى في حالة الغفلة واللاختيار هو في قبضة رؤى الوحي، وهذا الذي يراه ويسمعه ويتذوقه يضعه امام الناس.

اذاً نسبة الكذب في دائرة الاختيار أمرٌ والوحي والرؤيا والاختيار امرٌ آخر.

إن الدين عند الله الإسلام:

صاحب هذه النظرية يرى ان مرآة الإسلام هي المحمدية، وهذه النقطة بالذات أصبحت مورداً للنقد اللاذع من المعترضين ولا أدري ما السبب؟!

أعتقد صدقاً وعدلاً أن الإسلام هو إسلام مُحَمَّدي ؛ وذلك يرجع لشخصية مُحَمَّد الشبيهة بقطعة حديدية ذائبة في الكورة الإلهية فأنتجت نور وحرارة اسمها الإسلام.

(1) يونس: ١٥

(2) الحاقة: ٤٤-٤٦

كذلك الحال بالنسبة إلى المسيحية حيث يصح اطلاق تسمية الإسلام العيسوي عليه، واليهودية يطلق عليها الإسلام الموسوي، وفي نظر القرآن " الإسلام اسمٌ لكل الإديان " ولا يوجد غير الإسلام ديناً ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإسلام﴾(1).

ولا أعلم لِمَ الغفلة عن هذه النقطة الواضحة، وما العجب فيها من قبل الأعزاء، كالسيد بازرگان في توضيحه على ما أسميته بالمسيحية على النصارى، والموسوية على اليهودية إذ يعتبرها خلاف قواعد اللغة ولا تناسب التأريخ.

قضى محمد ﷺ بين قومه عشرات السنين ولم يك نبياً، وعندما خلا بنفسه واختار الرياضات والعبادات، وتفتحت مدارك سمعه وبصره تمكن من رؤية ملكوت السماوات، هنا أنكر عليه المنكرون، وله الحق في محاججتهم والقول بأنكم تعرفوني أن لا سابقة لي في قول الكذب، وجئتكم مبلّغا للرسالة، فلابد لهذا الطفل الذي بلغ الكبر وطالت قامته وصار باستطاعته أن يقطف ثمار الحكمة من شجرة القداسة ويعرض عقار الشفاء من صيدلية الفردوس إلى المشتاقين والمرضى(2).

آيات المرسِل والمرسَل :

فيما يلي استعراض وشرح للآيات التي تعطي معنى الإثنية – بين المرسِل والمرسَل – والتي هي رأس مال المعترضين الأكثر صراحة وقوة:

١ – ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾(3)

٢ – ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(4)

٣ – ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ رُوحًـا مِّـنْ أَمْـرِنَاۚ مَـا كُنـتَ تَـدْرِي مَـا الْكِتَـابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾(5)

---

(1) آل عمران:١٩

(2) مقتبس من غزل لمولانا من ديوان شمس يقول فيه ان الأنبياء كالأطباء جلبون الدواء من الجنة. ديوان شمس، الغزل ١٤٧٤

(3) المائدة:٦٧.

(4) الإسراء: ٥٣.

(5) الشورى:٥٢.

٤ - ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[1]

٥ - ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[2]

٦ - ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[3]

٧ - ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾[4]

٨ - ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾[5]

٩ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[6]

١٠ - ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَو جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾[7]

هذه نماذج وامثالها في القرآن ليست بالقليلة في معنى الرسالة السلطانية كما فُسرت: بأن المرسل أو المَلَك يوصل خطاباً من الله إلى النبي، أو على الاقل يستقبل النبي – باعتباره مخاطب محترم ومحرم – رسالة سماعية مباشرة من الله.

المقدمات التي ساقها المفسرون تفترض شيئين:

الأول: أن هناك قطبين.

والثاني: هو الوحي المسموع.

وهذان الفرضان القديمان لهما من الذهن المتمكن ما لا يصح معه افتراض معنى آخر غير المعنى المذكور لنصوص الآيات.

و لماذا لا نفترض ان النبي وبلغة الحال كان يكبّر الله ويحدّث نفسه في الرؤيا ان تطهّر وابتعِد عن الموبقات.

(1) النمل:٦
(2) القيامة:١٦
(3) القدر:١
(4) المدثر:١
(5) طور:٤٨
(6) الأحزاب:٤٥
(7) هود:١٢

ولماذا نفترض ان كل الخطابات تحدث من أحد إلى آخر، ولا نتصورها تحدث بين الشخص ذاته وحديثه مع نفسه، خصوصاً في عالم الرؤيا واللاشعور ؛ حيث الحديث مع النفس ولعَب الادوار المختلفة، وقبول التصورات،، فترة يستمع إلى الصديق وأخرى من العدو، وهناك آلاف الأنا والأنت ممكن ان تجدها في المنام، والحقيقة هو أنت ولا أحد سواك.

حينما تقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ أو قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ لماذا لا نتصور أن مُحَمّد ﷺ يوجب على نفسه الاستعاذة بالله، أو يذكر وحدانية الله؟ أو نحملها على الصناعة اللغوية وتحسين الكلام وجعله أكثر بلاغة وأكثر تأكيداً، كما هو حال بقية الادباء والبلغاء، ألا يستفيد هؤلاء البلغاء من الاستفهام الاستنكاري، أو الإخبار الإنشائي، وقد وصل إلينا من علماء الشيعة "إن القرآن نزل بإياك اعني واسمعي يا جارة "[1]، ألم يخاطب مولانا نفسه بخطاب مهيب حيث يقول:

تحدث بحديث جديد وجددّ العالميَن   و ترك العالم المحدود وجعله بلا حدود[2]

ألم يكن بإمكان للنبي أن يقول للناس مباشرة " استعيذوا بالله رب الفلق "

إذن "قُلْ " واضحة في أنها نتاج الضمير الخلاّق للنبي وروحه العارفة بالأسرار، بل هي لغة حال النبي بلا تكلّف وتعسّف ومن دون مقدمات الرسالة والسلطان والخطيب والمخاطب.

ومنه يفهم بوضوح الآيات السبع من سورة الحمد، ومُن هو القائل " إِيَّاكَ نَعْبُد وإِيَّاكَ نَستَعِين " هل هو الله أو النبي؟

و بقية الأدعية في القرآن من هذا النوع.

طبعاً هذه الروح متعلقة ومستغرقة في الحق، ولذا عندما يتحدث النبي بمعنى ان الله هو المتحدث، وحينما يتكلم الله يعنى انه هو المتكلّم. كما في حكاية ذاك العاشق عندما يُسأل هل تحبني أكثر أو أنت؟.

(1) الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ج١ المقدمة الرابعة ص٣٠

(2) ديوان شمس، الغزل ٥٤٦

يقول مولانا:

قلـــــت انا فـــــانٍ فيـــــك　　مـــــن رأســـــي إلى قَـــــدَمِ[1]

لا بد من توجيه الشكر للعرفاء على كشفهم سر الاتصال اللطيف بين العبد والمعبود والذي بدوره احدث شرخاً في العلاقة بين الرسول والسلطان، وفي لحظات الرؤيا الأصيلة حيث تشتاق روح محمد للسجود في محضر المعبود، ولا وجود للملائكة في هذا الطريق. لغته لغة الحق ودعائه دعاء الحق:

هـــــذا دعـــــاء الآخـــــرين　　لـــــيس دعـــــاء بـــــل دواء

هــذا دعــاء الحــق لأنــه الفنــاء　　هــذا الـدعاء والإجابـة مـن الإلـه[2]

إن كان جلال الدين يتمكن من الفناء في شمس التبريزي بدرجة يصعب تمييز بين قائل الشعر والمخاطب به، فكيف يكون مكان محمد من الله الذي هو أكثر التصاقاً وطراوة وقوّة بألف مرة.

---

(1) المولوي، المثنوي، الدفتر الخامس، البيت ٢٠٢٢

(2) المثنوي، الدفتر الثالث، الأبيات ٢٢١٩-٢٢٢٠

الرجوع إلى الآيات ولغة الحال

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾

بلغة واضحة، اللغة هنا لسان الحال والفؤاد، وليست لسان المقال والكلام.

وعمدة خطأ المعترضين ناشئ من عدم التفرقة بين اللغتين، لغة اليقظة والرؤيا، ولغة الحال والمقال.

لغة الفؤاد قسم من أقسام لغة الرؤيا، اما المنزلة المعرفية ومكان الرؤيا فهما أمران مختلفان.

لغة الحال والفؤاد عند الأدباء هي صناعة لا تخلو من العمدية والتكلّف، لكنها في الرؤى والأحلام خالية عن التصنّع والتكلّف، فالمشاهد والممثلين والمتكلمين يظهرون صامتون إلا أنهم يعطون صوتهم لناظر واحد هو يسمع ويبصر ويشم ويتذوق بالنيابة عنهم.

المحاورة بين الشمع والفراشة في شعر پروين اعتصامي من نوع لغة الحال أيضاً، وكذلك القطرة والبحر في شعر سعدي، وورومي وإقبال في الرسالة الخالدة، ومعاوية والشيطان في المثنوي لمولانا، كلها من جنس الحال لا المقال.

و لو كان لممثلي هذه القصص لغة يتكلمون بها ولسان وشفتان لنطقوا بمثل ما قيل في تلك القصص[1].

القرآن نص ادبي ومضمون آياته من جنس لغة الحال قطعاً، والإبداع في نظرية الأحلام النبوية يكمن في تعميم لغة الحال للآيات التي لم يُكشف عن ألغازها بعدُ،

---

(1) تعجبني أبيات غزلية لإبن الفارض، وهو شاعر مصري حينما ينشدها المنشد بلسان الحال:

ولقد خَلَوْتُ مع الحَبيب وبَيْنَنَا   سِرٌّ أرَقّ مِنَ النسيمِ إذا سرى
وأباحَ طَرْفِي نَظْرَةً أمّلْتُها   فَغَدَوْتُ معروفاً وكُنْتُ مُنَكّرا
فَدُهِشْتُ بينَ جمالِهِ وجَلالِهِ   وغدا لسانُ الحال عنّي مُخْبِراً
لو أن كل الحسن يكمل صورةً   وراه كان مهلّلاً ومكبرا

ومنها محاورات أهل الجنة واهل النار، تلك الجنة والنار اللتان لم تقوما بعدُ، وأولئك الّذين تحرق لحومهم ثم يعودوا ثانية أي فسحة تبقى لهم ليجلسوا مع أهل الجنة ويفتحوا قلوبهم للحوار ويقولوا لهم إنما جئنا هنا لأننا ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [1]

أبو حامد الغزالي أورد كلاماً في إحياء علوم الدين يقول فيه بأن المقرّبين من الله هم من يحصلون على الأسرار التي يحرم منها أكثر الناس، ولايجوز لهم كشف تلك الأسرار، وهم على خمسة أقسام: ....، الخامس هم أهل الحال، وهناك مَن يكتفي بالظاهر وهؤلاء أهل المقال، وفي حالة ان شخص يتحصل ببصيرته على سر من الأسرار يكون مثل قول الحائط للمسمار لِمَ تدقني، والمسمار يقول أسأل الذي يدق على رأسي.

ومن هذا القبيل أيضاً قول الله ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[2] فأي شخص بصير يرى ان هذه اللغة هي لغة الحال التي تُخبر عن أمرين اثنين للأله، وكذلك قول الله ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [3].

و هل ان شخصاً سليم الفكر يعتقد ان الجمادات تمتلك الحياة والنطق والعقل ... وهنا افراط وتفريط لتصل النوبة إلى القول ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾[4]، ومكالمات منكر ونكير والميزان والحساب، ومناظرات أهل جهنم والجنة ... كلها بلغة الحال، وهناك من سلك طريق الغلو المعكوس مثل أحمد بن حنبل الذي رفض تأويل " كن فيكون " وكأنها نزلت بالحرف والصوت[5].

---

(1) المدثر: ٤٣-٤٥

(2) فصلت: ١١

(3) يس: ٨٢

(4) يس: ٦٥

(5) إحياء علوم الدين، ترتيب درجات الاعتقاد، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٣، ج١ص١٠١-١٠٣

كذلك قصة الحائط والمسمار المتقدمة، والتي اوردها مولانا في الدفتر الخامس من المثنوي.

أبو حامد الغزالي في رسالة صغيرة كتبها بالفارسية يذكر فيها كلام الله مع ذرية آدم في يوم " ألستُ " وقولهم " بلى" ويرى انها كانت بلغة الحال، وبهذا الأسلوب ستحل كثير من المحذورات والمحالات، يقول الغزالي:

" التصديق بالمعنى الثالث ... وإن " بلى"كانت بلسان الحال ... وكما يقول السيف ها أنا ذا فأني قاطعٌ "[1]

الغزالي كعادته محتاطاً ووجلاً اخرج بعض تلك الحوارات من دائرة لسان الحال وادخلها في دائرة لغة المقال، من دون دليل يُذكر، لكنه اعترف ونبّه على أنها سَيرٌ على أطراف جادة زلقة، والإفراط والتفريط هنا صعب عسير.

حينما نقرأ هذه الآية **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾**[2] فإن من المسلمات في الأمر الإلهي لا يكون امراً واقعياً وجائزاً، بل هو واجبٌ لكنه من جنس الاستعارة ولغة الحال، وكأن لسان حال الله ان يأمر المعدومات فيصرن موجودات، إن كان الأمر كذلك فلماذا لا يكون أمر الله للملائكة من السجود لآدم من هذا القبيل؟

وهنا لا فرق في لسان الحال بين الكائنات الحية والجمادات ؛ لأن لسان الحال معناه الموقع المناسب، ويعنى في المشاهدة المنامية والعرض الإلهي هكذا قال الله وهكذا اجاب الملائكة والشيطان.

مولانا جلال الدين في قصة معاوية والشيطان بهذه الطريقة رسم الحوار على لسان حال الممثلين [3].

---

(1) نصر الله پورجوادي، عهد ألستُ، نشر فرهنگ معاصر، ١٣٩٣ هـ ش، ص ٣٤٢-٣٤٧

(2) يس:٨٢

(3) المثنوي، الدفتر الثاني، البيت٢٦٤٩.

الآيات التي تُخبر النبي بـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ، أو لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، أو وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، أو فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ، وأمثال هذه الآيات التي هي رأس مال المعترضين ستغطى بنظرية الأحلام النبوية، ويكون تفسيرها بأسلوب الرؤى والأحلام وأنها تحكي حال النبي أو الإله، وغير ذلك لا يكون للمعنى نوع من التناسب والانسجام، ولابد من التسليم لهذه الطريقة من التعبير ليستقيم التأويل المتبنى من قبل القدماء.

صاحب هذه النظرية لم يستند إلى آيات القرآن وشواهد النصوص والدواخل الدينية لتحكيم نظريته لئلا يقابل بنصوص معارضة، لكن كشف أسرار الآيات الصعبة بمعانٍ شفافة هو الطريق للفهم، وهو الداعم والمدلل للنظرية، وبلغة واحدة تغطي خلق وتأليف القرآن وهي لغة الرؤى.

حقيقة الأسباب والمسببات:

أرى لزاماً علي تحليل وتفسير الآيات للمعترضين وبشيء يسير من كثير مما لم أقله، لأن فيه إزالة لسُحُب الاحتجاج، وخلق فوهة صغيرة في جدار الإنكار لنفاذ شعاع شمس الحقيقة.

هناك أمران لا بد من التفريق بينهما:

١- النسبة بيننا وبين القرآن.

٢- النسبة بين النبي والقرآن.

التجربة النبوية صادرة من الينبوع الإلهي الجاري بلا واسطة وبلا أسباب، فالرياح هو من يسيّرها، والأمطار هو منزلها، والفراعنة هو من أغرقهم، وهو من ألان الحديد لداود، وهو من يقبض الأرواح، والمسلمون هو من ينصرهم في الحرب، ويقرّ في الأرحام ما يشاء، الإيمان والهداية والظلالة بإذنه وإرادته،، وهو من ينزل الكتاب، وهو من ينشئ الأشجار، والحديد والميزان هو من ينزلهم ....

النبي عليه السلام وكُحُل التوحيد في عينه يرى من خلال تجربته أن كل الحوادث سهم الله فيها واقع، ودور الله في تلك الوقائع من دون حجاب وبلا وسائط، أما نحن فشراب الوحي بالنسبة الينا ليس من الساقي الأزلي بل من الساقي العصري وهو محمد المصطفى، ونسبتنا إلى ظاهرة الوحي لها لون آخر، هو الأمير ونحن أسرى الأسباب والوسائط، وهو يرى من دون حجاب، ونحن نرى من وراء الأسباب والحجب.

لغة الرؤيا لغة تجربة النبي بلا وسائط، لكن لا دراك وفهم وتعبير تلك الرؤى تأتي الوسائط، ومن لم ير سوى الله يقول هو من ألان الحديد، وعندما تضع الحديد في النار تجد النار هي من يلين الحديد، وإذا كانت آلاف الجينات هي من يشكّل صورة الجنين فالعارف الإلهي يرى ان الله هو من يصوّر الجنين لا غير، وهنا البصيرة والشعور تتغلب على العلم والمعرفة واللاصورة تطغي على الصورة، والغيَرية الإلهية تحرق الغير.

وإذا كانت الأمطار تنزل والأشجار تغرس بفعل مباشر من الباري في الرؤيا فإنها في عالم اليقظة تجري ضمن سلسلة الأسباب والعلل، وحينما نقرأ ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ**﴾[1] نستقبلها بشيء من العجب ولم نتحصّل على نتيجة كون السيل يأتي من دون مقدمات وأوامر من الطبيعة ليتسبب في هلاك قوم سبأ، فلابد من قرائتها على أن سيل العِرم قد أتى على مزارعهم على أثر العلل الطبيعية، وإن كانت تلك العلل مفقودة في الرؤيا.

أو ﴿**فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ**﴾[2] لابد من قرائتها هكذا: الفراعنة غرقوا في اليم.

أو ﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ**﴾[3] تقرأ: الامطار هطلت من السماء.

وهكذا بقية الآيات تنسب إلى الحوادث ...

---

(1) سبأ: ١٦

(2) الاعراف:١٣٦

(3) الحجر:٢٢

وبقاعدة كلية نقول: كل آية تنسب الحادثة إلى الله مباشرة لا بد من قراءتها على صيغة المبني للمجهول، ونبحث عن الأسباب والعلل، ونضع يد الله في طول العلل الطبيعية لا في عرضها كما يقول الفلاسفة، ولا نذهب وراء التخيلات ونقول الحديد أصبح كالعجينة بيد داود على سبيل المثال، كما ورد في الأساطير، أو نذهب إلى القول بأن هلاك شخصا من دون سبباً أو علّة وننسب هلاكه إلى الله مباشرة، أو حديثا ننسبه إلى فم الله دون واسطة، وإنزال الكتب وإرسال الرسل من هذا القبيل أيضاً، بمعنى نسبته إلى الله بفعل مباشر ومن دون الاسباب.

مثلا: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ معناه: أن الآيات في هذه الليلة كانت تغلي في ضمير النبي بأسبابها وعللها.

و﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ معناه: أن الرسل جاءوا بحسب مقتضيات الشروط الاجتماعية والتاريخية والطبيعية لذلك المقطع الزماني.

جريان السيل ونزول المطر معلولات لعلل طبيعية لكنها في الرؤيا تنسب مباشرة إلى الله، وكذلك شعاع الآيات في ضمير النبي معلول لعلل كثيرة وشخص النبي هو الأقرب العلل، وهذا هو معنى أن النبي فاعل في الظاهرة المعقدة لوحي الرؤيا.

وسلام على العارف لهذه الدقيقة.

عبد الكريم سروش

تموز ٢٠١٨

مواجهة مع الرؤيا (١)
حوار مع عبد الكريم سروش
حول قراءة حسين واله

أفسانه فرامرزي... موقع زيتون

في العام الماضي وبعد مرور سنوات ثلاث على انتشار سلسة مقالات " محمد راوي الأحلام النبوية " على الموقع الإلكتروني " جرس"، عُرضت فرضية الأحلام النبوية في الإعلام من خلال المقابلة التي أجراها برنامج "پرگار " بين عبد الكريم سروش وعبد العلي بازرگان.

لم تواجه الفرضية في فترة نشرها إلا ردود أفعال محدودة، لكنها أصبحت فيما بعد معركة آراء انبرى بعض المفكرين للدفاع عنها في مقابل الأكثرية جابهوها بالنقد والرد.

في هذه السلسلة من الحوارات مع عبد الكريم سروش ومن خلال تبويب لتلك الاعتراضات ستكون الفرصة لصاحب الفرضية سانحة للدفاع عن فرضيته بشيء من الوضوح.

في القسم الأول ومن خلال مراجعة لنظريات عبد الكريم سروش السابقة ومحاولة التوفيق من قبل المفكر الديني الأصيل بين فرضية الأحلام النبوية ونظريات "القبض والبسط" و" التجربة النبوية " وهل هناك تضاد بينهما أو لا؟

وفي هذا القسم أيضاً سنستعرض قراءة حسين واله لهذه الفرضية واستبيان صاحب الفرضية.

في الأقسام الأخرى من هذه السلسلة من الحوار ستخصص لبقية الاعتراضات.

* * *

أشكركم على هذه الفرصة للحوار حول الأحلام النبوية.

وقبل الدخول في الأحلام النبوية أوَدُّ أن أطرح أسئلة حول آراءك قبل الأحلام النبوية لعلها تساعد في فهم النظرية.

ولتكن البداية من القبض والبسط.

يعتقد البعض أن آثار گادامر وشلاير ماخر ولاكاتوش وكواين وپاپر يمكن مشاهدتها في النظرية، برأيك أي واحد من هؤلاء قد استفدت منهم؟

بسم الله ...

وأنا أيضاً اشكركم وسعيد أن ندخل في هذا البحث.

الأبحاث والاعتراضات لها دور مساعد في ترشيد هذه النظرية.

هناك مطلب اعرضه بخدمتكم ثم بعد ذلك نصل إلى اعتراضات السادة الأجلاء.

الاستفادة من آراء الآخرين أمر لا إشكال فيه إذا لم تصل الحالة إلى انتحال الرأي، وبعبارة أوضح أن لا تصل إلى السرقات العلمية، لكن آرائي في مجال المعرفة الدينية وما يتعلق بها كانت بعيدة عن آراء الغربيين، يعني أنا لم أقرأ آراء كادامير[1] وشلايرماخر[2] ليس في ذاك الزمان بل وحتى اليوم ؛ بمعنى أني لم أقرأها بشكل صحيح، نعم بعد القبض والبسط، وبسط التجربة النبوية قرأت لكادمير وشلاير ماخر، وشيئاً من اسبينوزا[3]، وبعد نظرية الأحلام قرأت كتابه بدقة، وشيئاً مختصراً عن كادامير وشلاير لمعرفة لُبّ كلامهم.

---

(1) Hans Georg Gadamer (1900-2002)
(2) Friedrich schleiermacher (1758-1834)
(3) Baruch spinoza (1632-1677)

أما التشابه الحاصل بيننا ليس عجيباً، حينما يتوصل الإنسان إلى مقدمات خاصة في معرفة خاصة ويواجه ما واجهه الآخرون يعمل ذهنه على إيجاد حلّ قد يشابه ما توصل إليه الآخر، وهذا التشابه لا يكون بالضرورة متطابقًا بنسبة مائة بالمائة.

ولو نظرنا إلى التشابه بذات الدرجة مع الاختلاف لوجدنا الخلاف مبهر أيضاً.

حينما أقرأ لمولانا جلال الدين اراه متشابهاً مع خطاب هايدكر[1]؛ لدرجة تجعلني أفكر أحيانا في الاستغناء عن هايدكر مع وجود مولانا، إذ لم يعد هناك شيئاً مهماً قد تحدث به ولم يقله جلال الدين. وفي الوقت ذاته لا يمكن اتهام هايدكر بإنتحال كلاماً قد قاله مولانا من قبل، وهذا النوع من توارد الأفكار وتداعيها لم يعد نادراً في التاريخ أو غير ممكن التحقق والوقوع.

عند المراجعة لمقالة " قانون بقاء الطاقة " لتوماس كوهن[2] تجد ان عدد من الفيزيائيين في انحاء أوروبا قد توصلوا إلى ذلك القانون، رغم انهم معاصرون وعاشوا في حقبة واحدة من القرن التاسع عشر.

و لابد من الالتفات إلى أن كل شخص قرأ لي وكان على معرفة بكادامر يحسبني كاداميري، أو كان على معرفة بإسبنوزا يحسبني سبانوزي، ويعتبرونني مديناً لهذا أو ذاك.

والطريف أن لا احداً ينسبني إلى كواين[3]؛ لأنه غير معروف على نطاق واسع، وما يدريك لعل ماركس وانجلس يؤتى بهما إلى الميدان لمقتضيات الحال ويحسبونني ماركسياً أو إنجلسياً.

مراد فراهادپور كتب في مكان ما:ان فلاناً يكرر مقولة بارث[4] وتيلش[5]!

وقد كتبت في جوابه: أن من الواضح لدي وضوح الشمس أنك لم تقرأ لبارث ولم تقرأ القبض والبسط، وإلا كيف تدعى أمراً لا أساس له.

---

(1) Martin Heidegger (1889-1976)
(2) Thomas Kuhn (1922-1996)
(3) Willard Van Orman Quine (1908-2000)
(4) Karl Barth (1886-1968)
(5) Paul Tillich (1886-1965)

رضا داوري أردكاني سمع اسم بوبر[1] في القبض والبسط فقط فحسبني بوبري ... وهلم جرا.

طبعاً أنا مبتهج وفخور أن أكون قريباً من هؤلاء العظماء في عالم الفكر، رغم ان الحاذقين يعلمون الفارق الكبير بيننا، وهؤلاء الذين يحكمون على الظاهر في عالم المعرفة هم الظاهريون.

وبدون مبالغة وتفاخر أقول: حينما أخلو مع نفسي أرى أن التجربة التنويرية في أوربا – أعني التجربة الدينية – تجربة حياتية بالنسبة لي، بمعنى أن السجل الحافل للمتنورين تفتح الآفاق في وجودي، وتجعل المسار إلى اوصلني إلى ما أنا عليه الآن مسيراً منطقياً.

ولذا ليس عجباً أن تكون هناك توارداً وتشابهاً في الأفكار، وهذا التشابه ليس مدعاةً للأسف والتعجب بل هو أمر مفرح، واتفهّم بكل وجودي السبب في وصول السير الفكري إلى ما وصل اليه.

وبالمناسبة هناك كلاما كُتِب بلغة سامة بعد انتشار القبض والبسط من قبل حسين غفاري في كتاب" الشريعة الصامتة " حيث قال: " أن القبض والبسط خلاصة لكل الضلال الفكري الغربي ".

أما في ما يتعلق بالمفكرين الآخرين الذين أدرجتِ اسمائهم، فالمشابهة أراها أمر بديهي ؛ لأنني درست فلسفة العلم وكنت على إطلاع ب " بوبر و"كواين "، وقبل أن أقرأ لـ "كواين " – قرأت له فيما بعد — وتوصلت إلى نتيجة بعد تأملٍ: ان النقطة في بحر المعرفة لو حصل فيها نوع تموّج فإن هذا الموج سيسري في كل مكان.

هذه نتيجة تأملاتي في تأريخ العلوم التجريبية، والتي أخذت ثمرة طويلة من حياتي، هذا الترابط قد أدركته منذ البدء، ثم في مواضع من القبض والبسط استمدت العون من المولوي جلال الدين.

---

(1) karl popper (1902-1994)

بعدها تنبّهت إلى أن كلام مولانا يشابه ما طرحه كواين، وطبعاً لا يخفى ان ادلتي مختلفة مع أدلة كواين لكن النتيجة واحدة.

بوبر ...

فيما يتعلق ببوبر فأني درست فلسفة العلم وأخذت منه معيار النقض وطريقة الفرضية الاستنتاجية، ولا اخفي ذلك.

وفي الجملة فإن بحثي في القبض والبسط كان بحثاً حول فلسفة المعرفة الدينية قياساً على المعرفة التجريبية، ولذا تجد فلسفة العلم حاضرة في البحث على عكس قضاء بوبرض حيث يندر وجوده.

مَثَلي الاعلى في هذا المورد الخاص هو علم التأريخ، والملهُم لي هو تأريخ العلم، وهذه النقطة خافيةٌ عن اعين الناقدين، وهي كيفية نشوء المعرفة الدينية من الدين ثم الاستقلالية عن بقية المعارف والتأثر بها وتطورها التاريخي، وقافلة الفهم هذه تتحرك بحركة واحدة، هذه النقطة بالذات كانت لدي من أهم المسائل.

في البدء كانت فكرتي في القبض والبسط الابداع والتعريف بالمعرفة الدينية التي هي ذات الدين عند الفهم الجمعي المتعارف عليه، وجعل المعرفة الدينية كحال بقية العلوم المبهرة، ثم اخضاعها للفلسفة وتاريخ العلم، وأيّاً من هذه المناهج غير موجودة عند كادامر وشلايرماخر، نعم هي موجودة عندهم بطريقة أخرى وهي فهم النصوص.

كانت[1]

طبعاً كانت فيلسوف نقدي، وبمعنى آخر هو فيلسوف علم، رغم انه غير معروف بهذا العنوان، ومطالعاتي الشخصية عن فلسفة هيوم غير متوفرة، رغم اني درستها في جامعة لندن، وامر طبيعي يكون لدي اطلاع على فلسفته.

و من الطبيعي أيضاً ل "كانت "كفيلسوف ان يترك اثره على شخص يتنفس الفلسفة وقد قضى وطراً في الفلسفة الأوربية والفلسفة التحليلية، اذا ما قيست المسألة

---

(1) Immanuel Kant (1724-1804)

بشخص كحداد عادل[1] الذي يعتبر التمايز بين الدين والمعرفة الدينية من جنس التفرقة بين نومن وفنومن[2] في فلسفة كانت، وهذه من الغرائب.

والعجيب من المعترضين لا يذكرون اسم ويتغنشتاين[3] وهو من جملة الفلاسفة الذين كنّا ندرس مناهجهم، وكنت مطّلعاً على أفكاره ونظرياته ومغرم ببعضها ؛ مثلاً في مواضع التلاعب بالعلم كنت أتكلم بصبغة ويتغنشتاية.

لاكاتوش[4]

فيما يتعلق بلاكاتوش: نعم أنا على اطلاع علمي دقيق ومباشر معه، وابحاثه كانت ضمن المقرر الدرسي في قسم فلسفة العلم. كنّا نقرأ آثاره ونرى التحول الفكري في آراء بوبر رغم الوفاء له، وكما نعلم فإن التحوّل الذي اوجده هو: عدم إمكانية تشكّل نظريات لا تقبل النقض، بل ان فوائد المرجوة من البرامج التحقيقية أمر مقبول وصعب الإبطال.

ثم بعد ان كتبت نظرية القبض والبسط عثرت على آثار ايان بربور[5] مؤلف كتاب العلم والدين - بترجمة ممتازة للسيد خرمشاهي - تلك الاثار هي الافضل في هذا المضمار، وهي النسبة بين العلم والدين، وهي من أفضل الاعمال التي انجزت في اميركا وحصدت على جوائز أيضاً.

(1) غلام علي حدّاد عادل، ولد في طهران عام ١٩٤٥، سياسي واستاذ جامعي في مجال الفيزياء والفلسفة، عضو سابق في البرلمان الإيراني، رشح لرئاسة الجمهورية في انتخابات ٢٠١٣ ثم انسحب لصالح الراديكاليين، من المقربين للمرشد خامنئي وتربطه به علاقات عائلية عن طريق ابنته التي تزوجها مجتبى خامنئي الابن الاكبر للمرشد

(2) نومن: الشيء الذي لا يمكن ادراكه عن طريق التجربة

فنومن: الشيء الظاهر الذي يمكن ادراكه واحساسه عن طريق التجربة.

يعتقد كانت ان الذهن وحده قابل لتشخيص الظواهر ومعرفة ظاهرة فنومن، بخلاف نومن حيث لا يمكن للذهن من إدراكه.

(3) Ludwig Wittgenstein(1889-1951

(4) Imre Lakatos (1922-1974)

(5) Ian Barbour (1923-2013)

وبعد المطالعة لهذه الاثار وجدت في اطروحة لاكاتوش هي الافضل في مجال الدين، يعن الاخذ بنظر الاعتبار الوجود الصعب في الدين وصمام الامان وامور أخرى.

لكني في ذات الوقت لم استفد اصلاً من لاكاتوش في القبض والبسط، بمعنى ان القبض والبسط لم يكن لاكاتوشياً. وما استطيع قوله حالياً:ان اطروحة لاكاتوش تعجبني كثيراً، وأعتقد انها الافضل في مجال البحث الديني من خارج الدين أو بما تعرف بالمعرفة البشرية.

ولابد من إضافة شيء هنا، ليس تفاخرا. لكني اقول هناك الكثير من النقاط تجاوزتها ولم اتعرض لها في القبض والبسط لأن إبطالها صار واضحاً لي، ولعلى أشير اليها فيما بعد.

بما ان الحديث انجر إلى انعكاس آراء بعض المفكرين على آثاركم، اسمح لي بالسؤال عن أسبينوزا [1]، طبعا فيما يتعلق بالأحلام النبوية.

السيد سروش الدباغ في حواشي على مقالتك " اسبينوزا.. الوحي والنص المقدس "كُتِبَ في احدى الحواشي " الرؤيا الوحيانية عند سروش فيها لون ظاهر من طنين اسبينوزي ".

هذا المطلب فيه دلالة على أن في الأحلام النبوية هناك رؤية اسبينوزية؟

نعم شاهدت في كلمات السيد الشبستري[2] انه يقول: ان الرؤى بحاجة إلى التعبير، ولذا كلام فلان القائل بتعبير القرآن ليس فيه ابداعٌ.

خلاصة القول: أن اسبينوزا في رسالة " الاهوت والسياسة " تعرّض فيها إلى نقاط جذابة منها:

١ - إحدى الأسفار الخمسة من التوراة ليست وحياً أو من إنشاء موسى لأنها تتعرض إلى موت موسى.

---

(1) Baruch Spinoza (1632-1677

(2) محمد مجتهد شبستري، ولد في شبستر عام ١٩٣٦، فقيه وفيلسوف ايراني، الرئيس الاسبق للمركز الإسلامي في هامبورغ، واول من ادخل التحليل الهرمونيطيقي في الادبيات الدينية.

٢- قوة الخيال عند الأنبياء قوية جدا ويمكن لها أن تنشئ صوراً خيالية من الأمور العقلية، وعلى حدّ تعبيره: ان قوة النبوة في قوة التخيّل وليس في قوة الفكر.

٣-أن الأنبياء يسمعون صدى الله في خيالهم، كما أن المسيح كان يكلّم الله في حضرته.

٤-هذا الذي يتحدث به الأنبياء حول الله أكثره إخبار من عند انفسهم.

٥- الأنبياء يتحصلون على الطريقة الإلهية الخاصة في الطرح والكتابة وبحسب قوتهم في الأدب والفصاحة.

٦-الوحي يصطبغ بالصبغة الثقافية الذهنية والعينية للانبياء.

٧- النص المقدس عرضة للخطأ ... وهكذا

كل هذه النقاط موجودة ...

لكن كون الوحي سمعي وبصري كما هو مدعى نظرية الأحلام فغير موجود. سوى في قصة التصورات الخيالية كما عند الفارابي وابن سينا وموسى بن ميمون، وفي رؤية الملائكة تُختزَل قصة الوحي ولا شيء غير ذلك، وحتى في هذه المعلومة كان سبينوزا مقلداً لابن ميمون، وطبعا تقبلها المتدينون بقبول حسنٍ.

يضاف إلى ذلك مسألة مهمة كانت غائبة في كلام سبينوزا وهي الحل لمعضلة الكلام الإلهي، وهذه لابد لها من عالم بكلام النبي وكلام الله.

وكذلك مفهوم الرؤيا لم يخطر على ذهنه اصلا وابدا ولم يسرِ على قلمه.

والشيء الآخر هو لغة الوحي وكونها لغة رؤى وبحاجة إلى التعبير، هذا الشيء لا وجود له عند سبينوزا.

في الآونة الأخيرة أقيم في برلين احتفال تكريمي للسيد صادق جلال العظم، وكان أحد المحاضرين شخص اسمه عبد الجبار فالح، وتحدث عن ثلاثة كتب الأكثر تأثيراً في العالم الإسلامي في العشر الأواخر، نظرية القبض والبسط في الشريعة كانت من بين تلك الكتب، وقد تحدّث بإجلال عن هذا الكتاب، وأشار إلى بحث

نظرية المعرفة ومقدماتها. هل اطلعت على هذا التكريم، وهل ترجم القبض والبسط إلى الإنجليزية؟ أو أنه اطلّع على الترجمة العربية؟

نعم، هذا السمينار عُقد في برلين في فبراير ٢٠١٧، وهناك تحدث السيدان عزيز العظمة وفالح البغدادي، والسيد صادق جلال العظم كان احد ثلاثة ممن حصلوا على جائزة اراسموس في أمستردام سنة ٢٠٠٥، وكانت المرة الأولى التي اراه فيها، وكانت السيدة مرنيسي شريكة معنا في الجائزة، وكذلك السيد عابد الجابري رأيته هناك أيضاً، وكان ممن اشترك في احدى محاضراتي في مراكش.

الآن عندما انظر حولي ارى ان الجميع قد رحلوا استذكر أبيات سعدي:

أصـــدقاء الســـفر كـــل واحـــد في طـــرف أقصـــى

ســـواي وقـــد علقـــت ثيـــابي بغصـــن أم غـــيلانِ

الجدير بالذكر أن السيد جلال العظم ماركسي سوري لكنه في السنوات الاخيرة أصبح أكثر هدوءً، كان يقيم في المانيا لسنوات طويلة، وقبل أكثر من خمسين عاماً كتب كتابا عنوانه " نقد الفكر الديني "، رأيت هذا الكتاب عند برفسور متخصص في الفكر الإسلامي وقرأته هناك، كان هذا قبل أكثر من عشرين عاماً، لم يكن كتاباً جذاباً إذا ما قيس بالكتب الكثيرة التي ألفت في مجال النقد الديني خصوصا في أوربا – مثل كتاب جوهر المسيحية ل " فوير باخ " الذي درّسته في كلية الإلهيات.

نقد الفكر الديني جلال العظم عمل ضجة في الدول العربية خصوصاً في سوريا ولبنان، للحد الذي وصل إلى المطالبة بإعدام جلال العظم، لكنهم اكتفوا بسجنه لإيام ثم اطلقوا سراحه، ومن هنا ذاع صيته واكتسب شهرة كبيرة مكّنته من الاستمرار في عمله، والّف عدة كتب حول النكسة وهزيمة العرب امام اسرائيل عام ١٩٦٧، ويمكن القول انه غادر الفلسفة واتجه نحو السياسة والثقافة، كان متخصصاً في فلسفة كانت، وقد اشتركت معه لمرتين في حوار في المانيا وهولندا وحصلت فيهما نوع من المشادّة بيننا، كان رجلاً جدلياً، ويحاول انتزاع الكلام من الطرف المقابل ويقرع به على رأسه.

توفي عام ٢٠١٦ وأقيمت له مراسم التوديع والتجليل.

في ذلك المؤتمر الذي ذكرتيه ... نعم تكلم فيه السيد فالح وكان عجيباً بالنسبة لي ان يُعرض القبض والبسط من بين الكتب الثلاثة، ويبدو انه قد قرأ الكتب بالعربية وكان مطّلعا على ابحاثه ؛ مثل التفكيك بين الدين والمعرفة الدينية، وحاجة المعرفة الدينية إلى العلوم البشرية، وكذلك المقدمات التي تحتاجها المعرفة الدينية المأخوذة من خارج تلك المعرفة.

السيد فالح كان عالماً بالرسالة السياسية المراد ايصالها من خلال الكتاب، حيث قال: إن المؤلف يريد أن يقول لرجال الدين انتم لا تمتلكون الصلاحية لفهم الدين ؛ لأنكم لا تمتلكون المقدمات اللازمة، وما تمتلكونه من مقدمات غير منقّحة.

و خلال كلامه ابدى اسفه لسوء الفهم الحاصل بين صادق العظم وعبد الكريم سروش.

وكان يعتقد ان نظرية القبض والبسط تستطيع ان تفتح طرقاً نوعية للعلمانية في ايران.

ومن ضمن ما أكده أيضاً ان صادق العظم لا يعلم فلسفة العلم على خلاف سروش العالم بفلسفة العلم. بمعنى انه ملتفتٌ إلى أن نظرية القبض والبسط شيء من فلسفة المعرفة الدينية وليست من الدين، وانها في بالدرجة الثانية شيء يتعلق بفلسفة العلم.

هل تعتقد أن الأحلام النبوية مصداق من مصاديق نظرية القبض والبسط، وفي جوابك على احد الناقدين قلت: " بأن هذا المعترض المحترم سيرجعنا إلى ما قبل القبض والبسط"

والسؤال هو أنك مازلت متمسكاً بكليات نظرية القبض والبسط؟

من جانب آخر يلاحظ أن كلام محمد الذي هو محور الأحلام النبوية ينفي أو يلغي النص المحوري للقبض والبسط، أليس كذلك؟

طبعاً بعض أبحاث القبض والبسط قد تجاوزتها بالفعل كما سأبيّن لاحقاً، أما أصول القبض والبسط لا زالت سنداً تتكئ عليه نظرياتي القادمة، وهذا لا يعني ان نظرياتي اللاحقة ناقضة لسابقتها.

قلت في القبض والبسط: لأجل فهم النص الديني لابد من مقدمات ذات أنواع مختلفة ومراتب متعددة، تبتدئ من أعلى المراتب، تلك التي لا يمكن اجتنابها وجودا، ولا يمكن ان تخطو خطوة إلى الأمام من دونها، خصوصا تلك المقدمات المرتبطة باللغة، ووصولاً إلى المقدمات التي يمكن اجتنابها، كالمقدمات التي تُعد من جنس البديهيات التي لا يمكن اجتنابها عملياً، لكن من المحتمل اجتنابها نظرياً، لكنها في المجال العملي لم يتمكن أدق المحققين من محويها من أذهانهم.

مثلا: الكلام المشتمل على الاستعارة أو لا، هذا من المقدمات التي لا يمكن اجتنابها.

إما إن لغة القرآن لغة عرفية أو لا، أو ان النبي مفهوم اسمي أو واقعي هذه ليست من البديهيات، وإنما هي محل للكلام، وهذه المقدمات التي يمكن ان يقال عنها ان الذهن يتمكن من محوها، ان صحّت في موارد المقدمات التي يمكن اجتنابها، وليس في المقدمات التي لا يمكن اجتنابها، التي هي تقريبا ذات مفهوم كانتي وبدونها لا يتيسر الفهم.

أنا لازلت متمسكاً بهذه الأصول.

النقطة المهمة الأخرى في بسط التجربة النبوية هناك مجموعة من المقدمات التي أقررتها لكني لم أضع اليد عليها ضمن اطر وأسس القبض والبسط، وقلت هناك – على سبيل المثال – ان النبي يصبح أكثر نبوية، أو أن كلام الله هو ذاته كلام محمد، هذه المقدمات تأتي أيضاً ضمن أُطر القبض والبسط.

هؤلاء يقولون انك تقول: حينما نقرأ القرآن نعلم انه كلام بشر، وهذا بالضبط تعبير آخر عن " إنما انا بشرٌ مثلكم "، طبعاً هذا البشر يختلف عن بقية البشر، لكن يبقى في النهاية بشر.

أو في " أحلام محمد " لا ارى أن لغة القرآن لغة يقظة وإنما أراها لغة أحلام، وفي الواقع هو عرض للمقدمات التي لا يمكن اجتنابها، لأنها داخلة ضمن إطار القبض والبسط بنسبة مائة بالمائة، وهنا اقول للقارئ: اقرأ القرآن وكأن شخصا في حالة بيان رؤياه، على قياس كلام السهروردي إن القرآن لابد من قراءته وكأنه نازل عليك.

و لو أن شخصا لا يتقبل كلام محمّد أو احلامه النبوية له مقدماته أيضاً وهي أن لغة القرآن لغة يقظة، أو مقدمات أخرى وهي أن لغة القرآن كلام الله المباشر. وفي كل الأحوال كلّ له مقدماته، أنا لي مقدماتي والمخالفين لهم مقدماتهم.

وعليه: فخطواتي تسير في وادٍ واحد، وجادة واحدة وهي جادة القبض والبسط، بالضبط كالسيارة التي تتبع مسير واحد تارة تنعطف يميناً واخرى شمالاً، ولا نحيد عن القبض والبسط ونخرج منه، ولا توجد إمكانية لهذا الخروج.

أما أن هناك أشياء أوردتها في القبض والبسط وتجاوزتها لاحقاً ... نعم موجودة، في القبض والبسط كنت أُلاحظ مقدمات الجماعة المؤمنة وهي إن القرآن كلام الله، وفي مواطن من القبض والبسط وردت عبارة " بنظر المؤمنين "، وقد كنت معتقداً بهذه المقدمة في وقتها.

على سبيل المثال كنت أقول: أن رب القرآن هو ربّ الطبيعة وبما أنه كذلك فمن غير الممكن أن يوجد تعارض بين القرآن والفهم العلمي للطبيعة.

أو كلمة الشمس في القرآن لابد أن تحمل على مدلولاتها في العلم الإلهي لأن الله ذكرها بهذا المعنى كأن يقال إنها كرة من الغازات و.... الآن هذا المطلب لم أعد معتقداً به، وما أقوله هو أن الشمس في القرآن شمس منامية وفي رؤيا محمّد ﷺ، وممكن أن لا يكون معناها الشمس الخارجية ...

إذن هناك مقدمات استخدمتها في القبض والبسط عمداً أو سهواً واوجدت ارتباطاً بين كلام الله والقرآن، قد انهارت بالفعل.

على ما أتذكر، كنت قد صرحت في القبض والبسط انك لا تعتقد باستخراج العلوم التجريبية من القرآن؟

نعم هذا الكلام صحيح، ولا في أي وقت من الاوقات كنت معتقداً بهذه الفكرة، ومنذ أن كان عمري ستة عشر عاماً أو سبعة عشر عندما كنت أدرس في ثانوية " علوي" أحد الأساتذة وهو المرحوم رضا روزبه كان يحاول استنتاج مطالب العلوم التجريبية من القرآن فاعترضت عليه، وهذا الشيء لم يكن يستهويني أبداً، ولم أدافع عنه

يوماً ما، وفي القبض والبسط لم يدور في ذهني إن القرآن ينافي العلوم، لكني الآن لا أرى أي إشكال في وجود تلك المنافاة.

في القبض والبسط وفي باب فهم القرآن، كنت تقول: لابد من التفكيك بين مراد المؤلف ومعنى النص.

هل لازلت متمسك بهذه المقولة؟

نعم في مورد التفكيك بين معنى النص ومراد المتكلم لازلت ملتزماً بذلك، وهذا التفكيك يصدق في كل النصوص، سواء كان نصاً دينيا أو غير ديني، ويمكن للمعنى والمراد ان يتداخلا، ويمكن ان لا يتداخلا، وانا من القائلين بموت المؤلف، وهو مطلب توصلت إليه بعد ان رأيت رولان بارت وآخرين ممن يعتقدون به أيضاً[1]

مؤلف النص الذي هو النبي غائب ولا يمكننا الوصول اليه، وعليه لا يتحتم علينا البحث فيما يدور فيه خَلَده، بل الصواب ان نذهب إلى المتن واستنطاق المعنى منه، لأن الوصول إلى مراد المؤلف عمل شاق جداً إن لم نقل باستحالته، سيما وأن العالم بهذا المطلب هو الله فيمكن أن تتوصل لمعنى يخالف مراد المتكلم، وهذه مقتضيات اللغة ولا مهرب منها.

نعم، مؤلف القرآن شخص نعلم باستحالة الوصول إليه، كذلك حافظ والمولوي.

القراءة الراديكالية لموت المؤلف موجودة وهي استحالة الوصول إلى مراد المتكلم، وهناك قراءة أخرى وهي إمكانية الإفهام من متن ما أن يكون مراد المتكلم احدى تلك الإفهام. بأيهما تعتقد؟

مقصدي هو الشق الثاني، لكن ما أريد قوله هو اننا قد نصل إلى مراد المتكلم ولا نعلم انّا وقد وصلنا، بمعنى ان الإفهام المختلفة للمتن يحتمل ان احدهما مطابق لمراد المتكلم ولا نعلم ايّهما، وهذا بحكم اننا لم نصل، ولا اقول بعدمية الوصول ابدا.

---

(1) 1915-1980)(Roland Barthes

في العلم كذلك، فلاسفة العلم يقولون ليس باستطاعتنا معرفة القوانين الصادقة في الطبيعة، وهذا يعني احتمالية الصدق دائماً لقانون من بين تلك القوانين مع الجهل بأيٍ منهم.

ومع ذلك لابد من التعامل معها على أساس انها قد تصبح باطلة يوما ما، وكما يقول الفيض الكاشاني:

قالوا قد تصل يوماً لما تريد قلت: شاهد حسنٌ لعلي قد وصلت(1)

ممكن للإنسان في الوقت ذاته أن يندب ألم الفراق في الوصال وحزنه في ذلك الحجاب " إن سقط فلا أكون أنا ولا أنت تكون "(2).

ولعل يوم القيامة نفهم ما هو مراد المتكلم، وكما ورد في القرآن: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(3)

ومازالت القيامة لم تقم بعدُ.

أفكارك البنيوية في بسط التجربة النبوية حاضرة في الأحلام النبوية. اسمحلي بطرح مجموعة من الاسئلة في هذا الباب.

في بسط التجربة النبوية كنت تتحدث عن الكشف المحمدي التام، بمعنى أن نبي الإسلام كان الخاتم، وهذا يعني أن كشفه تاماً فيما أُنيط إليه، ولا يمكن لأحد تجديده، والسؤال هو:

١- ماذا يعني الكشف المحمدي التام؟

٢- هل هناك ارتباط بين الكشف التام والمهمة الملقاة على عاتق النبي؟

---

(1) حافظ الشيرازي: غزل ٩٠٧

(2) البيت لحافظ الشيرازي، ونسبته إلى الفيض الكاشاني كما جاء في المتن من باب استشهاد الفيض به.

مضمون احدى رباعيات الخيام.

وقريب منه في رباعيات أبو سعيد أبو الخير، رباعية ٥٥٦

(3) السجدة: ٢٥

٣- على القول بالكشف التام للنبي، هل يبقى مجال للتكامل وبسط التجربة النبوية بعد النبي أو لا؟

نعم.. لقد وضعتي اصبعك على نقاط مهمة، وقمتي بجراحة ممتازة ولابد لها من مرهم.

ما ينبغي قوله هنا: اني ومن باب المسامحة نقلت قولاً للعرفاء دون ان اضيف قيداً، مما أدى إلى سوء الفهم، والمقصّر الحقيقي بالطبع هو أنا.

العرفاء وفي مقام بيان خاتمية النبي يقولون: بما أن نبي الإسلام وصل إلى درجة سامقة من الكشف قد سخّر كل آفاق المعرفة الممكنة، ولذا لم يبق مكاناً ليسخّر الاخرين امكاناتهم، بهذا الدليل يُعَد هو الخاتم، بمعنى ان للآخرين فتوحاتهم لكنها تندرج تحت كشفه، و" الخاتم من ختم المراتب بأسرها ".

ما قمت به أني اوردت كلمة " الكشف التام " وما ينبغي لي إيرادها، وهذا ما جلب الوهم وسوء الفهم.

أنتِ تعرفين اني والمرحوم اقبال لاهوري نعتقد بذات الرأي مع توضيح وإضافة لي في هذا الباب، انا أعتقد بالكشف التام، وأصلاً لا تناسب بين علم النبي المحدود والكشف التام، فكل الكشوفات ناقصة ولا وجود للكشف التام، والمفاضلة تقع بين تلك الكشوفات الناقصة وهي مفاضلة صعبة، وليس من السهل القول بوجود أو عدم وجود كشف أفضل من كشف النبي الخاتم.

مضافاً إلى أن الحقيقة ذات الأضلاع المتعددة لا معنى للأفضلية فيها، لأنك تنظر من جانب وينظر الاخرون من جانب آخر، ومع كل هذه التجارب والكشوفات المتنوعة والمعقّدة لا مجال للحديث عن الأفضلية، نعم هناك اقوى وأعف، اما كونه تاماً فلا.

نبي الإسلام إنسان متعالٍ، وعلى درجة عالية من الكمال والبصيرة، ويمكن له كشف البواطن والعوالم الجديدة بالنسبة لنا، كما يمكن لنا في ظل التجارب ان نتحرك ونجلس على سفرته كما يُعبر عنها المتصوفة.

بعبارة واضحة:

بمجي القرآن لا تنتهي كلمات الله، ولا تصل التجارب الدينية الممكنة إلى نهاياتها ... مازالت هناك اسرار وعوالم أخرى لم يكشف عنها، ومولانا جلال للدين وحافظ قالا ما لم يقله الله، فالنبي مثل الشاعر، ولا يمكن القول ابداً بأن حافظ أو المولوي هم أفضل الشعراء، نعم يمكن القول بأنهم وصلوا وافتتحوا قمماً شامخة، ولا وجود للشاعر الأفضل والأعلى، في المقابل يوجد الشاعر الاضعف، حافظ الافضل في نوع الشعر الذي يكتبه، وهكذا سعدي والمولوي ... وهنا أنا معتقد بالكثرة، الكثرة غير قابلة للتحويل إلى الوحدة.

أنا أقول ببسط التجربة النبوية لا الكشف التام، وهذا لا ينافي الخاتمية، والخاتمية تعني خاتمة الوظيفة، ووظيفة النبي ختمت لا التجربة النبوية.

السؤال الثاني: حول بسط التجربة النبوية وله تفريعات، سأطرح السؤال الكلي وأشير إلى تفريعاته.

في مكان ما من مقالة " الذاتي والعرضي في الأديان " تقول:

لاشك أن الإسلام لو نشأ في اليونان سيكون إسلام يوناني وهكذا.. العرضيات داخلة في عمق الطبقات المركزية حتى جعلت من الإسلام العربي شيئا مختلفاً.

هنا تبرز ثلاثة اسئلة:

١- عرضيات الدين متداخلة حتى إلى اعمق طبقات ذاتيات الدين، هل هذا التفكيك بين الذاتي والعرضي ذي فائدة؟ ومن الناحية العملية هل يمكن كشف الذاتيات؟

٢- كيفية ارتباط الذاتي والعرضي؟

٣- لماذا استخدام صيغ الذاتي والعرضي؟ رغم انها صيغ أرسطية موهمة، وحتى في بعض هوامش بسط التجربة النبوية قلت: ليس المراد من الذاتي والعرضي الارسطي؟

فيما يخص الشق الأول من السؤال لابد من القول ان العرضيات داخلة في عمق طبقات الذاتيات ... كان لبيان المبالغة، كنت أريد أن أنبه وأُظهر حجم الجلد الخشن لتلك العرضيات الذي يخفي الكثير من الذاتيات.

أما في مقام التحقيق والتحليل ممكن أن نصل إلى نتيجة ان هذه لا تُعَد من الذاتيات بل هي من العرضيات، بمعنى أنها ذاتيات المظهر، وقصدي أن ما يسمى بالذاتيات قد ذهبت إلى الطبقات الأعمق ولذا لابد من التنبيه إلى انها ليست ذاتيات.

قصة الذاتيات والعرضيات والنسبة بينهما مثل قصة الظن واليقين، فالكثير من العرضيات أصبحت ذاتيات لرسوخها الصعب، وابن سينا يقول في مورد الظن واليقين: إن الظنون المتراكمة نحسبها يقيناً لأنها بقيت واستحكمت ولبست جلباب اليقين، وصارت حجابا وغاصبا لليقين.

تفكيك الذاتي والعرضي هو فصل الشريعة عن الدين، الشريعة بأجمعها عرضيات، والدين عين الذاتيات، والدين لا يتغير ولا يتبدل، ولذا ورد في القرآن ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾.

الشرائع كلها عرضيات جالسات على الذاتيات، وهذا دليل التفاوت والاختلاف بين الشرائع والاديان، والاشاعرة يقولون بأن الكلام النفسي لله واحد لكنه يتمظهر عند كل قوم وعند كل نبي.

أما السبب في استخدام صيغ الذاتي والعرضي؟

الحقيقة: أن أمامي مجموعة خيارات مثلا الثابت والمتغير، أو الأصلي والفرعي، أو الصدف والنواة، ورغم معرفتي بأن هذين الصيغتين يوجبان الابهام الا اني مجبر على استخدامهما مع تكرار التوضيح من ان القصد من الذاتي والعرضي ليس المعنى الأرسطي، ولم أحظى على صيغ أفضل لحد الآن، ولو عثرت على الافضل سأستبدلهما.

أما كيفية معرفة مقاصد الشارع، نعرفها عن طرق الظنون والفرضيات، والأخذ بالشواهد المبطلة والمؤيدة، وهنا انتمي إلى مذهب بوبر – واكون بوبري – حيث لا

وجود للأشياء الدقيقة مثلا نقول: " الإنسان ليس الله بل عبد " هذا ذاتي من ذاتيات الدين لكنه فرضية، واذا تم ابطالها نبحث عن فرضية أخرى تقوم مقامها، برأيي ان الأكثر في الدين هي العرضيات، ولم اعمل ظني في باب الذاتيات، سعيت كثير بشكل مختصر لأن الحصول على الذاتيات امر مشكل للغاية، على عكس العرضيات عند إعمال معيار السبع نقاط يكون الأمر سهلاً.

على هامش نهاية مقالة " الذاتي والعرضي" قطعت وعداً بكتابة بحث مستقل في شرح ذاتيات الدين، لكنك لم توفِ بوعدك؟

الوفاء بهذا الوعد أمر مشكل، وعندما أصل إلى نتائج سأعرضها ان شاء الله، هذا العمل صعبٌ للغاية، في هذا الكتاب كان محط نظري على التفكيك بين مقولتين، وبدونها لا نصل إلى المعرفة الدينية المطلوبة

في الواقع افترضت عدة مقدمات لفهم الدين، ومن ضمن تلك المقدمات هناك ذاتيات وعرضيات في النص المقدس، وجميع الآيات تقع في صف واحد، مثل وجود المحكمات والمتشابهات، وبيان المصاديق ليست من صميم عملي ؛ لان المعرفة الدينية تأتي بالدرجة الثانية، وهي خارجة عن حقل فلسفة العلوم.

بالمناسبة لا ينبغي ان يطلب مني تعبير المنامات في " الأحلام النبوية "، وقد أشرت إلى هذا المطلب، طبعاً إن تمكن من هذا العمل سأفعل.

نعم، قلت في أحد هوامش بسط التجربة النبوية: أن الدين ليس له ذات وماهية أرسطية، هناك مقاصد للمشرع هي ذاتيات الدين، وهناك اوضحت عدد من ذاتيات الدين، وقلت ذاتيات الدين في العقائد: مثل " الإنسان ليس بإله هو عبد ".

وفي الأخلاق: مثل " أهم هدف لحياة الإنسان هو السعادة الأخروية واهم غاية هي الأخلاق الدينية".

وفي الفقه مثل " أهم مقصد للمشرّع في الحياة الدنيا هو حفظ الدين والنسل والروح والمال والعقل ".

هذه الثلاثة اعتبرتهم من الذاتيات؟

نعم تقريباً، مع الاختلاف في باب الفقه لدي تأملات سأعلن عنها في وقتها، والآن أقول على سبيل الايجاز:

لو أن احداً اراد بيان مقاصد المشرّع من الفقه، سيكون من الكبار كالإمام الجويني ويأتي بعده الغزالي، والأهم من هؤلاء الشاطبي وابن عاشور وآخرين ...

المقصد الأهم في رأيي هو الهوية، وللمرة الأولى طرحت هذا الموضوع كان في سمينار في البوسنة، ومقاصد المشرع عندما تذكر يأتي في المقدمة حفظ الأرواح والنسل والعقل ... لكن لا يؤخذ بعين الاعتبار حفظ الهوية الإسلامية، واعطاء التكافل والشخصية الموحدة للمسلمين.

أعتقد أن هذا الموضوع له أهميته في عالم اليوم، مثلاً وجود مقبرة خاصة للمسلمين منفصلة عن مقابر الآخرين، أيام العطل الرسمية الخاصة، والصلاة تجاه القبلة، أيام الصيام المحدودة وليس كما يشتهى، والاعلان عن الصلاة بالأذان، ونجاسة الكفار على بعض الآراء ... كل ذلك لا وجود فيها للمصلحة المقدّسة الخاصة، وإنما فيها تمييز لهذه الأمة عن بقية الأمم، كالعلم الذي ترفعه الدول، هذا اولاً

ثانياً: وهو الأهم والعجيب أن الفقهاء - أهل السنة على الخصوص - لم يذكروا العدالة كأحد مقاصد المشرّع، بمعنى انهم لم يقولوا أبداً: بأن الفقه جاء لبسط العدالة وان الغاية من الأحكام الفقهية هي احقاق العدالة، ولعلهم يقولون ان العدالة مقتضى لحفظ المال والروح، نعم لكن العدالة لابد أن تشكّل ركناً جامعاً وتأتي البقية الباقية تحت هذه المجموعة.

وعدم الالتفات إلى العدالة في تاريخ الثقافة الإسلامية قصة مليئة بالغصة وهذه وحدها تحتاج إلى الكتابة فيها.

قبل عدة أشهر تكلّمت في جامعة ديتون في أوهايو عن هذا الموضوع، وكان عنوان المحاضرة " العدالة في التاريخ الإسلامي " وهناك قلت بصراحة وبتفصيل بأن الفقهاء ذكروا خمسة مقاصد لكن العدالة كانت غائبة عن كتاباتهم، كما أنها غائبة أيضاً عن الفلسفة السياسية، والحرية غير موجودة.

كيف لنا ان ندخل إلى دنيا الحداثة... لا أعلم!

في كل الأحوال عقيدتي هي إضافة العدالة إلى هذه المقولات، ولذا في باب مقاصد الشارع في الفقه لابد من التفكير في تغييرها من الخمسة إلى السبعة أو تغير بعضها من هذه المجموعة وضمّها إلى مجموعة أخرى.

يضاف إلى الأحكام الجنائية والجزائية في الإسلام.. على العالمين بالفقه الأعزاء الأخذ بمقاصد الشارع فيها، لعل موديلها لم يعد مناسباً، ويتطلب منهم جهداً جهيد، أترك هذا للفقهاء فلستُ لاعباً في هذا الميدان.

الأحلام النبوية:

وصلنا في هذه المحاورة إلى البحث الأصلي وهو الأحلام النبوية، وفي نيتنا نُخضع معك للنقاش بعض وجهات النظر والقراءات والاعتراضات المتعلقة بالأحلام النبوية، ولنبدأ من حسين واله:

الصيف الماضي في " نادي الفكر " عُقدت جلسات حوارية حول الأحلام النبوية، نشر موقع زيتون تقريراً عنها، وكان السيد حسين واله أحد المحاضرين، وكانت له قراءتين للأحلام النبوية.

الأولى: تحت عنوان " الرؤيا لها حيثية التفاتية "

الثانية: " الرؤيا الفاقدة للحيثية الالتفاتية ".

قراءته الأولى كانت أكثر تفصيلية من الثانية التي اكتفى بها بالإجمال وإلقاء الضوء على قراءته الأولى. ومن الواضح ان قراءته الأولى كانت اقرب إلى الأحلام النبوية،

اسمحيلي هنا أن أُبيّن كلتا القراءتين، ثم اعطيني رأيك حولهما:

الدكتور واله استهّل قراءته ببيان صاحب نظرية الرؤيا:

- القرآن كلام محمّد وليس كلام الله
- القرآن رسالة أحلام أو رسالة مكاشفة

- لغة القرآن لغة أحلام وليست لغة يقظة
- القرآن بحاجة إلى التعبير وليس التفسير
- رؤيا محمد ﷺ معصومة لأنه قد امتلأ من الله
- نظرية الأحلام النبوية بحث فنومنولوجي، وليس كلاماً أو فلسفةً أو تفسيراً[1].
- نظرية الرؤيا طريق لحل مشاكل التعارض مع العلم والأخلاق والأساطير والبارادوكسات.
- توسعة وبسط للتجربة النبوية.

بعد هذه المقدمات، قراءته الأولى وهي الرؤيا المشتملة على حيثية التفاتية، مستلزمة عشرة تعابير كما يعتقد:

١- المدة الزمانية للرؤيا استخدمت الاستعارات.

٢- الحقيقة في الرؤيا أصبحت مكشوفة.

٣- كشف الحقيقة في تعبير الرؤى كان مستقلاً عن الذهن.

٤- الحقيقة المكتشفة كانت ببيان لغوي

٥- البيان اللغوي ذات صبغة تاريخية.

٦- تعبير النبي محتمل الخطأ. هذه النقطة طرحت بشكل سؤال.

٧- تجربة الرؤيا محتملة الخطأ. هذه أيضاً طرحت بشكل سؤال.

٨- تعبير الرؤيا له شرائط

٩- لغة الرؤيا ليست لغة يقظة، ولغة التعبير ممكن ان تكون كذلك

---

(1) phenomenology:
علم الظواهر أو الظاهراتية، وهي مدرسة فلسفية موضوعها ظواهرالوعي، وليست الظواهر في العالم الخارجي وإنما ظهور موضوعات العالم الخارجي في الوعي، وعلى هذا الأساس فالفينومينولوجيا هي دراسة الوعي بالظواهر. ابطال هذه المدرسة ايمانويل كانت وهيگل، وفي القرن العشرين هوسرل وآخرين

١٠- الرؤيا المعصومة = فاقدة الغُش + فاقدة الخطأ

القراءة الأولى تستلزم خمس مقدمات، وهي عبارة عن:

أ- الرؤيا اداة لمعرفة الحقيقة - في عرض الادوات توجد نتائج حسية وعقلية متعارفة -.

ب- كشف الحقيقة بأدوات لغوية.

ج- بيان لغة الحقيقة قابل للتعبير.

د - التعبير للمعبّر وللآخرين طريق لكشف الحقيقة.

هـ - يحدث التعبير بلغة اليقظة، رغم توّقع حدوث التسلسل(1)

---

(1) ثلاثة تبعات يمكن تسجيلها على هذه القراءة:

التبعة الأولى: حول لغة الرؤيا.

بناء على الأحلام النبوية تكون لغة الوحي لغة منامية خيالية وليست لغة يقظة.

القصد من اللغة هنا يمكن تصويره على احد نحوين:

أ - اللغة = نظام الاشارات

ب- اللغة = إعمال النظام

إن كان المقصود من اللغة نظام الاشارات، فالنتيجة ان لغة الوحي ستكون لغة مخصوصة، وفي أقل التقادير لن تكون اللغة مفهومة للمخاطب العادي.

وإن كان المقصود من اللغة إعمال النظام والاستفادة من النظام، فالنتيجة ان لغة القرآن ستكون طبيعية ومفهومة للمخاطب العربي، نعم هي متفاوتة في درجة الافهام باعتبار التراكيب اللفظية. وفي هذا الموطن تأتي اسئلة السيد واله، وهنا يمكن الاجابة عنها.

الأسئلة هي أن عبارات القرآن كانت بلغة مجهولة أو معلومة في الفضاء الحسي - العقلي.

والإجابة هي إن كانت عبارات القرآن بلغة مجهولة فهو خروج عن قراءته الأولى - محل البحث -.

وإن كانت لغة القرآن معلومة فما المانع من تحليل ظاهرة الوحي، وما هو طريق الحل.

التبعة الثانية: حول معرفة تعبير الرؤيا.

تعبير الرؤيا متوقف على بيان لغة الرؤيا، وبيان لغة الرؤيا متوقف على الفهم الذهني المشترك لتجربة الرؤيا - بسبب امتناع اللغة المخصوصة - والفهم الذهني المشترك يناقض انحصار الوحي، فهل المؤمنون يقبلون بهذه النتيجة.

التبعة الثالثة: حول امكانية الخطأ في لغة الرؤيا

تجربة النبي أو البيان اللغوي لتجربة النبي لها تبعة مفادها:

توّاقة لسماع رأيك

أشكر السيد واله على طرحه الدقيق، وتبويب المطالب بشكل منتظم لم يتسنى لي القيام به في كتاباتي، وبطريقة علمية واجتهادية تمكن من طرح قراءتين، وتعرض لنقاط دقيقة وفرعية، البحث فيها كل على حده في مثل هذه المقابلات أمر غير متيسّر، خصوصا هو غير حاضر في هذه المقابلة، وفي كل الأحوال أنا أوافقه الرأي في تلك النقاط، ولدي معرفة عن اصول قراءته حول الأحلام، وهدفي الاساسي من ذلك هو الرؤيا ذات الحيثية الالتفاتية(1) أو الرؤيا القصدية، وفي مقام الكشف رفع الحُجب والإخبار عن الماورائية، هذه الحقائق توضّح وتبيّن من خلال لغة الأحلام، وهذه الأحلام تُبدّل وتترجَم إلى لغة اليقظة وهذا ما يسمى بالتعبير، وليست هي منحصرة في الحالات الذهنية للنبي، فبالرغم من انها تشكّلت في حالة اللاوعي إلا أنها ظهرت كمراد جدي في حالة اليقظة، وبوعي كامل عُرضت على المخاطب.

إما أن هذه المقالات وضعت لحل إشكالية العلم مع الدين أو حل اشكالية كلامية أو فلسفية، أو غير ذلك فهذا موكول إلى القرّاء. هنا مراد المتكلم ليس شرطاً، وأستطيع أن أقول أني لا افكر في هذه التبعات، وما أبحث عنه هو كيفية فهم النص.

إمكان الخطأ مستلزم وجود معيار نفس الأمر الخاطئ، وهذا بالضبط هو وجود معيار نفس الأمر الخطأ، وهذا بالضبط مستلزم نقطة نظر منطقية فوق الخطأ، وهذا محال في العالم الانساني - فجوات الثبوت تسد بالإثبات، وهذا يعنى لا وجود للخطأ.

من جانب آخر، عدم الوصول إلى معيار الخطأ شرط اسناد الصحة أو الخطأ إلى التجربة، وبناء على ذلك لازمه إمكان القبول بخطأ النبي، وهو الوصول المعرفي المستقل بتجربة النبي.

ولو قلنا بعدم القبول بخطأ النبي، هذا معناه ان كشف النبي لم يكن مشترك ذهني، بل هو اختصاص به، ونتيجة اختصاص كشف النبي من دون الكشف المعرفي هو ايمان المؤمنين، ونتيجة الإيمان دون الكشف أن لا موضوع لل " فنومنولوجي " في الوحي. وبالتالي حمل امكان نظرية الأحلام النبوية على الهدف من النظرية، وهو الغرابة عن الذهنية الانسانية العصرية، وهدف النظرية هو كشف الوحي من النوع الثالث + كشف الطريقة التشكيلية: التوسل بالنظريات اللغوية، وتفكيكها مبتني على ان لا وجود للمعنى والصدق أصلاً، ومعيار المعنى والصدق في كل المحاولات اللغوية داخلية، وليست فائدة خارجية، وحل إشكاليات الظواهر القرآنية يكون عن طريق التفكيك الاستطرادي.

(1) اصطلاح الحيثية الإلفاتية، كنت وجلاً من استخدامه ولا التفت اليه، واحبذ الكاشفية سواء كانت ناقصة الالتفات أو مع القصدية Intentionality. (المؤلف).

من جانب ألاحظ التفاسير القديمة، كتفسير المرحوم الطباطبائي، والفخر الرازي، سيد قطب، وكذلك التفاسير العلمية وحتى الثورية، وأنواع أخرى من التفاسير، وافكر واقارن في النتائج المستحصلة ...

ومن جانب آخر اطالع للكبار المعاصرين مثل مُحَمَّد اركون ونصر حامد ابو زيد وحسن حنفي والاخرين ... كل ذلك كان محط نظري، من دون الالتفات إلى ابداء جواب لتلك الاشكاليات، ودائماً كنت أفكر في أن الطريق الذي أسلكه صحيح أو لا، كيف لنا ان نفترض متناً في هذا القرآن ثم نذهب للبحث عن فهم له، ومن هنا كان تركيزي نحو كيفية تكوّن لغة الوحي، وفي هذا الميدان ذكر المؤرخون عدة نقاط لفتت انتباهي وهي أن النبي كان يتلقى الوحي في حالة من اللاوعي، وهذا ما اسميته بالرؤيا.

وما رأيته ان جميع المؤرخين تقريباً يذكرون بأن النبي لم يتلق الوحي في حالة الوعي، ابتداءً من الآيات الأولى التي اوحيت إليه في الغار، وقد صرح ابن هشام وابن اسحاق في السيرة ان النبي كان يقول كنت نائماً وتلقيت الآيات الخمس الأول من سورة العلق، وبعد ان استيقظت رأيت جبرائيل وقد ملأ الأفق.

وفي ظروف أخرى أيضاً، سواء في حرب أو صلح أو في المسجد أو أماكن أخرى، وعلى حين غرّة يرى الأصحاب أن النبي يدخل في حالات خاصة ويتناسى نفسه ...

مثال ذلك: يذكر ابن خلدون في المقدمة بأننا نعلم بذلك لكننا نغفل عن الدلالات، وحينما ابحث عن الدلالات اشعر بأن لغة القرآن ليست لغة متعارفة، وبرأيي أن هذا الذي يقوله النبي أن ﴿هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ سببه الوحيد هو أن البلاغة الفائقة التي يتمتع بها هذا الكلام، ولعلهم يشعرون أن هذه الكلمات تصدر من منبع آخر.

مع ملاحظة كل ما تقدم، توصلت إلى نتيجة أن لغة القرآن لغة رؤيا، ولاحظت في هذه الرؤية الغامضة قسمان مهمان واضحان من القرآن، هذان القسمان يمكن أن يكونا المقاصد الرئيسية للمشرع، ومن ذاتيات الدين، وهما آيات المعاد والتوحيد، وغالباً ما كانا يشكلان ألغازاً للمفسرين، وكانوا يتخندقون في معسكرين مختلفين، أحدهما أهل الظاهر والآخر أهل الباطن.

وبعد اتمام مقالات الرؤيا، وعندما كنت أبحث عن جذور لنظريتي في كتاباتي السابقة رأيت الملا صدرا يطعن في كل هذه المجاميع وكان يبدي رأيه ويقول: أن رأي يشبه تعبير الرؤيا، وكان ممن يعتقد بأن معرفة المعاد ومعرفة الله بحاجة إلى التعبير، بالضبط كان يستخدم هذه الصيغة، وكان يعتمد في تعبير المتون على أسلوب خاص لعلي اتعرض إليه في مقالاتي القادمة.

وفي كل الأحوال، هذا ما أعتقده وارى فيه كيفية ابتعاد العلماء عن فهم اللغة العادية للقرآن، وكيف ذهبت بهم المذاهب نحو المجازات والامثال ...

الآن وفي ظل نظريتي اتفهّم قولهم ان لغة القرآن ليست متعارفة، لكنهم لا يطلقون اسم آخر عليها، ويحبذون أن تكون لغة عرفية والحفاظ على المعاني الظاهرية، وهذا ما كان يؤكد عليه الملا صدرا من لابديّة الحفاظ على ظاهر اللغة ما استطعنا إليه سبيلاً، ولا نذهب إلى تكلّف لا معنى له لإخراج المعنى عن ظاهره. وبعدها يقول هذا هو التعبير ... هذه نقطة مهمة والكثير كان يتمنى ان يخرج الكلام عن ظاهره، الآن وانا ألاحظ المولوي اتفهمه حينما يقول " نحن جئنا من تحت آثار سنائي والعطار "، وها نحن سائرون في طريقهم، وكل ما اردناه هُيئ لنا، نظرت في لغة الظاهر لكنه أخذني من هذا الوادي إلى وادٍ آخر، يعني من اليقظة إلى الرؤيا، وكما يقول مولانا:

إذن أخبرهم بأني بهذا الدرهم   اتمنى أن أشتري جملاتكم

من خلال المعرفة برؤيا اللغة القرآنية جلبت الامل والرضا لجميع أهل التأويل أو أهل الظاهر أو أهل التعبير، فهناك من الأساطير ما شمل بعض الموارد التأريخية من القرآن، خصوصا في مدرسة التفسير الادبي مثل أمين الخولي تلميذ خلف الله الذي لا يرى لزوماً في قبول واقعية وتأريخية القصص القرآني، وانا أعتقد بذلك، لكني اقول هي من قبيل الرؤيا، هم يَرَون هذا القسم من القرآن مثل قصة كليلة ودمنة، وان شيخاً طاعن في السن يقرأ قصصاً للأولاد اصغار ويضمّنها ما يريد ايصاله لهم، لكني اقول: لابد من التذكير بأن النبي بعد الاستيقاظ من حالة اللاوعي تحدث بهذه المطالب، إذن يمكن القول بأنه افرغ مقصوده في قالب القصة عن عمدٍ، وقد اوردها بروايته هو، وهذا

لا ينقص شيئاً من دور كاشفية الوحي. وكذلك الحال عند القائلين بالنظرية الكلاسيكية للوحي حيث يرون انها تحدث بشكل مفاجئ وفي الوقت ذاته هي كاشفة عن الواقع.

قرأت كتاب التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، ولاحظت ان قطب كان ملتفتاً جداً لهذه النقطة، وقد رفع من مستوى مشاهد ومناظر القيامة وجعلها حيّة، بطريقة تشعرك بأن شخصاً كان قد رآها بالفعل، وبيان القرآن لتلك المشاهِد – على حد تعبيره – كان تصويرٌ فني.

كل ذلك كان يدور في خلدي، وكنت أرى أن كل ذلك يقع تحت عنوانٍ جامعٍ وهو " الرؤى القرآنية ".

والآن يمكننا القول بأن القرآن تصوير فني كما قال سيد قطب ومحتاج إلى التعبير كما قال ملا صدرا، ومحتاج إلى التأويل كما قال المعتزلة وغيرهم، ومحتاج إلى البقاء على ظاهر ألفاظه كما هي إرادة الأشاعرة.

هذه النظرية توضّح مواضيع أخرى أيضاً، مثل موضوعة تاريخ الأنبياء التي وردت في القرآن كتبدّل قوم من اليهود إلى قرود، تلك الواقعة التي لم ترد في أي تاريخ، حتى لم يرد ذكرها في التوراة.

بعض المفسرين يرونها مسخ ظاهري، ويعتقد البعض بالمسخ الباطني، وهذا الاختلاف يظهر أنهم يواجهون إشكالية، والحال أن نظرية الرؤى تعطي لهذه الواقعة توضيحاً جليّاً.

حينما فهمت لغة الرؤيا القرآنية... في الحقيقة تبسمتُ ضاحكاً، تلك الضحكة التي تظهر على فم شخصٍ عندما يواجه حقيقة ما.

أما بالنسبة للابهامات الموجودة في هذه النظرية فلست غافلاً عنها، ولا بد من رفعها، لكني معتقد بنقاط القوة فيها، وانها حلّ للإشكاليات.

من لوازم قراءة السيد واله الأولى – وانت أيضاً وافقته عليها – هي أن اصطلاح الرؤيا لابد له من الاستعارة. ما هو رأيك؟

لدي إصرار على استعمال الرؤيا بمعناها الحقيقي، وليست على نحو الاستعارة، وهل ان السيد واله يعتقد ان الرؤيا ذات جنبة غير معروفة لنتوسل بشيء آخر لمعرفتها، الرؤيا هي ذات الوحي، وإذا كان الوحي غير معروف وله جنبة استعارية فالرؤيا أيضاً كذلك والعكس صحيح.

حتى العالمين بالرؤى مثل يونغ[1] لم يقولوا بهذا. حتى القدماء لم يتصوروا الرؤى بهذه الطريقة، وحينما يتكلمون عن الرؤى يرون انها كاشفة عن الواقع، وهناك من الروايات ما تقول ان قسم من وحي الأنبياء كان في الرؤيا، وهذه أيضاً دلالة. وهناك الكثير من الرؤى في العهدين القديم والجديد تتنبأ وتكشف عن الحقيقة مثل رؤيا دانيال والآخرين ...

وهنا يستحسن الإشارة إلى النقاط التي أثارها الناقد المحترم محسن زندي ونشرها في الموقع الالكتروني " دين اونلاين "، واوصل البحث إلى علم الأعصاب، وطلب مني توضيح حول الرؤيا وفي أي مرحلة من مراحل الدماغ تحصل هذه الرؤيا، والغفلة عن هذه النقطة قد ينسف اصل النظرية.

وهناك من المعترضين من طلب مني تعريفا للمنامات.

و في اعتراض محسن آرمين أيضاً شيئاً من هذا القبيل.

برأيي لا حاجة إلى تعريف المنام، ولم اتعرض لتعريفه كان عن قصدٍ، إذ لا يوجد للمنامات تعريف دقيق، وتعريفه سيدخلنا في ظلمات حالكة يصعب الخروج منها، فالمنام لا ينبغي تعريفه بل يجب بيان معناه. كلنا يعرف معنى الإنسان، ونعرف معنى الماء، ومعناهما ذلك الذي يفهمه أهل اللغة، وكما يصفه ويتگنشتاين: كأنك داخل في لعبة الكلمات فيها كالكرة يتقاذفها الجميع ولابد من مراعات قواعد اللعبة حتى النهاية.

(1) Carl Gustav Jung 1875 – 1961

و في حد الامكان نقول أي شيء منام وأي شيء ليس بمنام، والتعريف يرتبط بمقام آخر، ولا يمكننا القول بأن الإنسان القديم لا يعرف التطور الحاصل في ظاهرة المنام إذن هو لا يعرف معنى المنام، عموم البشر في الماضي والحال لا يعرفون تعريفا جامعا، مانعاً للإنسان، لكنهم يعلمون معناه، حينما نقول فلان إنسان جيد وذاك ليس بجيد فمعنى الإنسان واضح جلي، نعم إذا استعملت اصطلاحات جديدة مثل الطاقة لابد من تعريفها، وفي غير هذه الصورة سيكون السعي نحو المفاهيم غير مجدية.

نقطة أخرى مرتبطة بالموضوع أريد ان اضيفها هنا هي كتابات نصرالله پورجوادي الفيسبوكية، كتابات غير صديقة وبدون دراية، واقول بدون دراية لأنه صرّح بانه لم يقرأ مقالاتي، وغير مُهذَّبة أيضاً لأنه وصف الرؤيا بأنها ريح المقعد المقدس الذي لا معنى له، وقال أيضاً النوم نوم ولا وجود للنبوي والقدسي، وحتى في هذا المختصر الذي أورده كان خليطاً من الضد والنقيض.

أمير مازيار أجابه بجواب حسن، وقال في جوابه بأن كلمة النوم مشترك لفظي وهذا الذي اوقعك في الخطأ، وهذا الكلام صحيح جداً، وأرغب في توضيحه:

في الفارسية نقول للحلم والنوم " خواب " أي النوم فنستعمل كلمة النوم لكلا المعنيين المنام والحلم.

في العربية يفرقون بينهما، الأولى نوم والثانية رؤيا.

في الإنجليزية أيضاً للأولى Sleeping، وللثانية Dreaming

في الفرنسية Rever وDormir

وحينما نفصل بينهما لا تقع مثل هذه المغالطات، ولأنهما في الفارسية يستعملان بصيغة واحدة يختلط الأمر على الاذهان.

الحديث منصبّ على الرؤى وليس على النوم، يعنى الحديث عن التصورات المنامية المشاهَدة في حالة اللاوعي، وان هذا الذي يغلب على الحواس أو لا يغلب هذا موضوع آخر، ذلك الذي يسميّه المولوي " النوم في اليقظة " حينما يقول: منام اراه لكنه ليس في المنام، ورؤية المنام معناه رؤية صور الرؤيا.

و هذا الحائز على الاهمية في نظريتي هو اللغة الرمزية، ولك ما تشاء في تسميتها، سمها مناماً أو شيئاً آخر، رغم تأكيدي على تسميتها بالرؤيا لئلا أعرّف الوحي المجهول بمجهول آخر.

و الخلاصة: لا أعرّف الرؤيا، واكتفي بمعناها الشائع المعروف، ولا ادخل في علم الاعصاب وعلم النفس لتعريف الرؤيا، رغم انها حسنة في مكانها، رغم اني موافق على القول بأن لخلايا الدماغ امواج وحالات خاصة مؤثرة في المنام، ولو ان شخصا تناول طعاماً خاصاً سيتأثر الجهاز العصبي في الدماغ، وتكون الرؤى بطريقة مختلفة، وموافق أيضاً على ان التصورات والتصديقات المودعة في مخزن الخيال تغذي الرؤى، لكني لا ارى انها لوازم موجبة لتعريف الرؤى وتضيف ابهاماً للنظرية، ونتحول من ظاهرة الرؤيا إلى ظاهرة أخرى، خصوصا ان كتابات زندي متضمنة لمغالطة Fallacy Misplaced concreteness، وان كل شيء صرفاً وبنحو ما له تفاعلات كهروكيميائية ينحصر فيها الدماغ.

على كل حال وبالإجمال فأنا اوافق السيد واله الرأي، وطبعاً بعض ما طرحه كان مفرطاً في الإيجاز مما سبب لي الابهام.

قلتِ إنّ للسيد واله اعتراضات، وهذه بالنسبة لي ذات أهمية أيضاً

نعم، حول اللغة المخصوصة – على سبيل المثال – يقول: إن لم يكن هناك لغة مخصوصة لكان للآخرين أحلام نبوية أيضاً؟

حسناً، برأيي فليكن للآخرين رؤياهم النبوية، وهذا هو معنى بسط التجربة النبوية، وهنا يمكن القول ببسط الرؤيا النبوية:

نطلب الفيض من روح القدسِ ليصبح الآخرين مسيحا[1]

بمعنى ان هذا ممكن طبقاً للقواعد، لكن محتمل أن لا يقع، وفي كل الأحوال الوحي غير منحصر بالأنبياء، إضافة إلى تقارير الرؤيا التي يشرك النبي بها الناس لماذا

(1) حافظ، الديوان، غزل رقم ١٤١

تكون خصوصية؟ هي تقارير عمومية ١٠٠٪، وبعبارة أخرى رؤيا كل شخص هي رؤياه هو، أما بيانها يكون مشترك ذهني، وكذلك تعبيرها.

الموضوع الآخر للسيد واله هو ان هنالك مغايرة بين القائل بلغة الدلالة المعرفية والقائل بمعرفة ظواهر الوحي؟ (1)

لم أعرف القصد بالضبط، لكن حينما أريد ان اتعرف على الرؤيا أو معرفة ظاهرة الوحي، لا تعنيني كونها رؤيا صادقة أو كاذبة، أريد أن أعرف ما هي. وعلى رأي فلاسفة الفنومنولوجيا نرجع إلى الأشياء كما كانت، والمعرفة بالظواهر يعني ما هو الوحي.

لكن كون لغة الدلالة المعرفية تكون مانعا، كلام السيد واله صحيح، فالمعرفة بظواهر المتكلم لا يمكن أن تكون كذلك.

أنا لا أقول أن هذا الوحي صادق، دائماً اقول في مجتمع المتدينين ان رؤيا النبي صادقة، بمعنى أنها كاشفة عن الواقع، ولا يوجد تهافت في كلامي.

يعني أنك ترى أن الأحلام النبوية ذات دلالة معرفية، وفي الوقت ذاته لا ترى أن هذه الدلالة المعرفية مانعة من تحليل معرفة الظواهر؟

أبداً، أنا ألاحظ معرفة الظواهر في الأغلب من جهة كونها ظاهرة لا ينبغي تحويلها إلى أمر آخر، ولابد من معرفتها كظاهرة، ولذا معرفة الظواهر تتضمن التعرف على الظاهرة أيضاً.

السيد واله كانت قراءته الأولى مستلزمة لعشرة بيانات، اثنان منها كانت على شكل استفهام.

أحد تلك الاستفهامات هو: هل يمكن للنبي ان يخطئ في تعبير رؤياه؟

(1) البنية اللغوية للدين لها منهجان، الاول: لغة الدين واقعية وذات دلالة معرفية وتعبّر عن الواقع، والثاني: لغة الدين رمزية اسطورية تفتقد للمضمون المعرفي ولا تعبر عن الواقع ولا تحكي عنه، ولها وظائف أخرى كبيان العواطف والمشاعر.

نعم ممكن، وقد حدثت في السابق، وقد نقلت عن محي الدين بن عربي قوله أن النبي إبراهيم قد أخطأ في تعبير رؤياه، حسناً هذا اعتقاد أحد أكبر العرفاء في الثقافة الإسلامية في أحد أكبر الأنبياء يخطئ في تعبير رؤياه، بناء على ذلك وبحسب القواعد أنا أقول إذن ضعه في بقعة الإمكان.

حتى إني كتبت في الأحلام النبوية أن جيش الأعداء قللهم في المنام عمداً لتزداد قوة المسلمين وجرأتهم، النبي رأى قلة عددهم في الرؤيا وفسّرها بقلة العدد في الواقع ايضاً، وقال للمؤمنين بأن هذا الخطأ كان مساعداً.

كان خطأً مباركاً، ورغم أنهم كانوا في الواقع أكثر عدداً، إلا أن المؤمنين انتصروا عليهم وانهزم الأعداء.

الاستفهام الآخر في بيان السيد واله هو: اصل تجربة الرؤيا هل يعتريها الخطأ

دائماً التعبير بالتجربة معناه احتمالية الخطأ أو احتمالية عدم الخطأ، تعبير الأحلام لا يسمى خطأ أو صواب مثل الحس الإنساني، وكما يقول السيد الطباطبائي في " المنهج الواقعي ": عندما تحترق يدك، هذا ليس خطأ ولا صواباً إنه حس صرف، نعم يمكن تفسير الحس، ثم بعد ذلك يمكن وصفه بالخطأ والصواب.

في التبعة الثالثة قلت: امكان الخطأ مستلزم وجود معيار نفس الأمر الخاطئ، وهذا بالضبط هو وجود معيار نفس الأمر الخطأ، وهذا بالضبط مستلزم نقطة نظر منطقية فوق الخطأ، وهذا محال في العالم الانساني – فجوات الثبوت تسد بالإثبات...

لو ذكرت المزيد؟

في حديثه لم يستهدف نظرية الأحلام النبوية فقط، وإنما كلامه يأتي اينما حلّت معرفة الصدق والكذب، مباشرة تأتي مسألة الثبوت (نفس الأمر)، والإثبات (المعرفة) ولا تكتمل من دونها.

في نفس الوقت وفي عالم الاثبات كلنا يلف حول نفسه، وعلى رأي ويتغنشتاين: نحن في لعبة ولابد من إتمامها.

كلام السيد واله في احدى زواياه اصولي بنيوي، بمعنى لابد من تقوية المبنى ثم البناء عليه صعوداً، وفي قباله العقلانية الانتقادية، بمعنى الاهمية تأتي للنقد، فيقولون نفترض الفرضية ثم ننقدها وهكذا نخطو إلى الامام، ولا ننتظر سد الفراغات بين الثبوت والإثبات ثم نقول كلمتنا.

نحن في عالم الإثبات ننتقد ونخطو للأمام، ولا أبدي رأيي قبل ذلك، ولا أضع قدمي بعمق وأتمنى المحال ...

في كل الأحوال هذا الذي قلته إشكالية مشتركة، والله العالم.

مواجهة مع الرؤيا (٢)

سلسلة حوارات مع عبد الكريم سروش حول نظرية الأحلام النبوية

حول اعتراض محسن كديور

أفسانه فرامرزي... موقع زيتون

في العام الماضي وبعد مرور سنوات ثلاث على انتشار سلسة مقالات " محمّد راوي الأحلام النبوية " على الموقع الالكتروني " جرس"، عُرضت فرضية الأحلام النبوية في الاعلام من خلال المقابلة التي اجراها برنامج " پرگار " بين عبد الكريم سروش وعبد العلي بازرگان.

لم تواجه الفرضية في فترة نشرها الا ردود افعال محدودة، لكنها أصبحت فيما بعد معركة آراء انبرى بعض المفكرين للدفاع عنها في مقابل الأكثرية جابهوها بالنقد والرد.

في هذه السلسلة من الحوارات مع عبد الكريم سروش ومن خلال تبويب لتلك الاعتراضات ستكون الفرصة لصاحب الفرضية سانحة للدفاع عن فرضيته بشيء من الوضوح.

تقدَم في القسم الأول من هذا الحوار مراجعة "للقبض والبسط" و" التجربة النبوية " وقراءة حسين واله لفرضية الأحلام النبوية، واستبيان صاحب الفرضية.

هذا هو القسم الثاني المخصص لاعتراضات محسن كديور على الفرضية نعرضه امام عبد الكريم سروش:

***

نشكر حضرتكم على المشاركة في الحوارية الثانية من سلسلات حوارات حول " الأحلام النبوية " وفي هذه الفرصة سنستعرض اعتراضات السيد كديور.

السيد كديور وفي محاضرة له كان من المقرر أن تكون حاضراً فيها، وجه اعتراضات على النظريتين " القرآن كلام محمد ﷺ و" محمد راوي الأحلام النبوية ". اسمح لي أن نناقش اهم اعتراضاته:

النقد الاول:

طُرحت نظرية " القرآن كلام محمد ﷺ " في بسط التجربة النبوية للمساعدة في حل الاشكالات الكلامية والتفسيرية، اشكالات تتعلق بالتعارض بين الآيات والنظريات العلمية، وانعكاس الصبغة الثقافية العربية على القرآن، وكيفية كلام الله مع النبي،، وتعارض الاحكام الفقهية مع العدالة والكرامة الإنسانية، والعلو والدنو في بلاغة القرآن ...

على فرض قبول هذه النظرية، ينبغي أن أقول:

١- لم تحل مشكلة الكلام الإلهي، بل نسفت فرضية السؤال من اصله.

٢- الاشكالية المتقدمة رحلت من كلام الله إلى كلام محمد(ص)، وعليه فالقرآن لم يزل يحمل الصبغة العربية، واشكاليات أخرى أيضاً.

لقد قرأت الانتقادات التي وجهها الدكتور كديور، وأحب هنا أن أوضح اعترافاته التي ضمّنها لنقده ومنها:

أن نظرية الرؤيا قد مسحت صورة المسألة.

نعم، موضوع كلام الله من أكثر مباحث علم الكلام معضلة عند المسلمين، وكلنا يعرف أن سبب تسمية هذا العلم بالكلام هو أن أول مسألة واجهت المسلمين وأهمها وأضخمها كيفية كلام الله، والبحث والرد الذي دار حوله، الأمر الذي افترقت عليه الأمة فرقاً متعددة، وهناك من الكبار ما اودع السجن نتيجة قولهم بخلق كلام الله كأحمد بن حنبل، والبعض الآخر تعرضوا للجلد، وضُيِّق على بعض اجتماعياً، وسُحِب منه كرسي التدريس، ووقعت حوادث أخرى كما تعرفون ...

إلى أن طويت هذه الصفحة بعد المأمون والواثق، ومجيء المتوكل إلى الخلافة، وانتصار الأشاعرة، حينها أصبحت مسألة عدم خلق القرآن دستوراً للمسلمين، وبالقوة تصدرت الحكومة الواجهة وفرضتها كعقيدة لأكثر المسلمين وإلى يومنا هذا.

أكثر المسلمين اليوم يعتقدون بأن القرآن كلام الله، وكلام الله ليس بمخلوق.

الشيعة وكما تعرفين واستناداً لروايات الأئمة الشيعة لا يعتبرون القرآن مخلوقاً ولا يعتبرونه ليس مخلوقاً، ووضعوا العظم في الجرح(1).

كل ذلك يدل على أن المسألة أورثت للجميع صداعاً وعذاباً.

طرح مسألة أن القرآن كلام محمد ﷺ وليس كلام الله برأيي من أكثر الخطابات الراديكالية والثورية التي ممكن أن تقال في هذا المقام.

وهناك من الدلائل الكثيرة التي تسنده، وبشكل واضح يمكن الاستدلال عليه.

هذه النظرية تعتبر حلاً للمسألة وبالتبع تُمحي أثرها، وهذا ليس نقصا في النظرية بل كمال القوة التي تُظهِر عدم ضرورة الكثير من الأبحاث الجدّ معقّدة. وتظهِر النبي متحدّثاً يتكلم بدلاً من الإله وهو مؤلف وصاحب القرآن.

وعليه فالكثير من الأبحاث ستصبح بلا أرضية وتفقد موضوعاتها، وهناك موارد كثيرة تصبح صورة المسألة فيها عدمية لا وجود لها.

هذا معناه أن تلك المسألة كاذبة، لان تصويرها وصياغتها ليس صحيحاً، أصلاً الله لا يتكلم حتى نسأل كيف يتكلم! وعندما تثبت ان السؤال لا محل له ستنمحي صورة المسألة اساسا، وهذا هو جواب المسألة.

ما أريد قوله أن اعتراف السيد كديور بقوة النظرية يعني أن المسألة على قدر من السهولة وقد حُلّت، ولذا قال أن صورة المسألة قد انمحت.

نعم، ولأن اللغز قد حُل فقد أصبح سهلاً، ذلك اللغز طويل الذيل والضارب في القِدم حينما يُحل بهذه البساطة شيء لا يُصدَق، في البداية لم اكن متخيّلاً كيفية النظر

(1) مَثَل بالفارسية يقال للشخص الذي يقف عائقاً امام التطور، أو دائم الاصلاح من دون فائدة

إلى المسألة وكيفية حلّها، وقد أوردت في بسط التجربة النبوية ان لا وجود أصلاً لكلام الباري، والتعبير بكلام الله مجازيٌ، وكل ما موجود لدينا هو كلام مُحَمَّد.

أليست الأوصاف التي يوصف بها الله في القرآن تنسب إليه مجازاً كالمنتقم وان له يداً وسمعاً وبصراً ... إذن لماذا عندما نصل إلى كلام الباري نتناسى هذه القصة؟

و لعل السبب أن آيات القرآن قالوا انها عين كلام الله ولذا كانت مانعة من القول أنها كلام الله لكن ليس بمعناها الحقيقي بل بمعناها المجازي

وفي كل الأحوال حينما نقول أن هذا كلام مُحَمَّد ﷺ نعني أنه ينسب إلى الله مجازاً

هذه المسألة لم تسترعي الانتباه، وبقية المسائل أيضاً، والتي من جملتها كلام الله حادث أو قديم، وكلام الله مخلوق أو ليس بمخلوق، كل ذلك سيُرفَع، ومعضلة كلام الله ستُحل بطريقة حسنة.

في الواقع انا فخور بهذا المنجز، وسأضرب عليه مثلا من تاريخ العلم:

عند مجيء داروين وحديثه عن البقاء للأصلح، وكلامه عن الكائنات الحية وإعادة توطين الحيوانات والنباتات ليكون أفضل ملائمة لبقائهم، لا ان نرميهم في مزبلة التاريخ.

أحد المعاصرين لداروين قال: إذن القضية بهذه البساطة ونحن لا نعلم بها.

ومن قبيل الصدف، وقبل عدة أيام كنت اقرأ كتاباً عن داروين وسفره في سفينة بيغل، تلك السفينة التي ابحر بها داروين في مناطق من جنوب اميركا وهناك جمع بها أنواع النباتات والحيوانات للمطالعة وأخذ النماذج منها وتدوين ملاحظاته عليها.

وفي ذلك الوقت كانت نظرية بسيطة ومهمة جداً قد توصل إليها ذهنه، والآن أصبحت نظرية بلا منافس.

ما ذكرته كان مثالاً يُظهر كيف أن نظرية بسيطة تتمكن من حلّ أحد أعظم المشاكل وتجعلها كالدمل وبوخزة تخفي أثرها.

وهنا حينما أقول القرآن كلام محمّد ﷺ أو اقول أحلام محمّد ﷺ أعني أن كل ذلك محمّديّ، وأن كل ذلك بشريّ، وإسناده إلى الله مجازيّ، وعن هذا الطريق مشكلة كلام الله بالطريقة التي تُبحث في علم الكلام سنقلعها من جذورها ونمحي أثرها، وليس حلاً للمسألة فقط وإنما تصبح منحلّة.

النقد الثاني للسيد كديور الذي يقول: الاشكالية التي قيلت في كلام الله ستنتقل إلى كلام محمّد؟

هذا الكلام غير صحيح، لأن الإشكالية تصبح اشكالية عندما تنسب إلى الله، وعندما تنسب إلى الإنسان لا تحدث هناك أي اشكالية، نحن لا ننتظر من الله ان يقع تحت تأثير الظروف المحيطة، نعم نتوقع ذلك من النبي.

و حول العلو والدنو في بلاغة القرآن لا نتوقعها من الله، لكنها تحدث عند النبي، وهو القائل " إنا بشرٌ مثلكم " ونتوقّعها منه بشكل تام.

ونحتمل أن يكون يوماً حزين، ويوماً آخر سعيد، وفي وقت يكون في أوج فصاحته، وفي وقت آخر يتكلم بكلامٍ عادي، كل ذلك يمكن ملاحظته في القرآن، ولا مجال لإنكاره.

إذن الإشكاليات لا تنتقل إلى النبي، ولعل معرفتك بالمؤلف النبي تكون الإشكاليات في طريقها إلى الحل، بمعنى هذا الذي يرَوه مشكلاً هو ليس بمشكلٍ.

السيد كديور واستمراراً لهذا النقد يرى ان نتيجة هذه النظرية هو التنزّل من "الإسلام الذي محوره الله" إلى " إسلام محوره النبي "، والتنزّل من الوحي الذي بُعده الهي إلى البُعد البشري للنبي، يعني " انا بشرٌ مثلكم "، كما تعتقد المسيحية بأن المحور هو المسيح بدلاً من الله المحور، وهذا ما اعترض عليه القرآن.

الآن وقد أصبحت النظرية الإسلامية شبيه بالمسيحية، وأن محمّداً صلى الله عليه وسلم قد أخذ مكان الله كمحورٍ، كانوا دائماً يسموننا مسلمون لا محمّديّون.

وكذلك الاعتقاد برفع النبي إلى الحد الذي ننسب إليه القرآن، هذا غلو، وبناء على ذلك ستجرنا نظريتك إلى الغلو.

بالمناسبة من الأشياء التي تعجبني من الغربيين تسميتهم للإسلام بالمحمدية Mohammedanism، يعني الإسلام التي يدور حول محمد ﷺ، وكذلك العيسوية أو النصرانية اللتان تدوران حول محور العيساوي والناصري.

والصواب أن نقول يوجد عندنا إسلام واحد ذات ثلاثة مصاديق: اسلام موسوي، وإسلام عيسوي، وإسلام محمّدي أو المحمدية، وهذا هو معنى ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ﴾.

نعم أنا معتقد أن النعمة الوحيدة التي منَّ الله بها على المسلمين هو وجود النبي الأكرم، وبقية النِعم مترشحة من ذلك الوجود ومتقومّة به، وبهذا المعنى الإسلام يعني المحمدية.

الأمة الإسلامية تعني محمّدي توسّع في التاريخ، وهذه الأمة أصبحت جسم محمد وروحه سارية فيها، وبرأيي هذا الاعتقاد لا إشكال فيه، وبالفعل عرفانيته وتاريخه لا علاقة لي به، ومدّ نظري هنا الجهة الكلامية، والكلام الواقعي ليس غلّواً، الغلو يقال للقضية الكاذبة عندما تعطيها مظهراً صادقاً.

الواقع أن من لوازم بحثي هو الدين الذي يكون محوره محمد ﷺ، بمعنى أن لو علمنا كلام لله هو كلام محمد ستكون النتيجة أن كل شيء في الدين مترشح من محمد، وكل شيء يقوله هو كلام الله، أوامره ونواهيه أوامر ونواهي الله، ورؤياه رؤيا قدسية. وكلامه كلام الله، وهنا كون النبي يصير إله ليس محلاً للبحث، ولعلها تعني الولاية، وحينما يظهر ولي اقرب إلى الله معناه ان صفات الله تكون سارية فيه.

في كتاباتي كنت استشهد بالحديث القدسي الذي رواه الشيعة والسنة، ومضمونه: أن العبد ما زال يتقرب لي بالنوافل حتى أصير عينه التي يبصر بها، ويده ولسانه، هذا القرب بالنوافل والفرائض يصل إلى محل يصير فيه الله عبداً والعبد إله، ولا مجال للغلو هنا، بل معناه كمال القرب.

وهذا يعود بنا إلى علم اللاهوت وإلى الانثروبولوجيا ...

القرب الإلهي احمله على محمل الجدّ، وأعتقد أن عبد الله وعلى أثر التقرب إلى الله يصبح ولي الله، والولي بهذا المعنى يصبح مليء بالله، ومظهر لله ووكيل لله، يده ولسانه وعينه وكله يصبح الهياً. هذه التعريفات إن قبلناها سنقبل أن كلام النبي متعلق بالنبي ومتعلق بالله، وشدّة القرب يكون باعثاً لنسبتها إلى النبي بمعناها الواقعي، ويكون الدين كله من صناعة وتهيئة محمد ﷺ.

محمّديٌّ وفي ذات الوقت عبودية مليئة من الله جعلته ولياً، والقبض والبسط أيضاً يحمل صفة البشرية، وهذا ليس غلّو، نعم هو غلّو في المسيحية ومورداً لاعتراض القرآن ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ إذ اوصلوا عيسى إلى مرتبة الألوهية، وقالوا أنه في السماء الرابعة يجلس جنب الله.

وشبيه بهذا الغلو ظهر عند الشيعة أيضاً فيما يتعلق بالأئمة، بدرجة وصفوهم في الزيارة الجامعة ان " إياب الخلق اليكم وحسابهم عليكم "، والمسيحيين أيضاً قالوا ان عيسى يجلس جنب الله ويحاسب الناس، أنا لا أدعي ذلك بخصوص الأنبياء، لا أقول أن الأمطار تهطل بإذن من النبي، وأن الأموات تعود للحياة بإذنه، والأرزاق عن طريقه تصل إلى الناس، ما اقوله إن القرآن والدين غليان ضمير النبي، الضمير الذي اقترب كثيراً من الله.

و بناء عليه إسناد القرآن إلى الله وإلى النبي أمر معقول، وعن هذا الطريق ستجد الكثير من الإشكاليات القديمة طريقها إلى الحل، دون إضافة اشكاليات جديدة، وهذا الكلام له سابقة عرفانية، العرفاء يقول ان النبي هو الذي أنزل جبرئيل، لكن تعبيري ان جبرئيل كان متصوراً في خيال النبي. وهذا لا يجعل من النبي إله بل علامة على السِعة الهائلة للعبودية المقربة إلى الله.

ميتافيزيقيا الوصال:

إلى جانب هذه النظريات بدأتَ بأبحاث لاهوتية، هل هناك ارتباط مفهومي بهذا الموضوع؟

نعم، لقد نقبّت كثيراً في قصة النسبة بين الله والخلق، وهذه إحدى الموضوعات التي كنت مغرماً بها لسنوات، وطالعت فيها كثيراً، وذكرت بعض نتائجها وسأذكر البعض الآخر لاحقاً.

بعض منها اكتشافات تعود إلى العرفاء والفلاسفة القدماء كشهاب الدين السهروردي والملا صدرا الشيرازي، والبعض الآخر نتائج تأملاتي العميقة.

نعم سنوات طويلة خضت في هذه النقطة لفك عقدة تلك الالغاز، وإيجاد الارتباط واللقاء بين ما وراء الطبيعة مع الطبيعة، وكيفية ظهورها في الطبيعة، وكيف يكون للفعل الطبيعي جنبة ماورائية في آن واحد، والمسافة بين الله والخلق وكيفية رفعها، واشكاليات أخرى غير قابلة للحل.

كنت معتقداً جداً بهذه الفكرة وارى انها من أكثر الأمور تعقيداً وهي عقدة العُقد في الميتافيزيقيا الإسلامية، ومن هذه الجهة فأنا اضع ميتافيزيقيا الوصال في قبال ميتافيزيقيا الفصال.

فيما يتعلق بنسبة الممكن والواجب: جميع الفلاسفة يقولون الواجب يحل محل الممكن، ولا يفقد الممكن صفته الامكانية، وكذلك ممكن الوجود، بمعنى ان الممكن مندّك في الواجب، وهذا الاندكاك لا يبقي له شيء.

لماذا لا يعطى الأصدقاء ممن درس الفلسفة الإسلامية التأمّل الكافي لهده المسألة، دعك عن العرفان، ولنتكلم في الفلسفة وخصوصاً عندما نصل إلى فلسفة الملا صدرا ونقرأ ان المعلول شأن من شؤون العلة، هذا الموضوع بالنسبة لي يصبح أكثر وضوحاً.

الملا صدرا في الأسفار له باب بعنوان " في التنصيص على عدميّة الممكنات " يصرح هناك بأن الممكنات عدمية ومجوّفة، الله هو الذي يملؤها.

هذا الكلام استقيته بلغة سهلة واستخلصت منه النتائج وطبّقته على مصاديق جديدة، وعجبي من بعض يتصورون إلى الآن ان الله جالس في مكان بعيد، ويرسل لرسائل، ويعلم الأنبياء كيفية الخطاب بالعربية والآرامية والسريانية ...

برأيي أن بعض الافكار الساذجة العامية مازالت تخطف أذهاننا، فالقبول بفكرة ن الله يهيمن على العالم لازالت بالنسبة لنا صعبة الهضم.

الحلول والاتحاد:

ولرب سائل يسأل وماذا عن مسألة الجبر والاختيار؟

نعم هذه لابد من حلّها في محلّها، وفي حدود ما قد حُلّت، واينما تصورت الله تبرز مسألة الجبر والاختيار، وكأنها توارد للأفكار، لكن هذا لا يعنى فقدان الله بكل ما في الكلمة من معنى عن الحضور في هذا العالم.

الملا صدرا في ابحاثه العالية يقول: لا يتصور من كلامي معنى الحلول في العالم، لان الحلول والاتحاد يأتيان في موارد الاثنينية، حيث هناك شيئان احدهما يحل في الآخر أو احدهما يتحد مع الآخر، وهنا شيء واحد وهو الله.

يقول الشيخ محمود الشبستري في "گلشن راز ":

الحلـــول والاتحـــاد هنـــا محـــال   في وحـدة الشـيئين عـين الضـلال

الملا صدرا في مورد تنقيح المسألة يقول ان السؤال ليس في محله، لأن الحلول والاتحاد إنما يأتيان في مورد يكون هناك شيئان، وهنا لا يوجد الا شيء واحد ليس أكثر وهو الله.

أتصور لو أننا فهمنا المسألة بصورة صحيحة ستكون كثير من الإشكاليات قابلة للحلّ.

هذه المسألة صوّرها شاعر يعجبني كثيراً وهو الخاقاني في قصيدته " المدائنية ":

قـالوا انهـدَّ صـرح الفلـك واحتضـنه   حكم الفلك الدوار أو حكم الفلك الدوار

وحقيقة الأمر هو حكم الافلاك، الفلك الدوار الأول هو الطبيعة، والفلك الدوار الثاني هو ما وراء الطبيعة التي تحتضنها بيديها.

تفاصيل أكثر في هذا الموضوع أرجؤها إلى مناسبة أخرى، وأكتفي بالمثال:

عندما نقول الشجرة ممكنة الوجود، ننسب صفة غير محسوسة وغير طبيعية للشجرة، كذلك تداخل المحسوس واللامحسوس، والطبيعة في ما وراء الطبيعة. هذا اجمال من تفصيل ...

يقول السيد كديور: بناء على تصريح صاحب النظرية، يكون قد رفع السرية عن القرآن، وحينئذ نسأل رفع السرية عن الغيب هل يبقي شيئاً من الغيب، ورفع السرية عن الوحي هل يبقى للوحي حيّزاً للانتفاع به؟

السيد جعل من هذا الموضوع مورداً للسؤال، وفي الأماكن أخرى جعل منه خبراً حينما يقول: فلان لم يبق من الدين شيئاً.

بالطبع كتبت اعتراضاً ونقداً عليه، ولا يليق بشأنه سماع كلاماً لا يعجبه من شخص يعتبره خارج عن دائرة التديّن، أو من الماديين في أفضل الحالات.

على كل حال، لا اعلم ما يقصده من اللغز، انا كشفت اللغز وقلت إذا أردتم معرفة ما هو الوحي؟ انه شبيه الرؤيا، ولغته لغة الرؤيا، وأوضحت أمراً مجهول بأمر معلوم لأفهام المعنى بشكل أبسط.

الحكماء تحدّثوا عن الوحي وقاموا بذات الاعمال، طبعاً لم يقولوا بالرؤيا، وقالوا بالخيال المتصل والمنفصل، وعلم المـُثُل والملكوت الاعلى وامثال ذلك ... قالوا من الملكوت الاعلى ينزل الوحي وينزل إلى أن يصل إلى العقل الفعّال، ثم يصل إلى سمع النبي وبصره، هؤلاء أيضاً اوضحوا آلية الوحي.

حينما يقول الفارابي أن قوة خيال النبي على درجة من القوّة تجعل الصور الوحيانية متصورة في ذهنه، هو يقوم بحل الغازالوحي أليس كذلك؟

وإذا اعتبرنا أي توضيح يدخل في باب الغموض، ثم نتكلم عن القدسية وان الدين لم يبق منه شيء، إذن فلنغلق أفواهنا، ونصبح مثل مالك بن أنس حينما سؤلَ

عن ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[1] قال " الكيفية مجهولة والسؤال بدعة "[2].

هل للسيد كديور نفس الرأي؟

لا يوجد حكيم لم يذهب بهذا الطريق.

على ما يبدو ان القدسية عنده ملازمة للمجهول، يعني اذا كان الشيء مغلقاً وغير مفتوح يكون سراً ومقدساً وفي لفافة من الغيم الملكوتي، اما اذا رفعنا هذه اللفافة وجعلناه عرياناً نكون قد افشينا سره ولم يبقى له أثر، هذا التصور غريب، برأيي أن الوجود كله مرموز، ولا يوجد في هذا العالم شيئا مرموزاً قد اكتشف، اللغز متعلق بوجود الاشياء، ولا يتعلق بنسبة علمنا بالأشياء، وبتعبير مولانا جلال الدين: اللغز حكمه حكم الجمل حينما يدخل في قن الدجاج حيث يجعله هشيماً:

لأنه وضعَ قدمه في بيت الدجاج   دُمّر البيت وسقط سقفها[3]

الألغاز بهذا المعنى تعني الغموض وهي ليست من المقولات الذهنية، لا أنها مجهولة. من الممكن أن لا أعرف رقم هاتفك لكنه ليس لغز من الغاز العالم، إذن كشف الأسرار أمر ممدوحٌ ومستحسن، وهذه هي وظيفتنا في العلم والفلسفة. هذا أولاً.

ثانياً: لا وجود للغز الذي يمكن كشفه، ولو اكتشف هذا اللغز يعني انه لم يكن لغزاً اصلاً! بمعنى أن جهدنا لرفع الألغاز لا يقلل من الغموض الذي يلف العالم.

السيد كديور في النقد الآخر يقول: هذه النظرية هي الدين وليست معرفة دينية بشرية، وهل الدين البشري دين الله، وما هو تعريف الدين أساسا؟

هو يعتقد بأن قولنا الله خالق محمّد، ومحمّد ﷺ خالق القرآن لا يكفِ ؛ لأن كل شيء مخلوق لله، كما أن المثنوي أو كيمياء السعادة لا يختلفان عن القرآن لأن مؤلفَيهما من خلق الله أيضاً.

---

(1) طه: ٥

(2) " الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والسؤال عنه بدعة " الشهرستاني، الملل والنحل، بيروت، دار المعرفة، ج١ص٨٤

(3) المثنوي الدفتر الثالث

هذا الإشكال لا يرد أصلاً، نعم الدين ممكن أن يصبح بشرياً.

في العلوم الطبيعية عندما توضّح كيفية رشد الجنين تصبح الحياة طبيعية، نعم الحياة أيضاً تصبح طبيعية ؛ لكن لا تزول منها الوجهة الإلهية، كذلك أيضاً يحصل الابهام في انفصال الخالق عن المخلوق، نعم الدين يصبح بشرياً، ولأنه بشر إلهي فدينه وكتابه الهي أيضاً.

وعلى هذا الجواب يمكن قياس بقية الكتب والخطابات وكونها الهية، حسناً نعم كل شيء الهي، كلامي الذي اتفوه به الهي أيضاً، المثنوي وكيمياء السعادة الهية أيضاً، في الطبيعة كل شيء الهي، وما وراء الطبيعة، وطبيعة ما وراء الطبيعة مقدّرة بأقدار الطبيعة.

أما وألف أمّا الذهب ليس نحاساً، وكل شيء طبيعي لا يعني ان كل شيء متساوٍ، وكل شيء إلهي لا يعني أن كل شيء متساوٍ، فالذهب خلق الله والنحاس كذلك، وكل ينسب إلى الله وإلى الطبيعة، وفي كل الأحوال هما مختلفان.

إن كان السيد كديور يعتقد بأن القرآن وحي الهي ؛ فلابد للقرآن أن يظهر نفسه ذهبي أو نحاسي

خلاصة الكلام: أن الله خلق الناس بمنزلة الذهب أو لهم القابلية على أن يكونوا ذهباً، وهناك أناس بمنزلة النحاس أو لهم القابلية على أن يكونوا نحاساً، ولذا منتجاته مختلفة، وأن كل فعل لله لا يعني أن كل أفعاله متساوية وذات قيمة ومحتوى واحد، ولذا عندما نقول القرآن تأليف النبي، والمثنوي تأليف مولانا، وكلا المؤلَفين إلهي لا يعني أن المثنوي صار مثل القرآن، وإذا صدق ادعاء المسلمين يكون احدهم بحكم الذهب والآخر بحكم الفضة، وبناء على ذلك فلا إشكال يظهر في البين.

فلنستعرض نظريتكم الأخرى.

أثار السيد كديور انتقادات حول " محمد راوي الأحلام النبوية "، وقبل ذلك تعرّض للنقاط الاثني عشر التي اوردتها في المقالة السادسة والتي ادعيت فيها ان الأحلام النبوية ممكن أن تشكّل حلاً لها، فلنستعرض هذه الاعتراضات:

على فرض أن النظرية تشكّل حلاً للإشكاليات لكن لازم قبول النظرية ليست الرؤيا الوحيانية، وذلك لان المقالات الاستدلالية لم تقم لإثبات رؤيا الوحي، وعليه لو وجدت نظرية بديلة تكون حلّاً للإشكاليات وفي ذات الوقت تحفظ لنا عالم اليقظة ستكون مرجَحة على الاخرى، خصوصاً أن النظرية لم تقل بعدم البديل.

يعتقد السيد كديور بوجود النظرية البديلة، وهي نظرية العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان حول التأويل، وتقرير النظرية يؤكد على النقاط التالية:

علامة التأويل ليست من جنس المدلول والمفهوم اللفظي، وإنما هي حقائق عينية، وجميع آيات القرآن ذات دلالات تأويلية وليست المتشابهات فقط، هذه الحقائق العينية موجودة في أُم الكتاب أو اللوح المحفوظ أو الكتاب المكنون، ومنزّلة في قالب اللغة العربية.

برأيه أن الإشكاليات التي ادعيت أنها تُحل بنظريتكم سوف تُحلّ بهذه النظرية، ولا حاجة لنا بتعبير المنامات.

لو تفضلتم أولاً ببيان هل أن الهدف من النظرية هو حلّ الاشكالات الاثني عشر أو أن الهدف شيء آخر، ثم بالتبع ستحل هذه الاشكالات، ثم تصوركم عن النظرية البديلة التي أثارها السيد كديور.

لا أعلم على وجه الدقة ما هو محط نظر الاصدقاء حينما يستدلون أو لا يستدلون على كلامهم، وعندما اتكلم عن الاستدلال اعني ان النظرية التي يمكن أن تسلط الضوء على مجال ما - كما يقول قدامى اليونانيين - وتكون منقذة من الضياع، هذا أفضل شاهد على قوة النظرية، ولما تظهر شواهد ناقضة للنظرية، تلك الشواهد تضعف النظرية.

لست هنا أمام رأي فلسفي ميتافيزيقي لأستدلّ عليه بالبرهان، والبرهان محله الفلسفة، وفي المعقولات الثانوية والانتزاعية، وإنما نواجه أمر جزئي خاص وهو القرآن وكيفية تكوّنه، هنا محلاً للدليل، والدليل يعني الشواهد والقرائن، وليس تجميع ساذج

واستقراء للجزئيات، حتى مع الاستقراء لابد من توافر شروطه التامة المقبولة لتوضّح الظواهر بشكل أوسع.

و كلما ازدادت الافتراضات ودخلت تحت غطاء النظرية تضاعفت قوتها،، وعندما يظهر مورداً ناقضاً يتضاءل تحت ظل قوة النظرية.

و هل كانت نظرية السيد الطباطبائي أو السيد كديور مبرهَنٌ عليها؟

لا، هؤلاء أيضاً أوردوا شواهد مؤيدة لنظريتهم، وبعض تلك الشواهد من داخل المتن والبعض الآخر من خارجه، ولم يكن في أي منها إثبات برهاني، ولعلهم يقنعون شخصاً أو يجعلونها مقبولة عنده، ولا سبيل لأحد أكثر مما ذكرنا، والمهم التمكن من إيضاح الظاهرة بطريقة مباشرة ومن دون إضافة التبصرة والملحق والطرق الملتوية.

أعتقد أن الطرق التي أشار إليها السيد كديور، والطريق الذي سلكه السيد الطباطبائي[1]، وحتى طريق الملا صدرا، كل هذه الطرق تحتوي بنحو ما على تفريعات متعددة ومتنوعة لا يؤخذ بها، ولذا فكّروا بعلاج خاص لكل مورد بخصوصه.

مثلاً الصبغة القبلية العربية في القرآن، تفُسّر على رأي ما لا دخل له بأُم الكتاب، لكن آيات المعاد يرجعوها إلى أُم الكتاب.

وفي موارد آيات الاحكام يتعاملون معها بطريقة أخرى، فأي مناسبة بين أم الكتاب والأحكام المتغيرة.

نظرية الرؤيا لم تأتِ لحل الإشكاليات الاثني عشر، والكثير من تلك الإشكاليات لم تكن ضمن مساحة تفكيري، لكني أراها واقعة تحت ظلال النظرية.

حينما أجد في آثار القدماء قصوراً، وأفكر في نظرية الرؤيا وانها ممكن أن تحلّ الكثير من تلك المسائل التي لم تدور في مخيلتهم بل وأعثر على أشياء أخرى وأضعها أمام الملأ.

---

(1) هذا الطريق أشبه بالطريق الذي اقترحه الاسماعيلية، وقصة المثال والمثول تجدها كثيراً في مراسلات الإسماعيلية والباطنية، فهذه أيضاً من خطابات التأويل لكن بسك خاص. المؤلف

كما لاحظني السيد كديور وبعض الاصدقاء وبدلاً من بيان مورد نقدهم يقولون: أنت في كل موردٍ ذكرته نحن لدينا علاج ونظرية مستقلة لتبيانه، وبدلا من نظرية واحدة بسيطة يقترحون عدة نظريات. وهذا ليس سياق لصياغة نظرية.

نظرية الرؤيا ثوب واحد يغطي كل تلك الموارد، ولا حاجة إلى عشر نظريات، ومع وجود نظرية واحدة مغنية لا داعي لكل تلك النظريات، وهذه التغطية للنظرية شاهدٌ على قوّة النظرية.

المخالفون لابد لهم من بيان موارد نقدهم، وهذا لا أراه عند السيد كديور.

في الواقع هؤلاء الأصدقاء ما يريدون قوله ان النبي في مورد الوحي منفعَلٌ، وإحدى دعائم ما أقوم به هو إثبات أن النبي في مورد الوحي ليس كذلك، ومع عدم الأخذ بعين الاعتبار بأن النبي في مورد الوحي كان فعّالاً تبقى الإشكاليات التفسيرية والكلامية على حالها ولا تأخذ طريقها للحلّ.

برأيي أن إحدى كعب أخيل[1] المعترضين المحترمين ومن جملتهم السيد الدكتور كديور إصراراهم على سحب البساط من تحت رجل النبي وإخراجه، والقول بأن الوحي تكوّن في الخلاء، ولو أن شخصاً آخر غير النبي مكانه لحدثت قصة الوحي أيضاً، طبعاً هم لا يصرحون بذلك، ولو واجهتهم بهذا السؤال لأجابوا بلف ودوران ولقالوا " إن الله كان ملتفتاً للنبي، وكان عبداً خالصاً لله "!

لابد من توضيح هذا الكلام، أي مدلول عملي وطبيعي له؟

ثم بالنتيجة نريد أن نعرف هل كان له تأثير، أو كان يقوم بدور شرفي واعتباري؟

لدي على هذا النوع من الكلام اشكالين كبيرين:

الأول: الدور الذي يلعبه النبي في هذا الميدان ليس واضحاً.

(1) كعب أخيل: أسطورة من الميثولوجيا الاغريقية تصّور باريس أخو هيكتور إلى تسبب في حرب الطروادة عِرفَ نقطة ضعف كعب أخيل فصوب لها سهماً واسقطه ارضاً ثم تمكن باريس من قتله، فذهب مثلاً يشير إلى نقطة ضعف مميتة عند الشخص إن أصيبت تؤدي إلى سقوطه على الرغم من كل القوة التي يمتلكها.

لقد أوضحت الدور، وادافع عنه، وارى في هذا الدور حلاً للكثير من الإشكاليات، وأقول: أنا أعطيت الحد الأكثر لدور النبي، أنتم أعطوا الدور الأقل، وهذه القلّة ليس لها سقفاً معيناً، وبأقل تغيير ممكن فعله يصبح الأقل كثيراً، ثم هذا الذي تقولونه عن النبي أنه ليس سوى مايكرفون، وهم أنفسهم يسألوني عن دور النبي في الوحي كأمثال السيد كديور.

أنا أعطيت الدور الأكبر للنبي في الوحي، وكان ملائماً مع المواضيع التي ذكرتها ومن جملتها أن النبي شامل لكل النعِم التي أعطاها الله للمسلمين وفوّضها إليه كالدين والتشريع والأمر والنهي.

والأخرى انه كان ذهباً بين جمع النحاس، فصار كلامه ذهباً - هذا باعتقاد الجماعة المؤمنة -.

الثاني: هو الميتافيزيقيا السميكة والثقيلة في موارد العلاقة بين الله والإنسان التي لا أساس محكم لها.

هذه الميتافيزيقيا غير موجودة هنا أصلاً.

أما فيما يتعلق بالنظرية البديلة التي أثارها السيد كديور فهي مخدوشة.

نعم نظرية الرؤيا لا بديل لها، ولا توجد نظرية كنظرية الأحلام النبوية قادرة على تغطية كل تلك التفرعات، حتى النظرية البديلة المقترحة لا تغطي تلك التفرعات مطلقاً، ونظرية المثال والمثول، وأُم الكتاب، والكتاب المكنون واللوح المحفوظ تتضمن ميتافيزيقيا سميكة وثقيلة، أما نظرية الأحلام النبوية من هذه الجهة فهي رقيقة وخفيفة الوزن جداً.

ومن مميزاتها أن تفريعاتها قليلة وهي لازمة لجعل النظرية مقبولة.

وقد قلت ذلك في كل مكان ان نظرية الرؤيا تتبع اصل وليام اوكامي الذي يقول لابد من قلة التفريعات والمفروضات في النظرية لتجعلها سهلة، وهذه من الشروط والمتطلبات التي وضعتها في المرتبة الأولى. ولم تراعا تلك الشروط عند السيد كديور.

لا بدّية إثبات الوحي من خارج النص:

النقطة المهمة الأخرى هي أنه جعل من القرآن متكأً لكل ذلك؛ فذهب إلى أم الكتاب، وهذا معناه التأويل في القرآن، والبحث في مفاهيم من هذا القبيل هي أبحاث في عمق المتن، في الوقت الذي يكون بحثنا خارج القرآن، لتتكوّن لدينا نظرية حول المتن.

ليس بالإمكان بيان معنى النص والوصول إلى النتيجة المطلوبة بالاستناد إلى مؤيدات النظرية من ذواتنا، هذا سيَر بلا هدف، وأنا متعجب من السيد كديور في تحرير المسألة يبدأ موضوعه بعلامات تعجب في أكثر من مكان، فيكتب ان فلاناً يقول أنه لا يستند إلى آيات من داخل القرآن، والحال أن ذلك ليس مورداً للعجب، هذا شرط في منهج البحث.

البحث حول كيفية فهم القرآن وشروطه ومتطلباته هذا بحث من خارج القرآن وليس من داخله.

على سبيل المثال: لا يمكن إثبات مجازية لغة القرآن من داخل القرآن نفسه، حتى وجود المحكمات والمتشابهات لا يمكن بيانها من داخل القرآن والاستناد بها إلى القران نفسه، رغم تصريح القرآن بوجودها، فهذه من خصائص اللغة، فكل لغة لها مراتب مختلفة من المحكم والمتشابه، وليست من مختصات القرآن،، حتى حافظ والمولوي وابن سينا والسهروردي يوجد في كلماتهم المحكم والمتشابه، ولو أردنا أن نقول بوجود المحكم والمتشابه في القرآن لا يصح الاستدلال بالقرآن لبيان ذلك، وإنما يّستدل بالخصائص اللغوية.

وبناء على ذلك: رأي السيد كديور المقتبس من كلام المرحوم الطباطبائي من داخل النص، وهذا نقص كبير.

ومنه يُفهم خطأ السؤال عن وجود وحي الرؤيا في القرآن، فالبعض يسألني: في أي مكان من القرآن ذُكران الوحي عبارة عن رؤيا، وحتى لو ذكر القرآن الرؤيا الوحيانية حينئذ تفسيرها بحاجة إلى نظرية من خارج النص.

فالاستناد إلى داخل النص لتأييد نظرية من خارج النص برأيي هو ضلال تام وسلوك طريق خاطئ، ومثالهما مثال الباص والطائرة لا يمكن ان يتصادما، لأنهما يتحركان ضمن مسيرين مختلفين.

على سبيل المثال لا يمكننا الإتيان بدليل من نص القرآن يثبت أن لغة القرآن استعارية أو لا، أو لغته وحيانية أو عرفية أو فلسفية أو غير ذلك...

و بناء عليه فالنظرية التي أثرها السيد كديور ليست تصادمية مع نظرية الرؤيا أصلاً لأنهما يسيران بطريقين مختلفين، رغم أنها ذاهبة بالطريق الخطأ.

يعني في تصوركم التحقيق في أوجه التشابه بين النظريتين لا يساعدنا في البحث؟

إذا كان هناك تشابه في البين فهو من باب المصادفة لا أكثر، وأنا لا ادخل في بحث التشابه من عدمه، وفي الأصل أقول أنها ذاهبة في الطريق الخاطئ.

وعلى رأي مولانا جلال الدين:

هذه شجرة الزهر من جرح الطبر   وهذه الشجرة من نسيم السحر[1]

نقطة مهمة أخرى لابد من الإشارة اليها وهي أن السيد كديور لم يطّلع على البارادايم الجديد، وهرمونيطيقيا النص، وبدلا من الالتفات إلى جدال النص والواقع، لا زال يتحدث عن نزول النص من العرش إلى الفرش، كان عليه أن يَفتَح ذهنه في هذا الباب ويصنع منه ذهناً متنوّراً، ليقوي رأيه ويرجع مدار البحث في الهرمونيطيقيا الجديدة.

يقول السيد كديور: تشتمل نظرية الرؤيا على عالم غير لفظي الذي هو اعتماد آيات القرآن، وهو رؤى النبي، وفي النتيجة هو قسم من ذهن وضمير النبي، اما في نظرية التأويل فهناك وجود متعالٍ لأُم الكتاب وهو مقدّم على وجود النبي، وهذه حسنى تسجل لنظرية التأويل على حساب الرؤى.

(1) المثنوي، الدفتر الثالث، البيت ٤٧٧٣.

هذا الكلام قد قاله ابن عربي، ولم يورد عليه حتى نصف دليل، ومحلاً للعجب من السيد كديور ان يأخذ بهذا الكلام.

هناك تعارض في المواضيع التي اوردها السيد كديور:

١- ان كان يطالب بالدليل، ودليل برهاني على الرؤى فينبغي ان يطالب الجميع بالدليل بما فيهم ابن عربي.

٢- كما ذكرت سابقاً: أن نظرية ابن عربي مستلزمة لمقدمات سميكة وثقيلة، والذي دعاني إلى طرح نظريتي هو الفرار من كل ذلك، وأنا أسأل السيد كديور: هل ضرب النساء، وتقسيم الارث، احكام كانت في أُم الكتاب؟

هذه أحكام جزئية ومؤطرة بأطر زمان ومكان النبي، والطريق لحلها هو عالم الخيال المنفصل والمتصل، وليست أُم الكتاب.

الذي جلب انتباه ابن عربي وامثاله هو مسائل المعاد والتوحيد، تلك التي تظهر بوضوح من خلال المعرفة برؤيا الوحي.

ولو أردت ارجاع الوحي إلى الخيال المنفصل والأقاليم الثمان أي شيء تريد تفسيره؟

تقولون إن الكلمات التي كان يقرأها النبي على الناس وحيٌ، حسناً ونسأل ما هو الوحي؟

تقولون هو نابع من عالم الخيال المنفصل أو العقل الفعّال. ونقول ما هو الخيال المنفصل أو العقل الفعّال؟

تقولون هو عالم أدنى من عالم الملكوت وأعلى من الخيال المتّصل ...

هذه ليست حلاً للمسألة، وليست قرأناً، ما فعلناه هو إصلاح واحد فسرناه بعشرة اصلاحات أكثر انغلاقاً وغموضاً.

القرآن يستخدم إصلاح الوحي للنحلة، وهو ليس اصلاحاً من جنس المشتركات اللفظية، بل يريد أن يقول أن للوحي مراتب أعلى وادنى، وهل أن وحي النحلة منبعه عالم الخيال المنفصل؟

ليس كذلك هو نابع من قلب النحلة، ولهذا نقول أنهم أضاعوا رأس السلسلة، ولقرون مديدة أعادوا ذات الكلام دون نتيجة مرجوّة.

وهذا الذي ذكرناه من تعبير للرؤيا، وأن الرؤيا منعقدةٌ في ضمير النبي، هذه ليست منسوبة إلى عمق الواقع ؛ لأنها رؤيا صادقة ومظهر واقعي لمنابع المعرفة الشهودية.

يقول السيد كديور مع علامة تعجب مشوبة بالفكاهة:

إن فلان يقول: أنا لا أُفسر القرآن، وهذا ليس من عمل الفلاسفة، هو عمل خاص بالمفسرين.

نعم وهو كذلك أن لا أقوم بهذا العمل، ولعلى البس هذا الرداء يوماً، العجب ليس هنا، العجيب أن الآخرين يفكرون أن لو دخلوا عالم التفسير، سيكون تفسيراً معتبراً ذلك الذي ينتجونه.

أنا لا أعتمد على تلك التفاسير، ولا أُحبذ هذه الطريقة في التفسير.

إذن ليس الأمر يتعلق بهذا الجانب المفسّر، أو الجانب الآخر غير المفسّر ...

الشيء المقلق انك تعتبر الوحي نتاج ذهن وضمير النبي، ولا تقول بما وراء ذلك.

السيد كديور مثلاً في اعتراضه الآتي يقول: إن القرآن منبعث من عالم خيال النبي كما يُدعى، وهذا معناه: أن لا شيء يصّور آيات القرآن ويلعب دوراً في تشكيلها سوى ذهن وضمير النبي، ولا حقيقة متعالية في البين مقدّمة على ذهن وضمير النبي.

هذا القلق يمكن رفعه بسهولة متناهية، فلو فُرض ان مفكراً اكتشف شيئاً بعد اعمال جهده الفكري، ماذا يقال عنه؟

يقال ان هنالك حقائق متعالية قد توصل اليها بفكره، كالشجرة الطويلة التي تقطف ثمارها نتيجة تفكيرك بوضع سُلّماً عليها.

أو يقال انه خلق تلك الحقائق المتعالية نتيجة تفكيره؟

أيهما أصح الأقوال؟

كلاهما صحيح.

لأن كشف الماهية أو خلقها امر معقّد جداً، وهما متداخلان ببعضهما البعض.

هذا التداخل لابد من الالتفات إليه جيداً.

يقول أحد الفلاسفة: أن النَحّات عندما يأخذ قطعة من الحجر ويستخرج من قلبها نحتاً جميلاً. بإمكانكم القول أن النحت الجميل كان موجوداً من قبل داخل قطعة الحجر، والنحّات قام بعملية تهذيب للشوائب الزائدة.

و يمكن القول بأن النحّات بدقته وظرافته استطاع أن يخلق نحتاً جميلاً من قطعة حجر.

كِلا التعبيرين صحيحان.

ماذا نقول عن ابن سينا: إنه فيلسوف بفكره ولغته قد أعاد صياغة الواقع، ولذا فلسفته كشف وخلق.

هذا الموضوع بذاته يمكن تطبيقه على النبي أيضاً.

الله بالنسبة إلى النبي يعتبر كشفه وصياغته وخالق ذهنه ورؤياه وكل ما يخص دين النبي، وكذلك الواقع أيضاً صاغه بصياغته، ولذا ابداع الطبيعة كان سهيماً أيضاً.

هؤلاء الأعزاء يريدوا أن يقول أن كل ذلك في أم الكتاب، واينما يكون ليس بالأمر المهم، كما ان المفكّرين لا نسأل ان كشوفاتهم اين كانت، ونكتفي بالقول انهم توصّلوا إلى الحقائق بفكرهم، وفي مورد النبي كذلك نقول ان رؤياه اوصلته إلى كشف وخلق حقائق الله والمستقبل والمعاد وغيرها، وظهرت إليه بصورة علائم.

يقول السيد كديور: لو أبدلنا تفسير القرآن بالتعبير، ومع الالتفات إلى عدم الاشتراك الذهني.

كيف يمكن ابطال هذا العلم الجديد؟

السيد هنا واقع بخطأ كبير، الرؤيا الزمانية داخل ضمير النبي ليست مشتركاً ذهنياً، لكنه عندما يوضّح رؤياه تصبح مشتركاً ذهنياً، أليس القرآن مشتركاً ذهنياً؟ فإن كان كذلك يصبح إبطاله أمر ممكنٌ.

السيد كديور لا يعتقد بأن نظرية الرؤيا تصلح حلاً لما ذكرته من الفوضوية في نظم القرآن، وهناك نظرية بديلة أصلح لأن تكون حلاً.

هو يتكلم عن نظرية " نظم القرآن " لميشيل كويبرس[1].

السيد حسن أنصاري وهو أحد المعترضين على الرؤى أشار أيضاً إلى كويبرس لكنه لم يعط توضيحاً أكثر.

السيد كديور أوضح ان كويبرس اثبت ان سورة الفاتحة ذات نُظم، وفي صورة الأستناد إلى نظرية الرؤى لبيان فوضوية نظم القرآن هذه النظرية تعتبر ردّا عليها، وفي الواقع ان كديور يثير نظريتين بديلتين للرؤى وهما نظرية التأويل للعلامة الطباطبائي ونظرية النُظم لكويبرس.

برأيكم هل تصلح تلك النظريتين حلّا لإشكالية فوضوية الآيات، وبالنتيجة تكونا بديلاً للرؤى؟

١- عجبي من الأصدقاء حينما يأخذوا بنظرية ومن دون أدنى تأمل في ادلتها ومناقشتها فيقبلوها ويرتضوها.

٢- كما أشرتِ، أن ما يقوم به كديور عمل تفريقي وليس تجميعي، بمعنى انه يأتي بنظرية لتكون حلاً لهذا الفرع ثم يأتي بنظرية أخرى لحل الفرع الآخر، وهذا التفريق لا يقف في مقابل نظرية متكاملة تجمع كل تلك التفريعات، وهذا هو النقصان الذي أشرت إليه سابقاً.

٣- المشكلة ليست في فوضوية سورة المائدة، وقد أوردت سورة النور على سبيل المثال أيضاً، سورة النور التي تبتدأ بحديث أفك عائشة، وفي الختام ومن دون سابق إنذار

(1) michel cuypers بلجيكي الجنسية ولد في إيران ١٩٤١ ويعيش حالياً في مصر.

تلج إلى أعلى التجارب الدينية للنبي، وتبيّن آية ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم تنجر إلى زواج الإماء والغلمان.

والملفت هو ان ابتداء السورة تتحدث عن ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ وكأنها تتحدث عن قطعة واحدة غير مجزَأة، ولا يمكن اللجوء إلى رأي الآخرين ممن وضعوه جنباً إلى جنب. وعليه لا يمكن اعتبار أن المسألة قد حُلّت وانتهى الأمر، والسور المكية كسورة العلق هي كذلك فوضوية أيضاً.

٤- على فرض عدم وجود الفوضوية في القرآن، فهذا لا يخدش بالنظرية ؛ لأنه ليس مورداً للنقض، بل قد يقال - في الأكثر - إنه تفريغُ أريد من النظرية تغطيته، وأن لا يخرج من تحت ظلالها، وهذه النظرية ليست بديلة إذن، لأن البديل لابد من القيام مقام كل النظرية.

بالإضافة إلى أن اصل نظرية السيد مارغريت داغلاس وبعدها السيد كويبرس وأمثالهم، تشتمل على مقدمات، منها أن البلاغة العربية الكلاسيكية - عربية سيبويه والخليل - مقتبسة من البلاغة اليونانية، والحال أن عربية القرآن لا تتبع النظم والبلاغة اليونانية.

هذا الرأي فيه نظر ومحل تردد من قبل البعض، ولا يمكن الإذعان إليه بسهولة.

بالمناسبة: السيد كويبرس ونيل رابينسون استندوا إلى التوراة في اثبات شكل نظم سورة المائدة باعتباره شبيهاً بنظم التوراة، وكأنها كُتُبَتْ على نسق سفر التثنية.

لا أعلم إن كان الأصدقاء يرتضون بالفعل أن سورة المائدة نظمت على نسق التوراة، وإن رضوا فما هو حكم نظريتهم حول الوحي المحمدي، وهل سيرجعونه إلى اللوح المحفوظ أو أم الكتاب؟

لدي الكثير مما سأقوله في مقام آخر.

السيد كديور في باب تعارض العلم مع النص المقدس، ذكر إن القرآن يساير ويراعي الذهنية العربية في ذلك الزمان، وهنا اسأل: هل حصلت المراعاة للذهنية العربية في اللوح المحفوظ وعالم الخيال المنفصل؟

و هل هذه حقاً حقائق أم أنها حقائق متناسبة مع الذهنية العربية؟

ولتوضيح الأمر وتوجيه التعارض المذكور يوضع النبي وتصوره الخلاّق وتجربته العينية والذهنية لرفع ذلك التعارض، وهذا ما قُمتُ به أيضاً، وهو الموافق لنظرية الأمثال للفارابي.

تحتوي التوراة على مواضيع مخالفة لعلم ذلك الزمان أيضاً، فهل نقول هنا لا إشكال فيه أيضاً؟

وكيف يكون الحديث عن التعارض مع العلم أمر لا إشكال فيه؟

البحث في العلم والدين ليس بالأمر الهيّن والعشرات تكلموا عنه، لكن كلامي في التطابق بين العلم وذهن النبي الذي هو مؤلف القرآن، وليس علم الله ولا أنه مراعاة لجهل العرب.

جاء في سورة العلق **﴿خُلِقَ الإنسان مُنْ عَلَقْ﴾** والعلق هو قطعة الدم كما هي الترجمة الغالبة، لكن قالوا إن العلق في اللغة العربية هو نوع من الدود، ولكن تصوري أن النبي رأى في الرؤيا ان الإنسان مخلوق من دودة[1]، الملفت أن شكل الجنين يشبه في العموم شكل دودة ليفصلوا فيما بعد أعضاءها ويضعوا هوية جديدة لكل منهم، والعلم عند الله.

يعتبر السيد كديور المعراجُ معجزةً سواء كان جسماني أو روحاني، والقول بالمعجزات يضعف الايمان بالرؤيا، والشخص الذي لا ينكر إمكانية تحقق الخيال المعراجي فأي حلٍ لنظرية الرؤيا يتباهى به.

يظهر أن السيد كديور يؤمن بأن المعراج متحقق في عالم الخيال، إن كان كذلك فنحن بحاجة إلى نظرية الرؤيا؟

لا، ليس هذا ما يراه، هو يقول ان كان المعراج معجزة حينئذ لا يمكن ان يكون في المنام، وحينما دار النبي في الافلاك، كانت تلك الافلاك الظاهرة وهي ذات سيارات المنظومة الشمسية، لكن هذا ليس كافياً.

(1) رغم أنه كان على اطلاع بعلم الأجنة إلا أنه أراد ان يتكلم إلى طبق مع علم العرب آنذاك.(المؤلف)

حينما عبر موسى نهر النيل، وعصاه تحولت إلى تنين، وبقية المعجزات كلها كانت كذلك، ولا يوجد نبي كانت معجزته خافية، لكن عندما يقول النبي أنه صعد إلى السماء هل هذه معجزة؟ إذ لم يره أحد أنه صعد إلى السماء.

في هذا المورد لا يخالف أحد مع كون المعجزة خيالية.

ما ينبغي قوله أن الأكثرية كانت مخالفة، ولذا لا يُعد المعاد الجسماني من ضروريات الدين.

في السنوات الأخيرة هناك من امتلك الجرأة على الحديث في هذا الموضوع، حتى السيد الطباطبائي تلويحاً وفي كلام ذي وجهتين، يفهم منه أنه سائر بهذا الاتجاه.

في الرسالة المعراجية المنسوبة إلى ابن سينا يقول فيها أن المعراج حركة فكرية وعقلية للنبي.

الملا هادي السبزواري في حواشيه على الأسفار الأربعة يلاحظ التكلّف الكبير الذي تجشمه لتوجيه المعاد الجسماني وجعله ممكناً.

أما نظرية الرؤيا، وببساطة متناهية تعتبرها حركة رؤيائية (منامية)، ولذا فهي بحاجة إلى التعبير.

السيد مكارم الشيرازي في حديثه عن المعراج يقول: كيف يمكن للصواريخ أن تذهب إلى السماء فكذلك النبي.

وعلى حدّ تعبيره هو محال عادي وليس محالاً عقلياً.

على أي حال، أتصور أن المعاد لم يكن معجزة، بل هو من مكاشفات النبي الباطنية والرؤيائية بالكامل.

السؤال الأخير:

يقول السيد كديور: أن الآيات الفقهية في القرآن تنافي العدالة والكرامة الإنسانية، ونظرية الرؤيا تعالج هذا الموضوع –كما تقول أنت –

لكن لسنا بحاجة إلى هذه النظرية، لأن الاحكام الفقهية قليلة من حيث العدد، واحكامها ليس دائمية، والنظريات التي تعالج الثابت والمتغيّر والنسخ العقلي تشكّل طريقاً لحل هذه الإشكاليات.

الظاهر إنّا رجعنا مرة أخرى إلى النظريات البديلة لحل هذه المشكلة.

نعم، كل فرع وجدوا له نظرية منفصلة، وكل نظرية لها مقدماتها الثقيلة.

يكفي أن تعرف أن ذلك من خَلق النبي ونتيجة رؤياه، وليس منزّل من اللوح المحفوظ، لترى سهولة حلّ هذه المشكلة.

لا يمكنني استيعاب كيف احتوت" أُم الكتاب " تلك الاحكام المؤقتة المتغيّرة، وهنا يكفيك أن تعرف أن النبي هو الشارع ليسهل حلّ هذا الموضوع، والأمر والنهي من الأمور الاعتبارية اصلاً، ولا طريق لها إلى ساحة الإله.، وهي اعتبارات يقوم الذهن البشري بأنشائها، كما ذكرت ذلك في مقام آخر

والله اعلم بحقائق الأمور والغيب المستور.

فرامرزي:

اشكر لكم مشاركتكم في هذا الحوار.

مواجهة مع الرؤيا (3)

سلسلة حوارات مع عبد الكريم سروش حول نظرية الأحلام النبوية

حول اعتراض حسن الانصاري

أفسانه فرامرزي... موقع زيتون

في العام الماضي وبعد مرور سنوات ثلاث على انتشار سلسة مقالات " مُحَمَّد راوي الأحلام النبوية " على الموقع الالكتروني " جرس"، عُرضت فرضية الأحلام النبوية في الاعلام من خلال المقابلة التي اجراها برنامج " پرگار " بين عبد الكريم سروش وعبد العلي بازرگان.

لم تواجه الفرضية في فترة نشرها إلا ردود أفعال محدودة، لكنها أصبحت فيما بعد معركة آراء انبرى بعض المفكرين للدفاع عنها في مقابل الاكثرية جابهوها بالنقد والرد.

في هذه السلسلة من الحوارات مع عبد الكريم سروش ومن خلال تبويب لتلك الاعتراضات ستكون الفرصة لصاحب الفرضية سانحة للدفاع عن فرضيته بشيء من الوضوح.

تقدَم في القسم الأول من هذا الحوار مراجعة "للقبض والبسط" و" التجربة النبوية " وقراءة حسين واله لفرضية الأحلام النبوية، واستبيان صاحب الفرضية.

القسم الثاني كان مخصصاً لاعتراضات محسن كديور على الفرضية عرضناها امام عبد الكريم سروش.

في هذا القسم الثالث نستعرض نقد حسن الأنصاري:

* * *

أشكرك على حضور الحوارية الثالثة من " مواجهة الرؤيا ".

السيد حسن الأنصاري في سلسلة ملاحظاته تعرض إلى نقد نظرية الأحلام النبوية، اسمحلي ان نبحث اهم ما جاء فيها:

الملاحظة الأولى تشتمل على ثلاثة انتقادات:

أ- فقدان البحث الميتافيزيق والإلهي حول ماهية الوحي في الأحلام النبوية.

ب- فقدان النظرة التاريخية في نظرية الرؤيا.

ج- يمكن لنظرية الرؤيا ان تبيّن بعض الآيات وليس جميع الآيات، في النهاية إمكانية عكس النظرية، وبالنتيجة يأتي البحث حول امكانية قبولها.

ولنفكك تلك الانتقادات الثلاثة:

طبعا هناك ملاحظات أخرى سنلحقها بهذه الانتقادات بالفرصة المناسبة لها.

لتوضيح النقد الاول:

نظرية الرؤيا محط نظرها ماهية لغة القرآن وليس الوحي. والعلماء القدامى لهم تفاسير مختلفة حول الوحي لكنهم مجمعون على ان منبع الوحي الهيٌّ، فإن كان منبع الوحي عند السيد سروش هو النبي إذن لابد من تفسير جديد للوحي، وهذا ما لم يفعله؟

في الواقع ان الأنصاري يعتقد بلابدّية البحث الإلهي أو الميتافيزيقي قبل الدخول في بحث لغة القرآن، وهذا الذي قام به القدماء.

لو تفضلتم بإبداء رأيكم حول هذا الموضوع؟

هل ترى ان الأمر ضروري بالنسبة للأحلام النبوية؟

هل نظرية الرؤيا فاقدة للبحث الميتافيزيقي؟

أشكركم، واشكر السيد الانصاري، وأعتقد أن بحثه واعتراضه منصف جداً، وقد أخذ شكلاً علمياً بالكامل وذا فائدة، وسأبذل جهدي لتوضيح الأسئلة والاعتراضات ما استطعت.

حول فقدان النظرية الميتافيزيقية، لابد من القول بأن من جميل الصدف الاعتراض الذي كنت قد سجلته وما زلت على نظرية حامد ابو زيد والشبستري في باب القرآن انها فاقدة للبعد الميتافيزيقي.

أما فيما يتعلق بنظرية الرؤيا، فالعجيب من كلام السيد الأنصاري وبحسب ظني وبناء على ما جاء في ملاحظاته الخمس، انه لم يطلع على ما كتبته الا على المقال السادسة، وهي مقالة مكثفة كتبتها في رد اعتراضات السيد عبد العلي بازرگان، والظاهر ان الأنصاري قرأها وكتب رده بناء على ما جاء في هذه المقالة، التي هي اختصار لكل ما جاء في المقالات الخمس التي كتبتها سابقاً، ولو ان شخصاً قد طالع تلك المقالات لكانت حلاً للعُقد.

أنا مدرك تماماً بأن معرفة ماهية الوحي وحديث الوحي غير متيسّر من دون الميتافيزيقيا، ولهذا السبب سعيت إن أضع الميتافيزيقية كأساس استند إليه في نظرية الأحلام النبوية ومن قبلها كلام محمّد وبسط التجربة النبوية.

المواضيع التي طرحتها كانت ناظرة إلى هذه الجهة، مثل ميتافيزيق الوصال، والنسبة بين ما وراء الطبيعة والطبيعة، والإله اللاصورة، وإسقاط صورة خيال النبي عليه، وامتلاء النبي من الله، ومعرفة كلام النبي مع كلام الله

لكن كان همّي هو طرح الميتافيزيقية بطريقة الميناميلزم أو التبسيط [1]؛ لأننا مازلنا نعيش في حقبة كانت، والميتافيزيقية بمعناها القديم لا اعتبار لها، ومن الصعوبة بمكان

---

(1) Minimalism

مدرسة فنية تعتمد على البساطة والتجرد عن التكلّف، وتمتاز بتقديم الاعمال الفنية بأقل عدد من العناصر رالالوان، بدأت في الولايات المتحدة. خرجت من تحت المدرسة التجريدية، ثم امتدت إلى التصاميم الهندسية، والمراد بها البساطة في تقديم الفكرة دون الخوض في التفاصيل المعقّدة.

الدفاع عن الميتافيزيقا القديمة، نعم يمكن طرح المباحث المتعلقة بعالم الملكوت والخيال المتصل والمنفصل وأمثالها، لكن لا يمكن إثباتها بالدليل المعقول والفلسفي الذي ترتضيه إن سؤلت عن وجود تلك العوالم. ولذا احاول ان اعرض عنها.

ميناميلزم الميتافيزيقا، أو تبسيط الميتافيزيقيا اعنى بها رابطة الله بالعالم،، تلك الرابطة الاندكاكية، ورابطة انحلال المعلول في العلة، وانها ممكنة الوقوع وممتلئة بالواجب، فكل الممكنات ممتلئة من الله، والنبي افضلهم، وهذا هو مفهوم كمال القرب، إذن النبي مليء من الله،، وحديثه حديث الله، وتصوّر الله منفصلاً عن الطبيعة تصور لا يدور في مخيلتي.

الله في تصور نظريات القدماء عن الوحي لم يوضّح بشكل معقول، هذا الخطاب من الله عن بُعد وعن طريق جبرئيل خطاب – برأيي – فيه صناعة ساذجة لكيفية وقوع الوحي، وهذا يحدث فِي أذهان العامة البسيطة.

لو أردت بيان شيئاً فلسفياً من الوحي لابد من ميتافيزيقية معقولة تجعل منه وحياً مقبولاً.

هكذا هي الميتافيزيقيا التبسيطية بالحد الأدنى بالنسبة لي، المطابقة لسكون الله في روح النبي، وسكون النبي في روح الله، بالدرجة التي تكون معرفهم واحدة، وكل ما يقوله النبي هو ما يرده الله، وهذا الذي يقوله جلال الدين الرومي بالنسبة إلى شمس التبريزي:

أيُّ قرب هذا روحه من روحي كل ما يفكر به اعلمه

وأنا أقول بمقولة مولانا بأن القرآن كلام الله:

رغم إن القرآن من لب النبي من لم يقل غير هذا الحق كافرٌ

أما كيفية هذا الكلام، وكيف تحدّث الله، فهذا ما توقف عنده القدماء وإلى هذا اليوم، ولم يحروا جواباً، لكني بالميتافيزيقيا التبسيطية والتي تعني نظرية اندكاك الممكن بالواجب، وانحلال المعلول في العلة قد اوضحت مسالة الوحي وكذلك مسألة الكلام الإلهي.

وبهذه النظرية أيضاً لم يعد وجوداً لمسائل مثل الكلام النفسي والكلام الحادث والقديم. وعلى رأي السيد كديور ان هذه المسائل قد مُسحت ولم يبق لها أثر.

رغم ان السؤال على المسألة الأساسية - وهي طريقة تحقق الوحي - قد أجيب عنه بأسلوب معقول، لكن يبقى السؤال عن كلام الله وكيفية ظهوره؟

الجواب انه في رؤيا النبي، وبرأيي ان كل ذلك يعطي تصوّراً صافٍ لحادثةٍ بمنتهى التعقيد، حتى جبرائيل لا أنفيه ؛ لكني اقول صورة تظهر في رؤيا النبي.

صورت الكثير من الروايات جبرائيل حين ظهوره للنبي بعديد من الأجنحة، إحدى تلك الروايات تصوره بستمائة جناح، واخرى توصلها إلى الى ستة آلاف جناح، وهذا يعني ان لجبرئيل صورة خيالية بالنسبة للنبي.

في كل الأحوال نظريتي عن الميتافيزيقية مشخصة ومبرهن عليها، ومن دون تلك المقدمات المقيّدة للأيدي والأرجل التي جاء بها القدماء.

النقطة الأخرى الغائبة عن حديث السيد الأنصاري وكذلك كديور، وهنا أُذكّر بها وهي: ان كل نظرية حول الوحي لابد فيها من بيان دور ومدخلية النبي في الوحي، وهي النقطة المهمة التي لا ينبغي التغافل عنها.

نظرية أحلام نبوية تصور النبي بكامل قامته حاضر في الوحي، ومن دون أي ذرة نقصان في دور الاله، وكلا الدورين يسيران في طول احدهما للآخر، فالممكن مندكّ في الواجب، والمعلول شأن من شؤون العلة، ولله الحضور التام في الوحي بل وفي كل ظاهرة.

أنا بشر مثلكم بيانٌ لبشرية النبي ومدخليته التامة في الوحي.

الظرف الجامع بين البشرية والإلهية علامة نجاح أي نظرية في باب الوحي.

وأنا أدعو السادة الشبستري وكديور والانصاري إلى توضيح مكان النبي في عرصة تلقي الوحي، ويصرحوا بحدود ذلك الدور.

إن سلمنا بأن النبيء بكل وجوده فاعل في الوحي، في هذه الصورة فقط ستكون خصائص نتاج الوحي أي القرآن ولغته ومعناه واضحة بينّة. اما لو اعطينا للنبي دور القابل والمنفعِل - كما فعل الشيخ المنتظري في رسالة صفير الوحي - وهو في الواقع

ليس بدور اصلاً، فالقصة ستكون معقدّة ومظلمة، وسنضطر إلى جلب نظريات القدماء التي تصور الله السلطان المنفصل عن المخلوق وهو يرسل رُسلاً بأجنحة نسائية إلى الارض، وسنكون في مواجهة مع اشكاليات لا حلّ لها.

هذه خلاصة جوابي عن النقد الأول للسيد الانصاري.

النقد الثاني

نظرية الرؤيا فاقدة للنظرة التاريخية.

بمعنى ان التحولات التي طرأت على اللغة العربية لم يلتفت اليها، بما فيها التحولات النحوية والبلاغية والصناعات اللغوية.

لب كلام الأنصاري هو ان اللغة العربية القرآنية لابد أن تكون محطاً للنظر وليس اللغة العربية الكلاسيكية التي تبلورت في كتب سيبوية والاخرين لأنها ليست لغة عربية قرآنية.

وعليه لو اذعنا بأن لغة القرآن لغة الحكايات لابد من الالتفات إلى هذا النوع الادبي في زمن نزول القرآن، حينئذ لا مجال لمواجه فوضى الآيات وعدم انسجامها، واشكاليات البلاغة المتعلقة بالغة القرآن، ولا تصل النوبة إلى نظرية الرؤيا.

و السؤال المطروح: هل ان نظرية الرؤيا محتاجة في تكوينها إلى هذا النوع من الابحاث أو لا؟

وهل للنظرية قابلية الدفاع من دون ذلك المعين؟

نعم، أنا مطّلع على قصة التحوّل في اللغة العربية، وهذا التصنيف المذكور للغة أمر معروف ومقبول في كتابات الغربيين أيضاً، حيث تصنّف اللغة على ثلاث مراحل:

اللغة العربية القديمة	Old Arabic
اللغة العربية القرآنية	Quranic Arabic
اللغة العربية الكلاسيكية	Classic Arabic

يرى المحققون في الدراسات القرآنية ان هنالك فرقاً بين العربية القرآنية والعربية الكلاسيكية أو عربية سيبويه وبقية النحاة

نعم مفسري القرآن يستندون إلى العربية الكلاسيكية في فهم معاني القرآن.

الاختلاف بين اللغتين – مع عدم المبالغة في هذا الاختلاف – حدث نتيجة الفتوحات الإسلامية بعد النبي ونشوء لغة المعسكرات، لكن يبقى الخلاف بين المحققين في مديات هذا الاختلاف بين اللغتين، إضافة إلى وجود اللهجات المختلفة في زمن نزول القرآن، وهذا الموضوع مهم أيضاً وهو معرفة أن القرآن بأي لهجة نزل، والصناعات اللغوية بين عربية الشمال وعربية الجنوب وأيهما أقرب إلى لغة القرآن، هذه مباحث مهمة.

موضوع التشابه بين القرآن واللغة الآرامية أيضاً من المباحث المصيرية في فهم القرآن، والمحققون مثل لوكزنبزغ[1] ومنغنا[2] وآخرين اكدوا على أن الاقتباس حاصل بين القرآن والكتب السماوية السابقة عليه، وهناك ردّ وبدل حول تلك الآراء.

و كذلك الأبحاث المتعلقة بالصناعات البلاغية في القران، حيث أُغمِض النظر عن الصناعات البلاغية للغات السامية والتي من جملتها اللغة العربية، تلك البلاغة الرائجة عند المسلمين، وكانت متأثرة بالصناعات الأدبية والبلاغية السامية واليونانية، هذه الابحاث المباركة تطورت في الفترة الأخيرة، وبانتظار نتائجها الدقيقة.

في العشرية الأخيرة بُذلت جهود من أجل خلق انسجام بين الآيات داخل السورة الواحدة، ولعلها لاقت بعض الانتقادات أيضاً.

من جملة تلك المحاولات كتاب عنوانه:

The Banquet A Reading of fifth Sura of Qur’an

مؤلف الكتاب هو مايكل كويبرس، يدعي فيه بأن الانسجام في آيات سورة المائدة جرى على أساس البلاغة السامية، طبعاً هو استفاد من " فضل الرحمن "

(1) كريستوف لومزنبرغ باحث الماني، من ابرز كتبه " القراءة السريانية للقرآن "

(2) رمز منغنا الملقب بألفونس منغنا ثيولوجي عراقي كلداني ولد ١٨٦٨، وتوفي ١٩٣٧

وأمثاله، في بيان تفكيك الآيات إلى آيات شمولية وغير شمولية. نعم وجهات النظر هذه موجودة والقائلة بأن البلاغة العربية وبنية اللغة العربية واقعة تحت تأثير البلاغة اليونانية وليست السامية، ومحاولة كيبرس تصب في هذا الاتجاه.

المحاولة الأخرى:

Textual Relations in the Qur'an Relevance , Coherence and Structure

روابط النص في القرآن لسلوى العوا، وهي رسالتها للدكتوراه.

حاولت العوا إيجاد انسجام وارتباط نصي بين سورة الأحزاب وسورة القيامة، بالاستفادة من التحقيق الذي اجراه نيل رابينسون في كتابه:

Discovery of the Quran

رابينسون كان قد بحث التناسب بين آيات سورة المائدة قبل بحث سلوى العوا التي استندت فيه على نظريات جديدة في علم اللسانيات، حول إيجاد الارتباط والانسجام في المتن.

Cohesion أو نظرية الانسجام -على الخصوص - كانت من النظريات التي استُنِدِ اليها في البحث أيضاً، هذه النظرية لمايكل هليدي ورقية حسن.

في كل الاحوال، وعلى فرض ان تلك المحاولات كانت موفقة في ايجاد النظم والانسجام في سور القرآن، تبقى في النهاية إحدى التفرعات التي خرجت من مظلة النظرية، وكان من المفترض أن تكون مغطاة.

لكن تبقى نظرية الرؤيا بمنزلة المنافس في توضيح الارتباط بين آيات السور.

السيد الأنصاري في ملاحظته الثانية له بيان آخر لما ذكرته آنفاً يقول فيه: ان النبي حينما علم بأنه نبي لم يكن لأجل رؤيته احلاماً، وإنما كان دوره ايصال رسالة للناس، وهو يعلم انها رسالة إلهية، وفي النتيجة أظهر مشاهداته بلغة العرب لمخاطبيه لإفهامهم اياها.

وبالنتيجة نحن امام نص من تأليف النبي ؛ بمعنى أن بنية لغة النبي وبيانه محكومة ببنية اللغة العربية، وهذا النتاج أي كان منشأه فهو متن لغوي قابل لفهم

العرب المخاطبين للنبي، إذن فهم هذا النص لابد أن يأتي عن طريق معرفة اللغة العربية المعاصرة للنزول، ومعرفة الرؤيا لا دور لها في فهم هذا النص.

النقطة التي ينبغي بيانها هنا والتي تشكل جواباً على بعض ما جاء في الانتقادات الأخرى، هي ان البعض يتصور ان فهم القرآن مؤطر بحدود المخاطبين في عصر النزول، والذي أعتقده ان الناس في زمان النزول لم يدركوا كلام النبي، ويوجد من الروايات ما يدلل على ذلك: منها ما روي عن عمر وجهله بمعنى لفظة " أبَّ، أو ابن عباس الذي لا يعرف معنى " فاطر" ... طبعاً يحتاج ذلك إلى استكشافات تاريخية، ولا يمكن ارجاعه إلى اختلاف اللهجات أو التحوّل في اللغة.

لقد أكدّت مراراً على نقطة مهمة، وذكرتها في مقالة " الذاتي والعرضي في الاديان " وهي أن التصورات التي يستخدمها النبي كانت مفهومة للناس، لكن النبي جاء بتصديقات جديدة، هذه التصديقات كانت في قلب الدعوة الجديدة للنبي ومن الطبيعي أن لا تكون مفهومة للمخاطبين، ولعل بعض منها نزلت للأجيال القادمة للتعمق فيها.

الفيض الكاشاني ينقل خبراً عن الكافي يسترعي الانتباه:

يقول الفيض: إن الله يعلم بأن افراداً عميقي المعرفة يأتون في المستقبل، ولهذا أنزل سورة قل هو الله احد، والآيات الأولى من سورة الحديد.

جاء في سورة الحديد ﴿هُوَ الظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ﴾ وكونه ظاهر فهذا أمر بيّن، أما كونه مخفٍ وظاهر فمن المستبعد أن تدركه أذهان عامية وساذجة تنتمي لأربعة عشر قرناً مضت.

هذا المفهوم مخزونٌ لأمثال الملا صدرا القادم بعد قرونٍ لتوضيحه وتبيانه.

وههنا انا صديق للسيد الانصاري، ولست صديقا له

كوننا أصدقاء ؛ لأن النبي يتكلم للناس بكلام مألوف عندهم تصوراً، باستثناء بعض اللغات المهجورة أو التابعة للهجة أخرى.

أما لسنا بأصدقاء ؛ لأن التصديقات لم تكن مفهومة لكل العرب، وتاريخ تفسير القرآن وثيقة على ذلك.

أما المراجعة التاريخية التي يقول بها الأنصاري، فمن الصدف أني راجعت التأريخ، ومن البداية كانت القصة ...قصة كيفية فهم القرآن كانت مطروحة منذ البدء، والنظريات حول هذه المساءلة أكثر نضوجاً وتكاملاً.

إن كان العرب زمن النزول يفهمون الآيات بتمامها فَلِمَ كان فهم القرآن منذ البدء مسألة.

لأجل فهم القرآن لابد من مراجعة أثر أدبي من زمن النزول، هكذا يعتقد الانصاري.

إن كنت ترى أن القران مرويات وحكايات فلابد من مراجعة الأثر في زمن النزول، ودراسة خصوصياته، وهل يحتوي على خصائص غير منتظمة.

لو أردنا ان نعرف فوضوية الآيات من خلال المحتوى الأدبي لتلك الفترة، ينبغي أن نسأل حينئذ:

أيّ شيء نراجعه؟

هذا المحتوى والأثر أين هو؟

هل هناك كتابات أو كتبه يمكن الوصول إليهما لينبّنوا لنا خصوصيات تلك الاثار والمحتويات.

وهل هناك متون أو خطابات جاهزة تحتوي على نظم مضطربة للقرآن.

وهل هذه المتون إلهامية، ولها ذات البنية.

العرب لم يكونوا أهل تأليف.

الخرمشاهي يقول ان حافظ تعلّم الفرضوية من القرآن، وننقل السؤال إلى النبي: من اين تعلم الفوضوية.

لابد من علامة على أن الناس العاديين في زمن النزول هل يتكلمون كالقرآن من دون نظم أو لا؟

التوراة والإنجيل كتابان كانا موجودين في زمن النبي، وكانا منتظمين.

الشعر الجاهلي لا يوجد فيه فوضوية أصلاً.

نهج البلاغة المتضمن للرسائل والخطب، كتاب منتظم.

وفي كل الأحوال لا علم لي بوجود تلك المتون، ولو وجدت سأقبلها.

برأيي ان عدم الانتظام في الاساس متعلق بالأمور الإلهامية.

وبهذه المناسبة يقول حافظ:

حافظ في هذه الساعة يكتب من غير نظم   طائر فكره وقع في شباك الاشتياق

يلاحظ في هذا البيت نظم غير منتظم، وهو تعبير بارادوكسي، عندما يكتب يسقط طائر فكره في شباك الاشتياق، بمعنى انه خارج عن الحالة العادية، ويكتب في حالة من الاشتياق والانجذاب.

و يمكن ملاحظة هذا الموضوع بوضوح في المثنوي وهو الديوان الاكبر للمولوي، وأراه احد اوجه الشبه بين المثنوي والقرآن وهو الفوضوية وعدم النظم، لأن كلا الكتابين إلهامي.

الإلهام عبارة أخرى عن الرؤيا، وللرؤيا مراتب عميقة وغير عميقة.

وفي كل الأحوال عدم النظم ليس مهماً ولا مطلوباً لأنه متعلق بفضاء الوحي.

لاحظ سورة الأحزاب ترى وعلى حين غفلة يختلّ الانسجام والنظم، لا يمكن أن يحدث ذلك إلا على القول بأن ذهن النبي يذهب به ذات اليمين وذات الشمال، بالضبط كالحالم حين ينظر إلى جانب ثم يقع نظره على الجانب الآخر.

وفي الواقع ان الذهن هنا لا يؤدي وظيفته ولا يعمل اصلاً، تلك الحالة لا يوجد لها اسم آخر سوى الرؤيا التي تشكّل علامة على ارتفاع وانخفاض البلاغة.

لو أن السيد الأنصاري يخبرنا عن وجود أثر ومحتوى أدبي فيه حكايات ومرويات مثل القرآن، أو أن كلام الله في الكتب المقدسة الأخرى كُتب بهذه الطريقة سيكون تفريعاً فوضوياً قرآنياً قد سُحب من الرؤيا.

لا يقال أن معنى هذا الكلام عدم قابلية النظرية للنقض، وهل أن نظرية اليقظة قابلة للنقض!

المهم هو قدرة النظرية وثمرتها في حلّ الظواهر المتداخلة، والمعضلات التي لا حلّ لها.

دكتور ... لو أعطيتنا توضيحاً حول العلاقة بين رؤيا الوحي وظيفة النبي؟ بعدها نعود إلى اعتراضات السيد الانصاري.

النبي أخذ المهمة على عاتقه في مناماته ...

و السؤال: كيف عرف النبي بهذه المهمة

والجواب: من الوحي.

يكفي أن نرفع كلمة الرؤيا ونضع مكانها الوحي.

لم أضع نظريتي في الرؤيا مقابل الوحي، الرؤيا هي الوحي الذي وصل إلى النبي.

النبي في رؤياه النبوية تلقى الخبر وكُلّف بمهمة النبوة وإبلاغها للناس.

ينبغي الالتفات إلى ما نقلته عن الغزالي في مكان ما لمعرفة ماهية الوحي، وهي الوسوسة التي تلقى في روعه، والرؤيا لها موديلات مختلفة وأصناف عدّة، وقد جاء في القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾[1] فالوسوسة نوع من أنواع الوحي.

ما أريد قوله: أن النبي من المحتمل ان يتعرض للوسوسة ؛ وهذا الاحتمال هو الباعث لأن يستمد قوته، ويتحول هذا الاحتمال إلى يقين، فيتيقّن انه نبي.

اليقين هو رأس مال الأنبياء الذي يجعلهم متيقنين بأن عليهم مهمة لابد من القيام بها، وعلى أثر هذا اليقين تتم دعوة الناس، وبالنهاية تنشأ الحضارة.

اليقين يجعل الأنبياء يمتلكون الصلابة والشجاعة لمواجهة الصعاب، ويجعلهم يقاومون الأخطار والتهديدات.

---

(1) الأنعام: ١٢١

نتاج هذا اليقين شيء مثل القرآن، شيء يعنينا، فاليقين إذن ليس شيئاً شخصياً، وكما يقول مولانا جلال الدين:

هو أعلى من اليقين   لا ادير رأسي ملامة شيء[1]

بالعودة إلى كلام الأنصاري

يقول: الوحي أو الرؤيا، في كلا الحالتين هما الفاظ وضعها النبي في قالب اللغة العربية ثم أوصلها إلى الناس، إذن رؤيا الوحي معناه وضع الأصبع في غير محله، ولا نتيجة مرجوة منه؟

يقول: إن الله وضعها في قالب اللغة العربية.

وأنا اقول: النبي وضعها في قالب اللغة العربية

الوحي هو الرؤيا، والرؤيا لها مدلولات، ومنها أنها بحاجة إلى التعبير ...

حينما نقرأ القرآن ينبغي قراءته بأسلوب يتراءَ لك أن أحداً يروي لك أحلامه، ولابد من تعبيرها. هذا أولاً

ثانياً: الأحلام التي يراها النبي هي رؤى كانت تغلي في ذهنه وفي ضميره، ولها مناسباتها.

الملاحظة الثانية للسيد الأنصاري حول تعبير المنام، ودور الأنثربولوجيا فيها.

ويطرح في هذا الاتجاه ثلاثة احتمالات:

١- يحتمل ان القصد من الاستفادة من الأنثربولوجيا ان المخاطب في عصر النزول كان متفهّماً للنص.

في هذه الصورة، العمل الذي ينبغي فعله هو ذات الفعل الذي قام به المفسرون والقدماء، بالإضافة إلى العلم الجديد المتعلق بتحولات اللغة العربية.

٢- يحتمل ان القصد من الاستفادة من الأنثربولوجيا التاريخية هو العثور على الرؤيا كما هي في زمان النبي.

---

(1) المثنوي، الدفتر الثالث، الأبيات ٤١٢٥، ٤١٤٠

هذه الصورة شائكة لندرة المعلومات في هذا الباب.

٣- يحتمل أن القصد هو أن الناس قبل عصر النزول كانوا يرون هذه الكلمات في مناماتهم، والمطلوب هم فهم تلك المنامات.

هذه الصورة خارجة عن محل البحث، لأن الموضوع هو منامات المؤمنين في عصر النزول، وليس مناماتهم هذا اليوم.

لو تفضلتم باختيار أي تلك الاحتمالات؟

أعود وأقول أن السيد الأنصاري لم يقرأ مقالاتي الخمس.

في خاتمة المقال الأول قلتُ في بيان آية رمي الشهب باتجاه الشياطين بلا بدية تعبيرها كأيّ منام.

إذن الاحتمال الثاني كام محطاً للنظر، وكنت واقفاً على هذه المشكلة، وهذا لا أنفيه ؛ إذ لا دليل على بطلانه، ولعلنا نقترب من فهم أثر التطورات الحاصلة في علم الأنثربولوجيا.

على فرض صحة الأعمال التي قام بها كويبرس في إيجاد الانسجام بين آيات القرآن.

هل ستسحبون إيديكم من نظرية الرؤيا؟

مطلقاً، على فرض الوصول إلى نتيجة محكمة، الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقع هو أن إحدى تفريعات نظرية الرؤيا الخارجة عن دائرة النظرية تكون قد غُطّت، لا أكثر.

هذا ليس نقصاً في النظرية، لأنها قد اوضحت - إلى الآن - عشرات الظواهر، وبقي تفريع واحد كانت قد اوضحته النظرية، وفي ذات الوقت جاءت نظرية أخرى لإيضاحه، ولا ضير في وجود طريقين لتوضيح ظاهرة واحدة ... هذا اولاً

ثانياً: العمل الذي قام به أمثال كويبرس - على القول انه يستند إلى مقدمات محكمة - استهدف السور الطوال التي هي في الظاهر من دون نظم، لكنها في الباطن منتظمة، هذه الآيات نُضِمتْ تحت نظر النبي ذاته.

لا أدعي أن هذا الرأي لا يستند إلى الوثيقة التاريخية، لكنها ليست نظرية بلا معارض.

الشواهد التاريخية تثبت أن مسألة جمع القرآن كانت بطريقة أخرى غير ما يدعّى، لكنها وصفت بطريقة تجعل المحققون المعاصرون يجلسون على كرسيهم ويوضحوا لنا بأن تلك الآيات في داخل السور - والتي جمعت تحت نظر ذات النبي - غير مقبولة بحسب الألسنيات.

الملاحظة الخامسة للسيد الأنصاري تتعلق بعبارة لك، نقلها ولم يقف على مصدر لها، العبارة هي:

" إذا اعتبرنا الوحي بحجة إذن الرؤيا تكون حجة أيضاً "

يقول: تعبير الحجة في هذه العبارة هي خلط للموضوعات والمباحث بين الوحي والرؤيا، لأنه تعبير يرتبط بالمباحث الاصولية.

الحجة في هذا السياق متعلقة بأدلة الأحكام الشرعية واعتبارات المشرّع، ومسألة الوحي متعلقة بمفاهيم حقيقية.

لو تفضلتم ببيان المعنى الآخر للحجية الذي عنيتموه؟

وهل توافق الأنصاري على نقده وتحليله؟

في هذا المورد أبدى الأنصاري توضيحاً مفصلاً في غير محله ...

لم يكن قصدي من " الحجية " تلك الحجية الشرعية بالمفهوم المستعمل عند الفقهاء والأصوليين، ويكون معنى العبارة المنقولة كالآتي: اذا اعتبرنا الوحي أمراً مقبولاً، هذا معناه أن رؤيا النبي تكون مثل الوحي مقبولة أيضاً، فكما أن الوحي مقبول فالرؤيا تلاقي المقبولية والتابعية أيضاً ؛ من جهة أنها صادرة من عند الله، ومن جهة أن المخبر صادقٌ ولا شيء آخر.

الملاحظة الرابعة تتجه نحو شيء آخر من الأحلام النبوية.

يقول: يمكن للنقد الادبي ان يكون متّكئاً على النظرية الفلسفية، وعليه يصح القول بأن اللغة المحكية تتكئ على عناصر خيالية في المنام، لكن اللغة المحكية بعد المنام لابد لها من استخدام ذات الادوات الادبية للتعبير، بمعنى أن التفريعات المأخوذة من المنام تصاغ بقالب اللغة، وهذا بمثابة القول بأن النبي يتحدث في حالة النوم ومازال على تلك الحالة.

لابد من القول بأن النبي لم يتحدث أثناء النوم، وحديثه يحصل أثناء اليقظة عن مشاهداته ومسموعاته أثناء النوم بلغة عربية مبينة،، وبلغة عرفية، اما الصيغ التي يستعملها مأخوذة من الرؤيا.

حينما يتحدث عن الجبال والبحار فهو يتحدث عن القمر والجبل والبحر والشمس المنامية وكما شاهدها في المنام، ولذا هي بحاجة إلى التعبير.

أما كلام الأنصاري الذي يقول فيه " لأن النبي يتحدث بلغة عربية عرفية فهو لا يحتاج إلى التعبير " هذا الكلام غير مقبول.

حديث النبي دال على أشياء قد رآها في المنام، حاله حال أي مشاهد لرؤياه ويريد أن ينقلها للآخرين بلغة عرفية في اليقظة، ولأن منشآ تلك البيانات المنام في بحاجة إلى التعبير.

ولذا الكلام عن بيان الحلم بلغة عرفية، واللغة العرفية لا تحتاج إلى التعبير هذا الكلام غير صحيح.

أما إن كلام النبي محكوم بقواعد اللغة العربية والبلاغة العربية، فهذا الكلام نعم مقبول بالنسبة لي أيضاً.

في الإجمال: ماهو رأيكم في منشأ الاستعارات والمجازات في اللغة؟

الأنصاري في ملاحظته الثالثة اشار إلى صنعة الالتفات في كلامكم، ويقول بأنك تعتبر الأدبيات غير قادرة على رسم صور مختلفة من الخيال، والحال ان الصناعة الأدبية والبلاغية قد جربت على طبقات بنيوية مختلفة، وعليه لابد من الأخذ بها بعين الاعتبار كونها مسنداً للرؤيا.

ويقول أيضاً:" يحتمل ان الدكتور سروش يعتبر الخيال هو الشيء الوحيد الذي يجب أن يستند إلى أمور عينية لتتمكن اللغة من التعبير المباشر عنه، بالإضافة إلى الاعتماد على العنصر الذهني الخلاّق "

ولابد من نظرية جديدة تتناسب وتتناغى مع النظر الفلسفي الالسني.

ولا يرى الحاجة إلى اللغة لدرك وتفسير عنصر الخيال ؛ لأن ذهن الإنسان وعنصر الخيال فيه قادرُ على الاستفادة من عناصر التشبيه والاستعارة في الصناعة الأدبية.

بشكل عام؛ السبب الرئيسي في الحاجة إلى عنصر المجاز والاستعارة في اللغة هو ضيق لغة اليقظة المتسلطة على كل المستقبلات البشرية، وعليه لابد من التوسعة.

كيف؟

في انضمام لغة الرؤيا إلى لغة اليقظة، وحينئذ من الأفضل أن نقول: أن لغة اليقظة قد توسعت بمجيء لغة المنام إلى لغة اليقظة، وهذه حادثة مهمة ...

لغة المنام هي ذات اللغة التي أخذت ابعاداً مختلفة، تمثلت تلك الأبعاد بالاستعارة والمجاز.

برأيي أن القسم البديع من الاستعارات في لغة اليقظة تلك المتعلقة بعرصات الخيال، إذ لا توجد مسافة بين الخيال العميق والرؤيا.

لا أتحدث عن الاستعارات الميته أو التقليدية، أتكلم عن الاستعارات التي أخذت مكانها وكأنها جزء من لفة اليقظة لدرجة يصعب التمييز بينهما.

الاستعارة المتعلقة بلغة الرؤيا فيها إبداع ونتاج خيال أو مخيال عميق خلاّق، والمسافة بين اللغة الرؤيائية معدومة، وتصوري ان البداية كانت من هنا.

هذا الذي يقوله الأنصاري من معرفة الدين عن طريق اللسانيات، أقول: لا علاقة باللسانيات فيما نحن فيه، نعم هو شأن من شؤون فلسفة اللغة.

بالمناسبة لقد استفدت من بعض طعام ديفيدسون للاستقواء به على الاستعارة؛ لأنه يمتلك رأيا خاصاً في هذا الباب[1]

كذلك بول ريكور الفيلسوف الفرنسي الكبير، والذي كان يقرب من مقالة ديفدسون، لكن خطابه كان في مقابل أدبائنا وبلغائنا [2].

الأدباء والبلغاء يرون في المجاز تحسين وزينة للكلام ومتانة، فهم يعتبرون ثمرة المجاز قيلت عن تنبهٍ وقصدية.

في كتاباتي نقلت كلاماً للعلامة الطباطبائي يُعّرف المجاز بأنه: إضافة شيء إلى شيء آخر

سؤالي هو: هذه الإضافة حدثت عن تنبّه وقصد، أو أنها إضافة غير قصدية؟

و هل إضافة حدّ شيء إلى شيء آخر عمداً أو ليس بعمدٍ؟

مثل أن تصور معشوقك بصورة القمر ...

و بعبارة أكثر فلسفية: أن تلبس مادة صورتين. وعلى رأي السكاكي "معنى يجلس مكان معنى آخر.

هكذا يبدو الأمر... أو ان هذه الحركة لا تأخذ شكلاً قصدياً، وإنما تصدر عن غير قصدٍ.

يبدو أن الشاعر أو الاديب وفي حالة من الغشية واللاشعور يرى الأمرين بمثابة أمر واحد، هو القمر معشوقاً والمعشوق قمراً وليست حالة من العمد والتصنّع.

لا أقول أن حالة التصنّع لا تحصل أبداً، لكنها لا تحصل في الاستعارات الحقيقية النابعة من الخيال الخلاق، لأن المسافة بينها وبين الرؤى معدومة.

بهذا المعنى كلام الأنصاري مقبولاً نوعاً ما.

غاية الأمر هي كيفية ورود هذه المقولات إلى اللغة.

---

(1) Donald Davidson 1917- 2003

(2) Paul Ricoeur 1913-2005

يظهر من الأنصاري أنه مازال عالقاً في تلقي وتصور القدماء الذين يعتبرون هذه الحالات من جنس المزينات الكلامية التي يحبس بها الأدباء السنتهم ويطلقون قلوبهم.

أنا أقول هي تجارب توضع صاحب البلاغة في معرض الخيال واللاشعور، وتشعره بحالة من الرؤى.

مهدي إخوان ثالث[1] في إحدى مقالاته الشهيرة والتي كتبها في الثلاثينيات، وطبعت عدة مرات، يقول فيها:

" الشعر نتاج حالات لا شعورية هي من جنس الحالات التي يتعرض لها الأنبياء، لكن في عالم تلك الأحوال لا وجود لخاتم الأنبياء ".

يعني: لا وجود لخاتم الشعراء، وهذا الباب مفتوح للجميع.

هناك شعور نبوي يلقي بظلاله على الشاعر، ومن له تجربة شعرية يدرك هذا الكلام بوضوح، ولي أيضاً تجربة قليلة جداً في هذا المضمار.

الشاعر عندما يلقي قصيده وكأنه خارج من منام قد صحى منه، وكأنه يسير في عالم آخر تربطه به اشياء أخرى، أشياء يراها في ضياء مختلف، وهذا هو الالهام، وكأنه أمامه مدوّن بقلم وصفحة.

ثم حينما ينظر إلى ما كتبه، يشعر بالغبطة وقد يسأل نفسه: هل حقاً إنا مَن كتب هذا القصيد؟

أنا رأيت العالم هكذا

هذه هي حالة الرؤيا، وهو ذاك العالم الذي وقعت فيه كل تلك الصنائع البلاغية، ومنها صنعة الالتفات التي أشار اليها كويبرس والانصاري، والتي تعني في الرؤيا –كما اتصورها– أن شخص الأول ينوب عن الشخص الثالث ويكونان شخص واحد، وهو الذي حدث لمولانا وشمس، ونماذج كثيرة في القرآن تشكّل مؤيدات لنظرية الأحلام النبوية.

(1) Mehdi Akhavan-sales

ماذا يمكن أن يقال عن التوراة والانجيل؟

كلنا يعرف أن الانجيل لا يحتوي على حالات من الوحي، وإنما هو مدونات لتلاميذ المسيح كتبت بعده بسبعين أو ثمانين عاماً، ولم يقل أحد أنه كُتب تحت ظلال احساس النبوة، رغم ان المتدينين العاديين يتلقونه كذلك، إلا أن المحققين المسيحيين لهم رأياً آخر.

ولذا طريقة البيان في الانجيل واعيةٌ، بمعنى انها لغة تقليدية ؛ باعتبار ان الصناعة اللغوية من مستلزمات عالم اللاوعي والذي يلقي بظلاله على الاحساس النبوي.

لقد أشرت آنفاً إلى رأي ديفيدسون في مقابل رأي العلامة الطباطبائي ...

يعتقد ديفيدسون ان المستخدم للصنعة المجازية يكون في الواقع داخلٌ إلى عالم المجاز، والحقيقة بالنسبة له تتخذ مظهراً مجازياً، لا أنه يصيغ عالم المجاز تصنّعاً، وبعبارة أخرى انه يتصور اللغة الواحدة بمعانٍ متعددة ويتفهّم ويدرك ذلك المعنى المجازي ويشعر به حقيقةً حينما يعبر عنها مثلا بعبارة " احترق قلبي ..."

ت.س. اليوت[1] الشاعر الانكليزي المشهور له كلاماً حول الأدبيات البيانية للوحي، يقول فيه:

الأدبيات عبارة عن تحويل الدم إلى حبر.

Turning blood into ink

هذا التعبير تجده عند المولوي جلال الدين قبل عدة قرون:

حينما يفور دمي يخرج شعراً
لا تنظر إليّ حينما أُنشد الشعر
سترى ثوبي ملطخاً بالدماء[2]

لا يمكنك العثور على بيان أجمل من هذا البيان، استعارة تنبض بالحياة، لا سابقة لها، وتجربة نورانية فريدة، وهي تجربة حقيقية كما يقول دافيدسون.

(1)Tomas Stearns Eliot 1888-1965.

(2) ديوان شمس، الغزل ٢٨٠٧

في الحقيقة عندما ينشر المولوي شعره تشاهده على تلك الحالة، ليس كلاماً يقال أو مثلاً يضرب، ولا وجود لكلمة يبدو أو يحتمل في قاموسه، هو في الحقيقة يفور دمه ويجري على لسانه شعراً.

لالك تسأل: وهل يمكن ذلك؟

نعم ممكن، لكن ليس لي أو لك. الا اذا أصبحنا مولويين. وهذا الذي انشده قد وقع بالفعل، وخاض غمار تجربته حقيقة.

نُقل عن بيكاسو في جوابه عن سؤال تعدد الابعاد في لوحاتك؟

أجاب: هكذا ارى الناس في الواقع.

النبي سمع صدى تسبيح الرعد والبرق والملائكة، ولا يُتصور في شأن النبي المبالغة والتضخيم في بيانه اللغوي ما كان قد شاهده وسمعه.

ما يحصل لنا في المجاز كان عنده حقيقة.

في المقابل هناك استعارات ميتة، غير نابعة عن تجارب معاشة، وقد حصل ذلك عند مولانا جلال الدين، فهناك كلاماً له يقوله كل الشعراء.

لكن الملاحظ في بعض أبياته صنعة الالتفات التي يستخدمها في الدعاء بين الله والنبي، وكيف يتبادلون الأدوار، فالله يدعو أحيانا، وأحيانا يدعو النبي[1]

موضوعة الأساطير تدخل في هذا الإطار أيضاً، ولي فيها نظر:

هناك في اليونان القديمة اساطير تتحدث عن آلهة تسكن أعالي الجبال، ينزلون أحيانا ويخالطون الناس ويتزاوجون، ويشتركون معهم في الحروب.

يتساءل الناس عن منشأ تلك الأساطير؟

هذه الأساطير لها حالات منامية، كحالة الرؤيا التي يراها النائم، منامات جذابة ومتطابقة مع الحالة النفسية للناس.

(1) المثنوي، الدفتر الثالث،، الأبيات ٢٢١٩، ٢٢٢٠

أحلام ذات معنى واتخذت شكلاً تعبيرياً بمرور الزمان، وليست قصصاً سردية لجالسٍ يرسم الله على قم هذا الجبل وآخر على قمة أخرى.

أنا أحاول أن أجد الروابط بين تلك الحالات وأربطها مع بعضها.

من هنا اتهم بعضهم الأنبياء انهم يحيكوا الأساطير ويحكوها للناس ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهو النضر بن الحارث حيث كان يجلس مكان النبي ويحدّث الناس عن قصص رستم واسفنديار، ويقول ان حكاياتي أفضل من حكاية محمّد.

بهذا المعنى هو لم يقل كذباً، نعم كذب حينما جعل الأنبياء بمصاف السحرة أو إنشاء الأساطير الكاذبة.

لكن الوحي من جنس الرؤيا، سواء كان أسطورة أو شعر.

كما ذكرت في السابق ان الوحي رؤى ناتجة من المخيال الخلّاق للنبي، وهذا الموجود في الخارج من عالم المجاز، وفي المنام حقيقة.

تلك الحقائق شوهدت ابتداءً في عالم الرؤيا ثم ظهرت بصورة المجاز في لغة اليقظة.

المحققون في القرآن حينما يطالعونه لا تلفتهم حالة الرؤيا فيه، ولا يرون إلا نتاج عالم اليقظة، وطبق الصناعة اللغوية يتحرك قلم الفراسة عندهم ويعدّوا الأنواع والأصناف من الصناعات. وفي فعلهم هذا قد اكتشفوا تحليلاً ملفتاً، ولا أنكر ذلك عليهم، إذ لا منافاة مع نظريتي.

هذه خلاصة جوابي على سؤال الأنصاري الذي كان يؤكد عليه.

أحيانا ما يراه النائم لا يمكن وصفه في عالم اليقظة، لكن الحالم يوصف حلمه بلغة مفهومة، مثلا النبي في منامه لم ير العرش جيداً، وما رآه وفي مقام البيان شيء معادل العرش في ثقافة القوم ...

حسناً، هنا يأتي البحث التاريخي والنقد الأدبي التاريخي لا الأحلام وتعبيرها.

وحتى لو رأى العرش جيداً، فهذا مفهوم في ثقافة ولغة العرب، حتى الشعراء الخلّاقين ينتجون في اذهانهم التصورات الثقافية مع عنصر الخيال، إذن لا حاجة لزج الأحلام في الموضوع.

الأنصاري ذكر الموضوع بتمامه لكنه لم يعنونه، ولو أردت أن أضع له عنواناً سيكون " الرؤيا ".

نعم كلمة العرش لها معنى في العربي، لكن الشخص الذي يرى العرش في المنام الذي له معنى في الثقافة العربية آنذاك إلا في اليقظة لا يوجد هذا المعنى، وكلامنا في هذه النقطة.

نعم، ممكن ان يرى النبي في منامه اشياء غير قابلة للبيان، إلا أن هذا موضوع آخر. نحن لا نعلم بهذه الأشياء، وما نعلمه تلك الأشياء التي قالها ولها معنى في الثقافة العربية، ولابد من الرجوع إلى ألفاظ مثل العرش والشمس والملائكة، التي رأوها في المنام كيف يفسرونها؟

بناء على مبنى ديفيدسون: الكلمات التي لها عدة معانٍ بعضها جاءت ضمن سياق الرؤيا، والبعض الآخر في سياق اليقظة، ولم يكن بينهما المجاز.

ذكرت أن القرآن من تأليف النبي. ما هو دور جبرئيل؟

نظرية الرؤيا تمتلك من المقدرة على سهولة بيان الوحي ما تتفوّق به على بقية النظريات.

هذا الذي يقال عن مجيء جبرئيل وقراءة الوحي على النبي! حسناً كان هذا في الرؤيا.

ثم ما الداعي لتصوير جبرئيل كطائر بستة ألاف أو ستمائة جناح، هذه هي الإشكالية وهي تصوير الطائر في الرؤيا كطائر في اليقظة.

أحد عناصر رؤيا النبي هو جبرئيل ...النبي رأى موجوداً بأجنحة كثيرة، يتحدث إليه ويريه مناظرَ ويعطيه أشياء يستنشقها ويتذوقها وأمثال ذلك ...

تذكروا: ان الوحي ظاهرة سمعية وبصرية وشمّيّة وذوقية

روي في كتب الشيعة ما مضمونه: ان شخصاً ذهب إلى أحد الأئمة ورأى ريشاً هناك وسأل عن مصدره، فأجاب الإمام أن الملائكة يغدون ويروحون علينا وهذه آثارهم يلعب بها أطفالنا.

واضح أن هذه المرويات لا أساس لها وغير معقولة اصلاً.

في كل الأحوال النبي رأى جبرئيل في المنام، ووضع له اسماً، اما من أين جاء بهذا الاسم؟ من الأديان السابقة، أو من مصدر آخر ... هذا بحث آخر.

نظرية الرؤيا تتعارض مع نظرياتك السابقة؟

يحتمل قصد الأنصاري نظرية القبض والبسط في الشريعة.

حينما تقول بحاجتنا إلى معبري أحلام يُتصَور ان القرآن كتب أحلام ينبغي النظر إليه من قبل الاجتماعيين والأنثربولوجيين، والحال ان نص القرآن يحتوي على افهام تاريخية متنوعة ومتجددة،، وهو في مقام متن يتسع لمعان، وسلسلة منامات محددة بزمان ومكان معينين.

بالتأكيد: كل خطاب محدد بزمانه ومكانه المعينين

انت تقولين آيات القرآن تأريخية، واقول ان احلامه كانت تاريخية، بمعنى انها محكومة بثقافة زمانه، وأنها بنحو ما مرتبطة بمحيط النبي ومعرفته الكونية، وكذلك ارتباطها بمناماته الاخرى. ولذا لابد من دراستها كأرضية تاريخية واحدة، وعليه فالعنصر التاريخي لم يغب عن نظريتي، الفرق في المصداق فقط، هو يعتقد بتاريخية لغة اليقظة، وأنا أراها في لغة الرؤيا.

عرضت في القبض والبسط لغة اليقظة في ساحة العلوم العصرية، والآن لغة الرؤيا هي المعروضة، لذا لا تعارض في القبض والبسط ولا في الفهم والتعبير التاريخي الجديد.

لا أُخالف الأنصاري فيما ذهب إليه من ان هذه النظرية ستُعّقد الأمر علينا. نعم تتبع الرؤى وتعبيرها أمر غاية في الصعوبة، لكني أسأل: هل العمل التفسيري خلال هذه الفترة الممتدة بين الألف وأربعمائة عام قد سهّل علينا المهمة؟

ماذا قال المفسرون في واقعة ذهاب موسى[1] قرب البحر فوجد الشمس تغرب في بركة؟

(1) هو ذو القرنين الوارد ذكره في سورة الكهف الآية ٨٦

و ماذا قالوا في حشر الإبل الحاملة والوحوش يوم القيامة؟

أو فهم الشهب الحارقة للشياطين؟

و الحال أن فهم هذه الآيات أمر سهل يسير على نظرية الأحلام النبوية، ولابد من النظر في محسنات النظرية، لا النظر إلى مشكلاتها العملية فقط.

إذن نظرية الرؤيا لا تتعارض مع القبض والبسط، وفهم القرآن لا يحدّ بالمخاطبين في عصر النزول، ولا مانع من الأفهام المتعددة. وهذه من الصدف أنك دائماً ما تعترض على منتقديك القائلين بأن القرآن يطابق أفهام عصر النزول، ومحدد بهم. وللمثال توارد إلى ذهني ان الدكتور نيكونام – طبعاً ليس محل بحثنا الآن – كان يرى المطابقة مع افهام عصر النزول. أما باعتقادك أن القرآن جاء بتصديقات جديدة وليست بتصورات جديدة، تلك التصورات مأخوذة من ثقافة عصر النزول.

نعم، وقد أوضحت ذلك سابقاً ؛ أن لا تعارض مع القبض والبسط، وعلى فرض أني قلت شيئاً والآن أقول شيئاً آخر مغاير، هذا يعود لتفاهة الدليل على رد نظريتي الجديدة.

ذكرت في القبض والسط أن للمتن تفاسير مختلفة يمكن استنباطها، والآن أقول بذات المقولة.

كنت أقول ان للغة اليقظة تفاسير مختلفة والآن أقولها في لغة الرؤيا، ولا أعرف كيف ينظر الأصدقاء إلى الموضوع لتتولد عندهم الإشكالات، رغم إني أجدها سهلة يسيرة، فكل ما قيل على لغة اليقظة يأتي على لغة الرؤيا.

هل يمكن النظر إلى نظرية الرؤيا بشكل معكوس، وبهذا الشكل:

يمكن القول ان النبي كان يسمع كلام الله في المنام، وحتى مشاهداته التي يمكن أن تشكل حكايات الله، بمعنى أن الله يصير لغة النبي ومشاهداته، والآيات في القران شاهدة على أن الله يتكلم بلغة عباده ...

ويضيف الأنصاري شيئاً وهو: أن مدرسة شيخ الإشراق والفارابي وابن سينا يرون أن لغة الله تصبح لغة النبي، وهذا لا ينافي نظرية الأحلام النبوية.

ما رأيك بهذا المورد؟

الحقيقة أن آراء الأنصاري تنافي نظرية الرؤيا، لأن النظرية جاءت لبيان أوصاف بشرية القرآن، أو دعنا نقول – على أقل التقادير – إحدى نتائجها، لكن عندما تقول بأن هذا هو كلام الله وتصادر كلام النبي فهذا نسف لصفات بشرية القرآن ؛ لأنك قد أخرجت النبي من الميدان، وجعلت قول الله مكان قول النبي، وهذا في الحقيقة أكلٌ من القفا، وتعقيد للكلام البسيط، وإرجاع للإشكاليات التي كنّا بصدد حلها.

ولذا طريقة الحل المقترحة غير مقبولة، ولا تحل أي عقدة.

النقطة الأخرى في كلامه هي: ان النبي كان يسمع كلام الله في منامه!

هذه غفلة عن البحث في كلام الله!

وما هو كلام الله؟

و ما معنى ان النبي يسمع كلام الله؟

نظرية الأحلام النبوية جاءت بحل واحد وبصورة دائمية لإشكالية كلام الله، وقلعها من جذورها.

الحل يكمن في ان النبي ومن فرط قربه من الله صار كلامه كلام الاله، وأوامره ونواهيه وحكاياته إلهية، هذا معنى كلام الله، ومن دون الدخول في توضيح ما هو كلام الله ونسبته إلى النبي.

والصواب أن رؤيا النبي بشرية قدسية، وهذه الرؤيا تشمل كامل الأوصاف البشرية، ومن جملتها محدودية علمه وطريقة حياته الصحراوية، ومحدوديته الاجتماعية والقبلية، والتي جزء منها اللغة العربية وتبعاتها المذكورة في كتاباتي.

و هنا أعيد السؤال الذي طرحته في جوابي عن انتقادات كديور –وهو ذات النقص الموجود في كلمات الأنصاري – ما مدى مدخلية وفاعلية النبي في ظاهرة الوحي؟

الظاهر من كلامه هو ادخال الله إلى الميدان واخراج النبي منه، وجعله جالس في ركن ما.

مرة أخرى يدخل الله بطول قامته إلى الميدان جالباً معه كل الإشكاليات ...

نظرية الأنصاري في واقعها ايصالنا إلى نقطة الصفر عن طريق لعب دور الله ١٠٠٪ مكان دور النبي.

و بالإضافة إلى الإشكاليات الكلامية المترتبة على هذا الدور الذي يقوم بدور النسبة والرابطة المرفوضة بين ما وراء الطبيعة والطبيعة، وهذا لا يمكن القبول به ؛ لأنه الاتيان بما وراء الطبيعة وحذف الطبيعة من الميدان، وإيصال دورها إلى الصفر.

يضاف إلى ما تقدم من محدودية دور النبي، فنحن بحاجة إلى نظرية ميتافيزيقية لحل العلاقة بين ما وراء الطبيعة والطبيعة لتوضيح كيفية ظهور ما وراء الطبيعة في الطبيعة، وهذا الأمر غائب من كلمات الأنصاري.

أما فيما يتعلق باستنباطه من آراء الفارابي وابن سينا، فلابد من القول بأني لا أقرأ في كلمات هؤلاء العظام ما يقوله الأنصاري بل استبعد ذلك جدا.

شيء جميل هذا النقل لكلمات الكبار لإدامة البحث ...!

نظرية الأحلام النبوية يمكنها حلّ وتبيان بعض آيات القرآن، لكنها عاجزة عن بيان آيات الاحكام والوقائع التأريخية في زمن النزول والتي انعكست في القرآن، والتي بيّنها القدماء بطريق افضل.

لماذا طُرحت نظرية الأحلام النبوية بصورة الموجبة الكلية، وكيف تدافعون عن هذه الشمولية؟

ذكرتم في الأحلام النبوية والتوضيحات التي تلتها: أن للأحكام الشرعية النصيب الادنى من الوحي، هل هذا معناه أن الأحكام خارج عن مظلة النظرية؟

لغة القرآن واحدة وليست متعددة، أما لغة رؤيا أو لغة يقظة، وتجزئة النص القرآني يجر معه مشكلات عديدة لا حلّ لها بالإضافة إلى أنها دعوى بلا دليل.

الآخرون يرون أن لغة القرآن بتمامها لغة واعية، ولا دليل لهم على ذلك.. حتى الأنصاري كان يرى أن بيان بعض القرآن بلغة الرؤيا أمر محبب، وكذلك الشبستري في كتاباته يميل إلى أن بعض القرآن اقرب إلى لغة الرؤيا، بل يدعي بيان هذه النقطة بطريقة أفضل من بياني لها، ولست مهتماً بهذه الأولوية والأفضلية، بقدر الإقرار منه ومن الأنصاري بلغة الرؤيا في بعض آيات القرآن، وإنما أسهل للفهم، وهذا الإقرار بالنسبة لي ذات قيمة مهمة يقتضيها الإنصاف والذكاء، بالإضافة إلى أنها حلّ للعُقد.

وعلى الأقل هذا الإقرار لا يجعل من نظرية الرؤيا اجنبية عن النص القرآني، وإنما تساعد في حل الإشكاليات المستعصية، ونحن نتحدث عن المعاد والتوحيد اللذان هما ركنان أساسيان ومن ذاتيات الدين، والتي تتحدث عنهما نصف آيات القرآن.

شكري لهذين الكبيرين على الاعتراف العلمي المنصف.

سأعرض قضية اللغتين في القرآن بطريق جدلي، فإن كانت لغة الرؤيا كلغة واحدة تغطي القرآن بلا دليل؛ فهذا معناه ان اللغة الواعية بلا دليل أيضاً، ولابد من اسقاطهما معاً.

أوردت كلاماً لاحد المنتقدين القائل بأن بعض القرآن يناسب الرؤيا أكثر من البعض الآخر...

نحن أمام خيارٍ واحد من بين تلك الفرضيتين: إما ان نؤمن بالرؤيا الشاملة لجميع القرآن، أو نؤمن باليقظة الشاملة لجميع القرآن، وتوجد على كلا الفرضيتين آيات مؤيدة.

هذا يتطلب الرجوع إلى النص القرآني للخروج برأيٍ قطعي، مع ملاحظة أن كلا الفرضيتين متساويتان من حيث المعقولية والاستدلال والشواهد من داخل المتن ومن خارجه.

تصوري أن اللغة لابد أن تكون سارية على كل القرآن ومن دون تجزئة، وهي لغة الرؤيا، وفي المقابل هناك خلل في الطرف المقابل من المعادلة وهي الاعتراف بأن جزء من القرآن يقرب إلى أن يكون رؤيا، وهذا يرجّح كون لغة القرآن بأجمعها لغة رؤيا.

ثم ننتقل بعد ذلك إلى حل الإشكاليات بناء على هذا اللغة، كما لو بنينا على لغة اليقظة فسننتقل إلى حل الإشكالات بناء على لغة اليقظة.

وعلى القول بأن هناك اشكالات عالقة على لغة الرؤيا.. أقول كذلك هي موجودة في الطرف المقابل، فكلا اللغتين متساويتان من حيث المساوئ.

و بدلائل مختلفة تكون كفة الفوائد في الرؤيا أثقل من الكفة الأخرى.

أحد تلك الدلائل -كما أشرت سابقاً- أنها حلّ لمعضلتين ذاتيتين في الدين وهما التوحيد والمعاد، حيث صرح الملا صدرا على احتوائهما على منامات وبحاجة إلى التعبير، هذا أولاً.

ثانياً: بالنظر إلى شواهد التأريخ - تلك الشواهد التي أغمض النظر عنها وكنت مهتماً بها دائماً - نرى إن القرآن نزل في حالة من الرؤيا وهذا ما ذكره جميع المؤرخين ؛ فالقرآن نزل بحالة من الرؤيا أو شبيه من ذلك، وهذا صريح قول النبي -كما اشرت إليه سابقاً- بأن الآيات الأوائل من سورة العلق نزلت وهو في حالة منامية.

ابن هشام في السيرة ذكر شيئاً مشابهاً لذلك في سورة الكوثر، ولم تُذكر في آيات أُخر

لكن الجميع ذكروا أن النبي يُغشى عليه حال نزول الآيات، ويدخل في حالة غفلة عن الآخرين، ثم ينهض ويقرأ ما نزل عليه من الآيات، الجميع ذكر ذلك ولم يلتفت لمدلوله.

الكلام في حالة اللاوعي لا يشابه الكلام في حالة الوعي، وهذا مرتبط بلغتين وينبغي تفسيره وتعبيره بطريقين ...

قدماء المفسرين لم يتخيّلوا النبي يحمل نتاج رؤياه إلى اليقظة ويبيّنها بلغة عربية، ولذا تعاملوا مع لغة اليقظة، وكان من المفترض التعامل مع الرؤيا بلغة الرؤيا حتى لو بُيّنت بلغة عرفية وعادية.

نظير أحدنا عند الاستيقاظ من النوم يشرح رؤياه بلغة فارسية، ولأنه تقرير للأحلام فلابد من تعبيرها بما بين السطور وتحت اللفظ ليكون مقنعاً.

هذا شاهدٌ من بين شواهد كثيرة على لغة الرؤيا.

من جملة الإشكاليات المطروحة: قضية الأحكام الفقهية وتاريخ عصر النبي، كيف نتعامل معهما؟

بذكاء شديد أشار الأنصاري إلى تاريخ عصر النبي وتاريخ الأنبياء السابقين الذين لم يسلط الضوء عليهم، لأنه وبفراسته -كما أظن- يستشعر أن القصة برمتها يمكن أن تدخل في باب الرؤى، معجزات الأنبياء - على سبيل المثال - قد شاهدها في الرؤيا، حتى الحوادث التاريخية غير المنقولة في أي تاريخ، لا التاريخ المقدس ولا التاريخ العلماني، نقلها القرآن وأخذت الحيز الأكبر بعد آيات المعاد والتوحيد، هذه يمكن أن تدخل في دائرة الرؤيا، والتي لم يتعرض لها الأعزاء المنتقدين.

ثم تصل النوبة إلى الحوادث المعاصرة للنبي، ومنها الحروب التي خاضها، وكذلك الأحكام الفقهية التي هي بحدود الخمسمائة آية.

أعتقد أن ذلك لا إشكال فيه:

نظرية الرؤيا وبقية النظريات العاضدة لها تقول بأن مؤلف القرآن هو النبي، ولذا مؤلف تلك الأوامر والنواهي هو النبي، بمعنى أنه الأمر الأول وينسب إلى الله ثانياً وبالتبع والعرض والمجاز، ونظرية الرؤيا قد أوضحت هذه النقطة بأحسن وجه، وتجاوزت بها إشكاليات ميتافيزيقية عديدة.

إحدى تلك الاشكاليات: ان الله لا يخلق الاعتبارات، لأنها افتراضات ذهنية، فالاعتبار معناه إعطاء حكم بشيء لشيء آخر، وهذا المعنى لا يصح الا في مساحة ذهنية، وفي عالم الخارج لا يأخذ شيء مكان شيء آخر ؛ لأن عالم الواقع خالٍ من المجاز والكذب والاستعارة والكناية، وعندما تأتي كل تلك الأشياء سيكون الذهن البشري قادم معها، والذهن البشري معناه الحضور البشري.

إذن نظرية الأحلام النبوية تحل إشكالية صدور الأحكام والأوامر والنواهي الإلهية، هذا مضافاً إلى حلها لإشكاليات كلام الله وكيفية حدوث هذا الكلام، ومشاهدات القيامة وصفات الإنسان الإلهي الاي تنسب بالمجاز إلى الله.

الأوامر الإلهية اعتبارات الهية مضافاً إلى كونها كلاماً إلهياً أيضاً، وهذا يضاعف الإشكالية التي تُحل بالاعتقاد بالحضور التام البشري في الوحي، وهذا يجعل من نظرية الرؤيا موفقة جداً.

كيف تكون الحوادث المتعلقة بالنبي كالحروب مثلاً، الوارد ذكرها في القرآن، كيف يمكن حلّها عن طريق نظرية الرؤيا.

حوادث عصر النبي الواردة في القرآن هي من نوع الحوادث المنامية، يعني تقرير الحوادث لم يكن تقريرا تاريخيا (توثيقياً).

مثلاً: يلاحظ في القرآن تقريراً عن الحرب الفلانية واشتراك الفين من الملائكة أو خمسة آلاف في الحرب.

السؤال: اين شوهدت تلك الآلاف من الملائكة؟

أنها في رؤيا النبي.

المحاربين أنفسهم لم يشاهدوا الملائكة، ولم ير أحداً من المؤرخين حضور الملائكة، وانهم رأوها رؤية العين، نعم شوهدت في رؤيا العين.

هذه الحوادث لها دور في الرؤيا، وكما ان النبي يرى مشاهد القيامة كذلك يرى مشاهد الملائكة في الحرب.

مثال ذلك: مجيء الشيطان وإعطائه الوعيد للمقاتلين بقوله ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾[1]، وجئت لمساعدتكم، ثم يرى النبي مجيء الملائكة للنصرة ... كل ذلك رؤى وليست كتابة متعارفة للتاريخ.

وهذه بالمناسبة إحدى مؤيدات نظريتي.

يعني في تصورك ان الحرب قد وقعت وفي ذات الوقت هناك مؤرخ نقل وقائع تلك الحرب، لكن النقل التاريخي لم يكن دينياً ولا علمانياً، بمعنى انه يحمل الجنبتين معاً، جنبة خارجية يمكن أن يكون أي مؤرخ لا ديني، وجنبة داخلية.

---

(1) ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الأنفال:٤٨

نعم، الجنبة الداخلية هي الرؤيا التي تضيف على النقل.

مثلا: انتصار المؤمنين على الكافرين بسبب حضور الملائكة، إذ لا يوجد مؤرخ ان يكتب التاريخ بهذا الطريقة بل لا يتمكن من الكتابة كذلك، ؛ لأنه لا يرى الملائكة، ولهذا نقل الوقائع بصورة تغشيها الرؤى، وهي مختلفة عن طريقة المؤرخين في النقل. ولذا تجد المسافة كبيرة بين النقل القرآني والنقل الآخر.

بالضبط النقل هنا يشبه الآيات التي تتحدث عن الظواهر الطبيعية، وتنسبها إلى مدخلية اليد الإلهية فيها، انظر إلى هذه الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾[1]

وكذلك الله المنزل للمطر، والباعث على شروق الشمس، وأمثال ذلك ...

هذه الآيات لم تبيّن من قبل عارفاً بالطبيعة، لأن اللغة الواعية للعارف بالطبيعة ليست كذلك.

هذه لغة رؤيا ... يلاحظ فيها حضور الله في الطبيعة وكأنه المحرك المباشر لها، وهذه نقطة مهمة.

البيان القرآني للطبيعة هو ذات البيان القرآني للحوادث التاريخية، لأنها التجربة الدينية للنبي، وهذه التجربة هي التي تجعلها مختلفة عن التجربة العلمية، وكأننا امام تجربتان بمستوى واحد.

تصور أن عالماً طبيعياً ينظر إلى الغيم والمطر بذات النظر الذي ينظر إليه النبي إلى الغيم والمطر، في هذه الصورة لا يتمكن من إدراك الرسالة الدينية.

الآن لو تفضلتم بتوضيح الأحكام

ليس من العبث في كتاباتي تكرار مسألة أن الأحكام لها النصيب الأدنى من النبوة، على خلاف التصوّر العام الذي يعتبر الأحكام الشرعية من مهمّات ما جاء به النبي، بتصور أن النبي جاء بمعرفة جديدة للعالم.

---

(1) الواقعة: ٧١-٧٣

الحج – في تصوري – اهم مظهر من مظاهر الدين، كشعيرة دينية كان موجوداً بين العرب، وكانوا يطوفون على الأصنام، وهناك مرتفعان هما الصفا والمروة، وعلى قمة كل منهما صنماً.

كان العرب المشركون يغدون ويروحون بينهما، ويقدّموا القرابين تحت أرجل الأصنام ...

بالضبط كما كان النبي يفعل، ولم يغيّر من تلك الشعائر سوى أنه جمع الأصنام وأخرجها من الكعبة، ودعوة الناس للطواف حول اللاصورة مكان الطواف حول الصورة.

رفع الأصنام من على الصفا والمروة وقال للناس هرولوا بين الجبلين وذكروا الله.

وقال للناس اذبحوا الأضاحي لكن ليست تحت أرجل الأصنام بل تحت أرجل الله.

المراسيم السابقة بقيت على ماهي عليه لكن بمعنى جديد.

هذه أصل رسالة الإسلام، وليس تأسيساً لفروع وأحكام وقوانين جافة.

بقية الأحكام والقوانين كانت موجودة في المجتمع الحجازي –كما يقول المؤرخون – مثل أحكام الديات والإرث... النبي ابقى عليها وأثبتها.

المفصّل في تاريخ الأرب قبل الإسلام أحد الكتب التي تحدثت عن هذا الموضوع.

الشاه ولي الله الدهلوي في كتابه " حجة الله البالغة " أشار إلى هذا الموضوع أيضاً.

النبي لم يقم بأي جهد في سبيل تغيير تلك الاحكام، ولهذا ذكرت في كتاباتي: أن النبي لو كان عند قومٍ آخرين لأثبت أحكامهم وأمضاها، لأن رسالة النبي شيء آخر، وهي إضفاء معنى على تصرفات الناس، ولذلك حرّم بعض الأحكام الظالمة الواضحة، مثل حرمة الربا، وحرمة بعض أنواع الزواج، حتى خمس الغنائم كان سارياً من قبل حيث حُدد لأمير الجيش الربع فأبدله إلى الخمس.

بهذا المعنى تصبح للأحكام النصيب الأدنى من النبوة، لأنه لم يقم بتغييرات كثيرة، بل لا يوجد تطابق وتناسب بين ماهية تلك الاحكام مع الوحي، لأننا ننتظر من

الوحي سماع رسائل متعالية وفاخرة، وننتظر من الوحي كشف أسرار الخلق، وهذه الأشياء هي التي جعلت من النبي نبيّاً.

لو أن مصلحاً اجتماعياً يأتي ويغيّر ١٠٪ من قوانين المجتمع ويبقي على، ٩٠٪ منها على وضعها السابق هل يقال عليه نبي مصلح؟

تلك الاصلاحات التي تطال المجتمعات وتتحسن على أثرها بشكل تدريجي وتصبح محلاً للقبول.

إذن الأحكام الفقهية ليست سماوية، وليست سراً من أسرار هذا العالم، ولا تحسب على أي تجربة دينية، لأنها كانت موجودة ولا حاجة إلى تجديدها.

هذه الأشياء ١٠٠٪ بشرية، وصناعة ذهن النبي وتقييمه الاجتماعي، لأن تأويلها كان سارياً في المجتمع ولا داعي للتعبير عنها ثانيةً.

النقطة الأخرى التي أحببت إضافتها هنا هي: أن للمنامات درجات ومراتب، فهناك الرؤيا العميقة التي تحتاج إلى التعبير، وهناك الرؤى السطحية القريبة من اليقظة، والأحكام الفقهية من نصيب تلك المنامات السطحية، ولذا قلت أنها النصيب الأدنى من الوحي.

بهذه الإيضاحات ثبت أن لغة القرآن بأجمعها رؤى.

في مقالاتك الخمس تحدثت عن الربا وأن منشأه الرؤيا، فقد رأى النبي في المنام شخصاً في أصبعه خاتم من ذهب، رآه وفي يده حلقة من نار ... ثم قال النبي لا تلبسوا خاتم الذهب...[1]

حسناً، هل هذا الشيء كان سارياً في المجتمع، أو أن هناك تفكيك بين الأحكام؟

---

(1) الرواية عن ابن عباس:" ان النبي رأى خاتماً من ذهب في يد رجلٍ فنزعه وطرحه، وقال: يعمد احدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده " اخرجه مسلم في الصحيح في كتاب اللباس والزينة، باب طرح خاتم الذهب، الحديث رقم ٢٠٩٠.

نعم، هناك موارد كانت إبداعاً من النبي مثل تحريم الربا، حيث كان يقول آكل الربا كأنه أسير للجن والشياطين، أو آكلي أموال اليتامي كأنهم يأكلون في بطونهم ناراً.

هذه صور منامية للحوادث، وعلى أثر تلك الصور كان يصدر الأحكام.

في هذه الموارد نتعامل معها على أساس تام مع الرؤيا، وهي من ابتكارات النبي.

أما في موارد أخرى مثل ضرب النساء الناشزات هذه ليست صور منامية، ولا سر مخفي فيها

في الخاتمة، أشكرك على مشاركتك معنا في هذه الحوارية

مواجهة مع الرؤيا (4)

سلسلة حوارات مع عبد الكريم سروش حول نظرية الأحلام النبوية

حول نقد عبد البشير فكرت

أفسانه فرامرزي... موقع زيتون

السيد عبد البشير فكرت أستاذ في جامعة كابل، كتب مقالاً تحت عنوان " بعض الملاحظات على الأحلام النبوية " نُشرت في ٣ أب أغسطس ٢٠١٦ في موقع زيتون.

نغتنم هذه الفرصة للحوار عن هذه الملاحظات:

صنّف السيد فكرت ملاحظاته على ثلاثة اقسام:

ملاحظات حول طريقة البحث

ملاحظات موضوعية

ملاحظات عملية

سأطرح الملاحظات بالترتيب:

ملاحظات حول طريقة البحث:

هذه الملاحظات ترجع إلى افكارك بشكل عام، وليست مختصة نظرية الرؤيا، يقول فيها:

النظريات العلمية في قسم العلوم الانسانية ترجع إلى ثلاثة أصول:

١- التوصيف

٢- التبيين

٣- النظرية

بالعودة إلى الأحلام النبوية، ورغم أن المؤلف لديه إحاطة بفلسفة العلوم، إلا أنه تجاوز التوصيف والتبيين ودخل مباشرة إلى النظرية.

من الواضح أن هناك حد فاصل بين المدعى والدليل، لكن المشاهدة العينية في هذه النظرية تثبت عدم وجود اتكاء لاحدهما على الاخر، بل هناك تداخل بين المدعى والدليل ... السيد فكرت لم يورد أمثلة على ذلك لأنه يلاحظ النظرية بشكل عام.

ما هو رأيكم؟

وهل النظرية لم تظهر التوصيف والتبيين بقدر كافٍ؟

أشكر السيد فكرت على اعتراضه ومشاركته.

الحقيقة حديثه عن العلوم الإنسانية وتقسيمها إلى اصول ثلاثة لا يمكن قبوله، وكذلك التوصيف والتبيين في النظرية، خصوصاً القسم الثالث الذي أراه زائداً لا محل له، إذ لا يوجد عندنا شيء غير التوصيف والتبيين وهما جزء النظرية.

في فلسفة العلم حينما نتحدث عن ظاهرة نريد تبيانها نقول: على ضوء تلك النظريات أو على ضوء تلك القوانين، بمعنى أن الظاهرة هي التي تكون محط النظر في التبيان، وهذا يعنى اننا نتمسك بالعلة وبحسب الموارد.

ولذا لم اغفل عن التوصيف والتبيين في نظرية الأحلام النبوية باعتبارهما ركنين ولابد من التفكيك بينهما.

قلت مرارا أن القرآن يحتوي على عدة ظواهر، ونظرية الرؤى تغطي كل تلك الظواهر، واستعمال اصطلاح التغطية من اصطلاحات فلسفة العلم covering law model ويعني موديل التبيين في القرآن هو قانون كلي يغطي كل الظواهر.

أما القول بالتداخل بين حدود الدعوى والدليل، فالأمر ليس كذلك، الادعاء شيء والدليل شيء آخر ...في بعض الأحيان لا يوضح الدليل المدعى بشكل أفضل فيتصور المرء أن هناك تداخل بين الدلائل والادعاءات.

ولأجل توضيح المسألة بشكل أفضل فإن المدعى في هذه النظرية هو ان الوحي شيء من جنس الرؤيا. انتهى المدعى.

رؤيا الوحي من الأمور المشهودة في القرآن كثيراً وهو الحل، لأن طرق بيانها الأخرى غير مقبولة اصلاً، فالعلو والدنو في مستوى البلاغة، أو قانون العلية، أو تداخل الزمان والمكان، أو احداث متناقضة يصعب تصور وقوعها في عالم الواقع واليقظة، وهناك ظواهر أخرى اوصلتها إلى احد عشر ظاهرة يمكن تبيانها بطريقة الرؤيا.

في هذه الموارد تجد المدعى منفصل عن دلائل الظواهر، هذا نموذج وأمثلته كثيرة: كالشجرة الخضراء المحترقة حيث يمكن بيانها بالرؤى، وكما تعلمون ان موسى في ظاهرة الوحي رأى شجرة خضراء تحترق اقترب منها ثم فجأةً سمع صوتاً، وهذا ما جعله في حالة لاشعورية ومنامية.

لقد قمت ببيان بعض تأويلات المفسرين الذين بذلوا جهوداً في تأويل الآيات، بطريقة صحيحة أو غير صحيحة، وقد وضحت أن التأويل مما لا ينبغي القيام به لعدم الحاجة اليه.

و عليه فاشكال السيد فكرت غير وارد بالمرة.

يقول السيد فكرت تعقيباً على جوابكم على اعتراضات بازرگان حول عدالة العقوبات الأخروية.

هل الأحكام الدينية الثابتة ممكن ان تتغير تبعاً للمتغيرات الاجتماعية؟

ما الذّي أتى بالدين وماهو المتوقّع منه؟

وهناك أسئلة أخرى من هذا القبيل، مثل:

المقاربة الداخلية للدين غير ممكنة، لأنها تجعل فلسفة الدين عنواناً ثانوياً رغم أنه الطريق المعقول الذي يمكن الرجوع إليه، لكن في الوقت الذي يّبحث في الداخل الديني عن الأسئلة الدينية المستحدثة هنا لا يُؤخذ بهذا الطريق.

لو تفضلتم ببيان إمكانية الخلط بين الطرق من داخل الدين ومن خارجه، وهل هي موجودة أو لا؟

من ناحية منهجية هل البحث من داخل الدين إلى جانب الطرق من خارجه عديمة الفائدة؟

وهل ينبغي التقليل من الطرق المعرفية؟

نعم، الأمر كذلك وكما أشرت اليه، هناك خلط رائج بين الأبحاث الثانوية والأبحاث الخارجة عن الدين، حتى أنها في كثير من الأوقات تكون صادمة للتقييم العلمي.

يُعتقد أن كل معرفة خارجة عن الدين هي من المباحث الثانوية، والحال ليس كذلك . . .

تقسيم العلوم إلى أولية وثانوية يرجع إلى اصل العلم، ولا ربط له بالدين وكونه داخلاً أو خارجاً.

إن كان الموضوع علمياً فالباحث ينظر إليه ثانوياً ومن الدرجة الثانية، وإن كان الموضوع واقعياً وليس عرضاً علمياً فهو أولي ومن الدرجة الأولى.

إذن البحث عن إثبات أو نفي وجود الله يؤخذ من فلسفة الدين، ويكون بحثاً من خارج الدين، ويكون من أبحاث الدرجة الأولى، ؛ لأن الله ليس علماً من العلوم، وكذلك البحث في النصوص الدينية هي أبحاث من الدرجة الأولى.

التفسير مثلا يعتبر من أبحاث الدرجة الأولى لكن معرفة التفسير بحاث ثانوية، يمكن أخذها من فلسفة التفسير ويكون من دائرة فلسفة العلوم، وصيغة الفلسفة لا يصح إلغاءها من فلسفة الدين، والأبحاث الفلسفية حول بعض الموضوعات الدينية تشكل فلسفة الدين.

الحقيقة أشكال السيد فكرت لا يمكن هضمه بالنسبة لي، لأن الطريقة مرتبطة بذات الموضوع، وانتخاب الطريقة تكون بحسب جنس الموضوع ...

مثلاً: البحث في مجال الطبيعة تكون طريقته التجربة والمشاهدة، أما لو كان البحث في مجال ما وراء الطبيعة فالطريقة ستكون عقلية.

و ماذا لو كانت الأبحاث في النصوص؟

الطريق سيكون معرفة النصوص من خلال التاريخ وعلم اللغة والبلاغة وغير ذلك...

أما لو كنت معتقدا بالقبض والبسط فلابد من معرفة بعض النظريات الخارجة عن الدين لتتمكن من قراءة النص.

إذن إمكانية الخلط بين الطريقين لا وجود لها.

وإلا كيف يمكن لشخص من اختيار طريق لا يعرفه، لان الطرق لها مسيرها الخاص ومكانها الذي يمكن أن يفي بالغرض، طبعا مع الحاجة إلى التنقيح والتكميل.

أما في مسألة معرفة القرآن والوحي، فينبغي البحث عن الوحي من خارج الدين، ولا يوجد متن يتحدث عن نفسه من داخل المتن ذاته بل لا يمكن معرفته من داخله.

القرآن يقول أنا الحق فهل هذا يدل على انه حق، وكتب البهائية تقول ها أنا الحق، والماركسية أيضاً ...

الحكم بأحقّية أو بطلان نصٍ لابد أن تأتي من الخارج، حتى في النصوص المستندة إلى الوحي لابد من الاستعانة على اثبات مدعاها بنظريات من خارج الدين لنتخذ القرار بحقها.

إذن التخفيف من طرق المعرفة والأساليب لا معنى له.

لم أعتمد على الطرق الداخلية لفهم النص، لأنها عديمة الفائدة، ولكي ألاحظ ماذا يقول النص، وكيفية عمل الوحي فيه، لابد من امتلاك المقدمات لفهم الوحي، وعلى فرض الاعتقاد بأن الوحي من جنس الرؤيا هنا سأفهم المتن بطريقة ما، أما على فرض عدم الاعتقاد على نحو ما فهنا لا أستنطق المتن لأرى ماذا يقول.

على سبيل المثال:

أبو زيد يريد أن يفهم ما هو الوحي، يراجع القرآن ويستند إلى الآية التي استند اليها أكثر المفسرين لفهم الوحي، الآية تقول:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أو مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أو يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾

هذه الآية هي محلاً للإشكال أصلاً:

و هنا أريد ان اقول شيئاً لم يذكره الآخرون، ابو زيد والمرحوم الطباطبائي قالوا بأن الوحي على ثلاثة اقسام، أو له ثلاثة طرق لإيصاله إلى الناس:

١- وحيٌ يتحدث

٢- من خلف الكواليس

٣- ارسال الرسول

يبدو هناك طريقان غير الوحي هما خلف الكواليس أو ارسال الرسول.

اريد ان اقول ان معظم هؤلاء الكبار - للأسف - قد ارتكبوا خطأً في تفسير هذه الآية، وينبغي تفسيرها بهذه الطريقة: ان الله لا يكلم أي إنسان الا وحياً، وهذا الايحاء يتم بصورتين: إما من خلف حجاب أو بإرسال الرسول، وعليه لابد من قراءتها بهذه الصورة:

" وما كان الله لبشر أن يكلمه الله، إما من وراء حجاب وإما أن يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ".

المفسرون جعلوا الوحي على ثلاثة أقسام وأن كلام الله مع البشر على ثلاثة أنحاء أحدهم الوحي، والحال أن الكل وحيٌ غاية الأمر أن الوحي له صورتان إما من وراء حجاب أو يرسل رسولاً.

والآن نقول أن الوحي من وراء حجاب هو وحي الرؤيا، وهنا تُشاهد الصورة أو لا تُشاهد، ووحي بالإرسال وهو الرسالة التي يوصلها المرسلون إلى الناس، وهذه تكون في مخيال النبي.

وفي الآية لا نقول ما هو الوحي، وما نقوله هو ان الوحي قسمان من وراء حجاب أو بالإرسال، والوحي هو الرؤيا، وهذا فهمناه من خارج المتن، إذن الله لا يكلم أحداً إلا عن طريق الرؤيا، وهذه الرؤيا إما بوجود الصورة أو بعدمها.

ما تعني بوجود الصورة؟

يعني مع التصوير، ومثلا صورة فيها الملَك، أو من وراء حجاب يعني انك لا ترى القائل.

إذن أنت لا تنكر وجود جبرئيل؟

لا، جبرئيل غير المعقول لم يأت في القرآن، كلامي حول جبرئيل المنعكس في خيال النبي.

حينما نفسر الوحي بالرؤيا نفهم حينئذ ماذا يعني جبرئيل ولا نتحدث عنه بأمور غير معقولة وكأنه طائر في السماء وينزل إلى الأرض بنغمات يقرأها في إذن النبي.

يلاحظ هذا الكم من الانسيابية بين بواطن المتون وخارجها بطريقة ظريفة، وبطريقة معرفية يمكن أن لا يقع الخلط بينهما، والسيد فكرت ولظرافة الحد الفاصل بينهما تخيل أني وقعت تحت تأثير تقليل طرق البحث، كلا لأني وفي مقام البحث من خارج المتن استفدت من الطرق الخارجية للبحث، أما لو كنت مفسراً أو معبّراً لاستفدتُ من طريقة بحث من داخل المتن.

يعتقد السيد فكرت أنك لم تكن مبدعاً في أفكارك ولها خلفية تاريخية، ويرى فيها تأثيرات الاصلاحات اللوثري أو البروتستانتية

ويذعن أيضاً إلى أن النتاج الغربي ليس حديثا يقال، وحتى لو كانت هناك ثمرة ضمن الإطار الإسلامي فهي محلاً للبحث أيضاً، وهو يعتقد أنك قمت بهذا العمل.

كان لديك بحث مستقل عن لوثر، هل وقفت على نقاط ضعفه وقوته، على سبيل المثال تقول: أن لوثر لم يكن تعددياً، وطريق الخلاص يكمن في البروتستانتية،

وحتى الكاثوليك خارجة عن دائرة الخلاص، الآن وأنت تقول بالتعددية الدينية حتى في الداخل الإسلامي يوجد السنة والشيعة ولهما تفسيران عن الإسلام، لو لخصت لنا الاختلاف بينك وبين لوثر من حيث وجهات النظر؟

وإلى أي حد واقع تحت تأثيراته الإصلاحية؟

السؤال الآخر يتعلق بمدى رؤيتك للعصرنة الغربية ضمن الأطر الإسلامية؟

السيد فكرت في اعتراضه السابع يرى أنك لا تسير وفق الحدود التراث والحداثة بل الحداثة تعتبرها مناط لتقييم التراث، وبناء على ذلك فأنت لست من المتنورين الدينيين بل حتى يعتقد بأنك مبتلى بنوع ما بالليناسيون والغرابة في مقابل الحداثة؟

يعتقد الآخرون أيضاً بأني لوثر الإسلام، وكما ذكرتي حديثي عن لوثر والذي يمكن أن يظهر مواطن الخلاف بيننا، النهضة التي قام بها لوثر درستها دراسة مستفيضة وبعناية، وأعرف ماهي نقاط قوة وضعف الاصلاحية اللوثرية، هناك نقطتان اساسيتان في ثورته الاصلاحية لابد من الالتفات اليهما:

أولاً: لوثر لم يكن عرفانياً، بل مخالفاً بشكل مطلق لهذه المدرسة الموجودة في الكاثوليكية، ويراها انحراف عن الطريقة الصالحة، ولهذا للسبب لم تنشئ البروتستانتية راهب وصوفي.

ثانياً: وهو المهم ان لوثر ليترالي بمعنى انه مهتماً بحرفية النص الإنجيلي، ورافضاً للمقدمات التفسيرية للمتن بشكل تام التفسير السلطوي الكنسي والمقدمات بكل أشكالها، وأهم إشكالياته على الكاثوليكية هو إدخال التفسير الفلسفي اليوناني إلى تفسير الكتاب المقدس، وهو بهذا يشبه إلى حد كبير السلفية في المذهب السني، وشبيه بمذهب التفكيك عندنا فهو نوعاً ما قائل بتهذيب الدين من الزوائد الدخيلة، وهذا مخالف تماماً مع تطلعاتي وأفكاري في القبض والبسط والتجربة النبوية، وكنت دائم التكرار بأن الإسلام يعني تاريخ الإسلام والمسيحية يعني تاريخ المسيحية، وتاريخ المسيحية يعني كل شيء واقع في قلب هذا التاريخ والذي انعكس على الأفهام من المسيحية، وكذلك الحال في الإسلام.

أتذكر جيداً عندما كنت مع المرحوم مُحَمَّد أكون على طاولة مستديرة في باريس واستعملت ذات العبارة في خطابي" بأن الإسلام ليس سوى سلسلة التفسيرات عن الإسلام، والمسيحية كذلك " لذا أرى أن التفسير من جميع جوانبه تاريخي بشري، وهنا أعطيه غاية الأهمية.

ولهذا الدليل أقول أن المسيحية ليست سوى البروتستانتية والأرثوذكسية والكاثوليكية عشرات الفرق الاخرى، وكذلك الإسلام شيعة وسنة وخوارج ومعتزلة وأشاعرة كل ذلك هو الإسلام لأنها تفاسير عن الإسلام، رغم الاختلافات الداخلية وحتى التكفيرية منها، لكن حينا تنظر اليها من الخارج كلها داخلة في إطار الإسلام.

إذن الكلام عن اطلاعي التام عن الاصلاحات كلام صحيح، وعلى اطلاع بالاختلاف الموجود بينها، والاختلاف الأهم وهو العمدة في هذا الباب ولا تجده في البروتستانتية ولا الكاثوليكية يقولون أن الكتاب المقدس نتاج للرؤيا ...

في الكتاب المقدس سواء في التوراة أو الانجيل تلاحظ وجود عدد من الرؤيا، آخر كتاب في العهد الجديد كتاب الرؤيا، رؤى يوحنا، لكن لا نعلم هل هو يوحنا كاتب الإناجيل الأربعة أو شخص آخر.

بالتأكيد تلك الرؤى بحاجة إلى التعبير والتفسير، وكما أشار اليها اسپينوزا، اما بقية الاناجيل فلم يشر اليها احد بأنها رؤى، أو كتب بحالة من اللاوعي بالنسبة إلى الكتّاب الاربعة للأناجيل وأنها بحاجة إلى التعبير.

هناك فرق بين الوحي المحمدي ووحي كتّاب الأناجيل، وتاريخ اليهودية يثبت أن أنبياء بني إسرائيل كان لهم الكثير من وحي الرؤيا، كما في مزامير داود التي هي مناجات داود مع الله، وهي من أجمل أقسام التوراة – ويوجد شبيهها في الإسلام وتسمى زبور داود أو زبور أهل البيت وتتضمن مناجات أيضاً وهي الصحيفة السجادية – ونقرأ هناك أن داود يخاطب الله ويقول له بانك تتحدث مع أنبيائك في الرؤيا. هذه التعبيرات تعني لي – على نحو الاحتمال والظاهر – ان عدد من الأنبياء العظام في اليهودية قد تلقوا الوحي في الرؤيا، أحد هؤلاء العظام هو موسى بناءً على تقرير التوراة، وفي ميدان

نبوته هناك اثني عشر نبياً بينهم من النساء أيضاً، وما أريد قوله أن الوحي المحمدي شيء مختلف تماماً. ورؤيا الوحي في مورد نبي الإسلام واضحة جداً.

وفي كل الأحوال هناك اختلاف لا يناسب مذاق البروتستانتية، لأنهم انتفضوا على التفسير الكنسي، وأعطوا للمسيحين الحق في تفسير الكتاب المقدس، وأنا أيضاً أقول بهذا الحق للمسلمين مادام المفسر مجهز بالمنهجية والمقدمات اللازمة، وحديثي ليس مقابل الكنيسة إذ لا وجود لها، وإنما في قبال منهجية عامة المفسرين وأقول لهم ينبغي التعبير، وهذا الذي ينكره لوثر بشكل مطلق.

هذا بعض الخلاف في وجهات النظر بيني وبين لوثر.

وهل هناك اوجه تشابه بينكما؟

في أمر كلي فقط وهو إصلاح الراديكالية الدينية. رغم الاختلاف في الديانة والشريعة والزمان، هناك اختلاف كبير في الزمان بيننا، خصوصاً مفهوم الإنقاذ عندي مختلف جداً، وهلم جرا ...

وهذا الذي تراه من أن الحداثة معيار للتراث؟

السيد فكرت ذكر هذا الموضوع من باب التعاطف، لكني أريد توضيح نقطة لإيضاح الأمر للجميع:

نعم ينبغي للمثقف المستنير السير في حدود التراث والحداثة، لكن المتنور الملتزم بالحقيقة، فإن كانت الحقيقة في التراث يتمسك بالتراث وإن كانت الحقيقة في العالم المتحضر تمسك بالعالم المتحضر، وكونه يسير بين التراث والحضارة معناه يميل إلى الحوار بينهما، ولا يتخذ طريقاً واحداً يسير فيه.

المدنية والحداثة في امتلاكها للحق لا الباطل، وكذلك الحال بالنسبة للتراث، وبناء على عليه حينما نقول الحداثة بمعنى حداثة الحق والباطل، وتراث الحق والباطل.

ومن الصدف إني قلت نظريتي تراثية جداً، لكن من الطرف الآخر لا يمكن إغماض النظر عن عالم الحداثة، ولابد من وضعهما جنباً إلى جنب.

وعليه ... نعم انا اسير في الشق ما بين العصرنة والتقليدية، ومنه استلهم الحوار، وبدليل رؤية الحق في هذا الجانب أميل إليه وأترك الجانب الآخر، في بعض الموارد.

والمراد من الحق هو الحقائق القطعية الثبوت، والتي تعد حقائق في هذا اليوم، ولو حدثت حقائق أخرى أكون بصدد تكميلها وتصحيح الأخطاء.

ولو جاء السيد فكرت بنماذج لكان امراً حسناً ولعرفنا أي حق في التراث قد تغاضيت عنه واي باطل في الحداثة سعيت إليه. أنا لا أتذكر شيئاً من هذا القبيل.

يظهر ان المتوقع من الذي يتعاطى مع علم الكلام أن يكون متنوراً دينياً!

والحال أن هدف من المتنور الديني الوصول إلى الحقيقة وبيانها

للأسف، هكذا هو الحال، نحن نتيع الحقيقة، لا أن نطرق الأبواب لتحكيم التقليدية والتراث والعمل على اثباتها.

يعتقد السيد فكرت بأن المجددين الدينيين ومنهم سروش يقعون تحت تأثير الهوة السحيقة بين التطبيق والتنظير.

الألتفات التام إلى الكلام ونظريات المعرفة – بعنوان مباني ومقدمات الاستنباط الفقهي –كان سبباً لجعل الميادين العملية للدين بلا اجوبة.

يقول بعدم أهمية الفقه، ولذا تلقّت الجنبة العملية للدين نقصان في الكلام والفلسفة لا يمكن جبرانه – وهما الشغل الرئيسي له –

لو تفضلتم أي الأبحاث التي غفل عنها المفكرين لحل النقص الحاصل، غير تلك المباني النظرية ومقدمات علم الفقه؟

أود أن أقول للسيد فكرت، هذا الكلام فيه نوع من الإجحاف، هناك قسم عظيم من كتاباتي كانت باب الفقه – ولعله لم يطلع عليها – وقد شاهدت ذلك في أكثر من اعتراض من بعض الأصدقاء.

و لتوضيح المسألة ونتكلم بشكل صحيح عن الفقه ينبغي البدء من منابع الفقه الذي ينهل منه هؤلاء، يعني من الكلام وفلسفة الدين والفهم الصحيح للقرآن.

لقد ترفعت عن انتقاد الفقه، وذهبت إلى الأعلى ووصلت إلى نقد الكلام أو الإلهيات.

أما في مجال الفقه، أتمكن من القول بأني تابع للغزالي بنسبة مائة بالمائة، وخطواتي ثابتة في التراث، ومعياري في الحقيقة هو قول الغزالي.

يعتقد الغزالي بأن الفقه علم دنيوي، والفقهاء علماء الدنيا، لأنه متكفّل بتنظيم شؤون المعيشة الدنيوية، التي موجبة لصلاح الآخرة، ولهذا أعتقد بأنه علم دنيوي ايضاً.

وهذا كلام صائب؛ لأن العمل بالقواعد الفقهية يمكن للشخص أن يكون موفقاً في الدنيا وصالحاً في الآخرة.

مثال الغزالي على ذلك بيّن وجلّي:

أبو يوسف أحد تلامذته أبي حنيفة كان يتبرع بأمواله لزوجته اخر السنة المالية وهي تهبه تلك الأموال هروباً من دفع الزكوات.

عندما وصل الخبر إلى أبي حنيفة هزّ راسه موافقاً وقال " ذلك من فقهه ".

يضيف الغزالي: قول أبي حنيفة صدقاً وعمل أبي يوسف خيراً.

هذا من فقه الدنيا لا من فقه الآخرة.

يضيف الغزالي: أن الإسلام الذي جاء تحت ظلال السيوف يعتبر إسلاماً، والذين أسلموا خشية السيوف وتلفظوا بالشهادتين مسلمون أيضاً، لكن إسلام لا ينفع يوم القيامة، وإنما يؤمنهم على أموالهم وأنفسهم في الدنيا.

الفقه بهذا المعنى علم تأريخي بناه النبي لفائدة المجتمع، وهو مناسب لعُرف ذلك الزمان، ولا يوجد دليل على أن ذاك الزمان أفضل زمانٍ عرفه العالم وقوانينه صالحة لكل المجتمعات، فالمجتمعات اليوم تختلف عن مجتمع مكة كماً وكيفاً وصورة ومادة ...، وعليه لابد من الاجتهاد في هذا الباب.

مقدمات الاجتهاد تتخذ من مجتمع النبي باعتباره المجتمع الأكبر، وقليل من الجمع والتفريق يمكن تطبيق احكام المجتمع على المجتمعات الجديدة ...لكن لو نظرنا إلى أصل

الاجتهاد بمعنى الاجتهاد في الأصول فهذا قد أخذته من إقبال لاهوري، ولو اضفنا إليه ما ذكره الشاه ولي الله الدهلوي، بالإضافة إلى بعض من العلوم التاريخية المختلفة، يمكن لنا معرفة كيفية التعامل مع الفقه.

بهذا المقدار من الكلام عن الفقه نكتفي، ولعله أكثر من الكفاية ؛ لبيان كيفية الاجتهاد في الفقه، وكيفية الدخول فيه من خلال الأصول والقبض والبسط.

قلت ذلك لبيان السير التكاملي والمنطقي الذي اتبعته، وكيفية الاستفادة من التراث ومن بصائر علماء الفقه أمثال الدهلوي وأبو حامد الغزالي وأقبال لاهوري وآخرين ...

بالإضافة إلى الاستفادة من بصائر الحداثة لإبداء الرأي النهائي بخصوص الفقه.

أعتقد أن الفقه والاجتهاد الذي بين ايدينا من السنة والشيعة فقه فقير جدا وضعيف ؛ لأن الاجتهاد لم يتم على أصوله. طبعا لست فقيهاً وليست هذه فتوىً، لكن توصلت إلى نتيجة بسيطة يمكن لكل مسلم أن يصلها من فقه السنة أو الشيعة، والمعرفة بجواهر الفقه يعتبر ذلك فقها ومجزٍ ومرضٍ عند الله.

بكل الأحوال هذه فتوىً فقهية.

لا. المسائل المتعلقة بالاجتهاد والتقليد من الفروع الداخلية للفقه، ولعل علماء الفقه وما يوردونه في بدايات رسائلهم العملية نوع من البارادوكس الظاهر، إذ لا يستطيع الإنسان المقلد ان يسأل الفقيه عن أي فقيه يقلد؟

بمعنى أنه لا يصح منه التقليد في امر التقليد، ولذا ليس محلاً للإفتاء.

في مكان ما دخلت في أبحاث فقهية حول مقاصد الشريعة، وكنت تعتقد بإضافة أصلان إلى مقاصد الشريعة الخمسة؟

نعم، الهوية والعدالة.

ومن العجائب ان المتحدثين عن مقاصد الشريعة كالشاطبي والجويني وابن عاشور لم يذكروا شيئاً عن العدالة، وبكل الأحوال هذا علم الفقه وليس افتاءً.

بهذا المقدار تكلمتُ عن الأصلين ولم أمدد قدمي بأكثر من فراشي، لأن الفقه له أهله المختصون به.

وعلى خلاف تصور السيد فكرت حيث يقول بالهوّة بين النظر والعمل في النظريات، وأني انغمست بالكلام بدلاً من الفقه، ومن جميل الصدف أني تكلمت عن النقصان في الفقه وأنهم لم يجيزوا الاجتهاد في الأصول، والاجتهاد في الأصول معناه التعاطي مع علم الكلام.

الفقهاء إدراكهم محدود ومعرفتهم اولية عن الأمر الإلهي المبتني على معرفة الله والإنسان والتشبيه به ...

لقد أوضحت ذلك بالمثال في اطار نظريتي، بأن الأمر الإلهي معناه أمر النبي، وفي كل مكان وجد قول النبي افعلوا كذا فهذا معناه الأمر الإلهي.

حينما ينظر إلى الموضوع من هذه الزاوية لا تتبدل نظرتك كثيراً عن الفقه، وهناك أوردت نماذج من الروايات المؤيدة للأمر والنهي النبوي الذي هو أمر ونهي إلهي، مثل الأمر بالسواك، أو السؤال عن وجوب الحج كل عام، حينما تعلم أنها أوامر ونواهي للنبي لابد أن تعلم أنها بشرية ومقطعية والهية ومشروطة بشرائط.

هنا انحلت عقدة كلامية مهمة، وهي ان الاوامر والنواهي من جنس الاعتباريات التي لا مدخلية للإله بها، والحل الأمثل أن نقول أنها اعتبارات ذهنية للنبي.

الأهم من كل ذلك صريح الآية ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ وتعني النهي عن الأسئلة الفقهية، وهذا يشير بوضوح إلى كيفية وصول الفقه إلى أداة بشرية مبسوطة.

السيد فكرت في ملاحظاته الموضوعية طرح عدة انتقادات، من جملتها أنك في الأحلام النبوية ذكرت ثلاثة مقاربات، أحدها التجربة الروحية في تاريخ المسيحية، الشيء الملفت في هذه المقاربة هو أصل الوحي في المسيحية البروتستانية والرافع لرايتها هو شلايرماخر، وبالنهاية علة ظهورها في الغرب هو هيوم وكانت... إدخال هذه المقاربة إلى العالم الإسلامي وبدون مقدمات أمر غير معقول.

ثم يقول: شيء يدعو للعجب أن سروش يشكك في اصل التجربة الوحيانية وقوة خيال النبي، وتدخله في هذه التجربة، والحال ان قوة الخيال تابعة لذات الشخص، ان اراد ايقافها تمكّن ؛ تبعاً لإحساسه، اما في حالة النبي الأمر مختلف، لأن الوحي ليس اختيارياً، والنبي لا يتمكن بقوة خياله يدخل في الرؤيا.

ثم يورد آيات من القرآن للاستشهاد على أن الوحي والنبوة هبة ...ويضيف أن قوة الخيال تكون فعّالة حتى في حالة اليقظة بخلاف الرؤيا، إذن رؤيا الوحي لا تتناسب مع قوة الخيال.

دعيني أجيب على الشق الثاني من السؤال:

أولاً: الحديث عن قوة الخيال عند النبي ومدخليته في الوحي أول من أثاره الفارابي ثم تبعه ابن سينا وابن ميمون والخواجة نصير الدين الطوسي، وفي مغرب الأرض سبينوزا ثم الآخرين ...

وعلى فرض ندرة هذا الحديث لكنه كلام له مكانته العميقة في التراث، وتمسك به مفكري الرعيل الأول.

ثانياً: التدخل في قوة المخيال في الوحي لا ينافي كونه إلهياً وكونه امراً يتعلق بما وراء الطبيعة، ليس بنظري فقط وإنما هو رأي الحكماء ايضاً، وقوة المخيلة صورة عن تجارب كلية، يعنى تجارب اللاصورة التي هي مداد لقوة المخيلة.

على سبيل المثال: رؤية الملاك وظهور جبرئيل للنبي، في قوة مخيلته يتصوره، وهنا يقول أنه موجود أولاً.

قد تسأل كيف يمكن تصوره في قوة مخيلته؟

صورة الملك في قوة المخيال متصَوَرة، رغم عدم الوجود الخارجي له، ولو كان له وجود خارجي بصورة قوة موجودة لا صورة خاصة، ولا علم لنا في كيفية حصولها، مثل القوة الجاذبة التي لا صورة لها، ونعرفها من آثارها.

من الحكماء القائلين بالخيال المتصل الفارابي، ومن القائلين بالخيال المنفصل وشهاب الدين السهروردي،، وجميعهم قائلون بتدخل القوة الخيالية أو عالم الخيال مع العلم بإمكانية الوحي وتصوره.

القول بأن قوة الخيال تابعة لإرادة الشخص صحيح وخطأ.

على سبيل المثال: استطيع الآن بإرادتي أن أفصّل المركّب وأركّب المفصل -كما يقول القدماء- ويمثلون له بالبيضة عندما تتصورها قبة المسجد الجامع، هذه قوة الخيال وهذه إرادتي، إذن قوة الخيال تابعة للإرادة.

لكن قوة الخيال ليس فعّالة دائماً خصوصا في المنام، وقوة الخيال يستفاد منها في الأغلب عند المنام، إذن قوة الخيال هنا خارجة عن الارادة.

هنا ينتفي قانون العلية، ويتداخل الزمان والمكان، وتجتمع المتضادات، وتظهر مانعة الجمع وأشياء أخرى.

وباعتبارها خارجة عن الإرادة لا يمكن تحديد أي شيء يمكن رؤيته في الرؤيا وبأي صورة، ولهذا فالرؤيا بحاجة إلى تعبير، فلو رأيت افعى في الحلم، يكون بإرادتي رؤيتها أو بإرادتي انتزع مفهوما للأفعى، فهي من المجهولات، فلابد من الذهاب إلى معبّر أو أُعبرها ان تمكنت. ولهذا السبب ينتفي أشكال السيد فكرت.

أما القسم الأول من السؤال وانتخاب المقاربات التجريبية في الوحي، لابد من الإجابة بنعم، وهذا الكلام صحيح، لكن لا أعلم على وجه الدقة أي معنى يقصده، غرضي من انتخاب المقاربة هو اعتقادي بأن الوحي تجربةٌ، والتجربة هنا ليست بالمعنى العلمي أو الاستقرائي Scientific , Observation.

القصد من التجربة هي تلك الحالات الخاصة التي تعرض للإنسان، وكما يقول مولانا جلال الدين:

تعلّمتُ الموت من الحياة   لأن روح الحياة في البقاء

والتعليم هنا الوجدان والادراك، فأدركت إني ما دمت حياً فأنا ميت، وحينما اموت احيا ...

المولوي لم يختبر التجربة من خارجها، وإنما هي في اعماق وجوده، والحياة العادية التي نعيشها ليست حياةً واقعية، أنا عشتُ تجربة هذا المعنى من الوحي كتجربة عارف وليست تجربة نبي.

أما تعبير وتقرير الوحي لا يوجد فيه أي منافاة، إذ لا مانع من أن شخص النبي بعض من البيانات والتقارير يسمعها في المنام ويبيّن لنا ما قد سمعه، ولا أنفي أن بعض الصور قد شاهدها في المنام وبيّنها لنا بلغته هو، كل ذلك أراه ممكناً.

وفي الجملة كلامي ليس في كون الوحي أساساً عبارة عن بيان وتقرير، بمعنى أنها كلمات تقرأ على مسامع النبي، بل العمدة فيها مشاهداته هو، والتي أسميتها " السمعي - البصري " بل أكثر من ذلك فهو ذوقي ولمسي وشمّي، إذ ليس لزوماً أن يكون الحس الرائي فقط هو الفعّال عند النبي، حينما يقول النبي أن شراب الجنة لا يوجب الصداع فتصور أن النبي قد شربه في الرؤيا ولم يصاب بالصداع، والموسيقى في الجنان قد سمعها، والحور قد رآها بعينه، وبعض الأزهار في البستان لمسها بيده وشمّها، ومن هذه الحيثية تكون قد أغنت الوحي وجعلته ذات أبعاد متعددة،

نحن أيضاً في المنام قد عشنا تجربتها أيضاً، نسمع في المنام ونرى ونستشم و...

صدر الدين الشيرازي في الأسفار الأربعة يتكلم عن تجارب بعض العرفاء فيقول أن بعضم يستنشق رائحة بخور الكواكب، وهذا وأن يبدو غريباً في عالمنا المعاصر لكنه يؤكد أصل التجربة الشميّة.

مولانا جلال الدين يقول في قصة مرسى والراعي:

في قلب موسى القينا خطاباتٌ خلطنا فيها الرؤية والكلام[1]

و لأجل جعلها تجربة وحيانية غنية، يضاف إلى الحواس الظاهرية حواس أخرى، وكما يقول المولوي:

خمس حواس ويوجد غير تلك الخمس كالذهب الأحمر والبقية كالنحاس[2]

إذن يوجد لدينا حواس أخرى لو قمنا بتفعيلها، ولعلها عشرات الحواس قد تكون تحت اختيارنا. وبناء على تحقيقات الفلاسفة يمكن تحصيل المعلومات عن طريق

(1) المثنوي، الدفتر الثاني، بيت ١٧٧٣

(2) للثنوي، الدفتر الثاني. بيت ٤٩

الادراكات الجزئية، خصوصا ان السيد الطباطبائي أكد وبقوة على هذه النقطة، وآراءه هنا تشابه آراء جان لاك، باختلاف يتمثل بعدم معرفتنا الكاملة عن الحواس -بحسب تصوره - إذ من الممكن ان تظهر لنا حواساً أخرى، كما ظهرت للنبي، والأنبياء من هذه الحيثية لهم قوى وظرفيات مختلفة، بعضها أكثر نقصا واخرى أكثر جمعاً، والقصد من الأكثر جمعاً ان بعض الأنبياء كل حواسهم الظاهرية والباطنية تعمل من أجل الكسب والكشف للحقائق.

قصدكم ان رؤيا بعض الأنبياء بصرية، ورؤيا البعض الآخر أكثر سمعية و...؟ هل يمكن الحكم في مورد الأنبياء من هذه الجهة؟

نعم بالضبط هذا هو المقصود، فيما يخص النبي عيسى (ع) المعلومات المتوفرة لدينا شحيحة، والذي نفهمه من أنبياء بني إسرائيل ظاهرة أن لهم حالات من الرؤيا، على النحو الأغلب أو الأكثر، وكما ذكرت في مورد داود في المزامير حيث يقول: إلهي أنت تحدثت مع أنبيائك في الرؤيا، والظاهر أن رؤيا الوحي عند أنبياء بني إسرائيل كان عاماً.

ألواح موسى المتضمنة للوصايا العشر الموحى إليه والتي كان قد أخذها معه موسى عندما صعد على جبل الطور، والموجودة في آخر كتاب العهد الجديد بعنوان Revelation ترجمها المسيحيين العرب باسم الرؤيا، وهي رؤى يوحنا، وفيها نقاط جيدة، وقد وردت مقاطع منها في الروايات الإسلامية.

وفي كل الأحوال يمكن القول تارة بالوحي النبوي بنظر بعض، ووحي نبي آخر ...

في نقد آخر للسيد فكرت يقول فيه: تؤكد نظرية الرؤيا على الوحي السمعي -البصري، لكن لا يمكن تحديد بالضبط هل أن الوحي له خاصيتان في نفس الوقت، وفي موارد يكون فيها الوحي بصورة سمعية محضة؟

يعتقد فكرت أن قسماً من الوحي ليس مرئياً مثل رب العالمين، كيف يمكن للنبي رؤيته؟

ويعتقد أيضاً أن نظرية الرؤى لا تغطي النزول غير الروحاني للوحي مثلاً نزول جبرئيل على النبي بصورة شخص، وبالضمن ورود بعض الروايات التاريخية تناقض النظرية أيضاً.

على سبيل المثال، لو أن الوحي نزل على النبي في حالة لا شعورية وهو على ناقته كيف لا يسقط منها؟

إذن بعض الوحي حصل في حالة اللاشعور؟

في جواب لسؤال سابق قلت تارة يكون الوحي سمعياً وتارة يكون سمعي-بصري، وثالثة يغطي كل الحواس، إذن يمكن معرفة ايهما أكثر بصريةً أو أكثر سمعيةً.

نظرية الرؤيا أوضحت كيفية نزول جبرئيل بشكل جلي، النبي رأى جبرئيل في مخيلته كطائر بأجنحة شاهده وسمع منه، موجود بستمائة أو ستة آلاف جناح يتحدث معه.

يقول أيضاً رب العالمين لا يُرى ... كيف رآه في الرؤيا؟

وهل تسبيح الكائنات شيئاً مرئياً!

رب العالمين توصيف من التجربة التي عاشها، هي أيدٍ مخفية وغير مرئية، وقوي عزيز شَعرَ به في منامه، وأطلق عليه اسم رب العالمين.

حينما نقول شيء مرئي لا نعني تلك الأمور غير المرئية تكون مرئية أيضاً. مثل العدالة شيء غير مرئي لكنها جاءت في القرآن في صورة إنزال الميزان، يعنى أن النبي رأى العدالة في صورة الميزان، ورب العالمين جزء تجربته أيضاً، بمعنى أن النبي قد عثر على سرٍ يقال فيه أن العالم كله في قبضته، وهنا أطلق عليه "رب العالمين ".

دكتور: الظاهر أنك تفكك بين صورتين، صورة الرؤى التي رأى فيها النبي ما رآه وبيّنها عيناً، وصورة ما رآه ثم فُسرت بعد ذلك.

بالضبط كذلك.

في موارد الجبر والاختيار والمفاهيم الأخرى من هذا القبيل، كيف كانت وضعيتها؟

الآيات والبيانات القرآنية حول الجبر والاختيار متعارضة في الظاهر.

يقول في مكان: ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [1] وهنا رائحة الجبر فواحة، وهنا إحساس النبي بقوة أن العالم لا قدرة له، وأن كل شيء في قبضة موجود مقتدر.

ويقول في مكان آخر ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [2]، في تصوري أن كل ذلك عبارة عن تجربة النبي الشخصية، في وقت يشعر أنه مختار وحر، وفي وقت آخر لا يشعر أنه كذلك.

إذن هذه ليست رؤى؟

نعم هي كذلك، تجارب في مقام اللاشعور، وقد ذكرت ذلك في حق مولانا جلال الدين، حيث يشعر تارة بأنه في حالة تحليق وطيران، وتارة أخرى كطائر في حالة من الذبول في قفص.

هذا الخطب سيظل ناقصاً ومضطرباً　　لا فؤاد لي ومن دون الفؤاد معذورٌ
سأحسب اوراق البساتين　　وأعِدُّ اصوات الحجل والغراب[3]

و كذلك:

خسرو وشيرين تناوبوا الأرواح　　لا جرم أصبح السكر رخيصاً
غداً ستصبح مدينتنا مليئة بالسكر　　السكر رخيص وسيرخص كذلك[4]

ذكرت حالة الجمع بين المعاني الحقيقية لألفاظ القران وتأويلها، كيف يكون التناسب بين أنواع التجارب التي بيّنها النبي وهي لا تُرى ولا تُسمع؟

إلا إذا قلنا بأن الرؤى السمعية والبصرية والذوقية والشمية متفاوتة بنحوٍ ما. إلا ولأن: معاني ألفاظهما حقيقية بخلاف الآخرين.

---

(1) التكوير: ٢٩

(2) الانسان: ٣

(3) المثنوي، الدفتر الثاني الأبيات ١٧٠٦، ١٧٠٨

(4) المثنوي، الدفتر لخامس، الأبيات ٢٠٢٥، ٢٠٢٨

يمكن لك القياس على مثال " رب العالمين " المتقدم، أو المنقول إلينا من حوارية موسى:

يقول موسى: حينما قيل لي اذهب إلى فرعون وتكلم معه لعله يتنازل عن ادعاء الربوبية.

قلتُ: مَنْ أنت وما اسمك؟

قال: هذا أنا الذي هو أنا I am who i am.

لم يذكر موسى اسماً لله ولا وصفاً، ولم يقل مثلاً " خالق الكون " أو شيء من هذا القبيل ...

و إنما تحدث عن الوجود.

تجربة موسى تجربة فائقة، تختلف تماماً عن تجربة نبي الإسلام، وبتصوري أنها أكثر قوة في هذا المورد، و هي اللاصورة التامة، وباللفظ العبري " أهية شراهية ".

تصبح المقاربة أكثر جمالاً حينما أقرأها بالعبرية " هو أنا الذي هو أنا، يعني وجود من دون الماهية.

وكما يقول الحكيم السبزواري:

الحق ماهيته انيته

اذ مقتضى العروض معلوليته.

حينما تضع اسماً لشيء فقد حددته وعيّنته، وبهذا التصور جاءت قصة موسى في القرآن:

يقول الله لموسى: يا موسى إنّي انا الله رب العالمين ...

هذه تجربة نبي الإسلام، والوصف واضح بين " رب العالمين " وبين " أنا الذي هو أنا ".

وينبغي القول هنا أن مفهوم الرب والمولى قد ملأ ذهن النبي، والتصور الذهني عن الله هو تصوير رب الأرباب الحاكم على قرية العبيد، وفي كل الأحوال لابد من التعبير

هنا، وهذا ما عنيناه من قولنا أن بعض المنامات على درجة من التعقيد، فليس كل منام يشاهد فيه رؤية الشمس.

من جملة الاعتراضات على الوحي هي إمكانية وصول الوحي إلى كل الناس، إذن لابد من شعورهم بالمسؤولية وهي هداية الناس.

وهل الخطأ متصوَر في الوحي، وكيف يمكن الجمع بين الوحي الخاطئ وهداية الناس؟

في هذا المورد بالذات لا تحصل هناك أي مشكلة، وليست المسألة كما صُورت من أن كل شخص يصله الوحي يشعر بمسؤولية هداية الناس، الأمر ليس كذلك.

وقد أوضحت هذا الأمر في مكان ما.

أما في مورد الخطأ في الوحي وعلاقته بالهداية، فينبغي القول هنا أن لا إشكال أصلاً، لأن الهداية المنوطة بالنبي تكون في موارد عدم الخطأ، وعلى فرض أن النبي لا يعلم بأن الشمس تدور حول الأرض أو بالعكس، وآيات القرآن دالة على حركة الشمس ... ما دامت هذه الآيات لا تؤثر على نتيجة التوحيد والخالقية الإلهية فلا توجب الخلل في الهداية.

يقول السيد فكرت: أن نظرية الأحلام النبوية ترى أن القرآن تفاعل إلى حد الغليان في ذات النبي، وعلى ضوء ذلك تسعى النظرية إلى نسبة الصفات الخبرية في القرآن إلى الله وتوجيه ذلك منطقياً، وهذا يجعلها أقرب إلى أهل التشبيه من إلى أهل التنزيه من المعتزلة.

هذا خطأ منه ...

طبقا لنظرية محيي الدين بن عربي، نحن لسنا محض مشبهين ولا محض منزهين.

وفي بيتين مشهورين له يقول فيهما:

إن قُلتَ بالتنزيه كنت مُقيّداً   وإن قلتَ بالتشبيه كُنت مُحدّداً

وإن قُلتَ بالأمرين كُنت مسددا   وكنت إماماً في المعارف سَيِّدا[1]

ويقول مولانا أيضاً: الله أفضل من الأضداد، وفي أي مكان واجهتك الأضداد فالله ليس طرفاً بين هذين الطرفين، بل هو أفضل الأضداد، ولهذا يقول بعض العرفاء كالقاضي سعيد القمي: بأن الله أفضل من الوجود ومن العدم ؛ لأن الوجود والعدم نقيضين.

جاء في الإنجيل ان الله يقول لعباده يوم القيامة " أنا اشكركم " وسأعطيكم الهدية، لأني في حال مرضي جئتم لعيادتي وفي حال فاقتي جئتم لمساعدتي.

يقولون: متى كنت مريضاً، ومتى كنت بائساً.

يقول: حينما ساعدتم العباد، وحينما قمتم بعيادتهم.

و بهذا المضمون جاءت الروايات الإسلامية أيضاً.

و مولانا له أبيات بهذا المعنى أيضاً. وفي دلالة على أن الناس يتقربون إلى الله لدرجة أن عيادتهم للمريض كأنها عيادة لله، وهذا ليس قرباً مجازياً بل حقيقياً.

إذن نحن مشبهة ومنزهة في الوقت نفسه، ونقول بأفضلية الله على خلقه، وكذلك هو كالجالس على العالم بصورة الآكل والشارب، وكما يقول الحلاج:

سُبحانَ مَن أَظهَرَ ناسوتهِ   سِرّ سَنا لاهوتِه الثّاقبِ
حتّى بَدا في خَلقِهِ ظاهِراً   في صُورةِ الآكِلِ والشّارِبِ

الوحي الذي أتحدث عنه هو غليان ذات النبي، وأن النبي قد امتلأ من الله لدرجة أن كلامه في حكم كلام الله، وهذ الامتلاء ليس مجازياً بل حقيقي. بمعنى أنه حقيقة مظهر أوصاف الله، وبالطبع ليس المراد أن النبي في طول عمره كان على حالة واحدة، وأنا قد يبتلى بالقبض والبسط، أحيانا يكون خالياً وأخرى ممتلئ، لكنه في حال الوحي يكون مليئاً بالله قطعاً، لأن قطعة الحديد في كورة النار تأخذ من صفات النار، وهذا ليس تشبيهاً وإنما ذوبان في كورة الالوهية.

(1) فصوص الحِكَم، فص كلمة نوحيه

إذن كلامي في الجمع بين التشبيه والتنزيه، والذهاب إلى أعلى من تلك المذهبين، وهو شبيه Aufhebung هيجل، وشيء شبيه بأبن عربي، وشيء من قصة الذريان في كوة الألوهية لمولانا جلال الدين [1]

فرامرزي: أشكرك جداً لمشاركتك في هذا الحوار

(1) المولوي، المثنوي، الدفتر الثاني، الأبيات ١٣٤٩، ١٣٥٣، ١٣٥٦



الملاحق

الاعتراض الأول للشيخ جعفر سبحاني على كلام محمد ﷺ

تمهيد:

بلغت عداوة الغرب للإسلام ذروتها، بعد أن حمل الإعلام الهولندي لواءها بالأمس ليدفعه اليوم إلى الإعلام الدانمركي، فيبلغنا أن البلد الأخير قد نهض بأعباء مناهضة الإسلام من خلال الفن التشكيلي، ويسعى إلى تشويه صورة النبي والقرآن أمام الرأي العام من خلال الرسوم الكريكاتيرية وعرض الأفلام.

في مثل هذهِ الظروف والأوضاع قرأت حواراً للسيد عبد الكريم سروش نُشر على موقع " آفتاب " بتاريخ ٣ فبراير ٢٠٠٨ نقلاً عن راديو هولندا القسم العربي، والترجمة الفارسية لهذا الحوار.

لا أستطيع القول من دون دليل قاطع أن ما قرأته في هذا الحوار يمثل رأي الدكتور سروش، إلا أنني أستطيع أن أعتبر سكوته وصمته إزاء هذا التقرير ذنباً لا يغتفر.

ففي الظروف التي شمر فيها ملاحدة الغرب عن سواعدهم لمحاربة الإسلام وتهميش المسلمين يصدح شخص عاش في الأوساط الإسلامية، وترعرع بين العلماء والمفكرين، ولطالما كان كلامه زينة الإعلام الإيراني، بكلام مفاده أن القرآن الموجود بين أيدينا هو صنع النبي، وقد تفتق عنه ذهنه.! وإنّ النبي كان له الدور المحوري في إيجاد القرآن.

لقد أرسلت رسالة مفتوحة للسيد سروش نوهت فيها إلى شطحاته في مسألة الإمامة والخلافة، وطالبته مرة أخرى بالعودة إلى أحضان الأمة الإسلامية، وخاصة العلماء والحوزات العلمية، وليعلم أن هذا النوع من الضوضاء والضجيج سريع الزوال،

فهو كزبد الأمواج التي تتكسر على رمال السواحل، ثم تضمحل ولا يبقى منها أثر، ولا يبقى غير الحق والحقيقة.

وكنت أتصور أن تلك الرسالة الأبوية ستؤثر فيه ؛ إذ أعرب الذين قرأوها عن إعجابهم بها، إلا أن حواره الأخير قد زاد من حزني وأسفي، وأخذت أفكر في مدى سعة هوّة الانحراف لدى هذا الشخص، وكونها آخذة في الاتساع يوماً بعد يوم، وطفقت أتساءل سبب ذلك، مع أنه ربيب الحوزة والجامعة - وبرغم صباحة وجهه وعذوبة بيانه، وقد كان مدرساً لنهج البلاغة مدة طويلة- عن وكان يفسر خطبة همام بأسلوب مؤثّر وأخاذ، فما الذي أصابه يا ترى حتى يبتعد عن هذهِ المجموعة كل هذا البعد.

إلا أنني سأتجاوز هذهِ المقدمة، وأبقي على بوابة الأمل في صلاحه مفتوحة على مصراعيها، من خلال كتابة هذهِ الرسالة، ونقد أفكاره، عسى أن يقرأها، ويعود إلى أحضان الإسلام.

مذهب الشك أو السفسطة

ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد في اليونان القديمة جماعة تقول بمذهب الشك في كل شيء، حتى في وجودهم، وأخذوا يشيعون أفكارهم وعقائدهم الغريبة، وقد سيطر الفكر السفسطائي على الذهنية اليونانية ردحاً من الزمن، حتى تم القضاء عليه بعد ذلك من قبل الحكماء والعلماء الكبار، كسقراط وأفلاطون وأرسطو، حيث أظهروا المغالطات التي كانت تنطوي عليها أدلتهم، وتمكنوا من تدوين المنطق وتنظيم الفكر على أسس واقعية.

ورغم الخدمات الجليلة لهؤلاء الاعلام للفكر البشري إلا أنه سرعان ما تحوّل إلى مذهب آخر وهو مذهب "اللاادرية " على يد بيرهون (٣٦٥- ٢٧٥) وتحول مذهب إنكار الواقع إلى مذهب الشك المطلق، إلا أن هذا المذهب لم يكتب له الدوام طويلا ورحل في ذمة التأريخ.

إن لفلاسفة الإسلام، كالشيخ الرئيس، ومن بعده صدر المتألهين، كلاماً جميلاً في هذا الشأن، يمكن للراغبين مراجعته في كتابنا " نظرية المعرفة في الفلسفة الإسلامية".

وقد ظهر مذهب التشكيك في الانبعاثة الغربية التي حدثت مؤخراً، متخذة هيئة علمية، وقد تجلت هم مجموعة من فلاسفة الغرب - بدلاً من رفع بناء الفلسفة الرصين - في تقويض هذا البناء ثانية، وكان كلّ ما أبدعوه هو الحديث بشك وترديد، وكما قال السيد فروغ لم يبلغ إبداع الفلاسفة الإنجليز إلا أن حطموا صرح الفلسفة الرفيع الذي كان قائماً، دون أن يضيفوا شيئاً جديداً.

لا جدال في كون الشك معبراً إلى اليقين، فما لم يشك الإنسان لا يصل إلى اليقين، إلا أن الشك إنما يكون مرغوباً فيه إذا كان قنطرة موصلة إلى اليقين، وأن يكون ممراً لا مقرّاً، ولكن للأسف الشديد يبدو أن الشك عند هذهِ الجماعة قد أضحى مقراً، ولم ينظروا إليه كممرّ.

والآفة الأخرى الناتجة عن هذا النهج التشكيكي تكمن في طرح النظريات دون إقامة أدنى دليل أو برهان عليها، وكلما قيل لهم

ما هو دليلكم على ذلك؟

يقولون

I think

أنا أفكر

ولكن سؤالنا هو:

لماذا تلجؤون إلى مثل هذا التفكير؟

وإذا قيل لهم هاتوا برهانكم:

يغدو السؤال محظوراً

الشيخ الرئيس:

كلما قبل شخص كلام آخر من دون دليل يكون منسلخاً عن الفطرة الإنسانية، ولكن للأسف الشديد يبدو أن هذا الداء - التنظير من دون دليل - ومن خلال الخطب الحماسية أخذ في الاتساع تدريجياً، في حين أن منطق القرآن يقول: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم﴾.

لقد أبدى السيد سروش في بحثه السابق - بحث الإمامة والخلافة- جفاء بالنسبة للأئمة، إلا أنه تمادى في بحثه هذا بشكل أكثر، حيث تطاول على حريم الوحي والقرآن، وأنا أسأل الله أن يقف عند هذا الحد، ولا يتمادى أكثر فيعرض سعادته الأخروية - وهو يريدها قطعاً- إلى الخطر.

خلاصة نظرية:

الحقيقة أنه وقع في بيان نظريته في الاختلاف والتناقض، ولم يتمكن من لملمة أطرافها وحصرها في نقطة واحدة، كما يقول المثل: يضرب النعل بالمسمار، حتى إذا تم الاعتراض على نقطةٍ أمكنه المحيص عنها، وهنا ننقل كلامه في عدة نقاط:

١- تجربة كتجربة الشعراء:

يقول الدكتور سروش: إن الوحي إلهام، وهو نفس التجربة التي يتلقاها الشعراء والعرفاء، وإن كان النبي يحصل عليها بمستوى أعلى، وإننا نفهم الوحي في عصرنا المتطور من خلال الاستفادة من الاستعارات الشعرية، وقد ذكر أحد فلاسفة المسلمين أن الوحي أعلى درجات الشعر.

تحليل:

إن هذهِ النظرية ليست نظرية جديدة، فهي نفس ما كان يقوله المشركون في مكة بشأن تفسيرهم لظاهرة القرآن، حيث كانوا يقولون: كما يخلق امرؤ القيس المعاني والألفاظ في ضوء الإلهام كذلك يصنع مُحمَّد، حيث يصوغ الألفاظ والمعاني، ومن المؤكد أن مرادهم من الشعر ليس هو الشعر المنظوم، بل هو ما يتوصل إليه الإنسان ويتخيله عن طريق التفكير، سواء أكان في قالب النظم أو في قالب النثر، والقرآن الكريم ينقل هذهِ النظرية عنهم وينتقدها ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾(1) وكذلك يقول ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾(2).

---

(1) الصافات:٣٦

(2) الطور:٣٠

و أحيانا يفسرون القرآن بأحد طرق ثلاثة تنتهي بأجمعها إلى غاية واحدة، وهي أن القرآن من بنات أفكار النبي، فيقولون حيناً: إنها أحلام ومنامات، وتارة: إنه متقوّل على الله، وتارة أخرى: إنه شاعر صاغ تصوراته في قالب القرآن ﴿بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أحلام بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ (1).

و القرآن في نقد تلك الاقوال يقول: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ (2) وفي آية أخرى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾(3)

لقد صنف المشركون النبي في عداد الشعراء، وإن النظرية التي نناقشها هنا ليست سوى صدئ لما كان يردده المشركون، وإن كان قد عبر عنها بكلمات أسمى، إلا أن منشأ القولين واحد.

ولو أنه قال: إن الشعراء كانوا يستلهمون أفكارهم من أنفسهم، في حين أن النبي يستلهمها من المقام الربوبي، لكان حمل المتعاطفين في كلامه من باب عطف المتباينين، وقد ثبت في محله أنّ عطف المباين على المباين مُخلٌّ وقبيح.

وإذا أعرضنا عن ذلك نتساءل عن دليل هذهِ النظرية؟ هل هناك شاهد عليها؟

للأسف فإن هذا الحوار بأجمعه عبارة عن سلسلة من التصورات والمفاهيم غير المدعومة بدليل يثبتها، فلو كان القرآن في حقيقته مجرد خيال شعري، وإن كان على مستوى أعلى، فما معنى تحديه ولو بالإتيان بسورة واحدة مثله؟ فأي شاعر تحدى الآخرين طوال حياته الشعرية وأعجزهم أن يأتوا بمثل قصائده إلى يوم القيامة؟

وهنا يمكن القول أيضاً لصاحب هذهِ النظرية: إن التفسير الذي تقدمه عن القرآن لا يعدو في واقعه أن يكون نوع تجربة شعرية ليس إلا، أي إن نفسكم قد تفتقت عن هذهِ النظرية، وألقتها على صفحة الذهن، وأجرتها في مداد القلم وأطراف اللسان، دون أن يكون هناك واقع وراءها.

---

(1) نبياء:٥

(2) الحاقة:٤١

(3) يس:٦٩

فلو كان الشعر وما شابهه فاقداً لقيمة الخلود كان كلامك من هذا السنخ أيضاً.

٢- فرضية خلق النبي للقرآن وإبداعه له:

وقال في موضع آخر: إن الاستعارة الشعرية تساعد على توضيح هذهِ المسألة، فالنبي يستولي عليه نفس إحساس الشاعر، وإن هناك قوة خارجية تسيطر عليه، ولكن في الحقيقة فإن شخص النبي في تلك الحالة يمثل كل شيء، فهو الخالق والمبدع، ولا موضوعية للحديث في كون هذا الإلهام من الداخل والخارج؛ إذ لا تفاوت ولا تمايز على مستوى الوحي بين الداخل والخارج.

تحليل:

إن هذا الكلام يعني أن صاحب هذهِ النظرية يرى أن القرآن تجلٍّ لما يكمن في شخصية النبي الأكرم، وهو ما يصطلح عليه بالوحي النفسي، وإن أول من فسر الوحي بشأن الأنبياء من خلال تجليات الشخصية الباطنة هم القساوسة والمستشرقون في بعثاتهم التبشيرية، وأكثر من أثار الغبار حول هذهِ المسألة مستشرق يدعى " درمنغهام " حيث سعى من خلال محاولاته الصبيانية إلى التعريف بمصادر القرآن، وأن منها تجليات الشخصية الباطنية، وقد بيّن نظريته على النحو الآتي:

لقد أدرك محمد بعقله الباطن ـ أو بعبارة أخرى عصرية شخصيته الباطنية ـ خواء الشرك، ولكي يبلغ مقام النبوة جرّد نفسه لعبادة الله، وأخذ ينفرد في غار حراء متعبّداً حتى بلغ به الإيمان أعلى درجاته، واتسعت آفاقه الفكرية، وتضاعفت بصيرته، حتى غدا جديراً بتحمل أعباء النبوة وهداية الناس، فكان دائم التفكير حتى أيقن أنه ذلك النبي الذي اختاره الله لهداية الناس، وقد كان هذا الوعي يتراءى له وكأنه وحي من السماء ينزل عليه وأن ذلك الخطاب يبعثه الله إليه عن طريق جبرائيل (الوحي المحمدي:٨٦).

إن الذي يميز إحساس الشعراء عن إحساس الأنبياء، هو ذلك الأمر الذي لم يعترف الدكتور سروش بموضوعيته، فإن مصدر إلهام الشعراء ينبع من داخلهم، في حين أن مصدر إلهام الأنبياء ينزل عليهم من الخارج.

وإن الذين لا يمتلكون باعاً في المسائل الفلسفية والعرفانية لا يستطيعون التفريق بين هذين النوعين من الإلهام والإحساس، ولذلك كان المشركون في عصر رسول الله ﷺ؛ بسبب عدم قدرتهم على التمييز بين هذين النوعين من الإحساس، يتساءلون عن كيفية إمكان أن يلهم شخص من خارجه ويؤمر بهداية الناس؟ وقد عكس القرآن تفكيرهم هذا على النحو الآتي: **﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾**[1].

لقد كانت للمناوئين في مواجهة الوحي المحمدي عبر التاريخ توجيهات وتصورات، إلا أن ماهية هذهِ التوجيهات والتفسيرات الباطلة واحدة في جميع العصور، فالذي نشهده حالياً هو نفس التهم والشتائم والسفاسف التي كان يطلقها أبو جهل وأبو سفيان، ولكن بأسلوب عصري بعد إلباسها ثوب التحقيق العلمي.

٣- المفاهيم من الله والالفاظ من عند النبي:

ذهب صاحب هذهِ النظرية في العبارات المتقدمة عن طريق الإجمال والتفصيل إلى أن القرآن من صنع النبي، وأن النبي هو خالق القرآن، إلا أنه قال في هذا الحوار نفسه في موضع آخر: كما أن النبي خالق للوحي بنحو آخر، أي إن الذي يتلقاه من الله تعالى هو مضمون الوحي، إلا أنه من غير الممكن نقل هذا المضمون إلى الناس؛ لكونه فوق مستوى فهمهم، بل هو فوق الكلمات، فالوحي لا صورة له، ومسؤولية النبي أن يعمل على تصوير هذا المضمون ليضعه في متناول جميع الناس.

فهو يعتبر أن المفاهيم والمعاني صادرة من عند الله، إلا أن الشكل والصورة والألفاظ والكلمات من صنع النبي، وبذلك ينكر شطراً من إعجاز القرآن المتمثل في جماليه الألفاظ ومتانة التعبير.

---

(1) يونس: ٢

وعليه يكون القرآن عملاً مشتركاً بين الله والنبي، وكأنّ القرآن شركة استثمارية، يكون فيها التمويل على الله، والتسويق على النبي الأكرم. والعياذ بالله ..

وهنا نتساءل: أليست هذهِ النظرية أدنى من النظرية الأولى؟ ففي تلك النظرية كان كل شيء ينسب إلى رسول الله، سوى رابطة ضعيفة مع الله، ولكن هنا توجد مشاركة لا صورة لها من قبل الله، وصياغة وتصوير من قبل النبي!

وكذلك ينبغي أن نسأل: ما هو دليلكم على هذهِ المشاركة؟

الله القادر على إنزال المفاهيم هل يعجز عن تصويرها وصياغة قوالبها اللفظية؟

مضافاً إلى ذلك فإن القرآن يشهد على خلاف هذهِ النظرية، حيث أمر النبي مراراً أن يقول: **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾**، أي إن المفاهيم والصور كلاهما من عند الله.

٤- شروط التأثير التاريخي في حياة النبي في بناء القرآن:

يذهب صاحب هذهِ النظرية حيناً إلى أن النبي قد أبدع القرآن بشكل مستقل، ويقول: انه تولى كل شيء، وكان له دور محوري؛ وتارة يقول: كان هناك نوع من المشاركة بين الله والنبي؛ ويحاول القول تارة أخرى: إن الظروف التي حكمت حياة النبي أنتجت هذهِ المفاهيم والأفكار والمعاني.

بعبارة أخرى: يرى أن الزمان هو الذي أبدع القرآن الكريم، حيث قال: "لقد كان لتاريخ حياته وحياة أبيه وأمه، وفترة طفولته وصباه، وحتى حالاته الروحية، دور في إبداع القرآن، فإذا تلوتم القرآن تشعرون أن النبي كان في بعض الأحيان فرحاً طروباً وفي غاية الفصاحة، في حين تجدونه في أحيان أخرى مفعم بالضجر، ويلجأ إلى بيان مراده بكلمات عادية جداً، مما يعكس جانب الوحي البشري".

وهنا نقول: إنه يحاول من خلال هذا الكلام تعريف القرآن على أنه كتاب بشري مئة بالمئة، وأن النبي شأنه شأن سائر المؤلفين الذين يتأثرون في كتاباتهم بالظروف التي تسود حياتهم، وإذا كان ذلك صحيحاً فلماذا يؤكد الله تعالى على نفي ذلك، ولا يرى

تأثيراً لغير عامل الوحي في صنع القرآن ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى • إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى • عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾[1].

إنّ الحديث عن بشرية القرآن الكريم يتناقض ومئات الآيات القرآنية، ومنها:

١- ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾[2]

٢- ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[3]

٣ - ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[4]

٤ - ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾[5]

فبعد هذا البيان الصريح كيف نعده كتاباً بشرياً، وأنه من صنع الإنسان، هذا ولم يشك أحد في صدق النبي وأمانته.

استنتاجات ومعلومات خاطئة:

إلى هنا قمنا ببيان أصل نظريته، التي صّورها بأربع صور مختلفة، دون أن يدعمها بدليل، ونفس هذا التناقض خير شاهد على خواء هذهِ النظرية، وعدم قيامها على أي أساس.

ولديه أيضاً إلى جانب هذهِ النظرية سلسلة من الشطحات والكلام غير اللائق، نشير إليها بشكل عابر:

الصورة الأولى:

يقول الدكتور سروش: يذهب أكثر المفسرين المعاصرين إلى عصمة القرآن والوحي عن الخطأ في المسائل الدينية البحتة، كصفات الله، والحياة بعد الموت، وأسس

(1) النجم:٥٣

(2) النساء:٨٢

(3) إبراهيم:١

(4) يوسف:٢

(5) الأنعام:٩٢

العبادات، ويذعنون بإمكان خطأ الوحي في المسائل المتعلقة بهذا العالم والمجتمع الإنساني، وأن ما يقوله القرآن حول الوقائع التاريخية وسائر الأديان وسائر الموضوعات العلمية الأرضية ليس من الضروري أن يكون صحيحاً. ويستدل أكثر هؤلاء المفسرين بأن هذا النوع من الأخطاء في القرآن لا يضرّ بنبوّة النبي؛ لأن النبي إنما يتحدث بالمستوى العلمي الذي توصل له الناس في عصره، كما أنه يتحدث بلسان قومه.

وهنا أقول: إنه يستعمل كلمة " أكثر" ويتهم بها المفسرين المسلمين، فأيّ مفسر مسلم ذهب إلى إمكان خطأ القرآن في ما يتعلق بمسائل الحياة طوال هذهِ القرون الأربعة عشر؟

لا ينسب هذهِ الفرية إلى القرآن غير المستشرقين وأذنابهم، من قبيل: رئيس الفرقة القاديانية، والمتأثرين بهم، كبعض الكتاب المصريين.

مضافاً إلى أننا نسأل عن معنى التفريق في موارد الخطأ، فيقال بأن النبي في ما يتعلق بما وراء الطبيعة لا يقول غير الحق، ولا يرى سوى الواقع، وأما في ما يتعلق بالمسائل العينية والملموسة فيمكن أن يجانب الصواب والحقيقة؟ ولو تحدّث مفسر واحد حول آيةٍ له فيها رأي شاذ لا يكون كلامه دليلاً ساري المفعول وقاعدة كلية.

يعدّ القرآن الكريم علم النبي أعظم الفضائل الإلهية **﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾**(1)، فكيف يكون العلم الذي عدّه القرآن عظيماً قابلاً للخطأ في القسم الثاني من أقسام الوحي؟

الصورة الثانية:

التمادي في وصف علم النبي حينما يقول: لا أتصور أن علمه يفوق علم المعاصرين له في ما يتعلق بالأرض والكون والجينات الوراثية، ولم يكن لديه العلم الذي نمتلكه حالياً، ولا يضر هذا بنبوته، لأنه إنما كان نبيّاً، ولم يكن عالماً أو مؤرخاً.

وهنا نتساءل: ما هو دليلكم على أنه لم يكن على علم بهذهِ الأمور، وأن علمه بشأنها لم يتجاوز علم الجاهليين؟

---

(1) النساء:١١٣

لا نريد البحث هنا حول الإعجاز العلمي في القرآن؛ لأننا تحدثنا عن ذلك بالتفصيل في كتابنا " حدود الإعجاز " فقد كشف النبي الاكرم من طريق الوحي، وخلفاؤه المعصومون عليهم السلام كعلي عليه السلام في نهج البلاغة، والإمام السجاد عليه السلام في الصحيفة السجادية، النقاب عن سلسلة من الحقائق العلمية التي لم يكن بإمكان الناس في ذلك العصر وما بعده حتى تصورها، فمن عدم الإنصاف أن ننكر جميع تلك الحقائق العلمية الواردة في تلك الكتب، ثم نعتذر بأنه إنما كان نبيّاً ولم يكن عالماً، وكان رسولاً ولم يكن مطلعاً على الأسرار!

اتهام المعتزلة:

وقد حاول صاحب هذهِ النظرية القائلة بأن القرآن من صنع النبي أن يعثر لنفسه على شريك يحمل عنه وزر هذهِ الفرية، فلم يجد غير المعتزلة، فقال: إن الاعتقاد بأن القرآن نتاج بشري، ويمكن عليه الخطأ بالقوّة قد جاء التلويح به في عقائدهم.

وأقول: إن المعتزلة رغم انقراضهم، وعدم بقاء شخصية علمية بارزة منهم، إلا أن كتبهم بمتناول الجميع، وحاشا هذهِ الفرقة أن تقول بخلق القرآن بمعنى كونه من صنع النبي.

ولقد تم طرح هذه المسألة أول مرة في القرن الهجري الثاني من قبل النصارى في البلاط العباسي، حيث أثاروا مسألة كون القرآن حديثاً أو قديماً، فذهبت جماعة إلى قدمه، بينما ذهبت جماعة أخرى إلى حدوثه.

فقال المحدّثون بقدم القرآن.

وقال المعتزلة بحدوثه؛ إذ لا قديم بالذات سوى الله، وجميع ما سواه حادث، ومنها القرآن؛ لأنه فعل الله، وفعله لا يخرج من دائرة الحدوث.

وإذا قالوا بكونه مخلوقاً فبمعنى أنه مخلوق لله، لا أنه مختلق، وأنه من صنع بنات أفكار النبي، ولذلك أصرّت رواياتنا على عدم وصف القرآن بالقدم أو الحدوث؛ لما في القدم من شائبة الشرك، ولما في وصفه بكونه مخلوقاً من محذور إساءة الاستفادة والذهاب إلى اختلاقه، وأنه من صنع النبي، ولذلك كان المشركون في عصر رسول الله

ﷺ يستخدمون هذا التعبير ويقولون: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾[1].

إتهام المولوي والعرفاء:

ولكي لا يبقى وحيداً أيضاً لجأ إلى مولوي وقال: إن القرآن مرآة ذهن النبي، والدارج في صميم كلام مولوي أن شخصية النبي وتغيّر أحوالها وأوقاته السعيدة والعصيبة منعكسة بأجمعها في القرآن.

وأقول: من السهل أن تنسب شيئاً إلى شخص، ولكن من الصعب إثبات ذلك، ففي أي بيت ورد ما استفاده الدكتور سروش؟

والحال أن المولوي مئات الأبيات الشعرية التي تتحدث بصراحة على خلاف ما يقوله سروش، ومنها ما مضمونه: ما إن نزل القرآن حتى وصفه الكافرون بأنه من الأساطير، في حين أنه كان جارياً على لسان النبي، ولكن من قال: إنه ليس من الحق فهو كافر.

تحديد وظيفة المسلمين:

وفي ختام كلامه يتوجه إلى المسلمين ويحدد لهم وظيفتهم، ويقول: إن واجب المسلمين حالياً أن يترجموا جوهر القرآن بما يتناسب واختلاف الزمان.

وسؤالنا: بعد أن ذهبتم إلى كون هذا الكتاب بشرياً وقابلاً للخطأ، فما هي الضرورة إلى ترجمته وتفسيره؟

وما هي ضرورة التستر على هذهِ الأخطاء؟

كما إنكم بتعريف القرآن بوصفه كتاباً بشرياً يحتمل في حقه الخطأ قد انسلختم عن المجتمع الإسلامي، وعليه لا نرى حاجة لنصائحكم، فالذي يجوز له أن ينصح هو

(1) ص:٧

الداخل في ربقة المجموعة، وأما الخارج عنها فلا يصلح لقيادتها ونصحها ووعظها.

وفي الختام أكرر القول بأنني قد كتبت هذهِ الرسالة والحزن والألم يعتصرني بشدة، ولكن مع ذلك آمل أن لا يكون هذا الحوار قد جرى مع الدكتور سروش، وأن لا يكون ما ورد فيه قد صدر عنه حقيقة، أو نتمنى في الأقل أن يكون المترجم أو المترجمون قد اخطأوا في ترجمتهم، وفي هذهِ الصورة عليه أن يقوم برفع الشبهات لتعود المياه إلى مجاريها، وأطلب من صاحب النظرية مراجعة كتابنا " نقد بيست وسه سال " حول الوحي النبوي والشبهات التي أثارها المستشرقون وأذنابهم حوله، فقد أثبتنا فيه بوضوح أن جميع هذهِ الشبهات المنمقة تعبير آخر عن الشبهات التي أثارها المجتمع الجاهلي، فالمحتوى واحد والأسلوب مختلف، والفارق بينهما أن العربي الجاهلي في عصر الرسالة لبساطته كان يطلق الشبهة عارية صريحة، في حين أن المتجددين يمنحونها صبغة علمية، ويقدّمون السراب بوصفه ماءً!

جعفر السبحاني

٢٥ فبراير ٢٠٠٨

الاعتراض الثاني للشيخ جعفر سبحاني على كلام محمد

سماحة العالم والدكتور المحترم السيد سروش، بعد التحية والسلام.

وصلتني رسالتكم والمقابلة الثانية التي نشرت في بعض الصحف، وللحيلولة دون الوقوع في الخطأ في الحكم عمدت إلى قراءتها مرتين بدقة، فوجدت من الضروري التذكير بسلسلة من الأمور، على أمل أن تدققوا وتتدبروا فيها.

لاشك في أنكم عند عودتكم إلى إيران من لندن في مستهل الثورة الإسلامية قد تركتم آثاراً مباركة وبناءة، وقد حظي كتابكم " نهاد نا آرام " الذي بينتم فيه الحركة الجوهرية بأروع أسلوب بقيمة عالية.

وكذلك كتابكم الآخر " دانش وأرزش " حيث أثار عاصفة بين عشاق المسائل الفلسفية والكلامية.

كما كان لتدريسكم نهج البلاغة أثر ايجابيٌّ من الناحية الأخلاقية، وكنتم على الدوام تفتحون لأنفسكم مكانة في قلوب الراغبين من الشباب وعلماء الدين.

وقد ذكر صديق لكم، لا أصرّح باسمه، أنكم حينما كنتم تدرسون في إعدادية العلوي قد اتخذتم دفتراً لتدوين الملاحظات اليومية، وإن صدر عنكم تركاً لما هو أولى سارعتم إلى تدوينه في ذلك الدفتر كي تعملوا على تكفيره لاحقاً، وهكذا كنتم تعملون بوصية علماء الأخلاق في ما يتعلق بالمشارطة والمراقبة.

وعليه لابد من البحث عن سبب تحول ذلك القرب وتلك المنزلة بعد مدة، وانحدارها في قوس النزول.

إن إقبال جموع الشباب نحوكم يوماً، وتفرق الأصدقاء والأحبة عنكم في يوم آخر ظاهرتان لا يمكن حدوثهما دون سبب أو علة:

١ - إن أصدقاءكم إنما بدأوا بالابتعاد عنكم شيئاً فشيئاً حين صدعتم بمسألة القبض والبسط في الشريعة، وطبعتم في ذلك كتاباً يشتمل على مئات الصفحات، مع أنني سبق وأن قلت لكم بأن هذهِ النظرية تتنافى مع الخاتمية ؛ وذلك أن الشريعة إذا كانت ثابتة والأفهام متغيرة لم يستقر حجر فوق حجر، ولما بقيت في الإسلام حقيقة يقينية، وأضحت جميع معطيات القرآن والسنة والعقل في مهب الريح، وعرضة للتغيرات عبر الأزمنة، وقد ذكرت ذلك في اجتماع مطوَّل في منزل السيد فاضل الميبدي، وبحضور صديقكم العزيز السيد رخ صفت، وسألتكم إعادة النظر في هذهِ المسألة.

٢ - إنّ عرض مسألة السبل المستقيمة، في قبال القرآن الكريم الذي لا يرى سوى صراط واحد **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾** (1)، عملت بدورها على توسيع الهوّة، وأبعدت جمهوركم عنكم.

٣ - وتعرضتم في يومٍ ما إلى مسألة الحسن والقبح العقليين واتخذتم موقفاً أشعرياً، حيث قلتم: يجب فهم الحسن والقبح من خلال الشرع دون العقل، ويكفينا في ذلك ما أقر القرآن أو السنة المتواترة حسنه أو قبحه، ولا حاجة لنا بعدها لتحسين العقل وتقبيحه.

وقد ألقيتُ في مؤتمر الفلسفة والحكمة ثلاث محاضرات حول الحسن والقبح العقليين، وقلت: إننا لو أنكرنا الحسن والقبح العقليين بشكل كامل فلن يكون بإمكاننا إثبات الحسن والقبح الشرعيين، لأن إحدى الاحتمالات هي أن يكون ما ورد في القرآن مخالف للواقع، ولا يمكن دفع هذا الاحتمال من القرآن نفسه للزوم محذور الدور والمصادرة، ومن هنا لابد من اللجوء إلى الحسن والقبح العقليين، فنقول: إن صدور الكذب من الله القادر الحكيم قبيح عقلاً، وعليه فكل ما قاله صحيح، وأذكر حينها أنكم أذعنتم بذلك.

---

(1) الأنعام: ١٥٣

٤ ـ وطرحت الخاتمية، ومرجعية الأئمة المعصومين عليهم السلام العلمية، وذهبتم إلى أن مرجعيتهم العلمية تنافي أصل الخاتمية، وقد أرسلت نقداً إليكم في هذا الشأن، وحتى الآن لم أحصل على ردّ منكم، وهذا كان من أسباب الفرقة أيضاً.

٥ ـ وها أنتم قد طرحتم مؤخراً مسألة تفسير الوحي على النحو الذي سيأتي، فزدتم في الطنبور نغمة، كما يقول المثل.

٦ ـ إن من أسباب الفرقة والابتعاد عنكم هو طرحكم للأفكار ذات الوجهين، والتي يفهم منها الموافق والمخالف أموراً مختلفة، ولو فرضنا صحة بعض النظريات التي صدعتم بها، وهي غير صحيحة عندنا، فهي مصداق لقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[1]

ونحن نعيش في عصر تكالبت فيه جميع عوامل الضلال واستهدفت إيمان الشباب من خلال الأقمار الصناعية والأفلام والإذاعات والأفكار المختلفة، فالمتوقع منكم في مثل هذهِ الظروف ـ وأنتم المتخرجون من إعدادية العلوي والتلميذ البارز الذي درس على يد الشهيد المطهري ـ اجتناب طرح الأفكار ذات الوجهين، التي تزعزع العقائد، وإذا كنتم لا تزالون تحتفظون بذلك الدفتر الذي كنتم تحملونه في أيام الشباب فاكتبوا ترك الأولويات هذهِ في هامشه.

فمثلاً: إذا كنا نقول: إن القرآن كتاب مُحَمَّد فالمراد هو أن القرآن كتاب الله الذي أُنزل على مُحَمَّد، بيد أنكم تقولون هذا الكلام، ثم تردفونه بما يخالف المراد المتقدم، حيث تقول: إن النبي كان له دور محوري في إبداع القرآن، أو إن حالات النبي من السرور والحزن تركت آثارها في كتابه، أو إن بعض آيات القرآن تفتقر إلى الفصاحة والبلاغة العالية، ويعود ذلك إلى حالات الشجرة التي جُنيت ثمارها!!

فهل يساعد هذا الكلام مهما قمنا بتوجيهه وتبريره على تعزيز إيمان الشباب؛ أو أنه يزعزعه؟

(1) الحديد: ١٣

وبرغم ذلك تذكرون هذهِ المسائل على عواهنها، ومن دون دعمها بدليل، وتتوقعون من أصدقائكم نفس الترحيب والانبهار السابق.

لنتجاوز هذهِ التنويهات المخلصة، ونرجع إلى المطالب التي أثرتموها في الحوار الثاني، والناظرة إلى نقدنا، لنناقش أهم ما ورد فيها:

١ - حقيقة الوحي في هذا الحوار:

بينت حقيقة الموحي في هذا الحوار في عدد من الجمل نذكر بعضها:

أ ـ إن القرآن ثمرة الشجرة الطيبة لمحمد، التي أثمرت بإذن ربها ﴿**تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾، وهذا هو عين نزول الوحي والتصرف الإلهي.

وقلتم في موضع آخر: إن مُحَمّد، الفاعل والقابل للوحي، بشر مؤيد ومطهر، ولذلك فإن الإناء ينضح بما فيه، ولا تثمر شجرته الطيبة سوى ثمرة طيبة.

وقلتم في موضع ثالث: وهذا معنى كون الوحي وجبرائيل تابع لشخصية النبي، وأن قوة خيال النبي تتدخل في مسار الوحي..، وأن الشخصية التاريخية لمحمد تتجلى في جميع مواطن القرآن الكريم.

وكذلك قلتم في موضع آخر: إنّ لنبي الإسلام موضوعية في مسار الوحي، ولا يؤخذ على نحو الطريقية، وهو بشر نزل عليه القرآن، وجرى على لسانه، وقد ورد كلا التعبيرين في القرآن. وكلا قيدي (النزول) و(البشرية) متنزلة في أعمق طبقاته، ومن دون الالتفات إلى هاتين الصفتين المهمتين لا يمكننا أن نقدم للوحي تفسيراً يقبله العقل.

تحليل:

نكتفي بهذا المقدار من كلماتكم، ومن ثمّ نذعن لتحكيم الوحي المحمدي (القرآن) ليقضي بصحة هذا التفسير المقبول عقلاً!!!

إن القرآن يرفض هذهِ النظرية بشدة، فهو لم يرَ موضوعية للنبي أبداً، ولم يعتبر كلامه ثمرة لشجرة النبوّة، بل إن الوحي القرآني يقول: إن كل ما نزل من القرآن هو من

زلال الوحي، لم تؤثر فيه أفكار النبي البشرية: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[1]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[2]، ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[3]، ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[4]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾[5].

فها هو القرآن يؤكد على أن الوحي الإلهي مصون من كل شائبة تشوبه، حتى لو كانت من قبيل الروحيات الطاهرة والمتعالية للنبي الأكرم (ص)، في حين أنكم تصرون على عكس ذلك: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾[6]

دققوا في عبارة ﴿مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ﴾، فلو كان القرآن ثمرة شجرة طيبة فإن الثمرة ستتأثر بالشجرة لا محالة، وعندها ستخرج من حالة الصفاء، ويمتزج الوحي الإلهي بصبغة بشرية.

ربما قرأتم حوار الكاردينال " جان يوس توفان " المسؤول عن حوار المسلمين في الفاتيكان، حيث قال: لا أجد نفسي مستعداً لإقامة حوار مع المسلمين؛ لأنهم يؤمنون بأصل لا نؤمن به، فهم يقولون: إن الوحي الإلهي نزل صافياً من المقام الربوبي على قلب رسول الله، ثم جرى على لسانه من دون تحريف.

وإنّ نظريتكم التي تعتبر الوحي الإلهي ثمرة الشجرة الطيبة لوجود النبي، وإن كان الزراع لهذهِ الشجرة هو الله، تؤدي بالوحي في النهاية إلى فقدان حالته الصافية، واتخاذه صبغة بشرية.

ألا يعتبر كلامكم هذا شبيهاً بكلام ذلك الكاردينال؟؛ حيث قلتم: إن أبسط تصور لذلك هو المزارع والشجرة، فالمزارع يضع البذرة في التربة، والشجرة تعطي الثمرة،

(1) الشورى: ٦
(2) يوسف:٢
(3) العمران:١٩
(4) طه: ١١٤
(5) الأعراف:٢٠٣
(6) النساء:٨٣

وإن الثمرة مدينة للشجرة في كل ما تحتويه من اللون والعطر والشكل إلى الفيتامينات والأملاح، والشجرة بدورها تتغذى من تربة خاصة ونور وغذاء وهواء خاص.

وإذا كان الوحي الإلهي ثمرة الشجرة الطيبة للوجود المحمدي، وكان لشخصيته حالة الفاعل والقابل، فما معنى التأكيد على عدم الاستعجال في حفظ الوحي ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(1).

فإذا كانت المعاني من الله والكلمات من النبي فما معنى هذا النهي عن العجلة في القراءة، والأمر باتباع جبرائيل في التلاوة؟ إن إمعان النظر في هذهِ الآيات يثبت أن الوحي ـ بما يشتمل عليه من المفاهيم والألفاظ ـ الذي يراه الحكماء الإلهيون نوعاً من التنزل من الغيب إلى الشهود قد نزل على قلب رسول الله، وجرى على لسانه، ولم يكن لأيّ شخص تأثير في فاعلية القرآن.

وعليه هل يصح القول بأن النبي كان له دور فاعلي في الوحي، وأن له موضوعية؟!

إن هذا النوع من النظريات، وإن تمّ أداءه بنية صادقة، يقدم ذريعة للذين ينتقصون من شأن الوحي، ليضفوا عليه بالتدريج صبغة بشرية، ومن ثمّ يطرحون آراءهم إلى جانب الوحي الإلهي، والانتقاص من منزلته.

إنكم تعتبرون التجارب الدينية للعرفاء متممة ومكملة لتجارب الأنبياء الدينية، وبذلك ترفعون الحواجز بين الوحي النبوي ووحي العرفاء، وذكرتم في كتاب " التجربة الدينية " أنّه لما كان الوحي تجربة دينية، والتجربة الدينية قد تحدث لغير الأنبياء، فإن هذهِ التجارب الأخرى ستعمل على إغناء الدين، وعلى مرّ العصور سيتسع الدين، ويأخذ بالتمدد، وعليه تكون التجارب الدينية للعرفاء متممة للتجارب الدينية للأنبياء، ويغدو دين الله أكثر نضجاً، ويحصل هذا الكمال في المعرفة الدينية، بل في الدين والشريعة نفسها.

---

(1) القيامة:١٦-١٩

وعليه فإن الدين الإسلامي بأصوله وفروعه قد تكامل عبر أربعة عشر قرناً نتيجة لامتزاج التجارب النبوية وتجارب العرفاء، أفهل يصحّ هذا الكلام؟ !

ومع كل احترامنا للعرفان والعرفاء فإننا نعتبر شطحات بعضهم على طرف النقيض من التوحيد القرآني، فهناك من العرفاء من يرى عالم الإمكان عين الله؛ إذ يقول: " الحمد لله خلق الأشياء وهو عينها " أو حيث يعتبر مولوي الواجب والممكن شيئاً واحداً قبل البسط، ثم حصل الانفصال بعد ذلك.

لا أرغب في الخوض في هذهِ الموارد، وإلا فإن التضاد بين التجربة النبوية ـ على حدّ تعبيركم ـ وتجربة العرفاء في بعض الأحيان أكبر من أن تسعها هذهِ الرسالة.

٢ . بشرية محمّد:

لقد أكد هذا الحوار . حتى في عنوانه ـ على بشرية النبي، الأمر الذي يثير دهشتنا، فهل هناك من ينكر كون النبي بشراً؟! ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ**﴾[1]

فهذهِ الآية تثبت ناحيتين للنبي: .

ا- بشر كسائر البشر

ب- إنه يوحى إليه.

والناحية الأولى يشترك فيها النبي مع غيره من أفراد الإنسان، ويمكن دراسة هذهِ الناحية من خلال الأسس المادية.

والناحية الثانية هي موضوع الوحي والجانب الغيبي، والذي لا يخضع للتقدير أو الدراسة بواسطة الأدوات المادية، فهو من مقولة الغيب التي لا يتسنى للإنسان إدراكها، وعليه الإيمان بها كما هي ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾[2]

يطرح القرآن مسائل على أنها من الغيب والشهادة، وهي وإن كانت بالنسبة إلى الله لا تخرج عن الشهود والشهادة، ولكنها بالنسبة لنا وللمحدوديات المفروضة علينا

(1) الكهف:١١١

(2) البقرة:٢

تنقسم إلى شهود وغيبة، فهناك من الحقائق ما يندرج تحت الغيب، ولا يمكن لعلمنا أن يدركه أو يناله، من قبيل: عالم البرزخ، والقيامة، والنبوة والوحي، مما يجب معرفته من خلال الصفات والآثار، دون الفصل والجنس أو بيان الكنه.

٣- الخطيب والمايكرفون:

لقد شبهتم اعتقاد المسلمين بالوحي، الذي يرونه صافياً غير مشوب بروحيات البشر، بالخطيب واللاقطة، حيث قلتم: إن الصورة التي تحملونها عن محمّد تشبه الخطيب واللاقطة أو مسجلة الصوت، فالخطيب يتكلم واللاقطة تنقل كلامه، أي أن النبي كاللاقطة، فهو محض أداة.

فنقول: حاشا أن نعتبر المقام الربوبي والرسالي بمنزلة الخطيب واللاقطة، بل نعتقد أن الله تعالى مرْسِلٌ، وأن النبي رسول، وإن بين هذهِ الرسالة واللاقطة بون شاسع لا يمكن معه تشبيه أحدهما بالآخر، حيث إن هذا الرسول ينبغي أن يطوي مدارج كمالية ومعنوية وروحية يحظى معها، مضافاً إلى شعوره المادي، بإذن برزخية تمكنه من سماع صوت جبرائيل، وعين برزخية يستطيع من خلالها النظر إلى صورة الملك، وأن يبلغ من الناحية الروحية مرتبة يشهد معها ـ رغم ارتباطه بعالم المادة ـ عالم الغيب دون خوف أو وجل، ويتلقى الوحي كاملاً دون أن يضيف عليه مقدار خردلة، ويبلغه إلى أصحابه، فهل هذا المنصب الرفيع والحساس مشابه لمهمة اللاقطة؟!

٤- التلقي النبوي وانتظار الوحي:

من الأدلة الواضحة على أن مسألة الوحي لم تكن ثمرة وجود النبي أنه كان يترقب الوحي، وقد استهزأ اليهود بالمسلمين وسخروا منهم بسبب توجههم إلى بيت المقدس، وهي قبلة اليهود في صلاتهم، ومع ذلك مكث النبي مدة ينتظر أمر السماء في ذلك، وأخذ لفترة طويلة يرمق الأفق الأعلى، ويقلب طرفه في السماء **﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ﴾**[1]

(1) البقرة: ١٤٤

وقد نقلتم عن أحد العرفاء الكبار أن النبي كان يُنزل جبرائيل، ونحن قد درسنا على يد هذا العارف الكبير أكثر من أربع عشرة سنة، وعملنا على نشر وطبع أفكاره العلمية، ولم أسمع بأنه قال مثل هذا الكلام، وعلى فرض قوله فلابد أن يكون في سياق يوضح مراده، وإلا فإن هذا العارف السالك، الذي أحدث هذه الثورة العظمى في العالم الإسلامي، لا يتحدث بكلام مخالف للقرآن، وقد قال تعالى عن الملائكة وأمر نزولها: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾(1)

وفي العام الهجري الثامن حصل لقاء بين مشركي قريش ويهود خيبر، ولما كان اليهود على علم بالشرائع السابقة فقد سألهم المشركون عن صدق النبي محمد في دعوته، فقال اليهود: اسألوه عن ثلاثة أمور، فإن أجاب عنها فهو نبي، وكانت الأسئلة الثلاثة تتعلق بأمر أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فلما سئل النبي' عن ذلك استمهلهم، وأخذ ينتظر الوحي ليطلعه على الحقائق، ولم يعمد من فوره إلى قطف ثمرة من شجرة وجوده، وقد نزل الوحي الإلهي في هذا الشأن على النحو الآتي: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾(2)

وقال بشأن السؤال الثالث: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(3)

أرى أن هذهِ الآيات التي تشهد بأجمعها على صحة نظرية عموم المفسرين كافية لإثبات مرادنا، ولذلك ننتقل إلى موضوع آخر.

٤- نبي وليس بعالم؟

لقد ذهبتم في كلا الحوارين ـ تصريحاً وتلويحاً ـ إلى كون الرسول نبياً، وليس عالماً.

وطبعاً فإن هذا من نوع الكلام الذي يحمل وجهين أيضاً، فعبارة " النبي " تفيد رفع المقام والمنزلة، وعبارة "ليس عالماً " تنفي إحاطته بالعلوم الإنسانية، وكأنكم لا ترون

(1) مريم: ٦٤
(2) الكهف: ٨٤
(3) الإسراء: ٨٥

في ذلك منقصة !!وهنا نقول: يتفق الجميع على نفي العلم عنه إذا كان بمعنى العلم الذي يحصل عليه الناس الاعتياديون، ولا يكون وليد فكره.

يطالعنا القرآن بأن الله قد علّم آدم الأسماء كلها، ولا شك في أن هذهِ الأسماء لا تعني الألفاظ والعبارات، وإنما المراد منها حقائق الأشياء ﴿وَعَلَّمَ آدم الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]

إذا دققتم في الضمائر الواردة في ﴿عَرَضَهُمْ﴾ وبِأَسْمَاء ﴿هَؤُلاء﴾ لوجدتم أنها تحكي عن أسرار تمّ عرضها على آدم، فتوصلّ من خلالها إلى حقائق الأشياء وأسرار الخلق، وعليه هل يصح أن نقول: إن خاتم الأنبياء وأشرف الرسل وأفضلهم لم يكن يعلم أبسط العلوم وحتى ما كان منها شائعاً في عصره؟

ثم نقلتم حديثاً من " فصّ الشيء " من فصوص الحكم بهذا المضمون: إن النبي منع الأعراب من تأبير النخل، فلما خرج ثمرها شيصاً أدرك خطأه، فقال: " أنتم أعلم بأمور دنياكم، وأنا أعلم منكم بدينكم ".

وقد ورد هذا الحديث في صحيح مسلم، وقد قام المحققون بنقده، وقد ناقشته في كتاب " الحديث النبوي بين الرواية والدراية "، وكأنكم لم تطلعوا عليه، فهل ينسجم مضمون هذا الحديث مع سيرة النبي؟

فلو فرضنا جدلاً أن مُحَمَّد صلى الله عليه وآله لم يكن نبياً، ولا عالماً، ولكن هل يعقل لشخص عاش في شبة الجزيرة العربية، وعماد مائدة الناس فيها هو التمر وثمار النخيل، وقد جرت عادة الزرّاع على تأبير النخل، حتى كانت ولا تزال من البديهيات عندهم، فهل يعقل جهل النبي بما كان أبسط العرب يعرفه، إن هذا شبيه بما لو نسبنا إلى سكان الأسكيمو الجهل بمعنى الثلج.

قال الإمام علي عليه السلام: " سلوني قبل أن تفقدوني " ولا شك في أن كلامه هذا مطلق، ولا يختص بعالم الغيب، فهل يعقل أن يكون علم أمير المؤمنين أوسع وأكثر

(1) البقرة: ٣١

من علم أستاذه ومن قام على إعداده وتربيته، حتى قال:" أنا مدينة العلم وعلي بابها " ما لكم كيف تحكمون؟

٥- إشكالية الفعل بين العلم الغيبي للنبي والمعرفة الدنيوية الشهودية:

إن كلامكم حول التكامل الروحي للنبي صلى الله عليه وآله بالنسبة إلى العوالم الغيبية، إذا لم يكن مبالغاً فيه، فهو في حدّ إثبات الكمال، فالنبي يبلغ مرحلة لا يدانيه فيها حتى جبرائيل نفسه، ويبلغ من القرب مقداراً لا يمكن تصوره، فكيف يمكن لمثل هذا النبي أن يتكامل في أمور الغيب على هذا النحو، إلا أنه عندما يتعلق الأمر بعالم الشهود وأدنى المستويات في العلوم الطبيعية والفلكية إذا هو يجهلها، ولا يرقى حتى إلى مستوى الجاهلي في علمها.

إن هذا التكامل ذو البعد الواحد من قبيل الطفل الذي يتكامل قلبه دون عقله وسائر أعضائه الأخرى، فلو صحّ أن النبي كان بمستوى الجاهلي في علمه فماذا يعني مضمون الآيات الآتية؟

وهل كان العرب في الجاهلية يدركون معانيها؟

١ - ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾. فهل كان الجاهلي يعلم بقانون الزوجية الذي يحكم عالم الطبيعة وجميع ذرات الكون؟

٢ - ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ**﴾

وهذه الآية تتحدث عن حركة الجبال في هذهِ الدنيا، وليس في يوم القيامة؛ بدليل قوله ﴿**صُنْعَ اللَّهِ**﴾، ومما لاشك فيه أن يوم القيامة وعالم الآخرة ليس عالم صنع، وهو اليوم الذي تتحطم فيه الجبال، وتكون كالعهن المنفوش، وربما تحدثتم حول هذهِ الآية في كتابكم " نهاد نا آرام"

٣ - ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ**﴾، فهل كان الجاهلي يعلم بتعدد المشارق والمغارب؟!

٤ - ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ فهل كان العربي في العصر الجاهلي مدركاً لهذا النوع من الخلق؟

إن هذهِ الرسالة تضيق عن ذكر الإعجاز العلمي للقرآن، وأتصور أن معلوماتك السابقة وافية وكافية في هذا الموضوع، ومع ذلك أنصحكم -في الأقل- بمطالعة كتاب " باد وباران في القرآن " لمؤلفه السيد مهدي بازرگان، لتدركوا كيف توصل إلى إثبات الإعجاز العلمي للقرآن من خلال هاتين الظاهرتين.

٦- قاعدة: ما من حادث إلا وهو مسبوق بمادة ومدة:

أشار الأخ العزيز في تلك المقابلة إلى القاعدة الفلسفية القائلة: " إن كل حادث مسبوق بالمادة والمدة " وبما أن الوحي حادث فهو غير مستثنى من هذه القاعدة، ولذلك لا يمكن عد الوحي مجرداً عن المادة والمدة،

وهذا الكلام بعيد من مؤلف كتاب " نهاد نا آرام " ؛ لان هذه القاعدة بشهادة البرهان والدليل وكلمات الحكماء من المسلمين، مثل: صدر المتألهين، والمحقق السبزواري، وغيرهما، تتعلق بالحادث المادي، ولا ربط لها بالمجردات، خاصة ما كان منها من مقولة العلم والمعرفة، بل وما كان أسمى من هذه الأمور، كالوحي الإلهي.

٧- معضلة تعارض القرآن والعلوم البشرية:

الأمر الآخر الذي ذكرته في المقابلة، وبحثته في كتاب " التجربة النبوية " مسألة عدم الانسجام بين ظواهر القرآن والعلم البشري.

وقد استحسنت التعبير بظواهر القرآن، وليس القرآن نفسه، وكان الأحسن لو عبرتم بعدم الانسجام بين فهمنا البشري للقرآن والعلم البشري.

أساساً لا يمكن أن يكون هناك أدنى عدم انسجام بين العلم والوحي الذي لا يتطرق إليه الخطأ، فإن بدا هناك تعارضٌ فمردّه إلى واحد من أمرين:

أولاً: . إن العلوم البشرية علوم تكاملية ومتغيرة، وإنها لم تكن أبداً ثابتة وصحيحة مئة بالمئة، وعليه فإن ما نعده اليوم علماً قد يتكامل غداً ويتغير، وينهار هذا التعارض الظاهري.

ثانياً: ـ إن فهمنا للوحي فهم منقوص، وإن هذا يؤدي إلى توهُّم التعارض، فمثلاً: تم في فترة ما طرح نظرية دارون في " أصل الأنواع"، الأمر الذي أربك في حينه البعض، وتصور أنها تتعارض وخلق آدم ؛ لأن هذه النظرية ترجع جذر جميع الكائنات الحية إلى كائن أُحادي الخلية، حيث تكامل هذا الكائن وتطوّر إلى أنواع، ولكن لم يمض طويل وقت حتى ثبت بطلان هذه النظرية، لتحل محلها نظرية " لدارونية الحديثة " ثم تحولت هذه إلى نظرية ثالثة هي نظرية " الطفرة " وكلها لم تعدُ طور النظرية، حيث لم تثبت علمياً!

والآن نعود إلى تلك الموارد التي وجدتم فيها عدم انسجام مع العلوم الحديثة، وربما هناك قبلكم من ذهب إلى ذلك أيضاً:

أ – مسألة السماوات السبع

تكلم المفسرون عن السماوات السبع، وبتعبير القرآن ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾.

ولكن ينبغي الالتفات إلى أن القرآن وإن تحدث عن السماوات السبع إلا أن الذي يمكن لنا رؤيته هي سماء الدنيا فقط، وعليه فإن السماوات الست الباقية خارجة عن نطاق رؤية الإنسان المعاصر ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾.

ولربما تطور العلم البشري في يوم ما لتتكشف لنا حقيقة هذه السماوات، مع العلم أنّ هذه السماوات في تمدد مستمر ومتواصل: ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

وعليه فإن عدم توصل العلم الحديث إلى معرفة السماوات الأخرى لا يصلح دليلاً على نفيها.

ب – المسّ الشيطاني

إن من المسائل التي يبدو فيها ظاهر القرآن غير منسجم مع العلم الحديث هو أن القرآن يعلل الجنون بمسّ الشيطان، وقد ذكرتم في هذا الشأن: إن آية الله الطالقاني يذهب إلى أكثر من ذلك، فيقول في كتابه " برتوي أز قرآن"، في معرض تفسيره لهذه

الآية ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾: إن اعتبار الجنون بسبب مس الجن والشيطان من معتقدات عرب الجاهلية، وقد تحدث القرآن بلغتهم، وهذا ما ذهب إليه بعض من المفسرين المعاصرين في العالم العربي.

وجوابه:

أولاً: إن الطالقاني ذكر في تفسير هذه الآية ثلاثة احتمالات:

١ . مس الجنون والتعرض للصرع وما ينشأ عنه من الاختلالات النفسية.

٢ . تسلل ميكروب إلى مركز الجهاز العصبي.

٣ . الوساوس والأوهام والأماني.

والذي يبدو من ظاهر كلام الطالقاني أنه يميل إلى الاحتمال الثالث، بشهادة العبارات التي ذكرها قبل التعرض لهذا الاحتمال، وإليك هذه العبارات:

" بما أن أكل الربا انحراف عن المسيرة الإنسانية والطبيعية فان المرابي يصاب بالتخبط الفكري والاضطراب النفسي...، وترسخ عنده نزعة الحقد والشك في الآخرين...، ويظل في جميع الأحوال قلقاً مضطرباً غير مستقر، وتظهر هذه النزعة على سلوكه وكلامه وحركات جسمه وقسمات وجهه ونظرات عينيه... ".

ظاهر هذه العبارات يدل على أنه اختار هذا الاحتمال، وعليه لا يصح القول بأن الطالقاني قد فسّر الجنون بما يتناسب ورأي العرب الجاهليين في ما يتعلق بالجنون.

ثانياً: لو سلمنا تدخل الشيطان والجن في مرض الصرع والاضطرابات العصبية والنفسية إلا أن هذا لا يتنافى ونسبتها إلى الأسباب الطبيعية؛ وذلك لأن تأثير الأسباب غير الطبيعية في الحوادث الطبيعية إنما يقع في طولها، وليس في عرضها، كما هو الحال بالنسبة إلى تأثير الإرادة الإلهية في ظهور الحوادث الطبيعية، وهو أمر لا يمكن إنكاره.

إن سماحتكم قد درستم على يد الشهيد مطهري، ومن المعلوم عندكم أن العلم البشري، أي العلم المستند إلى المختبر والتجربة، حقيق بالإثبات دون النفي، فيحق للعلم أن يقول: إن السبب الكذائي دخيل أو مؤثر في الجنون، ولكن لا يحق له نفي

تدخل الأسباب الأخرى، وليس من البعيد أن تكون الأسباب الغيبية دخيلة في بعض حالات الجنون.

قال العلامة الطباطبائي: " إن الآية، وان لم تدل على أن كل جنون هو من مسّ الشيطان، لكنها لا تخلو من إشعار بأن من الجنون ما هو بمسّ الشيطان... فالمتبقي من إشعار الآية أن للجن شأناً في بعض الممسوسين إن لم يكن في كلهم ".

وإذا تجاوزنا كل هذا الكلام نقول: إن الآية بمجملها غير واضحة الدلالة حتى يقال بعدم انسجامها مع العلم، أو القول بأن الوحي الإلهي قد تحدث طبقاً لثقافة الناس في تلك العصور.

ج- فكرة رجم الشياطين بالشهب

قلتم في كلامكم: " إن أستاذكم السيد مُحَمَّد حسين الطباطبائي في تفسير الميزان قال بصراحة تامة بالنسبة إلى استراق السمع من قبل الشياطين، وقذفهم بالشهب: إنّ التفسيرات التي قدمها جميع المفسرين القدماء؛ استناداً إلى علم الهيئة القديمة وظواهر الآيات والروايات، باطلة، وقد يثبت اليوم بطلانها على نحو يقيني ".

عجباً !فأيّ إشكال في كلام العلامة هذا؟

فهو لم يزد على القول بعدم صوابية فهم المفسرين في ما يتعلق بهذا الآية؛ إذ لا يمكن التعويل على الفهم البشري بالمطلق.

مضافاً إلى أننا قلنا: إن العلم يحق له الإثبات دون النفي، خصوصاً وأن مسألة قذف الشياطين بالشهب من المسائل الغيبية **﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى﴾**، وهذا الملأ الأعلى مجرد عن المادة، فيجب أن تكون الشهب المرصودة لمن يستمع لها متناسباً وشأنها، ولذلك قال العلامة من خلال الالتفات إلى هذه الكلمات: " ربما كان المراد من السماء بقرينة "الملأ الأعلى" هو عالم الملكوت الذي تسكنه الملائكة ".

نصائح أبوية

١ - ولدي العزيز لقد ذكرت في رسالتك ما ينيف على أربعين بيتاً من أشعار مولوي وغيره، وقد سعيت إلى تطبيق مقاصدك من خلال هذه الأشعار، ولكن ألم يكن من الأجدر بمن تخرج من إعدادية العلوي، وتتلمذ على يد مطهري، أن يرجع بشأن تحقيقه في حقيقة الوحي إلى القرآن نفسه، وأن يستنطق الآيات للوصول إلى حلّ هذه المعضلة؟

٢ ـ ذكرت في رسالتي: أنّ هناك أيادي تحاول توظيفكم لغاياتها ومآربها، ومرادي هو أن كلامكم يطرح في وقت شمّر الغرب فيه عن ساعديه للتشهير بالنبي الأكرم وشتمه، وإن مقابلتكم الأولى والثانية قد تزامنت مع نشر الرسوم الكاريكاتورية في الدانمارك، والتي تسخر من نبي الإسلام، ويسعى أحد الممثلين في البرلمان الهولندي إلى عرض فيلم يظهر القرآن قبيحاً في أنظار المشاهدين.

٣ ـ جاء في المقابلة قولك: " أرغب عند عودتي إلى إيران أن نعقد حواراً مباشراً مع الشيخ السبحاني في أجواء آمنة وهادئة إذا أمكن ذلك " وقد فرحت لهذا المقترح كثيراً، يؤيد ذلك البحث الذي كان لنا في منزل السيد فاضل ميبدي، والذي كنت أنا الداعي له، كما كانت دعوتكم لتفقد مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام بطلب مني، ولكنني أتجنب المناظرة إذا كان الهدف منها إظهار نفسي، وآمل أن نقيم بحثاً علمياً في المناخ الذي تفضلونه أنتم للوصول إلى الحقائق.

ذكرتم في خاتمة رسالتكم: " أرى من واجبي وما يمليه ضميري أن أطلب من سماحة الشيخ أن لا يسكت أمام الانحرافات العلمية والأخلاقية، وأن لا يقرّ له قرار إذا تعرض مظلوم لظلم ظالم، وأن يبقى وفياً للعهد الذي قطعه الله على العلماء، وأن يكون في ذلك أسوة للآخرين".

أليس في هذه الكلمات انتهاك لحرمتي، فمتى كنت معاضداً للظالمين والجفاة؟ !

لقد تجاوزت الثمانين من عمري، ومنذ أبصرت نفسي كنت قرين القلم والكتاب والتدريس والتبليغ، وكنت دائم التذكير بحديث النبي: " لن تقدّس أمة لم يؤخذ فيها للمظلوم حقه من الظالم غير متعتع ".

ولكن عليكم أن تدركوا أن الظلم الذي يتعرض له رسول الله والمسلمين ظلم لم يشهد له التاريخ مثيلاً، فمن جهة تعمد الدول الغاصبة والظالمة إلى مهاجمة الرسول الأكرم وتعاليمه الإنسانية، ومن جهة ثانية تهضم حقوق أتباعه وتصادر حقوقهم بشكل سافر.

فتعالَ نتعاهد على الوقوف إلى جانب المظلوم في هذه المواجهة، وأن نقارع الظلم لننتزع منه حقوق المظلوم، وأن ندافع عن المظلومين بكل فخر واعتزاز.

قم – مؤسسة الامام الصادق عليه السلام

جعفر سبحاني

احمد الكناني

ولد في بغداد عام ١٩٦٥

اكمل الإعدادية في بغداد، و مرحلة السطوح على مستوى الماجستير في جامعة المصطفى الإسلامية، و ابحاث الخارج في الحوزة العلمية – قم في الفقه والأصول عند الشيخ مُحَمَّد هادي ال راضي والشيخ مُحَمَّد باقر الايرواني والفلسفة الإسلامية عند الشيخ مُحَمَّد تقي مصباح اليزدي.

مقيم في استراليا منذ أواخر عام ١٩٩٩.

النتاجات :

- الذهاب إلى القاري، الأستانة الرضوية – مشهد ١٩٩٣.
- زاد المسافرين لابن أبي جمهور (تحقيق)، مؤسسة أم القرى بيروت ١٩٩٤.
- كاشفة الحال لابن ابي جمهور (تحقيق)، مؤسسة أم القرى بيروت ١٩٩٦م.
- معجم مخطوطات علماء الاحساء والقطيف، مؤسسة أم القرى.
- نظرة في البداية والنهاية لابن كثير، مركز أبحاث الحج قم ١٩٩٧.
- نظرة في منهاج السنة النبوية، مركز أبحاث الحج.
- نظرة في السنة والشيعة لرشيد رضا، مركز أبحاث الحج.
- نظرة في الوشيعة لجار الله، مركز أبحاث الحج.
- الإسلام في العقل الغربي، المركز العالمي للدراسات الإسلامية.
- دائرة العنف في التشريع الإسلامي، المركز العالمي للدراسات الإسلامية.

- دروس في ايات الاحكام (أبحاث الشيخ محمد هادي ال راضي في التفسير الفقهي).
- أحلام نبوية (تأملات في رؤية سروش لمفهوم الوحي) صدر عن دار امل الجديدة، دمشق، 2017.
- العمود الأسبوعي في صحيفة التلغراف الاسترالية.
- ترجمة هذا الكتاب: كلام محمد رؤى محمد، عبد الكريم سروش، 2021.

شوطًا طويلاً قطعته منذ خمسة وعشرين عاماً والى اليوم...
كان التصور في البدء ان كلام الله هو ذاته كلام محمد(ص) ، وبعد كثرة تأمل في كلام محمد في القرآن والحديث تجلّى لي ان الخطاب القرآني تشكّل على

آوامر القرآن ليست على مرتبة واحدة بمعنى انها صادرة من الاعلى الى الادنى ، وانما هي حوارات بين النبي و معاصريه ، مؤمنين وملحدين ، اهل كتاب او اميين .. حوارات هي من صميم المجتمع وتصوراته القبلية القديمة، وبلغة عربية نابعة من عمق التاريخ والثقافة العربية ذات قدرة واستيعاب خاص و محدود
و كذلك هي رؤى سمعية وبصرية استعراضية...
ولذا التعبير بوصفها رؤيا محمد اكثر انسجاماً من كونها كلام محمد او كلام الله

ينبغي قراءة النص القرآني على انه كلام محمد و صادر عن لسانه حقاً ونتاج عقله ومخيلته ، وقراءة القرآن بهذه الطريقة تعطي معنىً جديدا سيقلب الكثير من المجازات الى حقائق ويغيّر الكثير من المبهمات والشبهات ، من دون الحاجة الى زيادة تكلّف وتأويل ، اقلّها شبهة الجبر والاختيار .
معرفة الرؤى القرآنية ستوفر على قدماء المفسرين محاولاتهم في باب التأويل الذي فتحوه بجهد واجتهاد غير موفقيَن لحل المعضلات التفسيرية، وتوضّح

بسط التجربة النبوية كانت تسلسل منطقي للقبض والبسط النظري للشريعة، وحالياً كلام محمد رؤيا محمد هو استمرار منطقي لكليهما، وللتوضيح اقول : ان أهم فرضية ممكن من خلالها فهم وادراك كلام محمد هي فرضية الرؤى .
علاقة الرسول بالقرآن ونسبته اليه علاقة حضور الهي فعال و من وراء حجاب ، أما بالنسبة الينا فهي علاقة نشعر بوجود الرسول فيها اولاً ، وثانيا هناك انشطة آخرى نشاهدها من دون حجب و موانع ، وهذا الشي لايمكن ادراكه الا على القول

هذه الملاحظات المركـ ة والمخفية نوعاً ما سنوضحها في هذاالكتاب وليجد القار بعون الله فهماً صحيحاً و واضحاً لمعني القرآن الكريم ، وكل ميّسر لما خلق له ، والله ولي التوفيق

ISBN: 978-9922-9621-0-8